تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الأول

تأليف

الدكتور

احمد محمود الساداتي

الناشر

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت ٣٩٠٠٨٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين .

شبه القارة الهندية التى تضم اليوم دولتى پاكستان الإسلامية والهند الهندوكية [1] بدأ أظهر أدوارها التاريخية — على إجماع من المؤرخين — بالفتوحات الإسلامية ، وأخصها تلك التى توغل فيها الغزنويون ، ومن جاء من بعدهم ، بهذه البلاد منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا أحوال الهند وكشفوا عما كان بها من حضارات ومدنيات عريقة تقصوا أسسها وتفصيلاتها .

وتاريخ شبه القارة الهندية القديم ، فيما قبل فتوح المسلمين ، غالبيته الغالبة عموما يكتنفها الغموض الشديد . ولولا القليل منه

١ — لفظ هندوكى أو هندوسى — وهو معرب — غدا عند كتاب العربية المحدثين علما على أصحاب العقائد الهندية القديمة من سكان شبه القارة الهندية ، وهو ماذهبنا إليه فى هذا الكتاب .

الذى استشفّه المؤرخون من الكتب الهندية الدينية القديمة ، مثل الويدا والمهابهارتا ، ومن أكداس أساطير الهنود القدماء ، وماوصل إلينا من تدوينات جوّابى هذه البلاد فى الأزمنة الغابرة من أمثال السفير الإغريقى ميغاستين والراهبين الصينيين البوذيّين هيون تسيانغ وفاهيان، لظل ماضى هذه البلاد مجهولا إلى درجة كبيرة. ذلك أن آثارها وعادياتها القديمة، التى اكتُشفت حتى اليوم، لا تُعد فى الغالب ثبتا وثيقا مفصلا لماضيها على نطاق واسع نظير ما عند مصر واليونان.

والمسلمون الذين أسهموا فى حفظ تراث اليونان وزادوا عليه، هم أنفسهم الذين أظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذى اطلعوا عليه ، لفجر الاسلام ومطلع ضحاه ، فحبب إليهم الاستزادة بما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة(١) ودفعهم إلى طلبها .

صنع المسلمون ذلك ولم يكن قد مضى عليهم بالهند أكثر من قرن واحد من الزمان ، ولم يكونوا يملكون من أراضيها إلا

---

١ — Havell, E. B. The History of Aryan Rule in India — London n.d. p. 254-56 .

هذا ونتبه هنا الى أن تراث الهند كان بدوره قد تأثر بالثقافة اليونانية التى حملها الاسكندر المقدوني إلى هذه البلاد حين غزاها فأقام بعض قواده دويلات إغريقية بأطرافها .

ولاية واحدة صغيرة ، بالقياس إلى مساحة الإقليم الشاسعة ، هى السند التى كانوا قد دخلوها أواخر القرن الأول الهجرى .

أوغل المسلمون ابتداء من أواخر القرن الرابع الهجرى فى هذه البلاد ، فإذا بعلمائهم يقفون على ما عند الهنود من فنون المعرفة الكثيرة ، على نطاق واسع ، من أفواه المشتغلين بها من رجالهم بعد ما كانوا قد اطلعوا على قدر منها فى بطون كتبهم ، ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم بمخالطتهم ومسائلة كهنتهم ورُهبانهم ومناظرة فلاسفتهم . وكان إمام هؤلاء العلماء الأعلام جميعا العلامة أبو الريحان البيرونى العارف بلغات الهند . وفيما تركه من كتب قيمة عن هذه البلاد ثبت لذلك كله .

واستقر الفاتحون بعد قليل بالبلاد التى فتحوها ، فحُفظت بذلك أموال الهند وثرواتها عليها بعد أن كان الغزاة يحملون معهم الكثير منها إلى بلادهم .

واستعصى المسلمون على البوتقة الهنــــدية التى انصهر فيها السيث والهون وكل الغزاة الذين دخلوا الهندمن قبل . ليس هذا فحسب ، بل إن هؤلاء على قلة عددهم مالبثت عقيدتهم السمحة

الفنية - بمبادئها الإنسانية الرفيعة ونظمها الاجتماعية القائمة على المساواة التامة بين معتنقيها، والتي لا تعترف بنظام الطبقات - أن طفقت تجتذب إلى صفوفها ألوفا وألوفا من الهنود فى أزدياد متدرج، فهم اليوم بشبه القارة هذه يزيد عددهم على مائة المليون.

وما لبثت لغتهم وفنونهم أن صارت إلى لغات المسلمين وفنونهم فى الغالب[1]. ذلك أن الفاتحين كفلوا، بقوة عقيدتهم ومدنيتهم، دخول شعوب البلاد التى فتحوها فى ملتهم، دون إرهاق أو عنت، والإقبال على حضارتهم، بل والعمل على ازدهارها فى همة وعناية، على ما قال به المؤرخون المنصفون من غير المسلمين وفيهم الهنادكة.

والمسلمون بناة حضارات أينما حلوا ونزلوا. وفى طبيعة الإسلام أنه يدفع دائما بعجلة الحضارة والمدنية إلى السير من جديد فى كل بلد يدخله. وأصحابه حين توغلوا بالهند، ومعهم حضارتهم، التى كانت قد بلغت خارج هذه البلاد درجة عالية من الرقى، لم يهملوا أمر حضارة الهند وثقافتها، بل شغلوا بها وانهمك علماؤهم فى كل العصور فى النقل منها، حتى ترجموا أقساما من المهابهارتا نفسها سفر الهنادكة المقدس. وكان من بين السلاطين المسلمين

1 - اللغة الأوردوية، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشارا اليوم، هى من مشتقات لغات المسلمين، وتكتب بالحروف العربية.

من حض الهنادكة أنفسهم على الاشتغال بتراثهم القديم والكشف عن ماضى بلادهم، وبذل لهم فى ذلك العون والمساعدة.

ولا تجد حتى عند أشد المؤرخين الهنادكة كراهية للحكم الإسلامى إشارة واحدة إلى إحراق المسلمين لكتب الهنادكة وأسفارهم أو إتلافها.

ولئن كان المسلمون قد هدموا جملة من المعابد الهندوكية وحطموا مابها من أصنام، قضاء على الشرك والوثنية، ـ ولم يكن ذلك يحدث عادة إلا إبان الحروب وفى المدن الكبرى ليس غير ـ فإنهم لم يرغموا أحداً من الهنادكة فى الغالب على اعتناق ملتهم، فمن دخل فيها منهم كان ذلك دون إكراه أو عنت؛ فمارس الهنادكة، الذين بقوا على دينهم، طقوسهم الدينية فى حرية تامة، ولم يُمنعوا حتى من إقامة معابد جديدة لهم إلا فى أحوال قليلة. هذا كما أضطلع جملة منهم بوظائف الدولة، وتولوا إدارة شئون البلاد عموما إلا فى العواصم والمدن الكبري. وبلغ كثيرون ممن أسلموا منهم مناصب القيادة والوزارة.

وما عاناه عامة الهنادكة من بؤس وشقاء، فى بعض العهود، قد شاركهم فيه عامة المسلمين فى الغالب كذلك، حيث يتسم العصر

الوسيط بوجود هوات سحيقة فى الثراء ورغد العيش تفصل بين أرباب الدولة والتجار والعامة.

وهاهو ذا المؤرخ الهندوكى المعاصر إشوارى براساد يقرر صراحة بأن الحكم الاسلامى فى شبه القارة الهندية كان فيه الكثير من الخير، ويردُّ مايسمو به المجتمع فى هذه البلاد اليوم من الخصال الحميدة وماير وج فيه من رسوم وعادات راقية إلى تقاليد هؤلاء الفاتحين [1] ونفوذ الإسلام فى جميع نواحى الحياة الاجتماعية بها، ذلك النفوذ الذى يظهر أثره جليا فى تعاليم كبار المصلحين الدينيين الهنادكة أنفسهم من أمثال كبير و نانك الزعيمين السكيين المشهورين.

والمسلمون هم الذين وحدوا الهندستان فى دولة واحدة بعد أن كانت فى الغالب نهبا لملوك طوائف متقاتلين فيما بينهم على الدوام — وليس بخاف أن الخضوع لقانون واحد هو الركن الأساسى الذى يقوم عليه المجتمع — ونهضوا من بعد ذلك بهذه البلاد نهضة رائعة ظهرت آيات الإبداع الواضح فيها فيما خلفوه من آثار علمية وفنية وأدبية ومنشآت وعمائر عديدة فخمة نافعة.

والإسلام كان بالهند، وغير الهند من البلاد التى فتحها المسلمون،

---

١ — Prasad. Med. India. pp xxxvl.

دينا وحكما ومدنية ، دخل فى حياة الناس العامة والخاصة. وأدى توحيده بين شتى عناصر معتنقيه وعروقهم وحدبه على التآلف بين أفكار الأجناس والشعوب التى تدين به إلى أن تتولد فى نفوس أبناء هذه الشعوب ميول واحدة ظهرت واضحة قوية أكيدة فى مناسبات متعددة ، وكان أعظم مظاهرها تساندها جميعا فى مواجهة الاستعمار الأوروبى فى قوة وعزم يبشران بقرب استرداد العالم الإسلامى السابق بجده وعزته .

القاهرة ـ ضاحية المعادى
صفر ١٣٧٧
سبتمبر ١٩٥٧

أحمد السادانى

موضوعات الكتاب

«كلما تقدمت الحضارة وتنوّر الناس زاد عدد المسلمين، فيسفر عن لين تعصّب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإله واحد فى ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء النفوس بالتدريج أمام جلال الله وعظمته - حقاً إن فتح الاسلام للهند لمّا يتم، وهو سائر بطيئا صامتا على طريقه فلم يقف تقدمه سلطان انكلترا النصرانية..»

(من كتاب حضارة الهند لجوستاف لوبون)

الهند القديمة

جغرافية الهند

لم تكن الهند فى القديم هى شبه القارة المترامية الاطراف المتعارف عليها فى العصور الحديثة ، اذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حيناً ما فلا يُعرف به الا شُقة ضيقة من الأرض، او يتسع اتساعا كبيرا حينا آخر فيشمل رقعة واسعة من جنوب القارة الآسيوية .

واختلف الناس فى منشأ تسمية هذه البلاد فمنهم من نسبها الى الإله « إندرا » إله الهند القديم ، ومنهم من ردها الى السِند الذى كان يعرفه الفرس القدماء باسم «هِند هو» اى النهر ، جريا على عادتهم فى ابدال السين السنسكريتية بالهاء ؛ وكان نفوذهم قبل غزو الاسكندر قد عم الجزء الغربى من هذه البلاد وتوغلوا فيه .

وهؤلاء الفرس هم الذين اطلقوا كذلك اسم الهندستان (اى ارض الانهار) على الشمال باكمله من هذا الاقليم.

وشبه القارة الهندية، التى تضم اليوم جمهوريتى پاكستان والهند،

هى كتلة بالغة الضخامة من اليابس تصل مساحتها الى المليونين من الاميال المربعة ، اى بما يزيد على نصف مساحة القارة الأوربية ، فيها تمثيل كامل لمختلف عروق الانسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد . وفيها انواع الأجواء المتباينة من الصقيع القطبى وثلوجه بالهملايا ومرتفعاتها بالشمال الى قيظ المناطق الاستوائية وشواظها باقصى الجنوب . وفيها كذلك من صنوف الحيوان والطير والنبات والمعدن ما يصلح لأن يكون اجمالا لما بالعالم كله منها . فهى فى الحق دنيا قائمة بذاتها قد عزلها عن بقية اليابس الآسيوى امنع متراس اقامته الطبيعة بين بلدين وهو جبال الهملايا الهائلة التى تعرف بسقف الدنيا . وبهذه الجبال الشامخة مسارب تجارية ضيقة تنفذ الى التبت وبلاد التركستان ولكنها لا تصلح لمرور القوافل الكبيرة .

والحدود الشرقية للهند جبلية كذلك ، وتتمثل فى جبال آسام ، وبها بعض المسالك التى تصل ارض الهند بالصين الغربية وشرقى آسيا .

وتمتد فى الغرب جبال الهندكوش من الشمال حتى البحر جنوبا . وتخترقها بدورها كذلك مسالك تصل إلى التركستان واواسط آسيا

عبر بلاد الأفغان ، والى إيران عبر بلوخستان . وعن طريقها نفذ الغزاة والمهاجرون،آريون واغريق وهون وسيث وفُرس وأتراك ومغول ، الى شبه القارة الهندية ، فلم يظهر طابعهم قويا إلاّ فى الشمال والشمال الغربى منها ، حتى أصبحت هذه الاجزاء التى تعرف باسم الهندستان تغاير فى ثقافتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية نظائرها فى الوسط والجنوب .

وكان مما صد حضارة الشمال عن التسرب جنوبا ووقف حائلا فى وجه الغزاة تلك الوهدة الضيقة العميقة التى تتوسط شبه القارة ممتدة من الشرق الى الغرب عند شمال الدكن ، وتقع فيها جبال الوندهايا وتلال ساتپورا مع نهر نربدا .

وفيما عدا ما ذكرنا من حدود جبلية لشبه القارة الهندية فالبحر من حولها محيط .

وفى شمال الهندستان يجرى كذلك اعظم انهار الهند وهما السند والكنج اللذان يستمدان ماءهما من ثلوج الهملايا .

والهنادكة يقدسون مجارى المياه قاطبة لما تهبه لهم من خيرات ونعم . ونهر الكنج هو اقدسها جميعا عندهم حتى ليتطهروا بمائه كل يوم . بل انهم ليلقون بجثث موتاهم فيه تبركا ما أفلتوا من الرقابة . وطوبى لمن يكتب له منهم الحجيج الى منابعه العليا المقدسة .

واكبر روافده هما جمنه وبراهمابترا ؛ وبنهيراته الاثنى عشر التى تؤلف دلتاه يصيب اقليم البنغال خصبا عميما .

ولئن كان الكنج هو أقدس الانهار عند الهنادكه فإن السند بأمياله الألف أطولها جميعا . وروافـــده الخمسة ، وهى ستلج وجيناب وبياس وجهلم وراوى ، قد عُرِف الاقليم الذى تجرى فيه بعددها ، فالپنچاب يعنى الانهار الخمسه . وللسند كذلك رافد سادس هو نهر كابل الذى ينبع من الهندكوش ويلتقى بالنهر الرئيسى فى ناحية الغرب . واقليم الپنچاب هو من بوابات التجارة الهندية الكبرى، ومنه نفذ أغلب الغزاة والفاتحين فاوغلوا فى شبه القارة .

ويضم وديان السندوالكنج أغلب اراضى الهندالزراعية، وإن كان وديان الثانى اكثراتساعاوخصبا وبالتالى اغص بالسكان ذلك أن الكنج تمده على طول مجراه روافدعدة تستمد ماؤها من ثلوج الهملايا الدائمة ، وهو ماليس للسند منه نصيب فضلا عن انسيابه فى أرض يغلب الاستواء عليها مما يؤدى إلى بطئ جريانه وضياع الكثير من مائه فى صحراء الثار اكبر صحراوات الهند والتى تفصله عن الكنج. وتعرف هذه الصحراء ايضا باسم «الراچپوتانا» نسبه إلى الامراء الهنادكة الراچپوتيين الذين جرى بذكر شدة بأسهم وبطولتهم ووقوفهم دائما فى وجه الغزاه والفاتحين ، تاريخ الهند وأساطيرها على السواء .

وفى وسط الهند يجرى نهر نربدا، وإلى الجنوب منه يجرى مُهندى،وتحته جودا فرى أعظم أنهار الدكن ثم يليه نهر كرشنا .

وانهار شبه القارة الهندية هذه برغم كثرتها لا تكفى لرى أراضيها ، لذلك كان اعتماد الزرّاع الأكبر على مياه الأمطار الموسمية التى يؤدى أمتناعها إلى مجاعات مروعة محتومة . فلم يكن عبثا إذن أن ذُكر المطر فى كتب الهنادكة المقدسة القديمة بأنه عطاء الآلهة الذى يهب لهم الزرع قوام الحياة . (١)

سكان الهند .

وأصل سكان الهند لم يصل إليه الباحثون على وجه التحقيق ، وإن كان الثابت المعروف أنه قدورد على شبه القارة هذا موجات متتابعة من هجرات أجناس مختلفة .

وكما تتغاير الهند فى أجوائها تغايرا واسع المدى فهى كذلك تختلف فى أجناسها إختلافا بينا شـــديد الوضوح . فى مناطقها الشمالية يعيش جماعات لهم سمات الشعوب الشمالية ونشاطها فى الغـــالب . وبجانبهم أقوام آخرون لهم ، خصوصا فى وسط

---

(١) — v Le Bon. Les Civilisations de l'Inde Paris 1887. p 34,35

والجنوب ، سواد سكان المناطق الحارة حيث تقسو حرارة الشمس على الناس فتضعف ابدانهم وتقلل من نشاطهم [١] .

واقدم من سكن الهند فى الغالب قوم سود ، لهم سمات الأجناس الحامية قطنوا الغابات ؛ ولا تزال منهم بقايا منقرضة منعزلة تسكن وسط الهند حتى اليوم .

وقدم الهند من بعد ذلك ، فى عصور ما قبل التاريخ ، موجات تورانية وافدة من الشمال فدفعوا بأهل البلاد أمامهم صوب الأماكن الجبلية فى الوسط . وما لبثوا أن توالدوا معهم فظهر الدراويون والتمول أقدم من سكن الهند فى التاريخ ، ومنهم أغلب سكان شبه القارة اليوم .

وتوالت موجات الآريين البيض من السيث والهون على الهند من بعد ذلك قادمة من ناحية الشمال الغربى فاكتسحت أمامها التورانيين واخضعتهم والدراويين والتمول لسلطانها . وعن الدراويين أخذ هؤلاء الغزاة نظمهم الحكومية والإقتصادية .

وسكن هؤلاء البيض فى بادىء الأمر أقليم البنجاب ، باب الهند الآرى ، ثم أخذوا من بعد ذلك ينتشرون فى منطقة الدوآب

---

١ — تنبه هنا إلى أن كلمة هندوكى ليس لها أى دلالة جنسية أو عرقيه فهى تطلق فى الهند على اتباع عقائد الهند القديمة .

التى صارت مركزا لحضارتهم .

وخاف البراهمة مغبة اختلاط بنى قومهم الآريين بعناصر الهند الأخرى فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا أنفسهم والنبلاء المحاربين من الآريين على رأسها . فالجيش يقوده النبلاء فى الحرب والبراهمة يؤيدونه ويشدون من عضدة بالدعاء الذى لن يتم له النصر بدونه [1] .

وإلى جانب الطبقتين الآريتين ، وهم الكهنة البراهمة والاكشترية المقاتلة من النبلاء ، الذين يرون فى موت الرجل منهم بمخدعه عارا وأى عار ، سُلِك التورانيون فى طبقة الويشية التجار . ولا يأتى من بعدهم سوى طبقة الشودرا التى تنتظم الزراع والصناع والعمال ، وكانوا أغلب سكان شبه القارة الأصليين إذ ذاك .

أما الپاريا ، وهم المنبوذون ، فكانوا فى بادىء أمرهم جماعة صغيرة لا تنتمى إلى الطبقات الأربعة سالفة الذكر . وقوامهم بعض القبائل الوطنية وأسرى الحرب ، ورجال تحولوا إلى عبيد عقابا لهم بسبب ولادتهم عن زواج بين براهمة وشودرية ، أو لعجزهم عن وفاء بالدين ، أو لممارستهم المهن الحقيرة التى تضم

---

١ — Dunbar, G. A. History of India from the earliest times to the present day. vol. 1 p 15.

الكناسين والجزارين والجلادين والحواة ومن اليهم . وهم بعددهم المتزايد الذى ينوف على الأربعين مليونا ونفوسهم الثائرة مع عطف البشر البالغ عليهم ، حين يزداد الوعى الإنسانى تغلغلا فى صفوفهم ، كفيلون بزلزلة كيان النظام الطبقى كله والقضاء عليه .

وأثر الآريين العظيم فى الحضارة والمدنية يتجلى فى ديانات الهند القديمة وعاداتها وطباعها ولغاتها .

واذا كانت غلبة الجنس الآرى تظهر واضحة فى مناطق الهملايا العليا حيث يتميز السكان ببياض بشرتهم ، فإنها ماتلبث ان تأخذ فى القلة اذا ما اتجهنا صوب الجنوب حيث تأخذ سمرة اللون فى الظهور بازدياد متدرج .

حتى اذا مازلنا وادى الكنج ، أخصب بقاع الهند والذى يزدحم فيه أكثر من ثلث سكان البلاد ، وجدنا به تمثيلا يكاد يكون كاملا لعروق الهند من الدراوريين والآريين والتورانيين على تفاوت. هذا والعنصر الأخير.أى التورانى ، كان أبعد أثر فى سكان الهند من الناحيه الجثمانية واظهر من كافة العناصر الأخرى التى قدمت هذه البلاد من بعده .

واذا كان وادى الكنج قد اختلطت فيه عروق الهند من

آريين وتورانيين ودراوريين ، وتجاورت فيه كذلك دياناتهـــا وعقائدها من برهمية وبوذية وهندوكية وإسلامية ، فإننا نجـــد البنجاب واغلب وادى السند يكاد يكون وقفا على عرقين اثنين، هما العرق التورانى والعرق الآرى ، وعقيدة واحدة هى الإسلام .

ومن بين سكان البنجاب والسند قبائل الميـــد والچات (الزط) الذين عُرفوا بشجاعتهم ، ومهارتهم فى التجارة . وقد قيل ان على بن ابى طالب استخدمهم على حراسة أموال البصرة فى وقعة الجمل ، كما انزلهم الامويون ثغور الشام فشاركوا فى حمايتها [1] .

وهذه القبائل ومعها الكهكر فيهم المسلمون وفيهم الهنادكة ، وتمتد منازلهم حتى صحراء الراچپوتانا .

اما وسط الهنـــد وجنوبها فغالبية سكانه الساحقة من الدراوريين والتمول القدماء . وهم عند البراهمة يعدون من الشودرا والپاريا نفاية البشر ومنبوذيه فى الغالب .

واياً ما كان من تباين عروق الهند واختلاف اجناسها الشديد فقد عمت البيئة الواحدة طباع وعادات مشتركة ، ولاغرو فللبقاع

١ — فتوح البلدان للبلاذرى طبع ليدن ص ٣٧٥

تأثير فى الطباع على حد قول المقدسى جغرافى العرب .

وسكان شبه القارة الهندية الذين يبلغون اليوم اربعمائة مليون ،اى خمس سكان الدنيا باسرها - اذا غضضنا الطرف عن قلة ضئيلة من أهل الفطرة تسكن أماكن منعزله متناثرة، ولا تزال على عقائدها الطوطمية الأولى فتؤله الافاعى والقردة والنمره ، فضلا عن ممارستها إلى عهد غير بعيد لعادة تعدد الازواج من الذكور حيث يبنى بضعة اقارب او اخوة فى العادة بامرأه واحدة ويقيموا أسرة - يمكن ان نكتلهم فى كتلتين كبيرتين على هدى البيئة وأساسها .

وأكبر الكتلتين هى الكتلة الهندوكية التى تقطن غالبيتها جمهورية الهند اليوم . وهى تأتلف ثلاثة ارباع سكان شبه القارة الهند وپاكستانية على كل حال .

وقد ادى معيشة هؤلاء الهنادكة فى بيئة واحدة تخضع لعقائد واحدة منذ القدم ، الى قيام صفات عامة مشتركة كثيرة فيما بينهم .

واما الكتلة الثانية فهى كتلة المسلمين الذين يجاوز عددهم اليوم المائه مليون من الانفس، وتضم اغلبيتهم جمهورية پاكستان . وبرغم وفود جموع الغُزاة المسلمين من العرب والفرس والاتراك

إلى هذه البلاد فإن غالبية المسلمين هناك هم فى أصولهم الأولى هنادكة خلص . ذلك ان المسلمين فى مدى قرون قليلة حكموا فيها بالهند ، افلحوا فى تغيير معتقدات هذا الفريق الهندوكى الكبير الى دينهم وعقيدتهم. بل لقد بلغوا به كذلك الى تغيير لغته وفنونه الى لغتهم وفنونهم ، وهو ما مارسوه فى كل البلاد التى فتحوها وعجز عنه غيرهم من الامم ورجال الدين . وكان من أهم أسباب انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية خاصة ، بشهادة ثقات المؤرخين حتى فى العصر الحديث ، هو قوله بالمساواة ، فلم تستطع بريطانيا ومن سار فى ركابها ، حين كانت تحتل هـذه البلاد أن تحد من نشاطه فيها ، ذلك النشاط الذى جرف كل ما كان يقام فى طريقه من معوقات وعراقيل [١] .

معتقدات الهند القديمة

فى شبه القارة الهندية كما قلنا من قبل تمثيل كامل لكافة العقائد التى عرفتها الدنيا ومراحل تطورها من الطوطمية الوثنية الى

---

١ — حضارة الهند لجوستاف لوبون ، تعريب عادل زعيتر — القاهرة ١٩٤٨ ص ٦٢٦

التوحيد الكامل ؛ وعليها تقوم النظم الاجتماعية لسكانها جميعا .

ولقد عرفت الهند قبل البرهمية كثيرا من معتقدات الآريين الآسيويين الذين كانوا قد وفدوا اليها قبل الميلاد باكثر من خمسة عشر قرنا ، فاعتنقت الناجا الطوطمية وعبدت الهها الافعوان ، كما عبدت هانومان الإله القرد وناندس الإله الثور ، وقدست الأشجار والموتى من الاسلاف اعتقادا منها بخلود أرواحهم ، وقدمت لهم القرابين ، وصلّت من أجل سعادتهم فى مثواهم الابدى ، واستخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وإطالة العمر ودفع الارواح الشريرة وايقاع الارتباك بالاعداء . وقد انتقل كثير من ذلك كله إلى الهند فى العصر التاريخى ، ومازال اليوم قلة منقرضة منعزلة تؤله النمرة والقردة والافاعى والآفات .

وقد ورد بكتب الويدا ، أقدم اساطير الهند ، تفصيل لآلهة الآريين الكثيرة هذه ومن بينها مايمثل قوى الطبيعة نفسها وعناصرها مثل الإله إندرا الذى ينسب اليه البعض تسمية الهند ، وهو إله العواصف والسماء ، وهو الخالق البارىء الاعلى الذى يجلب الامطار والماء اصل الحياة ، وأغنى إله النار موجب الحياة الكونية والعوالم والآلهة ؛ وشوريا إله الشمس .

ولئن اختلف الرأى فيمن ينسب إليه خلق العالم من

بين هذه الآلهة العاتية ، فقد اجمعوا، على كل حال، على وجوب رد الأمر كله الى خالق واحد قهار [1]

وصار للبراهمة بعد العصر الويدى السلطان والمنعة فثبتوا نظام الطبقات الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم مِنو شرائعه وفقهه الذى غـــدا دستور الهند وقانونها الاساسى فى كافة نواحى الحياة بها .

وظهر فى هذا العصر، قبل الميلاد بقرون اربعة، ملاحم المهابهارتا والرامايانا . والأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع المليون بيت من الشعر فى حين تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين الف بيت، أى أضعاف أضعاف الياذة هوميروس ، فبذا كانتا اضخم آثار العالم الادبية القديمة على الاطلاق .

ولا يستقيم مع العقل القول بكتابة هذه الاسفار فى بضع سنين. فهى قد تعرضت ، دون ادنى ريبة ، إلى إضافات كثيرة غزيرة على كر القرون حتى بلغت صورتها الأخيرة .

وللمهـا بهارتا على الخصوص قداسة عظمى عند الهنادكة ،

---

(١) ـ ابو الريحان البيروني « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » طبع لندن ١٨٨٧ ص ١٣

كقداسة القرآن عند المسلمين ، والانجيل عند اتباع المسيح ، حتى ليعدّون قراءة ماتيسر منها مجلبة للرحمة والمغفرة .

هذا وتنص شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى اليها الملك نفسه الذى كان عليه الا يقطع أمراً دون الرجوع اليهم فيه أو يصبر حتى على حاجة لهم .

فهذه الشرائع التى رسمت لكل طائفة من الطوائف حدوداً لا تتعداها[1] ، قد اطلقت فى الوقت نفسه ايدى البراهمه من كل قيد وجعلت لهم زعامه الناس جميعا . فالبرهمى لا يدنس بذنب حتى ولو قتل أهل الكون جميعا ، فهم وما يملكون ملك يمينه .

وأباح منو لابناء الطبقات الثلاث الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قدر ، حتى إذا ما تجاوزوه إلى طبقة الشودرا الذين حرم عليهم مخالطتهم ، انقلبوا منبوذين يصيبهم الخزى فى الدنيا والآخرة .

---

١ ـ نص منو دهرما ساسترا فقيه الهندوس الأكبر على أن البرهمى ـ سيد الطبقات جميعا ـ هو المعلم والكاهن والقاضى والوزير الأكبر الذى لا يقضى الملك فى أى شأن بدون رأيه، اما الاكشترى ـ وكان الملك من بين الاكشترية ـ فعليه أن يتعلم ويقدم القرابين ويتصدق ويحمل السلاح دفاعا عن الوطن ، واما الويشى فعليه أن يتجر ويجمع المال وينفق على رجال الدين واهل العلم ، وأما الشودرى فعليه ان يخدم هذه الطوائف الثلاثة الشريفة . (حضارة الهند)

وكم من شودرى نُفى من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم اعلا منه طبقة . وكم منهم مَنْ جرع الحميم من الزيت الفوار أو قطعت يداه لمجرد معارضته للبراهمة .

وايا ما كان من صرامة شرائع منو بشأن امتزاج الطبقات ، فقد استطاعت المرأة الهندية بفتنتها أن تحطم هذه القيود وتخترق هذه الحواجز فى أحوال كثيرة كافية لأن تنفى اليوم القول بنقاء دماء ابناء الطبقات العليا .

هكذا اتاح مِنو بشرائعه ذلك السلطان المطلق والنفوذ الواسع لطبقة الكهنة ظل براهما على الأرض – رب الكون الذى يحيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من عناصر الطبيعة الخمسة – فأخضعوا اتباعهم لنظام مرهوب خشعوا له خشية سوء المصير فى الآخرة .

وضاق الناس ذرعا باطراد سلطان البراهمة واشتداد وطأتهم عليهم . حتى بدت لهم تباشير الخلاص على ايدى مصلحين عظيمين ظهرا من بينهما فى القرن السادس ق . م وهما مهابير صاحب الديانة الچينية وكُوتا ما بُده صاحب البوذية .

ولقد غمضت حياة هذين المصلحين ، اللذين يقدس اسميهما علايين من البشر اليوم ، اشد الغموض على الذين تصدوا للكتابة

عنهما وعن مبادئهما فلم يجـــدوا ما يعتمدون عليه فى الغالب الا الاساطير .

وعلى حد قول جوستاف لوبون ، الذى طوف بالهند سنوات عشرة باحثـــا ودارسا ومنقبا حتى اخرج كتابه المشهور عن حضارتها ، فباستثناء النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم ، نجد ان مؤسسى الأديان لم تؤلَّف سيرهم الا بعد وفاتهم بزمن طول مما اعسر الاطلاع على حياتهم اطلاعا صحيحا[١] .

والچينية ، اى عقيدة قهر النفس ، هى اسبق فى الظهور من البوذية . وفيها ينظر نبّيها مهابير (اى البطل العظيم) إلى الحياة بأنها لعنة على المرء ان يتخلص منها بنعمة الانتحار البطىء جوعا ليبلغ سر الوجود ، ويدرك الحقيقة المجردة التى لا تتكشف الا للواصلين . ذلك أن الحقيقة والمعرفة عند اهل الدنيا المتعلقين باهداب الحياة فيها لا تتجاوز النسبي فى الزمان والمكان فيها ، فما هو عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب[٢] .

---

١ ـ حضارة الهند ص ٣٤٤ .

٢ ـ الهند وجيرانها وهى الجزء الثالث من قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٥٩

وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن ايذاء اى كائن حى او جماد ، فالمعادن والحجارة والاشجار لهـــا بدورها ارواح كامنة فيها . حتى امتنعوا عن ممارسة اى عمل من الاعمال وغطوا افواهم بايديهم كى لا تتسرب اليها كائنات من الهواء فتُقتل، وكنسوا الارض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوف القضاء على ما يسرح فيهـــا من هوام حين يمشون وحين يجلسون أو يرقدون . ويفعلون ذلك كله الى ان يتم لهم اعظم انتصار تظفر به الروح على ارادة الحياة وهو الانتحار البطىء جوعا .

هذا وحياة البُـد وعقيدته كما ترويها الاساطير تتفق فى كثير وسيرة المسيح بن مريم وتعاليمه . فبوذا (البُـد) قد ولد كعيسى عند جذع شجرة[1] مثمرة، واشرقت السماء بنور ربها عند مولده ، وسمع الأصم ونطق الأبكم ، واقبل الملوك من اقصى الأرض يرحبون بمقدمـه . وهو يماثل عيسى عليه السلام فى الصيام فى البرية ومحاولة الشيطان ان يغويه هذا كما نرى كلتى الديانتين تدعوان الى أن يتغلب المرء على غضبه بالـكظم والعفو ، ويزيل الشر بالخير والـكراهية بالحب . بل لقد استخدم البوذيون الماء

---

١ ـــ يذكر الاستاذ جوستاف لوبون ايضا فى كتابة ص ٣٤٤ نقلا عن الاساطير الهندية ان البد قد ولد من ام عذراء كذلك .

المقدس والبخور واضاءوا معابدهم بالشموع ، كما ابتدعوا الرهبانية فارتدى رجالهـا مسوحا خاصابهم ، وحملوا المسابح واعتكفوا بالاديرة ، وتقبلوا الأعتراف من المؤمنين ، قبل أن يفعل اتباع عيسى ذلك كله بقرون عدة [1] .

وإذا كان مبلغ علم هؤلاء الكُتاب فى ذلك لا يعدو ماوقفوا عليه فى الأساطير الغامضة ، فلا يجوز لنا أن نصل باقوالهم إلى نتائج إيجابية عن مبلغ دينونه أحدى هاتين العقيدتين للأخرى ، وهو ليس من موضوعنا على كل حال .

ويتفق البُد مع مهابير فى انـكار وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهم وظواهر باطلة فانيـة ، وأن الحديث عن الكوْن وهل هو متناه أو لا مُتناهى ، والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالها ما هو إلا اسطورة وخرافة من خرافات الفلاسفة . وكذلك أنكر البُد القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حيّ منوط بسلوكه الذى قد يقوده إما إلى السعادة أو إلى الشقاء ، فلا آخرة ولا جنة بنعيم ولا سقر بجحيم .
على أنه ، أى البُد ، مايلبث أن يختلف مع سالفة فى مسألة تعذيب النفس الذى أدى به حين مارسة إلى الشعور بالغرور فـكاد

---

١ — الهند وجيرانها ص ١٩٨ .

يُقصيه عن الطريق لبلوغ المعرفة . وسلم بوجوب الحياة على أن يكبح الإنسان جماح شهواته الذاتية ساعيا إلى الخير المجرد دون سواه، إذ أن كل لذة تحمل فى طياتها سُما هو الألم الذى يرجحها.

وسخر البُدد من البراهمة سخرية شديدة هز من كيانهم حين أعلن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر ، وأن القرابين والادعية والتمائم إن هى الا من صناعة الكهنوت . كما هاجم نظام الطبقات ضمنا حين صرح بأن الناس ، اشرافهم وادنياءهم واغنياءهم ،كلهم سواء .

وقضى على الجينية بقلة الانتشار ماتدعو إليه من تطرف بالغ فى التقشف والزهد حرم على أتباعها التملك والزواج والتدثر بالثياب[1]. فليس لها اليوم بالهند إلا أتباع ، (دون المليون عداً) يتناقصون بالتدريج . ولاينبذ الثياب منهم إلا قديسوهم المتقون . والغالب أن ما كان يعمد إليه غاندى زعيم الهنادكة الأكبر من التطهر بالصوم الشاق والسير فى خرقة

---

١ ــ الناسك الحق هو الذى يقهر جميع مشاعره فلا يشعر بالحر او البرد . والمرء طالما يتذكر أنه عار او أن هناك خير أو شر ، حسن او قبح ، فمعناه انه لا يزال متعلقا بالدنيا وما فيها فلا يفوز بالنجاة والشعور بالحياء من العرى يضمن تصور الاثم . فترك اللباس هو ترك الاثم وقد كان آدم وحواء يعيشان فى الجنة عاريين بطهر كامل ، حتى أكلا ، بفعل الشيطان من شجرة العلم بالخير والشر فأخرجا من الجنة .

بسيطة ، لا تستر إلا عورته ، لم يكن إلا أثر من آثار هذه العقيدة .

وفى الوقت الذى لم يأبه البراهمة فيــه لأمر الچينية التى لم تكن بذات خطر جدى بالنسبة لهم ، انصرفوا انصرافا نشيطا حازما الى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى غدت تناوىء سلطانهم حتى أحدثت تغييرات غير قليلة فى نظم الهند الاجتماعية والسياسية بما صار لها من أتباع كثيرين ؛ فما زالوا بها حتى أفلحوا على كر السنين فى تقويض نفوذها بالهند لتلقى قدرا كبيرا من الرواج فى بورما وبلاد الصين واليابان والتبت من بعد ذلك .

ذلك أن رؤساء البراهمة عمدوا الى ادخال قدر غير يسير من التطور والتسامح فى شعائرهم ، فى الوقت الذى انحرفت فيه سدنة البوذية عن مبادئها الأولى المبسطة إلى مستحدثات معقدة أقحموها على عقيدتهم ، وراحوا ينشدون لانفسهم ، بغرور ، نظير ما للبراهمة من مجد وسلطان ، حتى وسعوا ، بامتيازاتهم التى أدعوها لانفسهم ، الشقة فيما بينهم وبين اتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسامح البراهمة الطارىء وتدبيرهم المحكم حين أحلوا للبُد نفسه مكانا بين آلهتهم هو ومهابير ، وأعلنوا لهم قُــدسيتهما ،

فراحوا يعبدونهما وكانوا قد نهوا عن ذلك من قبل .

وهكذا ظهرت برهمية جديدة لا تختلف عن البرهمية القديمة فى كثير. وساعد على استرداد أصحابها لسلطانهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراچپوتيين من مناصرة وتشجيع وتعضيد يسر لهم نشر مدارسهم فى كل مكان ، حتى سادت عقيدتهم الهند كلها لا يضيرها وجود تلك القلة الچينية الضئيلة .

ودين الهنادكة اليوم السائد هذا ، الألوهية فيه ثلاث صور رئيسية هى: براهما الخالق سيد الآلهة والمسيطر على العالم كله والذى يحيط بجميع الكائنات فتنمو بعد أن تولد ثم تنحل على مايشابه مذهب وحدة الوجود ، ووشنو الحافظ إله الحب الذى أحيا الموتى وابرأ الاكمه والابرص ثم صعد إلى السماء ليعود إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق ، وشيوا المدمر الموكول به قبض أرواح الناس وخلاصها من أبدانهم وإلى جانب هؤلاء الآلهة فهناك ملايين من آلهة آخرين تزدحم بهم الهند بعضها أقرب إلى الشياطين وبعضها أقرب إلى الملائكة ومنها ماهو فى صورة الطير أو الحيوان والهوام. وتجمعها كلها شبكة لا حدود لها تتناسخ الأرواح فيها .

والهندوكية المشتركة، أى البرهمية الجديدة ، والشيوية والوشنوية

وجميعها مستمدة من البرهمية الأولى ، لم يقف الأمر عند تفرعها إلى مذاهب لاحصر لها، هي اليوم فى عددها أشبه باوراق شجرة باسقة كثيفة الأغصان أيام الربيع ، حتى ذهب أتباع كل مذهب منها يتشددون فى أحكامهم فلا يطاعمون غيرهم أو يجالسونهم[1].

لغات الهند .

لم يكن عجبا وفى شبه القارة الهندو باكستانية من المذاهب والعقائد مالا يدخل تحت حصر أن يروج فيها أكثر من مائتين من اللغات وما يتفرع عنها من لهجات تربو على الثلاثمائه .

وتُرد لغات الهند عموما الى اصلين اثنين : الاصل الآرى واليه ترجع اغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط ، والأصل الدراورى واليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة فى الوسط والشرق .

والسنسكريتية هى اشهر لغات الهند الآرية القديمة واعرقها ، وبها كُتبت اسفار الهند المقدسة القديمة . ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون استعمالها فيه مقصورا على رجال الدين

---

١ ــ حضارة الهند ص ٦١١

والعلماء ، ثم كُتب لها من بعد ذلك قدرٌ من الرواج بفضل تشجيع بعض سلاطين المسلمين . حتى اذا جاء «أكبر» أعظم سلاطين الدولة المغولية ، ينادى بان الهند للهنود ، هنادكة ومسلمين ، صادفت هذه اللغة بدورها رواجا كبيرا اذ راح هـــذا السلطان النابه يحض الهنادكة على الاشتغال بآدابهم واحيــــاء تراثهم فى نهضته العلمية الكبرى التى لم يعرف العالم لها نظيرا فى عصره . وهى اليوم ، أى السنسكريتية ، لغة جمهورية الهند الحديثة . ويصفها بعض اللغويين الاعلام بأنها فضلا عن اتحادهـــا فى اصولها مع اغلب اللغات الأوربية وإنها أكمل من لغة اليونان واوسع من لغة الرومان ، أى اللاتينية ، وادق من كليهما (١)

وتروج فى الدكن والجنوب لغة تامل وتلنجو وهما من اللغات الدراورية القديمة .

وأعظم لغات شبه القارة الهندو باكستانية انتشارا هى الأوردوية وهى لغة آرية وضع قواعدها ونحـــوها علماء المسلمين . وكلمة أوردو معناها المعسكر . والمقصود هنا معسكر اسرى المغول والترك المسلمين حول دهلى حيث نشأت هذه اللغة فبدأت بالظهور فى

---

١ ـ Elplninstone, M. The History of India London 1911. p 161.

القرن العاشر الهجرى . والفاظها مزيج من العربية والسنسكريتية والفارسية والتركية. وهى فى قواعدها آرية خالصة ، و تكتب بالحروف العربية مع الاضافات الفارسية[1].

ولا يزال للفارسية سوق رائجة فى الاوساط الاسلامية. ومابرح المجوس، الذين يعرفون بالپارسيين، محتفظين فى الغالب بلغتهم البهلوية القديمة . وهم فى غرب البلاد على قلتهم يعدون فى بين اصحاب الثراء الواسع. هذا الى جانب بعض اللغات الاسيوية والاوروبية الاخرى التى تسمع هنا وهناك بالهند .

تاريخ الهند القديمة وحضارتها

كان بشبه القارة الهند وپاكستانيه حضارات مزدهرة ايام كان المصريون يقيمون اهراماتهم قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثين . فقد كشفت بعثة مارشال فى حفرياتها عند « موهنجو دارو » فى غرب السند عام ١٩٢٤ م عن آثار يرجع تاريخها إلى عصر الأهرامات ، لمدنية عريقة كانت تسود البلاد اذ ذاك ، وكان اصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل فى الغالب . وهذه المدن الاربعة أو الخمسة التى كشفت عنها هذه البعثة ، والتى

١ — هى الباء المثلثة اى التى تكتب بنقط ثلاث من تحتها ثم الجيم المثلثة والزاى والكاف الفارسية.

كان يقوم بعضها فوق بعض ، حوت دورا من طبقات عدة قوامها الآجر المتين،والى جوارها الحمامات والآبار ، وفيهاآنية من خزف مصقول ، واسلحة دقيقة ، وزخارف رقيقه من الخشب والمعدن، وأدوات للزينة مما لا تروج عادة الا فى أرقى المجتمعات [١] .

على أن قلة وثائق الهند القديمة التاريخية عموما ، وصعوبة الاستدلال على ما ضيها من نقوشها وأطلالها ،قد اظهر المؤرخين على أن لامعدى لهم من أن يستشفوا من كتب هذه البلاد الدينية القديمة وملاحمها ، وما حوت من أكداس الأساطير ، ما يكشف عن ، بعض نواحى التاريخ الهندى القديم واحداثه .

وحمد جمهرة المؤرخين لمؤرخى المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمى البارز الموفق حمداً جعلهم يقررون بأن أظهر أدوار الهند التاريخية [٢] لم يبـــدأ الا بتدوينات هؤلاء العلماء الذين صحبوا الفتوحات الإسلامية فى الهنـــد ، ونعنى بها تلك الفتوحات التى بدأها محمود الغَزْنوى وخلفاؤه فأخضعوا أغلب شبـــه القارة الهندية لحكمهم ، بعد أن كان العرب قد أقتصر أمرهم فى القرن الأول الهجرى على احتـــلال بعض ولايات سندية صغيرة .

---

١ — Dunbar, pp 1 - 3, 583

٢ — حضارة الهند ص ٦ ٢

وسنتحدث عن ذلك كله تفصيلا فى الصفحات التالية .

وعاون كذلك على استجلاء غوامض تاريخ الهند القديم ما وصلنا من تدوينات بعض الرحالة الذين زاروا الهند فى القديم واطلعوا اطلاعا واسعا على أحوالها ، أمثال ميغاستين ، سفير السلوقيين الاغريق لدى دولة الموريا الهندية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم الحاجين الصينين البوذيين فاهيان وهيون تسيانغ اللذان طوفا بالهند فى القرنين الخامس والسابع الميلادى على التوالى .

ولا نعرف من تاريخ الهند قبل نفاذ الاسكندر المقدونى إلى هذه البلاد إلا استيلاء الفرس على أقليم السند والقسم الشمالى الغربى من هذه البلاد فأقاموا به قرنين من الزمن واستخدموا سكانه وفيولهم فى جيوشهم فحاربوا بهم اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد .

واكتسح الاسكندر بلاد فارس ثم نفذ من أرض كابل إلى السند فدخله عام ٣٢٦ ق . م ، بعد أن عبر الهندكوش ، فطفق يتجول بالپنجاب عام بأكمله . حتى إذا ماعزم على المضى فى الفتح قدما ، بعد ماهزم پورس ملك الهند ، ليبلغ البحر فى ناحية الشرق فيقيم له أمبراطورية هندية ، عارضه رجاله ، الذين

لم يصبروا على احتمال حر هذه البلاد مع ماعاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائدا إلى وطنه ، عبر بلوخستان ، فوافاه اجله فى الطريق قبل أن يبلغه .

وكان من أثر فتح الاسكندر هذا إتصال الهند بثقافة الاغريق وحضارتهم اتصالا وثيقا . أما ما أسسه بعض قادته ، ومَن تخلف معهم من رجالهم ، من بعض الامارات بالسند ، فلم يعمر إلا عدد سنين .

وظهر بالهند ، أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، امبراطورية الموريا الهندية التى اتخذت لها الطاووس شعارا . وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهندكوش وتضم معها مالوه والكُجْرات وأرض كابل .

هذا وكان چَندراكُپتا (٣٢١ – ٢٩٦ ق م) مؤسس هذه الدولة قد أقام بدوره زمنا بمعسكر الاسكندر ، إذكان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا فى أسر القائد المقدونى ، ثم نكل بالحاميات الاغريقية من بعد ذلك وطفق يوسع من رقعة ملكه متخذا من بتنه حاضرة له .

وذاع صيت هذا الملك الهندى ، حتى بعث إليه نيكاتور السلوقى، الذى ملك بعد وفاة الاسكندر سوريه وبابل ، سفيره

ميغاستين فاطلع اطلاعا واسعا على أحوال هذه البلاد وطباع أهلها وعاداتها ، حتى ليُعَد ماوصل إلينا من مذكراته ، من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة [١] .

وقد أشادهذا المبعوث الاغريقى بما كان عليه قصر الملك من الروعةوالفخامةوما كان يزينه من نقوش وجواهر وعُمد طليت بالذهب . كما وصف الحضارة الهندية التى كانت قائمة إذ ذاك بأنها تساوى اختها اليونانية مساواه تامة . واثنى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكان عموما . وانعدام الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم [٢] .

وكان من أهداف هـــذا السفير العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى بلاد الشام ، عبر مملكة السلوقيين ، بدلا من الطريق البحرى الذى ينتهى بها إلى مصر فتـــثرى من ورائه . ودهمت الهند فى أواخر عصر هذا الملك مجاعات شديدة اعتزل الحكم بسببها، فترهب مدى اثنى عشر عاما قتل نفسه فى آخرها جوعا على مذهب مهابير .

---

١ _ Cambridge History of India pp. 384,467.

٢ _ Havell. E. B. The History of Arayan Rule in Indta. pp. 75-83.

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفيلسوف آزوكا (آشوك: ٢٧١ - ٢٣١ ق.م) أول حاكم واضـــح الشخصية فى تاريخ الهند القديم [١]. وبه يبدأ تاريخ الهند المعمارى؛ ولا تزال بهذه البلاد حتى اليوم كثير من عُمُدِه التى أقامها فى أنحاء متفرقه بها لتنقش عليها مراسيمه؛ هذا فضلا عن قصوره التى وصفها الرحالة فاهيان بانها كانت من الاعاجيب.

وتروى الاساطير أنه قتل اخوته المائه الذين ولدوا لأبيه من ست عشر زوجة ليأمن بذلك منافستهم له، فما غدا أن ندم على فعلته، فوقف حياته من بعد ذلك على التعبد والعناية بأمر الدين حتى صار داعية البوذية الأكبر الذى احيا شعائرها من جديد. فقد أمر عماله فى كافة انحاء بلاده أن ينظروا الى رعاياهم نظرتهم الى ابنائهم فيعاملونهم بالحسنى. كما بنى دورا للشفاء وملاجئ للعجزة من الانسان والحيوان؛ ثم بعث بمبشرى هذه العقيدة الى خارج الهند فبلغوا مصر واليونان وسوريا وبلاد العرب، كما انتشروا فى اواسط آسيا وجابوا التبت والصين واليابان. وفى عهد هـذا الملك عرفت الهند النقود كأداة تعامل لأول مرة فى تاريخها.

وانتهى أمر اسرة الموريا هذه عام ١٨٤ ق. م. على أيدى

---

١ — Havell, p 89

أسرة أندهارا التى خلفتها فى بلادها .

وظهرت قبائل السكا على حدود الهند الشمالية الغربية بعد قليل ، وانشأت لها امارات فى الشمال والوسط ، لكن أسرة اندهارا ما عتمت أن تصدت لستار بتهم [1] فانزلت بهم هزائم كثيرة .

كذلك عبرت قبائل كوشان السيثية حدود الهند الغربية وتوغلت فى شمال الهند حتى بنارس . وفى عهد ملكهم كنِشكا ضمت دولتهم ارض كابل والپنجاب والراجپوتانا .

ويُعد هذا الملك ثانى حماة البوذية فى الهند بعد آزوكا [2] . فقد جمع مجلسا من كهنة البوذية الكبار عهد اليهم بتدوين سُنن البوذية فبلغت ثلاثمائه الف نص رفعوا فيها البُد الى مصاف الآلهة .

وفى عهد هذا الملك الذى كان على اتصال بالروما ن ، راجت الحياة العقلية رواجا كبيرا وازدهرت العمارة والنحت .

ويغيم تاريخ الهند حتى بداية القرن الرابع الميلادى لتظهر اسرة كُبتا الثانية على مسرح الحوادث فى شبه القارة ، فتطرد ، بفضل بطولة ثانى ملوكها بكر ماديت ، السيث أصحاب كنشكا من الهند ،

---

١ ــ الستربء هو حاكم الإقليم عند الفرس القدماء ، وعنهم أخذ البابليون والاغريق .

Moreland, W.A short history of India. London 1936. - ٢
p 76

وتُبعد عن حدودها ستاربة السكا، ثم تبسط نفوذها من بعد ذلك في الشمال والوسط والغرب وتخضع لولائها الدكن والبنغال وآسام.

وقد تحدث الرحالة الصيني فاهيان في مذكراته عن ملوك هذه الأسرة، ووصف بلاطهم وما كان به من الفلاسفة والشعراء وكُتّاب المسرحيات(١).

وخلب لب هذه الحجاج البوذي ما رأى بالهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعج بالحركة والسكان، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة، بل ومدارس وجامعات تزدحم بعلمائها وطلابها، ومن بينها جامعة تكسيلا السندية ومدرستها الطبية المشهورة. هـــذا فضلا عن شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش

وفي عهد هذه الأسرة نعم البراهمة برعاية ردت لهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذي كان آشوكا قد حد منه كثيرا، فراحوا بالتالي يحيون تقاليدهم الأدبية من جــــديد فكتبوا المهابهارتا والرامايانا في صورتيهما الحاضرة في الغالب.(٢)

وظلت هذه الأسرة تحكم الهند حتى أقبل الهون من بلاد

---

١ ـ Dunbar, India, pp 70-72

٢ ـ الهند وجيرانها ص ١١١

ماوراء النهر فى القرن الخامس الميلادى فقضوا عليها فى الوقت الذى كانت فيه قبائل أخرى منهم تتوغل، بقيادة زعيمهم الأكبر أتيلا ، بأوروبا.

وأقام هرشا، وكان من سلالة الكُوبتيين، إمبراطورية واسعة له فى القرن السابع الميلادى شملت آسام والكجرات مع شمال الهند كُله . وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه فحد من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذية من جديد . ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة فى كل أربع سنوات . وقد استنفدت هباته فى إحدى هـــذه المرات كل أمواله وأملاكه حتى ذهب يستجدى أختا له رداء قديما ليتدثر به ، فما كاد يتناوله منها حتى سجد للبُد حمداً وشكراً(١)

ويذكر الحاج الصينى الثانى هيـــون تسيانغ الكثير عن فضائل هذا الملك العابد الذى انتزع الملكَ من الهون ، ويشيد بما كانت عليه حاضرته قنّوج من الروعة والفخامة . وهذه المدينة التى كانت حاضرة أسرة كُبتا من قبل ، والتى ذكرها بطليموس الجغرافى عام ١٤٠ م باسم قُنُتوجيـــا ، كما أعجب بهـــا محمود الغزنوى فاتح الهندستان إعجابا شديداً ، كانت تقع

Ischwari Prasad. Medieval India p xxIx — ١

إلى الشرق من آكرا الحالية وعلى مسيرة كيلو مترات قليلة من نهر الكنج .

وانفرط مُلك هرشا عقب وفاته مباشرة . ذلك أن خلفاءه ، لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا فى وجه قبائل الهون التى طفقت تتدفق من جديد على أرض الهند ، فضربت الفوضى أطنابها فى أنحاء البلاد ، وقام بين أمرائها ما يشبه الحرب الأهلية التى أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلبا لزيادة نفوذهم ولإخضاع البوذية لسلطانهم .

واستطاعت إمارة قنوج ، برغم انسلاخ الجزء الأكبر من من إمبراطورية هرشا الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة فى الشمال الهندى كله . وظلت تقاوم غزوات أمراء كشمير والبنغال وما حولها حتى نهض بها مهير بهوج فى القرن التاسع الميلادى فاسترد لها كثيراً من أملاك هرشا السابقة فى البنجاب والدوآب وعند كواليار . وبدأت الغزوات الإسلامية تترى على هذه الإمارة منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى فلم يشارف على نهايته حتى دخلتْ فى حوزة المسلمين .

كذلك بقى بسال ديوا يسيطر هو وأحفاده على إمارة دهلى ، التى كانت تمتد فيما بين الهملايا والوندهايا، حتى اقتحمها الغوريون ،

خلفاء الغزنويين ، عليهم وجعلوا من مدينتهم الكبرى حاضرة لملكهم .

أما مالوه فكان قد نهض بها بدروها راجا كرسنا فى القرن التاسع الميلادى . واشتهر خلفه مونكا ، إلى جانب بطولته فى الحرب ، بتشجيعه ورعايته للفنون والآداب السنسكريتية . وقد اعتنق آخر حكام مالوه الهنادكة الإسلام على أيدى الخلجيين فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى .

هذا وقد اشتهر من بين حكام الكجرات «مولراجا» الذى بنى معبد سومنات وخليفته راجا بهيما الذى حاول أن يحمى هذا المعبد الشهير بوقوفه فى وجه محمود الغزنوى الذى دمره عن آخره . وقد ضم الخلجيون إلى أملاكهم أيضاً هذه الولاية التى تعد أهم مراكز التجارة الهندية .

وبرغم أن هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير فإنه أفلح فى حمل أصحابه على قبول البوذية فى بلادهم .

وأتيح لهذه الامارة فى القرن الثامن الميلادى أن توسع من رقعتها حتى اشتهر أمرها ، فقامت بينها وبين الصين علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .

على أن وعورتها وحصانة موقعها الطبيعى لم تمنعها على غزاة

المسلمين ، فاجتاحتها جيوش محمود الغزنوى الذى يرد إليه الفضل في نشر الإسلام بها .

وسطع نجم بهـــار والبنغال بعد انفصالهما عن ملك هرشا ، فحكمهما أسرتا پالا وسنا على التوالى .

وبسطت الأولى منهما نفوذها على أغلب الشمال الهندى بعض الوقت . وكان الخلجيون هم أول غزاة من المسلمين نفذوا إلى هاتين الإمارتين .

أما إقليم السند ، وهو آخر الأقاليم الشمالية التى نتحدث عنها ، فقد خضع طويلا لقبائل السكا الآرية حتى انتزعه منهم الملك البرهمى داهر ، وهو الذى وجده العرب المسلمون على هـــذا الإقليم عند غزوهم له .

ويشير الرحالة الصينى هيون تسيانغ إلى حـــكم الأمراء الراچپوتيين فى الدكن . وقد اشتهر من بينهم أسرة الشلبوكيين ، إذ استطاع باليكسين الثانى ، أحد ملوكها . أن يقف فى وجه هرشا سالف الذكر ويغزو الكجرات ومالوه والراچپوتانا ، كما أنشأ علاقات ود وصداقة مع ملوك الفرس الساسانيين وتعد النقوش التى ظهرت فى عهده من أعظم آثار الهند الفنية حتى اليوم .

وخلف الشلبوكيين على عرش الدكن أسرة راشتراكوتا فى

القرن الثامن الميلادى ، وقد قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية[1] قوية ، وكان تجارهم حين يفدون إلى بلاد الدكن يقابلون بالحفاوة والترحيب .

وبقيت الدكن تستعصى على غزاة المسلمين حتى اجتاحها الخلجيون الذين بلغوا بفتوحاتهم شبه القارة الهندية جنوباً .

والأمراء الراچپوتيون الذين حكموا فى إمارات الشمال والدكن ، والذين ذاعت شهرتهم وبطولتهم فى التاريخ الهندى والأساطير على السواء ، لم يصل الباحثون حتى اليوم إلى حقيقة أصلهم . والرأى الغالب أنهم من أصلاب الأبطال الآريين الذين سبقوا الهون إلى أرض الهند فحكموها . وقد احتموا من وجه الغزاة المسلمين آخر الأمر بالمنطقة الصحراوية الوعرة بصحراء الثار التى عُرفت باسمهم كما تعرف كذلك براجاستان أى أرض الملوك . وترد الأساطير الهندية نشأتهم إلى تزواج القمر بالشمس .

على أن بطولة هؤلاء الأمراء هذه لم تمنعهم من الانغماس فى تيار المنازعات الداخلية ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الإقطاعيين

---

١ — Prasad. India pp 30,31

فى كل زمان ومكان ، فآثروا فى الغالب الاندفاع وراء أطماعهم على الاتحاد والتآزر لدفع الغزاة والفاتحين عن الهند وطنهم الأكبر .

وتاريخ جنوب الهند أشد غموضا من تاريخ شمالها الذى لم يرتبط به إلا عرضا. ولا تشير كتب الشمال وملاحمه ، بل ونقوشه وآثاره ، إلى الجنوب إلا إشارات قليلة ، وجدت فى مخلفات عصر آشوكا وبعض مخلفات اخرى ، تفيد قيام ممالك بهذا القسم الهندى قبل الميلاد بقرون قليلة . وما وجد من كتابات التمول والتلنجو عن هذا الجنوب لا يسبق القرن الثامن الميلادى فى القدم ، ولا يجاوز مابه من نقوش وآثار القرن الخامس .

ويرجع ظهور ممالك الجنوب الكبرى ،وهى پنديا وكولا وجيرا ، إلى ماقبل ميلاد المسيح بقليل . وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير من الثراء وعلى اتصال اقتصادى وثيق بالمصريين والرومان كما كانت عاصمتها مادورا من أجمل مدن الهند إذذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم إمارة كولا ، فى حين كانت جيرا تقع الى الشمال من الأولى والى الغرب من الثانية .

وتمكن حكام كولا من الاستيلاء على پنديا وبسط سلطانهم على جزيرة سيلان جنوبا ،فى حين امتد نفوذهم فى الشمال حتى البنغال وأوده وإن لم يعمر طويلا هناك .

وبلغت جيرا بدورها شأوا عظيما فى القرنين الرابع والخامس، فلم يهل الثامن الميلادى حتى تجاوز نفوذها نهر نربدا .

واخذ وسط الهند وجنوبها يتعرض للغزو الإسلامى ابتداء من أيام الخلجيين حتى استقل امراء من المسلمين بسلطنة بهمنى الدكنية فى القرن الرابع عشر الميلادى ليقوم من ورائهم بالجنوب ، على انقاض إماراته الثلاثة سالفة الذكر ، إمارة ڤيايا نكر الهندوكية اعظم الامارات التى عرفها الجنوب . ومنع من القضاء عليها ما كان من اقتتال خلفاء سلطنة بهمنى فيما بينهم ، فلبثت وبعض دويلات هندوكية فى الجنوب تنعم بالنفوذ والاستقلال حتى بسط اورنك زيب المغولى سلطانه على شبه القارة الهندية بأكمله .

هذا وقد كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية ، فلم تكن أقل شأنا من نظائرها عند اليونان ومصر فى القديم .

وتشير كتب الهند القديمة الى قيام النظام الجمهورى ، وتتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثا ديموقراطيا ؛ وتصف الملك الهندى بأنه فى حقيقته خادم لقومه

يحصل على اجره ، وكان السدس السنوى من الحاصلات ، ليعمل به على رفاهيتهم [١]

هـــذا ولما كانت مساحة البلاد الواسعة لا تمكن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكان فى كل مكان ، فقد أدى ذلك تلقائيا إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة بالقرى ترعى شئون نفسها بنفسها فى وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة .

وكانت القريه منذ القدم، بنظامها السياسى والاجتماعى هذا ، وطن الهندوكى الذى يقوم على كافة شئونه الدنيوية والدينيه . ففيه حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم : فهو يشترك معهم فى العمل بأرض القرية التى هى فى الغالب مشاع بينهم . وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها أو دخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

ولم يتعرض الغزاة وحكوماتهم فى الغالب لهـذا النظام ، فلم يكن يعنيهم إلا دفع الضرائب لهم ، وهو ما كان يهون على الفلاح الهندوكى أمره من بعد ذلك [٢] . وكانت حالة الفلاح الهندوكى عموما تتراوح بين الميسرة والمعسرة وفقا لما يطالب به من ضرائب.

---

١ ـ Prasad, India pp XXIII, XXXIV.

٢ ـ Le Bon. pp 637,38

والمرأة الهندية كان لها فى مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم، فشاركت فى الاشتغال بفنون المعرفة، حتى لا تزال الهند تتغنى بذكرى جارجى التى كان لها شرف الانخراط فى سلك الفلاسفة القدماء[1] وشاركت الهندية كذلك فى الدفاع عن بلادها فحاربت غير مرة بجانب صناديد الهند. وصعدت فوق المواقد مفضلة الموت حرقا على الوقوع فى أيدى الأعداء.

والمرأة الهندوكية لا تتوانى فى الغالب، ما أتيحت لها الفرصة حتى اليوم، فى أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عن إيمان وشعور بالزهو والشرف بين دعاء القوم وهتافهم. ولعل مما ساعد على ممارسة عادة الساتى هذه، ما كان ينتظر الأرملة التى ليس لها ولد، على الخصوص، من بؤس وشقاء، إذ تصير منبوذة محتقرة من الناس جميعا؛ فلم يكن لها مناص إذن من سلوك طريق الساتى التى لا تزال تمارس حتى اليوم ما أفلت الناس من الرقابة.

هذا وقد وصل فن العمارة فى الهند القديمة إلى ذروة الرقى والجمال الذى تجلى فى معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة فبهر أعين الرحالة والمؤرخين من الأغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد واطلعوا على أحوالها.

١ - الهند وجيرانها ص ٢٨، ٤٢

أما الصناعات الهندية ، من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية ، فقد بلغت شأوا كبيرا من الازدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة . وكان لكل طائفة من أبناء الحرف فى الغالب نقابة قوية تنظم شئونهم وتدافع عن حقوقهم .

وحملت قوافل الهند ، ما بين برية وبحرية، منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى كافة نواحى العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة علىٰ شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، فتبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة ، وتعطرت النساء بعطورها ورفلن فى حريرها وازين بلآلئها ، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلها فى المعترك .[١] .

وكانت الهند إذ ذاك تتداول ما يشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها فى عالم الاقتصاد اليوم ، وتتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمان طويل .

ويذكر الرحالة الصينى هيون تسيانغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة ومنها جامعة تاكسيلا التى كانت تشتهر

١ -- Havell, pp 14 75, 130

بالحث العلمى أيام الاسكندر وجامعة يوجـين الفلكية وأجانتا الطبيّة وبنارس البرهمية ونالاندا البوذية ؛ ويفيض فى حديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون بهذه البلاد.

والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقدمهم فيـه قديم جداً. فعالمهم آريه بهت ، الذى ترجم العرب كتبه أيام العباسيين ، هو الذى سبق إلى اثبات دوران الأرض حول محورها وأعلن عن كرويتها وعلل أسباب الكسوف والخسوف (١) والانقلابين والاعتدالين فى الفصول الاربعة ؛ كما تحدث عن قيمة النسبة التقريبية المستعملة فى حساب مساحة الدائرة ، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجيب.

وخلف هـذا العالم رياضى آخر يدعى براهما كوبتا وطائفة من الفلكيين قسموا العالم إلى أثنى عشر شهر ، وكل شهر إلى ثلاثين يوما ، وحسبوا بدقـه بالغة مواقع النجوم فى أفلاكها وبحثوا فى قوانين الجاذبية ، كما أبتكروا فكرة السالبية فى الجبر ، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق.

وكذلك نبغ الهنود فى الكيمياء فصهروا الحـديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غـيرهم ، حتى اعتبر

---

١ - Dunbar, pp 80,81

الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا فـآثرها على الذهب والفضة [١] . ولعل ذلك كان هو مرد شهرة أسلحتهم وسيوفهم . هذا كما تفننوا فى الصباغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلسوا وقطروا وحضروا الأمـــلاح على اختلاف أنواعها .

وكما بذ الهنود القدماء الإغريق فى نواح من الرياضيات كثيرة ، كذلك فاقوهم فى العلوم الطبيـة حتى رأينا ديوسقورس الطبيب ، الذى عاش بالإسكندرية قبل الميلاد بقرن ، يستخدم كثيرا من المصطلحات الطبية الهندية (٢) . فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والعضلات والأنسجة وتركيبها وخواصها : كما استنبطوا ضروبا من المخدر استعانوا بها على إجراء الجراحات الكثيرة التى كانوا يحذقونها ؛ وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضها رجال الدين ؛ واهتـــدوا إلى لقاح الجدرى قبل الميلاد بخمسه قرون ؛ وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر فى بول المريض .

---

١ ـ الهند وجيرانها ص ٢٤٠

٢ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، ترجمة المرحوم حمزه طاهر ص ٤٦

ولا نعدو الحق حين نقول كذلك إن الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمان طويل. والمعروف أن فيثاغورس الفيلسوف اليوناني، الذى عاصر بوذا، قد شغل بعلوم الهند فى القرن السادس قبل الميلاد، أى قبل أن يغزوا الإسكند الهند بأكثر من قرنين. ويُروى أن فلاسفة من الهنود زاروا أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه. (٢)

ومن بين فلاسفة الهند القدامى، فيما قبل عصر الإسكندر، الفيلسوف كاپيلا، أول من قال بمقدرة العقل الإنسانى واستقلاله وحريته الكاملتين (٣).

هذا ولم يكن اشتغال الهنود بالآداب السنسكريتية وغيرها من الآداب الهندية الأخرى وسموهم بها ليقل عما فعلوه بالفلسفة. وفى أكداس تراثهم من القصص والملاحم والتمثيليات والشعر ما يشهد بطول باعهم فى هذا المضمار.

ولقد انفرد أبو الريحان البيرونى فى العربية بأول وأكبر حديث عن قدماء الهنود وحضارتهم ومدنيّتهم، وأثبت وجود

---

١ _ Garratt. The legacy of India p 8

٢ ـ الهند وجيرانها ص ٢٥٢

مبدإ التوحيد عندهم (١) . وجاء معه ومن قبله ومن بعده ، إلى هذه البلاد طائفة من مؤرخي المسلمين ورحالتهم ، من أمثال العتبي والبيهقي والمسعودي والاصطخري والإدريسي وابن بطوطه وابن حوقل ، فطوفوا بها واسهبوا في الحديث عنها وعن أحوالها .

على أن توفر مقامات الحضارة والمدنية الكثيرة عند الهنود لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحر أمرائهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاتحين .

وطفق المسلمون منذ أواخر القرن الأول الهجري ينفذون إلى هذه البلاد فاتحين . ولم يبدأ الغزو الإسلامي الجدي لشبه القارة الهندية الا على أيدي الغزنويين في أواخر القرن الرابع الهجري ، فدخل تاريخ هذه البلاد في عهد جديد وبدأ في أرضها الصراع بين القديم والحديث .

---

١ ـ انظر كتابه : ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » ، وقد تداولته طبعات كثيرة في الشرق والغرب ، ص ١٣ من طبعة زاخاو بلندن ١٨٨٧ » واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء . . . »

ولقد وهم كثير من أهل الرأى فى الهند، حين أقبل عليهم المسلمون فاتحين، أن هؤلاء الغزاة سينتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه مصير من سبقهم من اليونان والهون وغيرهم من الأمم التى وفدت إلى هذه البلاد فانصهرت جميعها فى بوتقة شبه القارة.

فما لبث هؤلاء المسلمون أن بلغ نفوذهم بالهند نفس الأثر العميق الذى وصله فى جميع الأقطار التى فتحوها، وهو مالم يرق إليه اليونان أو الرومان من قبل أو يبلغوه. فتم لهم بهذه البلاد نظير ماتم لهم بوادى النيل حيث حولوا شعبا، كانت له أقدم الحضارات، عن دينه ولغته وفنونه وثقافته إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم وفنونهم.

وآية ذلك أنه يشبه القارة الهندية اليوم ما يزيد على مائة المليون من المسلمين هندوكي الأصل فى الغالب. هذا كما نجد كثرة بالغة من السكان جميعاً تتحدث الأوردوية التى هى من مشتقـــات لغات المسلمين.

وكان مما ساعد على إقبال هذه الكثرة الغالبة من الهنادكة على الدخول فى دين الإسلام ما وجدوه فيه من عقيدة فطرة لا طبقات عندها ولا تفاضل بين أفرادها إلا بالتقوى(١)

---

١ — Havell. p 257

والفتح الإسلامى للهند ، باعتراف جمهور المؤرخين العدول ومن بينهم علماء الهنادكة ، كان فيه الكثير من الخير . هذا كما ترد صفوة تقاليد المجتمع الحديث بشبه القارة الهندية كلها إلى هؤلاء الفاتحين(١) الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنية الهندية إلى السير من جديد ، ونقلوا إليها كثيرا من فنون المعرفة عند المسلمين ، وأقاموا من أنفسهم رعاة على ذلك كله(٢) .

وبلغت الشخصية الهندية الإسلامية أوجها أيام الدولة المغولية التى حكمت الهند قرابة قرون ثلاثة إبتداء من القرن العاشر الهجرى الموافق للسادس عشر الميلادى . وفى عهدها وُحِّدت شبه القارة كلها تحت الراية الإسلامية .

ولقد خضع أهل الهند قرونا طويلة للحكم الإسلامى فلم يجدوا عنده عنتا ولا رهقا ، كما لم يصادفوا فى الغالب تقييدا لحريتهم الدينيـــة فعاشوا ، هنادكة ومسلمين ، متحابين فى كثير من الأحيان ، فى ظل سلاطين المسلمين .

والحكام المسلمون هم الذين قادوا الثورة التى نشبت بالهند فى

١ — Prasad. pp XXXVI XXXVII

٢ — Le Bon. pp 420 et seq

منتصف القرن التاسع عشر الميلادى لطرد المستعمرين البريطانيين من شبه القارة .

ويطلق البريطانيون اسم فتنة الغدر والعصيان على هذه الثورة التى تزعمها بهادر خان آخر امراء البيت المغولى ، بتعضيد ومعاونة الأفغان ، للقضاء على شرور شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت تبسط يدها على أجزاء كبيرة من هذه البلاد ، وبمعنى أوضح ، كان الإنجليز يحكمون هناك باسمها . وقد أفلح البريطانيون ، بمعاونة فريق من الهنادكة السِّك ، فى القضاء على الثوار الوطنيين الذين كانوا قد أنزلوا بهؤلاء المستعمرين ضربات شديدة حتى خلصوا من أيديهم أقاليم كثيرة لا سيما فى البنجاب وبهار .
ومن ثَم نفى البريطانيون الأمير المغولى من البلاد بعد أن قتلوا كثيرين من أبناء أسرته وذويه ، وفيهم أطفال دون السادسة . وأعلنوا من فورهم ضم شبه القارة الهندية لتاج ملكتهم فكتوريا .

ولم يكن البريطانيون هم أول من جاء الهند من جماعات الأوروبيين ، فقد سبقهم البرتغاليون إليها ثم جاء من بعدهم الهولنديون . ولحق الفرنسيون بالبريطانيين من بعد ذلك ، لكن الأخيرين استطاعوا بدسائسهم ، فى أوروبا على الخصوص ،

أن يحملوا لويس الخامس عشر ملك فرنسا على إخلاء أملاكه الهندية الواسعة.

وطفق الإنجليز، حين أخلى لهم الجو من منافسة الأوربيين بالهند، ينفخون فى نار الخلاف بين أمرائها ويثيرون النزاع بينهم بالدس والوقيعة، حتى انهكت قواهم فسقطوا فريسة سهلة.

وتم للبريطانيين السيطرة التامة على شبه القارة الهندية بمعاونة جنود من الهنود أنفسهم جذبتهم أموال المستعمرين الذين كانوا قد ابتزوها بدورهم من أمراء البلاد حين كانوا ينشدون عونهم على منافسيهم. وهكذا فتح الإنجليز الهند بأموالها ورجالها، وامتصوا خيراتها وبركاتها قرابة القرنين من الزمان. وبدعوى المحافظة على مواصلاتهم بالهند، دخل هؤلاء المستعمرون مصر ثم احتلوا وادى النيل كله واغتصبوا فلسطين التى تركوها أخيراً لليهود، كما اكتسبوا مزايا سياسية بالعراق ومشارف كثيرة بالشواطئ العربية. وداوموا، إبان ذلك كله، على إشعال نيران فتن متلاحقة بإيران بأمل أن يكون لهم الشرق كله فيما بين البحر الأبيض المتوسط والهند، على اختلاف دروبه ومسالكه.

واستيقظت الهند وغيرها من أمم الشرق التى بُليت بالبريطانيين، وطفق الوعى القوى فيها ينمو ويقوى، وأخذ أهلها يشعرون

بما فى السكوت على وجود المستعمر ببلادهم من خزى وعار .
وأخلى البريطانيون شبه القارة الهندية آخر الأمر عام١٩٤٦م وقد اتفق سكانها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما جمهورية باكستان الإسلامية وجمهورية الهند الهندوكية .

الفتوحات الإسلامية في شبه القارة الهندية

فتوح العرب بالسند

كان العرب وحدهم، فيما قبل الإسلام، واسطة مقايضات التجارة الهندية ماورد منها برا، عن طريق بلاد فارس ، فتولاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانىء الشام ، أو بحراً ، عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فحمله اليمنيون من أبناء سبإ القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين فى رحلة الشتاء ، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ليسيروا بدورهم بأكثره فى رحلة الصيف الى بلاد الشام ، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير .

هكذا كان العرب فى القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد فى غربها فاختلطوا بأهلها ولقوا فى الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ، ليعودوا إلى بلادهم فى كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات ، ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلىء الهند ونفيس معادنهـــا ومنسوجاتها

وعطورها وثمارها ثم سيوفها التى اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية فى أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة ومجمعها ، التى كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها . وقد تخرج على أيدى الهنود بمدرسة جنديسابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بن كلدة الثقفى ، طبيب العرب قبل الاسلام الذى قام على علاج الناس بفارس ، وطبّ بعض سراتها فأعطاه مالا وجارية هى سُمية أم زياد بن أبيه . (١)

وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا فى بلاد فارس المترامية الأطراف وطرقوا أبواب بلاد ماوراء النهر ، فعظم شأن الدولة الإسلامية بهذه الفتوحات الكثيرة المهمة وقويت دعائم الخلافة الأموية بها .

وعهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك ، بأمر القسم الشرقى من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان محبا للفتح ميالا إلى التوسع . فوجه جند المسلمين إلى بلاد ماوراء النهر فدخلت بخارى

١ ـ ضحى الاسلام لأحمد أمين . القاهرة ١٩٣٨ أول ص ٢٦٦

وسمرقند وخُجند وفرغانة حتى وصلت إلى قشغر على حدود الصين.

وكان من الطبيعى ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند، باب الهند ذات الثراء الطائل، الذى أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية.

هذا وكان العرب، أيام عمر، قد خرجوا، قبل فتحهم لفارس، فى حملات خفيفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراچى الحالية وبمباى، ولكن ثانى الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين، الحَكم بن أبى العاصى، عن المضى فى هذا الأمر، إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين شديد الحذر من « حمل الدود على العود » على حد قوله.

على أن الحكم شجعه ما غنمه فى غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفته طلبا للمزيد من الأسلاب وللتمكن من الاطلاع على أحوال تلك النواحى، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى ديبل عند مصب السند فى حين قصد هو بروج.

فلما فتح المسلمون العراق وفارس، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق، عبد الله بن عامر، أن يوجه إلى ثغور الهند مَن يُعلمه عنها، فوجه إليها حكيم بن جبله العبدى الذى بعث مخاوف الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها(١).

---

١ — فتوح البلدان للبلاذرى، ص ٤٣٢، ٤٣٨

ولم تنته خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قد فتحوا كابل وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره وأحواله جنوبا حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم قيقان السندى ليجىء المهلب ابن أبى صفرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو بنه والأهوار (لاهور) بين الملتان وكانه. وعدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام بالمناطق الشمالية لوعورتها ، فعادوا إلى حصر جهودهم فى المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطىء .

وبعث الحجاج، حين ولى العراق، بسعيد بن أسلم إلى مكران فخرج إليه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه ؛ إذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين فى هذه الجهات. وكانا قد لقيا عند داهر، ملك السند البرهمى، كل ترحيب حين لجآ إليه برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه فى بعض حروبه أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند التى غدت ملجأ للخارجين على الدولة ، لكن الخليفة لم يجبه الى طلبه. حتى إذا ما تعرض قراصنة من ميد الديبُل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من

المسلمين وأقاهم الأجل هناك ومعهم هدية من ملك هذه الجزيرة للخليفة ، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج ، حين ألح عليه فى تخليص نساء المسلمين من الأسر ، بعدم قدرته على لصوص البحر هؤلاء ، سير الحاكم الثقفى من فوره إلى دَيْبُل ، عبيدالله بن نبهان فى قوة انتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل . ولاقى بُديْل بن طهفة البجلى نفس المصير حين خرج من عمان بأمر الحجاج للغرض ذاته .

هنالك تبدى للحجاج مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر ، فما زال بالخليفة حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السند، فى الوقت الذى كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة .

واختار الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميرا للحملة السندية وطفق قائد هذه الحملة ، وكان يقيم إذ ذاك بشيراز ، يعد لها العدة طوال شهور ستة . وعُنى الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ماقد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال بل وكذلك بالخل (١).

وأقبل محمد بن القاسم ، وهو دون العشرين من عمره ، يغزو

١ ـ كان الخل يعالج بأن ينقع فيه القطن المحلوج فى الظل حتى يتشربه ويجف ، فاذا ، اريد استخراج ما به من الخل ثانية نقع فى الماء من جديد فيتحلل فيه .

بلاداً مترامية الأطراف متسعة الأرجاء، اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب حضارة ومدنية عريضة، وهو فى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم، وضآلة من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم.

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديبل فى اثنى عشر ألفاً من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم. أما عتادهم الحربى، وكان قد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران، فقد اتخذ طريقه بحراً، فالتقى الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٨٩ هـ / ٧٠٧ م

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديبل جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط)، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدنؤها.

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط. إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم فيها، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال.

ورابط الغزاة بخنادقهم بظاهر ديبل خلف أسوارها ، فأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد بن القاسم منجانيقه الكبير «العروس» ، وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه ، فدق بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى الرعب والفزع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقتحم المسلمون المدينة عليهم من بعد ذلك . واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وفلوله من الميدان.

وبنى القائد الثقفى بالمدينة مسجدا ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه فبلغ مدينة نيرون(١) على الضفة الغربية للسند . فما عتم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقة الدماء ، أن أبرزوا له عهدا بالأمان كانوا قد حصلوا عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده لهم بدوره .

---

١ — تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلا من مكران وتعرف ايضا باسم نيرانكوت وموقعها حيدر آباد السند الحالية . ويغلط بعض الكتاب فيكتبون نون الكلمة الأولى باءا وينسبون اليها على ذلك العلامة البيرونى ، وهو خطأ شنيع ، فدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هى باقليم خوارزم .

وفيما كان الغزاة على أهبة التقدم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطىء السند الشرقى حيث يرابط عدوه فى جموعه .

هنالك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجىء عدوه بعبور النهر اليه ليلا ، فلم يملك داهر إلا أن يرتد كرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان فى قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون ، برغم مواجهتهم فيلة الحرب لأول مرة ، وقُتل داهر ، وكان يمتطى فيلا اشتد به العطش فثار على فيّاله واندفع إلى النهر ، فترجل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلا (١) .

وبلغ الخبر رانى باى ، وكانت أختا لداهر تبنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفا من الجند ، أخذوا يقذفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط المشتعل وقطع الصخر، فلم يجدهم ذلك كله نفعا . هنالك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليلقين بأنفسهن فى

---

١ — تاريخ اليعقوبي طبع ليدن عام ١٨٨٣ — ثان ص ٣٤٦

النيران فلا يقعن بأيدى الغزاة(١) .

واستولى محمد بن القاسم فى راور على الكثير من أموال داهر وكنوزه . ووقع فى أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بعث بهم جميعا إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرفين حتى بلغوا مدينة برهمنآباد ، وكان قد فر إليها ابن لداهر ، يدعى چاى سنك ، بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها . واقتحم الغزاة المدينة على أهلها بغتة وعنوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالا مستجيرا بملك كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادهى وبعض بناته . إذ أذهلتهم المفاجأة عن سلوك السبيل الذى سلكته رانى باى وصويحباتها فى راور من قبل .

وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين هناك وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر(٢) .

---

١ ـ Prasad. Med. India pp 42,43

٢ ـ « « Muslim Rule in India 1938 pp 29.30

وبلغ الجيش العربى الرور (١)، عاصمة داهر، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح، فى سبيل حث قومه على المقاومة، يلقى فى روعهم أن ملكهم إنما قد اختفى ليعود إليهم فى القريب بجند وسلاح كثير. واستماتت الهنادكة فعلا فى مقاومة الغزاة ودفعهم دفعا شديدا. حتى إذا ما فطن محمد بن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادى أرملة داهر، وكان قد بنى بها، فنادت فى قومها بأدنى الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم، فانهارت قواهم على أثر ذلك بعد ماعانوا طويلا من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم.

وعبر الغزاة من بعد ذلك بياس، رافد السند، إلى مدينة الملتان، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليهم شهورا ستة نفدت فيها مؤنهم فطعموا الحُمُر. حتى أتاهم رجل مستأمن دلهم على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان، فقطعوه عليهم، فنزلوا إلى قتالهم فى معركة شديدة استمرت اياما سبعة اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدينة كلها.

وفى الملتان، آخر حصون السنديين الكبرى، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار، وأصحاب الحرف فى عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات، الذين كانوا يعانون من ظلم

---

١ — تعرف هذه المدينة أيضا باسم آلولى.

البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربي وكرمه وكفه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعلنوا جميعا ولاءهم له فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقربا منه ، على مكان خفى بأحد المعابد القريبة كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بادىء الأمر ، فحمل إلى دمشق عشرون ومائة ألف ألف درهم دون أن يضار الأهلون فى أموالهم أو يفرض عليهم من الغرم مالا يطيقونه[1] .

وهكذا كان لحميد مسلك ابن القاسم مع الأهلين،فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على اموالهم وانفسهم ، واطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيرا على توطيد مركز المسلمين هناك[2] .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى

---

١ — تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى طبع بولاق ١٣٠١ هـ مجلد ٤ ص ٢٠٩

٢ — Dunbar, India p 89.

البنغال ، فأجابه الى طلبه وشجعه على المضى فى خطته .

هنالك بدأ محمد بن القاسم ، أولا ، بإيفاد بَعْثة من رجاله إلى صاحب قنوّج تَدعوه إلى الإسلام أوالجزية . حتى إذا ماردّ الملك الوفد ردّا غير كريم ، أخذ الفاتح العربى يعُدّ العدّة لغزو عدوّه ، فجهز لذلك جيشا فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه قائد أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هذه حتى وافته الرُّسل تنبئه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبدالملك من بعده وانتقال الخلافة إلى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم إليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج وينقم عليه لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا . ولم يمنع موت الوليد،قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من إنزال نقمته، فى عنف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

ولقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة ، بل ويرفض المسير إليه مستقلا بما فتح من بلدان وما استولى عليه من اراض،وهو الذى أمكن له أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لا تتجاوز سنوات ثلاثا ، صار من بعدها يتمتع بمحبة الأهلين وولائهم له هناك ، ولكنه آثر ألا يشق عصا

الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجسه الشر منه .

فحُمل مقيدا بالأغلال حتى بلغ باسط فلقى بها من العذاب النُكر ، على أيدى أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقى حتفه ، فبعثوا برأسه إلى دمشق .

وترُد بعض الروايات غضب الخليفة الأموى على محمد بن القاسم إلى عبثة بسبي الهند إلى دار الخلافة ، وكان فيه ابنتان لداهر هما بارمل ديوا وسوراج ديوا . فما إن اختلتا بسليمان حتى صرحتا له باعتداء الفاتح العربى عليهما قبل مسيرهما إلى دمشق ، فهاج للخبر وأمر بقتل ابن القاسم وأن يُحمل إليه فى جلد ثور محشو بالتبن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن الأميرتين حين عُرض عليهما رأس القائد الثقفى ، عدلتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه بما يحملانه من ضغينة وحقد لقاتل أبيهما ، فسبقتا إلى حتفهما بافترائهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .

وفتر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى شبه القارة الهندية ، إذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الأموية . فى حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمت رقعة الدولة الإسلامية

وترامت أطرافها . يضاف إلى ذلك أن الولايات السندية ، فضلا عن جدبها النسبي وضعف خراجها ، كانت لاتزال محوطة فى الشمال والشرق بإمارات قوية يحكمها الهنادكة . كما كان سكان البلاد أنفسهم قد طفقوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا فى الغالب عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم .

وهكذا شُغل أكثر الولاة المسلمين فى السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدّى فى المضى فيما بدأه محمد بن القاسم من الفتوح . وأخذت الاضطرابات تنتشر فى السند حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك من النزارية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها فى اراضى الدولة الإسلامية الواسعة ، سواء فى أرض الشام أو بلاد الأندلس أو السند ، إلا واعتركوا فيما بينهم بها . وزاد من تفاقم الأحوال بالسند نفاذ الخوارج والشيعة والقرامطة إليه ، فانكمشت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله فلم يبق لهم إلا المنصورة والملتان .

وتفصيل ذلك كله أنه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد بن أبى كبشة السكسكى من قِبل سليمان بن عبد الملك ،

ولكنه ما لبث أن قضى على أثر وصوله بأيام قليلة . وأدى اضطراب الأحوال على أثر هذا الحادث إلى أن انتهز چاى سنك ابن داهر المقتول هـــذه الفرصة فانقض على مدينة برهمنا باد فاستخلصها لنفسه، فلم يستطع حبيب بن المهلب حين ولى السند أن يستردها منه . حتى إذا مابعث الخليفة عمر بن عبد العزيز بعامله عمرو بن مسلم الباهلى أخى قتيبة إلى هذه البلاد فأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، صادفه التوفيق والنجاح فيما نُدب له حتى أقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فأقره على إمارته .

وحاول فريق من آل المهلب ، عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطغيانهم وتبديدهم لأموال المسلمين ، أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لاذوا بها ، لكنهم باءوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهـــد هشام بن عبد الملك إلى جُنيد ابن عبدالرحمن المرى . وكان حاكما حازما استرد إمارة برهمناباد من أيدى چاى سنك بعد أن قتله ، كما سيّر جنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والكجرات عندشرقى السند وجنوبه

الشرق . حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العتبى أضاع بتردده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك الحكم بن عوانة وفى صحبته عمرو بن محمد بن القاسم ، الذى انفرد بالحكم من بعده . وفى عهدهما بُنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة على شاطئ السند ، غير بعيد من برهمنا باد . وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين فيما بعد ، وموقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند هذا وقد نهج عمرو خاصة نهج أبيه محمد بن القاسم فى الحزم والعدل وأحيا سيرته فى التسامح الدينى وإطلاق حرية العبادة للهنادكة .

واقتحم السند على يزيد بن غرار ، خليفة عمرو هناك ، ثائر من الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جمهور الكلبى فاغتصب هذه الإمارة عام ١٣٠ ﻫ لنفسه .

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية ، فعهد السفاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبى مسلم الخراسانى الذى بعث بدوره إلى السند بعبد الرحمن بن أبى مسلم العبدى ، ليفشل فى طرد جمهور بن منصور الكلبى منها ويلاقى حتفه على يديه . حتى وفد موسى بن كعب التميمى فما زال بالثائر الكلبى يطارده إلى أن هلك فى الصحراء عطشا ، فى حين لقى أخوه نزار

مقتله على يديه . وطفق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة بنى العباس ويعمل على التفافهم حوله، فجدد بناء المنصورة وأقام بها مسجدا جديدا . وبلغ بجنده بعض غزوات موفقة .

وخلف المنصور السفاح فبعث إلى السند بعمر بن حفص . وكان هذا الوالى الجديد ، الذى عرف بحسن تدبيره وحزمه ، على تشيع وثيق للعلويين دون الجهر ، حتى رحب فى بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هاربا من وجه العباسيين . فكان عهده هذا هو بداية انتشار التشيع بالسند . ذلك أن عبدالله ابن محمد الأشتر الحسنى العلوى كان قد ورد السند مستترا فى هيئة التجار(١) ، فما إن عرف بميل أميره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمره فنال عنده كل حظوة ورعاية . ولكن كان أن خاف عمر بطش الخليفة فأنزل العلوى مع أتباعه عند أمير هندركى فى أحد البلاد المجاورة ، مواليا رعايتهم والعناية بأمرهم فى الخفاء . ومضت سنوات عشرة على هذا الحال حتى علم الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندوكى ومطاردة الشريف العلوى . وما إن أحس الخليفة بمماطلة عمر فى

---

١ ــ تاريخ الطبرى طبع القاهرة ١٣٢٣ هـ المجلد التاسع حوادث سنة ١٥١ ص ٢٧٩ ــ ٨٠

تنفيذ ما أمره به حتى نقله إلى شمال إفريقية ، بعد أن كاد يفتك به ، وبعث مكانه بهشام بن عمرو التغلبي .

كذلك قصد السند أيام ابن حفص داعيــــة من الخوارج يدعى حسان بن مجاهد الهمدانى ، لكنه لم يجد لدعوته سوقا رائجة ، فقد لحظ شدة ميل الأهلين إلى التشيع فرجع من حيث أتى :

على أى ، فإن الدعوة الشيعية بالسند لم يظهر أثرها قويا إلا بعد مضى زمن طويل على هذا الحادث ، فقامت لهم دولة إسماعيلية حكمت هناك سنين عدة حتى قضى عليها محمود الغزنوى حين فتح هذه البلاد .

وحرّض الخليفة العباسى عامله الجديد على القضاء على الشيعة وأنصارها بالسند ، ولم يكن يدرى ميل هشام بدوره خفية إليهم . ولكن حدث لسوء حظ العلويين أن خرج السفنّح أخو هاشم إلى الحدود فصادف عبدالله ورهطه ، فقتل العلوى وفريقا من أتباعه ، وبعث برأسه إلى الخليفة ، فأسقط فى يد هشام ولم يسعه بدوره إلا التظاهر بتدبير هــــذا الأمر اتقاء لنقمة مولاه وعقابه .

هذا وقد سكتت المصادر التاريخية كلها عن ذكر اسم الأمير الهندوكى ، الذى كان العلوى قد لجأ إليه ، أو اسم إمارته .

واتجهت همة هشام إلى توسيع رقعة إمارته ، فغزا إقليم الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب ، وكان بها جالية إسلامية كبيرة ، كما أخضع الملتان كله ، وبلغت جنده كابل وكشمير. وكلف هذا الأمير بالأدب حتى قصده فريق من الشعراء منهم مطيع بن إياس

وتولى المهدى الخلافة ببغداد فعنى بنشر الإسلام بالسند عناية كبيرة صادفه التوفيق فيها ، إلا أن اشتداد النزاع بين القبائل العربية التى كانت قدها جرت إلى هناك منذ بداية الفتح العربى ، أخذ يضعف من سلطان الحكومة السندية ويحد من قوتها ونفوذها فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على فتن هذه القبائل فى الداخل أن طفق الأمراء الهنادكة بظاهرها يغتنمون كل ما يلوح لهم من الفرص لاقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى أماراتهم . حتى جاء السند بعد وفاة المهدى العباسى ، الليث بن ظريف فسلك طريق الشدة معهم والعنف فأمكن له أن يؤمن أحوال البلاد ويقضى على ثورات هذه القبائل العربية ولكن إلى حين . ذلك أن داود بن يزيد بن حاتم المهلبى حين آلت إليه إمارة السند عام ١٨٤ ﻫ مال إلى التخلف ببغداد فأوفد أخاه المغيرة نائبا له هناك — وهو سنة ابتدعها كبار الحكام

وراجت على الخصوص إبان ضعف الدولة ، أعنى بقاء الأمراء ببغداد تربصا بالحظوة والنفوذ وزيادة فى الترف وإرسال نواب عنهم إلى ما يتقلدونه من الامارات — فإذا بهذه القبائل تطالبه بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاثة فقسم لقريش وثان لربيعة وثالث لقيس . فلم يتمكن المغيرة من كبح جماح هذه القبائل إلا بعد أن استعان عليهم بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد فحاصروا المنصورة عاصمة السند ، عشرين يوما استسلم لهم الثائرون من بعدها .

ولبث داود بن يزيد يحكم السند عشرين عاما مرض فى أثنائها الرشيد ، فأوفد لعلاجه بعض أطباء الهنود . وكان شفاء الخليفة العباسى على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبها . وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ثبت لأسماء الأطباء والصيادلة الهنود الذين نزحوا إلى بغداد فأفاد الناس منهم .

وخلف بشر أباه داود فسار سيرته فى الحزم . حتى إذا ولى السند موسى بن يحيى بن خالد البرمكى عمد إلى محاسنة زعماء العرب هناك ومحاولة فض ما بينهم من المنازعات بالمودة ، ثم صرف همته من بعد ذلك إلى تعمير البلاد فشق كثيرا من الطرق وأقام دور الشفاء . وخلفه ابنه عمران فبنى مدينة البيضاء بإقليم قيقان ، بعد

أن انتزعه من الزط، كما قضى على ثورات الميد وقتل بضعة آلاف منهم. وانتهز النزاريون فرصة انشغال عمران بإطفاء فتن الميد والزط، فثاروا عليه واتهموه بتحيزه لليمنيين وتفضيله لهم عليهم. وانتهت منازعتهم معه إلى مقتله على أيدي زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهباري [١]

وهكذا استولى زعيم القرشيين على المنصورة ليكتب منها عام ٢٤٠ ﻫ الى المتوكل العباسي معلنا ولاءه له وإخلاصه فيثبته بذلك على إمارة السند.

والملحوظ أن ولاء أغلب حكام الولايات الإسلامية للخليفة، لاسيما ما كان منها على مبعدة من بغداد، غدا، قبيل منتصف القرن الثالث الهجري، مجرد مسألة شكلية اسمية.

وبلغ من إهمال الخلافة لشأن السند أن رأينا الخليفة الضعيف المعتمد العباسي يقطعها للصفاريين هي وبلخ وطخارستان وسيستان وكرمان علّه بذلك يخفف من شدة ضغطهم على العراق.

وولي أمر السند أمراء ضعاف من أبناء عمر بن عبد العزيز الهباري لم يحالفهم التوفيق في تأمين الأحوال ببلادهم. وما عتموا

---

١ ـ كان جد هذا الامير قد قدم السند مع الحكم بن عوانة الكلبي. البلاذري ص ٤٤٦.

أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قريش ، حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة التي كانت أرضها تنحصر بين الرور وشاطىء البحر. في حين حكم إقليم الملتان أسرة قرشية أخرى من بني منبه،[1] بقيت فيه حتى انتزعه الإسماعيليون الشيعة منها .

ذلك انه كان قد قدم السند في بداية القرن الرابع الهجري دُعاة للفاطميين وعلى رأسهم من يدعى الهيثم رسول عبد الله المهدى . ثم توالى دعاة الاسماعيلية على هذه البلاد حتى جاءها قائد قدير من قوادهم وداعية من خير دعاتهم يدعى جلم بن شيبان. فما غدا حين قدم الملتان ، فالتف حوله القرامطة ، الذين كانوا قد نفذوا إليها قادمين من البحرين وبلاد فارس ؛ — أن استغل ما كان فيها من اضطرابات حتى تمكن آخر الأمر من الاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . فكانت حكومته هذه أول دولة إسماعيلية عرفتها شبه القارة الهندية كلها .

وسلك جلم سبيل العنف مع سكان البلاد ، مسلمين وهنادكة

---

١ — المسعودى ، مروج الذهب طبع القاهرة ١٣٤٦ ه اول ص ٩٥ « أدرك المسعودى عام ٣٠٢ ه بالمنصورة عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهبارى أبو المنذر القرشي ، وأدرك بالملتان أبا اللباب المنبه بن الأسد القرشي وهو من ولد أسامة بن لؤى بن غالب »

على السواء ، فأغلق المسجد الجامع الذى كان قد أقامه محمد بن القاسم كما هدم المعبد الهندوكى بها وكان المسلمون يبقون عليه ضمانا لتجنب مهاجمة الهنادكة المدينة .

وتولى حكومة الإسماعيلية ، من بعد جلم، الشيخ حُميد وهو الذى وجده سبكتكين الغزنوى بالملتان فهزمه ليخلفه أبو الفتح داود القرمطى حفيده . وما زال محمود الغزنوى يطارد داود وقومه حتى قضى على حكومتهم .

وقد انتهى أمر بلاد السند كلها إلى استيلاء الغزنويين عليها حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى ، فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة فى تاريخ شبه القارة الهندية كلها . أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب .

نتائج الفتح العربى للسند .

لقد وفد على السند أفخاذ من القبائل العربية ، التى كان قوام جيش الفتوح فى الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أصهروا إلى أهلها بعد قليل على مافعل أفخاذ أخرى لهم بأغلب البلاد التى فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بين السنديين بفضل من

صـــاحب حكامهم وأمراءهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث . فلم يمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طفقت أفواج من اهله تترى تشارك فى بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز فى ميادينها . وكان منهم علماء فى الحديث واللغة والأدب مثل أبى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى ، وابن الأعرابى اللغوى ، أستاذ ثعلب وابن السكيت ، وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر (١) ثم أبو على السندى وأبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتصوف.

وغنى عن البيان أن العرب كانوا فى أول عهدهم بالفتوح يكلون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلة درايتهم بها إذ ذاك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم فى الغالب بالقضاء وشئون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسُنّة .

ولئن قيل إن الفتح العربى للسند كان من الناحية السياسية حدثا لا اهمية له فى التاريخ الإسلامى إلا أنه صير هذه البلاد جزءا من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكامها، لئن قيل كذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا نشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب إسلامهم إليها، فقد كان لهم الفضل، أكبرُ الفضل، فى

---

١ ــ ضحى الاسلام ص ٢٤٢ ــ ٢٤٤

إعادة الاتصال الثقافى بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرقين الأوسط والأدنى .

وقد جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الإسلامية . ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجـــدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة مابهرهم . فالفلسفة الهندية، وفروعها من الفلك والطب والرياضيات،كانت قد بلغت من الرقى والتقدم شأوا بعيدا وغدت تزخر بنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنـــون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لاسيما ما كان منها خاصا بعلم الكلام والتصوف .

ويقول Havell « إن المسلمين مدينون للهنادكة أولا[1] لا لليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجر حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها » . ويؤيد رأيه هذا أن أول كتب فى الفلك والرياضيات حملت الى بلاط الخلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسى ، هى كتاب براهما سِدْهانتا لمؤلفه العالِم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب السِّند هِند

---

١ — Havell. pp 254-56

وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه الى عام ٤٢٥ ق . م ، وكتاب كهند كهاديكا المعروف باسم ارْكنْد ، ثم كتاب آريه بهُت المعروف باسم أرجَبهَذْ أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود . ومن أول هذه الكتب يُظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسابية والنظام العشرى . وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام[1] .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم ابن حبيب الفزارى وأبى الحسن الأهوازى ويعقوب بن طارق .

عرف العرب هـــذا كله عند الهنادكة قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطى ، لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التى برّ فى أغلبها اليونان الهنادكة وغيرهم[2] .

---

١ — الهند وجيرانها ص ٢٣٦ ، ٣٧ .

٢ — تاريخ الفلسفة الاسلامية لدى بور ترجمة الدكتور أبو ريدة القاهرة ١٩٣٨ ص ١٣ ، ١٤

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سدنة بوذيين فى الغالب [٢] فعنوا بأمر الهند فى دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكماءها على حد قول صاحب الفهرست . فجلبوا منكة الطبيب الهندى الذى نجح فى علاج الرشيد فنال الحظوة عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن دهن الذى عُهد اليه بادارة دار الشفاء . ثم ابن بهلة الذى تولى علاج إبراهيم بن صالح عم الرشيد فشفى بعد أن كان ابن بختيشوع، طبيب الخليفة، قد جزم باستحالة برئه .

هذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الهند الأخرى وعقائدها وأحوالها ، تلك الدراسة التى وصلت إلى أكمل صورها فيما بعد عند أبى الريحان البيرونى فيما تركه من كتب ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ، علامة العرب، بذكر الهند فى بيانه فيقول: « إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم »

---

١ — بدء العلاقات العلمية بين العرب والهند — للدكتور السيد محمد يوسف الهندى ، (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٢ ح ١ سنة ١٩٥٠ ص ١٠٤ ومابعدها .

الغزنويون وخلفاؤهم

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجرى ، إلا احتلالاً لولاية واحدة فى أقصى الغرب ، لا هى بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة .

وبدأ الغزو الاسلامى لهذه البلاد فى اوسع مداه حين شرع الغزنويون الأتراك ، أواخر القرن الرابع الهجرى ، يطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها ، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزنة وسيستان ولمغان وخراسان واغلب بلاد ما وراء النهر .

واقد وقعت فى الفترة ما بين الفتحين العربى والتركى للهند أحداث خطيرة متنوعة فى العالم الإسلامى . فقد زالت الدولة الأموية التى عرفت بتعصبها للعنصر العربى ، وكان مما عجل بسقوطها اشتداد النزاع القبلى بين العرب أنفسهم من جهة ، واستعلاء هؤلاء العرب على غيرهم من المسلمين من جهة أخرى ، الأمر الذى نتج عنه ظهور الشعوبية واشتداد ساعدها .وخلفهم العباسيون فنقلوا

العاصمة من دمشق إلى الكوفة ثم بغداد، وأخذوا ينفضون أيديهم من العناصر العربية فى وظائف الدولة ومناصبها ويستعيضون عنهم بالعناصر الفارسية فى المناصب المـــدنية على الأخص، وبالأتراك فى الجيش والحرس الخاص.

وهكذا أخذ المغلوبون يستردون سالف سلطانهم بالتدريج، بل ويفرضونه على الغالبين، حتى دب الانحلال فى أوصال الدولة نفسها وطفق فريق من القواد يستقلون بأجزاء منها مع ولائهم الأسمى لخليفة بغـــداد، فظهرت الدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها.

واشتد نفوذ العنصر التركى بالبلاط العباسى، فما غدا أن طغى على ما كان للعناصر الفارسية من سلطان. فصار الخليفة العباسى آلة فى أيدى رجال بلاطه من الترك، يرضون عن أمير فيولونه الخلافة ثم يغضبون عليه وينقمون فيسملون عينيه ويعزلونه. ولم يقصروا نفوذهم بطبيعة الحال على دار الخلافة فحسب، فقد صار كثير منهم حكاما فى ولايات الخلافة فيما بين مصر وبلاد ما وراء النهر.

وعظم شأن الأتراك فى شرق الإمبراطورية الإسلامية فورث الغَـزنويون والقرْخانيون[1] دولة بنى سامان الفارسية.

---

١ ــ وهم الايلكخانيون قوم بغرا خان قشغر الذى دخل وقومه الإسلام فى =

ودفع بالأولين طموحهم إلى التطلع للفتح والغزو فولوا وجوههم قبل شبه القارة الهندية .

وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية غزو المسلمين الحقيق لشبه القارة الهندية ، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفاتحين إلى اتخاذهم من هذه البلاد مقاما دائما لهم .

ومؤسس الدولة الغزنوية التى اقتحم أصحابها الهند هو سبكتكين ، وكان غلاما لألبتكين صاحب غزنة ، جلب من تركستان إلى بخارى فنيسابور(١) ، ثم خلف سيده عليها عام ٣٦٧هـ / ٩٦٦ م واتصف سبكتكين هذا بالطموح وقوة العزيمة ، فأفلح فى توحيد صفوف الأتراك والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان

= القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هرون بن سليمان. مقال للاستاذ حمزة طاهر عن السلاجقة بمجلة الثقافة عدد ٩٦٩/٧/١٩٤٧

Barthold, W. Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Paris 1943. p 80

١ ـ يذكر بعض المؤرخين ان سبكتكين هو من أحفاد يزدكرد شهريار آخر ملوك فارس قبل الاسلام ، وأن أسرته كانت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان لاجئة فاختلطت بأهلها ، فلم يمض جيلان حتى تركت . وهو قول مرفوض ، ذلك أن أغلب الموالى الذين بلغوا رتبة الامارة قد ادعوا بدورهم لأنفسهم مثل هذا الادعاء طلبا لمراقة النسب وفى تاريخ البيهقى ـ نقله الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت ـ ص ٢١٦ ـ ٢١٨ بيان شامل عن أصله

وسيستان وخراسان ثم استدار بهم من بعد ذلك واندفع عبر مسالك الهندكوش الوعرة يبغى الجهاد بغزو بلاد الهنادكة .

وحين التقت جنده بجيش جيپال ، راجا بها تنده ، الذى كان يحكم مملكة واسعة تمتد من سر هند إلى لمغان ، أى من الكنج إلى الأفغان ، ومن كشمير إلى الملتان ، روّع الهنادكة ، فأرسل أميرهم من فوره ، بظاهر لمغان ، يعرض الصلح على جزية كبيرة مع اعترافه بسيادة أمير الأمراء الغزنوى . لكن الأمير محمود مازال بأبيه حتى صرفه عن قبول عرض الهندوكى ولا يشترى به مثوبة الجهاد فى سبيل الحق .

ولم ييأس جيپال حين بلغه هذا النبأ ، فكتب إلى سكتكين من جديدة يهدده بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذا ما ألمت بهم نازلة ، فهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يعرضون انفسهم على سيوفهم ورماحهم فيزهقون أرواحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا خرائب ورمما .

هنالك قبل صاحب غزنة الهدنة على جزية مقدارها ألف ألف درهم ، وخمسون فيلا من فيول الحرب ، وقدر من الحصون والبلدان .

ونكث الأمير الهندوكي عهده ، حين زج فى السجن بفريق من رجال غزنه الذين كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ ما صالح عليه سيدهم ، فجعلهم عنده عوضا عن رهائنه لدى سبكتكين. وأثارت أخبار الخيانة والغدر ثائرة الأمير الغزنوى فانطلق من فوره إلى أرض عدوه .

وبرغم التفاف أصحاب آچمير ودهلى وكالنجر وقنوج حول چيپال ، وما تهيأ لهم جميعاً من جند كثيف نيف على مائة ألف من المقاتلة ، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراچپوتيين هذه هزيمة حاسمة ، اضطروا من بعدها إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيول وعشرة آلاف من رءوس الخيل سيقت كلها إلى بشاور [١] .

هذا وقد أدار صاحب غزنه دفة القتال فى مهارة فائقة . ذلك إذ عبأ جنده القليل فى وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم فى الجبهة حتى أرهقوا عدوهم فأجهزوا عليه .

وكان من أثر انتصارات سبكتكين الباهرة هذه أن رجعت

---

١ — تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى القاهرة ١٢٨٦ هـ أول ص ٨١ — ٨٦

قبائل الأفغان والخلج عن عصيانها ولزمت طاعته والولاء له .

ولئن لم تكن حروب سبكتكين الهندية هـــذه إلا مجرد غزوات ، فهي التي مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد على كل حال .

محمود الغزنوى

ومات سبكتكين فى شعبان من عام ٣٨٧ هـ/٩٩٧م بعد أن حكم بلاده عشرين عاما ، تاركا من ورائه مملكة واسعة الرقعة مرهوبة الجانب .

ولأمر ما ، كان الأمير الغزنوى قد عهد قبل وفاته إلى ابنه الضعيف إسماعيل برغم ما عُرف عنه من اعتداده بابنه الأكبر يمين الدولة محمود، اعتدادا شديدا حتى كان يروى للناس أنه تمثل له فى الرؤيا قبل مولده شجرة نبتت فجأة فى بستان داره فأخذت أغصانها تمتد فى كل اتجاه حتى أظلت العالم أجمع .

على أن محمودا استطاع بعد أشهر قلائل من وفاة أبيه أن ينزع الملك من أخيه على كل حال وينفرد بالأمر .

وما لبث محمود أن ورث ملك السامانيين كله فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى، وهزم

السلاجقة والقره خانيين وتوغل فى بلاد فارس وملك إقليم قزوين . هـــذا كما فتح بلاد الغور فى الهندكوش ، فيما بين غزنه وهراة ، ونشر الاسلام بين أهلها على نطاق واسع أول مرة .

ولقد راح محمود يعلن من بادىء الأمر ، أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه فى سبيل نشر تعاليم الإسلام الصحيحه والقضاء على الفرق المضللة من رافضة وقرامطة وغيرهم . وكان يكتب فى أثر كل نصر يحرزه إلى الخليفة العباسى ببغداد يزف إليه النبأ فيصل إليه منه التشجيع والتعضيد والدعاء .

وهكذا امتد سلطان محمود إلى آفاق بعيدة ، وذاع صيته فى أنحاء بلاد المسلمين . وما لبث هذا الأمير المحارب أن ولى وجهه شطر الهندستان التى رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبعة وعشرين عاما ، فيما بين عامى ٣٩١ هـ/١٠٠٠ م و ٤١٧ هـ/١٠٢٦م ، حتى خضع له شمال شبه القارة الهنديه من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن .

هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه فى غزواته لها من قبل مما يسر له الاطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها .

ولم تعد وأولى غزوات محمود الهندية تملكه بعض الحصون عند الحدود فولاها بعض رجاله. ثم رجع إلى الهند من جديد فى شوال من العام التالى ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م على راس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو أبيه السابق، چيپال راجا بها تنده، عند بشاور، وكان الأخير فى اثنى عشر ألفا من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيول.

واستعر القتال بين الفريقين فى المحرم من العام التالى حتى أبيد من الهنادكة خمسة عشر ألفا وسقط أميرهم نفسه وفريق من حلفائه فى أسر السلطان الغزنوى.

ورضى محمود آخر الأمر أن يفك إسار خصومه على أموال طائلة وعدد كبير من فيلة الحرب، ورهائن كان من بينها ابن الچيپال صاحب لاهور وواحد من حفدائه.

ولم يقوَ الأمير الهندوكى على احتمال ما لحقه من عار الاندحار، فما لبث حين آب إلى دياره أن عرض نفسه على النار، وفق رسوم قومه، تكفيراً له عما ناله من هزائم متكررة على أيدى غزاة بلاده.

واتجه السلطان الغزنوى فى غزوته الثالثة عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ — ١٠٠٥ م إلى بهيرة، على جهلم أحد روافد السند، فضمها إلى ملكه، ثم تركها إلى الملتان مقام أبى الفتح القرمطى

الذى مالبث على أثر علمه بهزيمة حليفه أمير لاهور ، أن سعى إلى محمود يعرض عليه توبته مع طاعته ، على جزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب .

وبلغ محمودا وهو بالهند أخبار مهاجمة أمير قشغر لأملاكه ، فأسرع بالعودة إلى بلاده بعد أن عهد بأملاكه هناك الى حفيد اجپپال كان قد انضم إليه وأسلم على يديه. وهو الذى تعرفه الكتب العربية باسم نواسه شاه حفيد السنسكريتى .

على أن صاحب غزنة لم يكد يستقر فى عاصمته بعض الوقت، بعد أن أمن حدوده ، حتى بلغه خروج نائبه بالهند على سلطانه فسارع إليه من فوره ، فلم يرجع عنه حتى افتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم.

وتحالف دواد صاحب الملتان مع آننچپالا صاحب لاهور وابن چيپال سالف الذكر على خلع طاعة محمود من جديد ، واستنهض الأخير لشد أزره همم الامراء الراچپوتيين ، أشجع من عرفتهم الهند ، وفيهم راجاوات أوچين وكواليار وكالنجر وقنوج ودهلى وآچمير . ولم يكن أمراء الهنادكة هؤلاء ليتقاعسوا بطبيعة الحال عن نجدة واحد منهم ، وقد تكشف لهم مدى مايتهددهم من أخطار على أيدى السلطان الغزنوى .

وزحفت جيوش الهند مجتمعة للقاء جند المسلمين بأرض

البنجاب ومن ورائها الشعب الهندوكي يتفانى أفراده فى مدها بالزاد والعتاد فى حماس بالغ دفع بالنساء إلى تقديم حليهن فى سبيل الدفاع عن الوطن . وبرغم كثرة من هلك من جند المسلمين ، فقد واصل محمود القتال برجاله الستة الآلاف فى عنف بالغ وجلد زائد. حتى اذا مالوى آنندپالا زمام فيله طلبا للهرب ، أفزع الرعب صفوف الهنادكة الكثيفة فراحت الجند بدورها تلتمس الفرار . وهكذا قضى صاحب غزنة آخر الأمر القضاء التام على جيوش الهند المتحدة واستولى على ما كان معها من عتاد طائل وكنوز . انطلق من بعد ذلك قائداه عبد الله وأرسلان يطاردان فلول العدو المنهزم يومين كاملين .

واندفع محمود إثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن نكركُت ، الذى يعرف أيضا باسم بهيمنكر ؛ وكان يقوم على تل فى منطقة السهول الفنية بسفوح الهملايا ، وبه كانت تكدس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة إلى آلهتهم . وما لبث حراس هذا الحصن ، وكانوا كهنة مسالمين ينكرون الحرب وإراقة الدماء، أن استسلموا للغزاة دون قتال .وقد وصف العتبى مؤرخ السلطان محمود، ما كانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال: «نقل

منها (أى محمود) ما أقلته ظهور رحاله واستحمل سائرها أعيان رجاله [1] » .

هذا والواقع أن الهند كانت ومازالت إلى قرون قليلة تزخر دور أعيانها وحصون أمرائها بثروات وكنوز طائلة مما لا تكاد الأذن تصدقه . وقد رجع محمود من إحدى غزواته ذات مرة ومعه أربعة آلاف بعير تكاد تنوء بأحمالها من الأموال والغنائم . بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أوانى الفضة لثقلها اكتفاءا بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر . ومن المعروف المشهور أن أدوات المعابد الهندية وأكثر الآنية التى كان يزخر بها دور الأغنياء ، لم تكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص، وكذلك السكة المتداولة بين الناس .

ولئن كانت فكرة الجهاد التى تسلطت على محمود ورجاله وأشربت بها نفوسهم ، هى التى دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند، هذا بالإضافة إلى ما كان لكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من إغراء ، فقد كان من العوامل البارزة التى ساعدت على انتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمراء الهنادكة من تحلل اجتماعى جعلهم ابدا يقدمون مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شىء

---

١ — العتبى ثان ص ٩٩

ولا يبغون عنها حولا ، ولو حتى بقدر ضئيل، فى سبيل الهند أمهم الكبرى . وهكذا كانت الثقة والتماسك والتعاون لاوجود لها بينهم ، فلم تغن بذلك كثرتهم البالغة عنهم شيئا أمام الغزاة الذين كانوا على قلة عددهم مجتمعين على إخلاص تام لهدفهم فى تعاون ونظام وثيق محكم.

وضاق محمود آخر الأمر ذرعا بمؤامرات داود القرمطى ، صاحب الملتان ، فخرج إليه من جديد عام ٤٠١ هـ/ ١٠١٠م بعد أن قضى على فتن بلاد الغور ، فما زال به حتى أوقعه فى أسره فحبسه فى حصن جوراك ، فلم يرجع عن الهند حتى قضى على دولته قضاء تاما وخرب المنصورة قاعدته .

هذا كما طارد جند غزنة راجا بهيمپال ، حفيد جيپال ، حتى كشمير . وإلى محمود يُرد الفضل فى نشر الإسلام بهذا الإقليم الجبلى الواسع .

كذلك تمكن السلطان الغزنوى من انتزاع حصن ثنيسر من جموع الهنادكة الحربية التى استماتت فى الدفاع عنه ، فحطم ما كان به من اصنام واستولى على ما وجده به من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا دان للغزاة إقليم البنجاب كله وماحوله ، فأصبح الطريق إلى سهول الهند نفسها ممهدا أمامهم . وهاهم أولاء يتضاعف عددهم

يوما بعد يوم بفضل ما كان يفد إليهم من محاربى خراسان والتركستان وبلاد ما وراء النهر الذين استهوتهم انتصارات محمود الكثيرة وغنائمـــه التى لا تدخل تحت حصر فسار بهم وجهتـــه قنوّج ، درّة ولايات الهند الشمالية واقدمها . فما إن عبرت جند المسلمين چمنه حتى برز اليهم هار دانا ، راجا باران التى تعرف اليوم ببُلند شهر ، ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا ، على حد قول ابن الأثير ، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

وما لبث حصن مهاون على چمنه أن سقط بدوره فى ايدى الغزاة بعد أن هلك من حُماته خمسون الفا ابتلعهم النهر . ولم يطق صاحبه الأمير الهندوكى كلچند وقع الهزيمة على نفسه فقتل زوجه ونفسه حزنا على ما أصابه .

كذلك لم تُغْـن فتيلا مقاومـــة أصحاب مِترا فسقطت مدينة الهنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال فى ايدى محمود .

وأشرف محمود آخر الأمر على قنوج عام ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م وكانت اخبار انتصاراته قد سبقته إليها ، فاستسلم له صاحبها راجا پياله من فورة دون ادنى مقاومة وفتح له خزائن كنوزه .

على أن الأمراء الراچپوتيين الذين ملكهم الغيظ حنقوا على زعيمهم لاستسلامه لجند المسلمين ؛ ما لبثوا ، غداة رحيل محمود

عنهم ، ان ندبوا ڤيديا هار بن چندله راجا كلنجر يعاونه راجا كـوالیار ، فما زالا براجا پباله حتى اوقعاه فى الأسر فقُتل صبرا
وأثار الخبر ثائرة السلطان الغزنوى فارتد من فوره إلى الهند ليعاقب هؤلاء الأمراء فعلتهم . ولقد همّ محمود حين رأى حشود الهنادكة الكثيفة أن يرجع عن قتالها ، لولا أن مجرد ظهوره فى الميدان ألقى الرعب فى قلوب أعدائه فانفرط عقدهم لساعتهم وانطلقوا هاربين لا يلوون على شيء .

وعاد محمود إلى الهند من جديد فى عام ٤١٢هـ/١٠٢١/١٠٢٢م فاخضع كواليار لسلطانه ، كما صالح راجا چندله على أموال طائلة مع لزوم طاعته .

ولئن كان غزو قنوج يُعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة ، فإن فتح الـكُجرات وسومنات هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعا . فقد فاق مالاقاه محمود مصاعب ومتاعب فى هذه الغزوة ، ماعاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد وفيهم الاسكندر المقدونى نفسه .

وقد انتهت هذه الواقعة التى تعد آخر غزوات محمود الهندية الكبرى ، الى انزال أكبر ضربة بالأمراء الراچپوتيين ، فضاع من بعدها كل أمل لهم فى استرداد سابق هيبتهم بالهند . وما لبث

خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التي تعرف البـــوم باسمهم حيث أفلح فريق منهم في الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين .

ولقد اقتحم محمود في طريقه إلى الكجرات عام ٤١٦ — ٤١٧ ه‍ / ١٠٢٥ — ٢٦ م ، مفازة جرداء قاحلة مترامية الاطراف واسعة المسالك هي صحراء الثار أكبر صحراوات الهند ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم مثار الدهشة والعجب .

واستولى محمود ، وهو في طريقه إلى هدفه ، على آچمير ونهرواله ، ثم ظهر آخر الأمر أمام سومنات فوجد الأمراء الراچپوتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة ، الاكبر بها ، وعليهم بهيم ديو صاحب الكجرات ومعه راجا نهرواله وامراء بهاتي . والتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى إلى مذبحة دامية سقط فيها خمسون ألفا من الهنادكة مرّ الغزاة على أشلائهم إلى داخل الحصون .

هذا ولمعبد سومنات قداسة عظمى عند الهنادكة ، حتى إنهم بادروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة ، أي بعد مضي أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له .

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا

ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر ، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطة بهيكله ، وذا صنم ضخم قائم فى وسطـــه وقد رصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة .

ويعتقد الهنادكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عنده ، فهو الذى ينشئها فى الأبدان كيف يشاء ، وأن المدّ والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها لصنمهم الأكبر هناك . هذا وقد كان الناس يحجون إليه فى جموع زاخرة لا سيما عند خوف القمر(١)

وكان فيه من السدنة ألفان من البراهمة ، ومن الراقصات المنشدات خمسمائة. وكان على هؤلاء جميعا أن يقوموا عند الدُجى ، على جلجلة سلسلة غليظة من الذهب ، فيقضوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر .

ومن البديهى أن محموداً لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء الثار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكى من أموال. فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى طرا ، كما كان يُتخذ فى الوقت نفسه مثابة للأموال التى كان يُنفق منها على الأعمال الحربية .

---

١ — ابن الأثير تاسع ص ١٤٢ : ١٤٣ حوادث سنة ٤١٦ ، Havell P. 288

ولم يغفر محمود لراجا نهرواله وأمراء بهاتى معـــاونتهم لراجاكو اليار فى الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهـــو فى طريقه إلى عاصمته عائدا من سومنات واستولى عليها .

وكان آخر غزوات صاحب غزنة الهندية حملة نهرية لتأديب قبائل الزط عند الحاجز الملحى بالپنجاب ، وكانت هذه القبائل قد اشتد نشاطها بعد انفراط عقد إمارة لاهور الهندية فاخذت تعيث فى الأرض فسادا حتى هاجمت أطراف جيوش غزنة مرات متكررة إبان زحفها بأرض الهند .

هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية عموما هى مجرد جمع الأموال فحسب ، كما يقول بذلك بعض المؤرخين ، إذن لقبل ما عرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة ، ولما ردّ عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان .

وفى هذا يتحدث عنه المؤرخ الهندوكى براساد فيقول [١] « إن محمودا ليُعَدّ فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهـــدا كبيرا أخذا على نفسه القضاء على الشرك فى مهاد الوثنية . وهو فى نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مقدساتهم ودمّر

---

١ — Prasad, Medieval India. 71,77

معابدهم وآذى شعورهم الدينى فى كثير . ولكن المؤرخ المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه ، وسماته واعتباراته ، لا يسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خيرة القادة والزعماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الاول ، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم فهو جدير بأن يُعد من بين أعاظم الملوك طرا(١) .

والحق أن محمود الغزنوى كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وقد وسع ملكه الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار فى شرق الهند إلى فارس . وكان مما ساعد على انطلاق عبقريته الحربية اطمئنانه إلى تأمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا ، فضلا عن شيوع الخلاف بين امراء الهنادكة انفسهم . وقد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله ، عون رجال أكفاء تمكنت عقيدة الجهاد من أنفسهم فتفانوا فى خدمته ، وإن خلوا ، مع الأسف من الخبرة الكافية فى الإدارة والحكومة .

وقد شغف محمود بالهندستان شغفا زائدا وأعجبه جو الكجرات

---

١ ـ كذلك يشيد المؤرخ لين بول بمحمود فيقول «إن ذلك السلطان الذى اقام تلك المنشأت الفخمة بغزنة وأقام دور العلم ودعى العلماء حتى كان يجود عليهم بما لا يقل عما يعادل مائتى الف من الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يجرى على طلبة العلم من الأرزاق ، لا يمكن أن يسلك فى زمرة الطغاة الجابرة» Med. India pp 81, 2.

خاصة فمال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنة. لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم الخضراء وبساتينها ، كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتماله .

هذا وقد عُرف محمود ، إلى جانب شهرته الحربية ، برعايته للعلوم والآداب وعظيم بذله لاربابها والمشتغلين بها ، حتى قصدوا بلاطه من مختلف الاقاليم الإسلامية. وكان من بين علماء محمود، البيرونى العلامة الرياضى والفيلسوف الفلكى العالم بلغات الهند وثقافاتها وحضارتها ، والذى تُعد كتبه أعظم ماعرف المسلمون عن حياة الهنادكة الأجتماعية والسياسية والعقلية على السواء ، ثم العتبي الوزير صاحب تاريخ اليمينى والبيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين ، والفارابى الموسيقى الفيلسوف.[1]

اما الشعراء فكان على رأسهم العنصرى الفارسى الذى بايعه بالزعامة أربعمائة منهم ببلاط محمود ، ثم الفرخى والعسجدى . كما نزل فى بلاطه، وعاش فى كنفه فترة من الزمن، الفردوسى صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفرس صيتا وأخلدهم ذكرا . وإن كان محمود قد خيب رجاء الشاعر فيه فضَنّ ، من أثر الوشاة، بما كان

---

١ ـ تاريخ فرشته لملا محمد قاسم هندوشاه ـ طبع لكنو ١٣٢٣ هـ جلد اول ص ٢٩.

يأمله عنده[١].

ومن أسف أن البناء العظيم الذى أقامه محمود سرعان ماأخذ ينهار بين ايدى خلفائه الذين أبطرهم ماتركه سلطانهم بخزائن ملكه من ثروات طائلة . فانصرفوا ورجالهم فى الغالب عن إتمام مابدأه عاهلهم العظيم، أو المحافظة عليه ، إلى الجدل وحياة الترف .

خلفاء محمود

توفى السلطان محمود الغزنوى عام ٤٢١ هـ / ١٠٣١م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود .

وإذ بلغ مسعود الخبر كتب من فوره إلى أخيه السلطان الجديد يطلب إليه أن يقره على البلاد التى كان قد تولى أمر فتحها، وهى طبرستان وأصبهان وماحولها ، على أن يقدمه على نفسه فى الخطبة . فلم يكن من محمد إلا أن أغلظ فى الرد على اخيه وقد عزم على الخروج لقتاله برغم نصح خلصائه له بالجنوح إلى المهادنة

---

١ ـ قيل إن محمودا كان قد ندم على ضنه بمكافأة الفردوسى حين قدم له الشاهنامه، فأمر بارسال هداياه اليه. فدخلت العير باحمالها من باب رودبار فى طبران حيث كان يقيم الشاعر، فى الوقت الذى كانت جنازة الفردوسى تخرج فيه من باب رزان بنفس المدينة. (جهار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ـ القاهرة ١٩٤٩ ص ٥٩)

والسلم[1].

وما لبث جند غزنة أن غدرت بأميرها الجديد فى الطريق فألقت به فى الحبس وهو فى سُكره وسملت عينيه ، ثم كتب قوادهم الى مسعود يستدعونه اليهم ، وكانوا يؤثرونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

هذا والواقع أن السلطان محمودا كان قد عهد لابنه الأكبر أول الأمر عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م ثم ولاه هراة وبعث به لمحاربة الغوريين . وبرغم حسن بلاء مسعود ، فإن أباه ما لبث بفعل الوشاة أن غضب عليه وعزله من ولاية العهد ، ثم طابت نفسه من جديد فعفا عن ولده ورده إلى هراة دون ولاية العهد .

وكانت صفات مسعود العالية كفيلة بأن تسير به فى طريق المجد الذى سلكه أبوه من قبل لولا ما كان من سرعة استجابته، فى الغالب، لدسائس الدساسين فى بلاطه وإعراضه مرات كثيرة عن الاستماع لنصح وزيريه المجربين، خواجه أبى القاسم بن الحسن الميمندى وخواجة احمد عبد الصمد، فأدى ذلك كله آخر الأمر إلى التعجيل بنهاية الدولة الغزنوية ، المترامية الأطراف ، وتقويض أركانها .

---

١ ـ تاريخ البيهقى . القاهرة ١٩٥٦ ص ٨١ وما بعدها

فلقد بعث السلطان بقائده أحمد بن ينالتكين نائبا له على أملاكه الهندية ، فكان من جراء استيلاء هذا القائد على بنارس وماغنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة أن دب الحقد والحسد فى نفس عبد الله قاضى شيراز الذى كان يشاركه الحكومة الهندية ، فطفق يبعث برسائله تترى إلى بلاط غزنة طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند . حتى أفلح منافسوا ابن ينالتكين هناك فى أن يلقوا فى روع السلطان ، آخر الأمر ، أن نائبه يهم بالاستئثار بالأمر كله بالهند واستخلاصها لنفسه.[١]

والحق أن مسعودا قد اصطنع التريث طويلا هذه المرة قبل أن يقطع برأى فى شأن قائده بالهند. حتى إذ خرج من غزنة للقضاء على القلاقل التى نشبت فى ختلان وخراسان وبخارى فبلغ العراق من بعد ذلك ، وافته الأخبار باشتباك قوات ابن ينالتكين مع جند قاضى شيراز عند لاهور ، وكان الأخير قد أفلح فى تأليب سكان البنجاب على منافسه . فخشى السطان استفحال شأن نائبه بالهندستان فسير إليه هندوكيا من رجاله، يدعى تلك كان على قدر

---

١ ـ كان الوزير الميمندى يكن للقاضى كراهية شديدة منذ أن رشح للوزارة بدله أيام محمود. البيهقى ص ٢٩٤

كبير من الشجاعة وعلو الهمة[١].

وما إن ظهر مبعوث السلطان بقواته عند لاهور حتى انتشر الفزع بين صفوف عدوه ، فانفض أغلب الجند من حول ابن ينالتكين الذى ظل يحارب فى شجاعة خارقة،مع قلة ثبتت معه ، حتى نالته غيلة سهام فريق من الزط وسيوفهم طمعا فى مكافأة مالية كان قد جعلها تلك لمن يأتيه برأس غريمه.[٢]

وأيا ما كان الحال . فلوأن مسعودا لم يسىء الظن بقائده وسلك معه سبيل المودة واللين، دون الاستجابة آخر الأمر لدسائس قاضى شيراز وعصبته ، لما احتاج الى تسييره الجيوش لقتال ذلك القائد الحازم الذى كان كفيلا بتدعيم سلطان الغزنويين فى الهند والوقوف فى وجه السلاجقة الذين كانوا قد طفقوا يهددون بلاد السلطان.

واستبد بمسعود الفرح بانتصارات تلك فعقد العزم على الخروج إلى الهند ، غير ملتفت إلى تحذيرات وزيره الشيخ له من حرج الحالة عند حدوده الغربية بسبب الخطر السلجوقى[٣].

وهكذا بارح السلطان الغزنوى عاصمته مستهل عام ٤٢٩ / ١٠٣٧م

---

١ ـ تاريخ البيهقى ص ٤٣٠

٢ ـ تاريخ البيهقى ص ٤٦٠ ، ٦١

٣ ـ تاريخ البيهقى ص ٥٧٥ وما بعدها .

لتحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على حصن هانسى الهندوكى الكبير فلم يبلغه إلا أواخر ربيع الأول . ذلك أن الداء أقعده أسبوعين بأكملهما عند جهلم احد روافد السند حتى نذر إن رُزق الشفاء أن يقلع عن تناول الشراب ويحرمه على رجاله وأهل بلاطه. وقدبرّ فعلا بعهده .

وما إن فرغ مسعود من أمر هذا الحصن ، بعد قتال عنيف ، حتى واصل زحفه إلى سنُبات عند الشمال القريب من دهلى ، فإذا بأهلها تنطلق منها إلى الغابات القريبة فرارا من وجه الغزاة الذين أصابوا فيها مغانم كثيرة.

وانتهز السلاجقة فرصة غياب صاحب غزنة بالهند ، فهاجم بهم زعيمهم طُغرل بك بلاد السلطان حتى استولوا على نيسابور وبسطوا سلطانهم على خراسان ضاربين عرض الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من مواثيق التزموا بها بعد هزيمة جنده لهم عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢ م (١)

وحين خرج مسعود لملاقاة هؤلاء الغزاة فى رجب من عام

---

١ ـ كان السلاجقة اول أمرهم جند مرتزقة عرفوا بالجرأه والكبرياء والاستهانة بمن سواهم ، حتى اضطر محمود الى سلوك سبيل العنف معهم . حتى اذا ما استعان بهم مسعود لتقوية جيشه فسلك معهم سياسية غير رشيدة، تفاقم خطرهم ليتنهى امرهم بالاستيلاء على ملك الغزنويين - البيهقى (المقدمة) ص ٣٤ ، ٣٥

٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م فالتحم بهم عند دندانقان بالقرب من مرو ، ومُنى بهزيمة حاسمة تقرر على أثرها مصير الدولة الغزنوية فى خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعودا أصر بعد هذه الواقعة على الهجرة إلى الهند برغم الحاح وزيره أحمد عبد الصمد عليه بالبقاء فى غزنة . فخرج فى ركب كبير ، شمل أهل بيته وخلصائه مع كنوزه وأمواله ، وفى خاطره أن يتهيأ له بالهند جمع جيش قوى كبير يدحر به السلاجقه . فلم يكد يعبر السند فيبلغ قلعة ماريكله بين أتوك روالبندى ، حتى وثب عليه غلمانه من الأتراك والهنود ، طمعا فى خزائنه ، فخلعوه وزجوا به فى القلعة ، ثم نادوا مكانه بأخيه محمد ، وكان ناظراه قد سُملا كما ذكرنا من قبل . وحُبس مسعود فى حصن كيرى فلبث به حتى قتله الأمير أحمد ابن أخيه فى عام ٤٣٣ هـ .

وبموت مسعود طُويت صفحة حاكم مسلم نابه رعى العلم والعلماء والتفت التفاتا كبيرا إلى الإنشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات التى أقامها .

ولقد استطاع هذا السلطان الكبير أن يحتفظ مدة غير قصيرة برقعة ملكه التى امتدت وقتا ما من العراق حتى حدود الهند الشرقية . لكن القدر ، على حد قول مؤرخه البيهقى ، دفعه إلى

ارتكاب الخطإ الأكبر الذى قرر مصير دولته، وذلك حين أصم أذنيه عن الاستماع إلى مشورة رجاله فقرر الرحيل إلى الهند بعد واقعة دندانقان بدلا من التحصن فى غزنة ومحاولة دفع خطر السلاجقة عن حدوده[1]. ذلك أن الحوادث قد برهنت على قيام مخاوفه على غير أساس، إذ كان هم السلاجقة الأكبر فى التوسع منصرفا فى الواقع صوب فارس، دون التفات جدى كبير نحو غزنة والشرق عموما. فمراعى خراسان كانت أحب إليهم وآثر من تلال الأفغان وما وراءها، وناهيك ببلاد فارس الغنية التى كانوا قد استولوا عليها ثم طفقوا يوسعون فى فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ بحر الروم.

ولم يطل الأمر بمحمد على عرش غزنه، فقد برز إليه من خراسان، مودود بن مسعود يطالب بدم أبيه. فالتقى به عند الدينوَرْ، على طريق كابل وبشاور، فهزمه، ودخل غزنة حيث انتقم لمقتل أبيه من عمه وأولاده وجميع من خانوا عهد مسعود.

وقوّى انتصار مودود من عزيمة الأهلين فى الأقاليم الغزنوية التى كان السلاجقة قد دخلوها، فثاروا فى وجه المحتلين وأجلوهم عن أغلبها.

---

١ — البيهقى (المقدمة) ص ٣٧، ٣٨

ومالبث السلطان الجديد أن بوغت بعصيان أخيه مجدود، وكان أبوه قد ولاه البنجاب فأعلن استقلاله به ثم سار على رأس قواته نحو غزنة ولكن الأجل وافاه بلاهور بعد قليل.

وكان من جراء ثورة مجدود هذه أن ركن بعض أمراء الهنادكة بدورهم إلى الثورة حتى بلغوا لاهور نفسها وحاصروها. لكن جند الغزنويين ردتهم آخر الأمر عنها وثبتت ما تزعزع من نفوذ المسلمين وهيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية كله.

ووافى مودود أجله عام ٤٤١هـ/١٠٤٩م، وهو يعدّ العدّة لحرب السلاجقة الذين كانوا قد غدوا يرهبون جانبه، بعد أن أتيح له الوقوف فى وجههم واسترداد جزء كبير مما بأيديهم من أملاك الغزنويين.

وخلف مودود طائفة من الأمراء الضعاف، استطاع السلاجقة فى عهدهم اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضى الدولة. حتى رقى العرش إبراهيم بن مسعود فأفلح بحزمه فى تنظيم شئون الدولة، كما ألزم قبائل الترك والأفغان طاعته، وهادن السلاجقة، واقر الأمور فى الهندستان.

وعنّ لخليفته علاء الدين مسعود أن يكفى نفسه شر السلاجقة

فأصهر إلى سلطانهم سنجر ، ففتح بصنيعه هـــذا الباب على مصراعية لتدخل السلاجقة فى شئون الدولة حتى قضوا على استقلالها .

ذلك أن السلطان السلجوقى سرعان ماظهر بجنده فى غزنة على أثر وفاة علاءالدين فأنزل عن عرشها الأمير أرسلان ، تلبية لدعوة أخته أرملة السلطان الغزنوى ، وكانت على شقاق مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر من بعد ذلك إلى النزوح إلى الهند حيث وافاه أجله هناك عام ٥١١هـ / ١١١٧ م .

وارتقى الأمير بهرام عرش غزنة فى ظل السلاجقة ، فعمل على أن يفيد من تحولهم صوب فارس بالنهضة بدولته من جديد . وجهد فى إقرار الأمور فى الهندستان ، خصوصا ، فقضى على فتن البنجاب والملتان ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بُعثت فى أنفسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم .

وهكذا كاد بهرام أن يستعيد للغزنويين ما ضاع منهم من أراض ونفوذ ، وقد انجلى عنهم خطر السلاجقة وثبتت أقدامهم بالهند من جديد ، لولا ما كان من قيام النزاع بينه وبين ملوك الغور الذين كانوا ينزلون فيمابين غزنة وهراة .

وكان هؤلاء الغزاة المحاربون من خيرة جند محمود الذين نصروه فى أغلب حروبه وغزواته ، ولكنهم حين بدا لهم الضعف فى خلفائه لم يترددوا فى الجهر بالخروج عليهم .

وبلغ التوتر بين الفريقين غايته حين سيق إلى القتل، بأمر من بهرام، زعيم غورى يدعى الأمير سورى . هنالك والى الغوريون هجومهم على غزنة حتى أفلح زعيمهم علاء الدين حسين فى دخولها، ليستردها بهرام منهم ثانية بفضل قواته الهندية .

ومات بهرام عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م فخلفه ابنه خسرو الذى ما لبث أن فر إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لعاصمته بعد هزيمتهم للسلطان سنجر السلجوقى . وانتهز الغوريون فرصة الفوضى التى عمت البلاد أثر الغزو التركمانى فأنقضوا على غزنة فأعملوا فيها التخريب والنهب والتدمير حتى نبشوا قبور السلاطين الغزنويين جميعا إلا مثوى السلطان محمود .

هــــذا وقد قصد خسرو عاصمته من جديد ولكنه ما إن أحيط بمقتل السلطان سنجر على أيدى التركمان وضياع ملكه حتى ارتد ثانية إلى الهند حيث قضى بلاهور عام ٥٥٥هـ / ١١٦٢م

وتفاقم خطر الغوريين واشتد ساعدهم فحارب زعيمهم، غياث الدين

ابن سام ، الغـُز التركمان ، وبسط سلطانه على غزنة التى عهد بها وإقليم كابل إلى أخيه مُـعِـز الدين بن سام الذى تذكره كتب التاريخ باسم محمد الغورى .

ومازال الغوريون بخسرو وابنه بهرام شاه الثانى آخر سلاطين الغزنويين يطاردونهما بالهند ستـان حتى قتلوهما . وبذلك انتهت سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد اقدام المسلمين فى أرض الهند .

ولئن كان ظهور الدولة الغزنوية يمثل أول انتصار كبير للعنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على سيادة العالم الاسلامى الشرقى على الخصوص اذ ذاك ، فإن هذه الدولة لم تستطع ، على كل حال، الا ان تترسم فى الحكم نظم ماسبقها من الدويلات الفارسية كالصفارية والسامانيه. بل إن اصحابها بذلوا جهدا مشكورا فى تشجيع الثقافة الفارسية ، فقربوا اليهم كل من استطاعوا دعوته اليهم من شعراء الفرس وعلمائهم إلى جانب غيرهم من أعلام البلاد الاسلامية الأخرى .

على أن اعتماد السلاطين الغزنويين على قوة السيف وحده فى المحافظة على ملكهم ، دون النظر ، فى الغالب إلى إقامه الحكومة الادارة على أساس صالح ونظام سليم ، قـد أدى الى تداعى بناء

الدولة كله حين تراخت الأيدى التى كانت تقبض على هذا السيف .

هذا إلى جانب تهالك أغلب الحكام ورجال الدولة أنفسهم على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكنوزها الطائلة ، حتى تمكن منهم السلاجقة ثم التركمان وأخيراً الغوريون الذين ورثوهم .

الغُورِيّون

ما إن انهارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغُز ، فأخذت الاضطرابات والفتن تجتاح غزنة وكابل وكافة أملاك المسلمين فى الهندستان ، حتى ظهر أمراء الغور الأفغان وعلى رأسهم زعيمهم معز الدين بن سام المعروف باسم محمد الغورى . وكانوا رجال حرب مبرزين ، فسيطروا على غزنه وما حولها ثم انطلقوا بجندهم إلى أرض الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك من الضياع .

ذلك أن أمراء الهند الراچپوتيين كانوا ، منذ أن لمسوا ضعف الدوله الغزنويه ، قد طفقوا ، هم وبقايا القرامطة الإسماعيلية يتخطفون املاكها ويثيرون الفتن والاضطرابات بين سكانها ؛

ولقد جاب السلطان الغورى الهندستان غازيا من الپنچاب إلى البنغال فى فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاما بدأها باستخلاص الملتان من أيدى القرامطة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ثم استولى على بشاور وأخضع السند جميعه لسلطانه حتى البحر برغم ما تعرضت

له جيوشه من خسائر فادحة على أيدى بهيم ديوا راجا نهرواله .

واستعصى حصن لاهور ، أول الأمر ، على صاحب غزنة الجديد فهادن صاحبه الأمير خسرو ملك الغزنوى ثم قفل راجعا إلى عاصمته .

وزينت قبائل الكهكر الهندية ، على أثر ذلك لخسرو أن يزحف على حصن سيالكوت ويستولى عليه . فما إن علم بذلك السلطان الغورى حتى خرج إليه من فوره، فلم يزل فى زحفه حتى استولى على لاهور نفسها وأوقع فى أسره الأمير الغزنوى الذى سيق إلى قلعة فيروز ببلاد الغور حيث أورد الردى عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م .

وقد لاقى ابنه بهرام شاة الثانى نفس المصير من بعد ذلك بقليل. وبموت هذين الأميرين قُضى على كل سلطان لآل سبكتكين، وانتقلت أملاكهم ، سواء فى داخل الهند أو فى خارجها ، إلى أيدى الغوريين.

ولئن كان صاحب غزنة الجديد قد أصبح وله السلطان المطلق على البنجاب والسند ، فقد كان عليه أن يقطع شوطا بعيدا حتى يسترد كافة الأراضى الهندية الغزنوية التى سقط على كثير منها الامراء الراجپوتيون ، وكانوا قد عقدوا فيما بينهم حلفا حربيا لمدافعة من يقدم عليهم من غزاة المسلمين .

على أن هؤلاء الأمراء ، على شدة مراسهم فى الحروب وكثافة جندهم ، كانت طباعهم الإقطاعية ومصالحهم الفردية غالبا ما تطغى ،

حتى فى أوقات المحن ، على مصلحة الوطن الهندى العليا . هذا كما كان نظام الطبقات الهندوكى وقيوده الصارمة من أخطر العوامل التى كانت تحطم معنويات عامة المحاربين فتزعزع كيان النظام الحربى كله بالتالى . ذلك أن المحارب الهندوكى العادى، مهما أوتى من الجرأة والبسالة فى القتال ، لم يكن له أن يتطلع إلى مناصب القيادة التى كانت وقفا على أبناء الطبقات العليا ، بغض النظر عن كفاءتهم الحربية . على نقيض الأمر فى جيوش المسلمين حيث الباب مفتوح أمام كل جندى للوصول إلى أعلى مراتب القيادة ما اظهر من شجاعة وتمرس بالقتال وكفاءة فى الحرب .

وإلى هذه النقائص مجتمعة يُرد أغلب السبب فى تقاعس جحافل الهنادكة أمام جند المسلمين الذين كانت عقيدة الجهاد تتمكن من نفوسهم تمكنا ثابتا بعيد الغور .

هذا وكان اشهر الامراء الراچپوتيين هم أصحاب قنوج ودهلى ، ويليهم فى المكانة أمراء آچمير وبهار والبنغال والكجرات وبندلخاند . وجميع هذه الإمارات تقع فى شمال شبه القارة الهندية ، وهو القسم الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالهندستان . وفيه تقع أعظم أنهار هذه البلاد واخصب أراضيها ، واكثف مناطقها السكنية بالتالى .

وخرج السلطان الغورى إلى الهند عام ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م فى قوات كبيرة. فما إن بلغ سرهند ، عند حدود البنجاب الشرقية ، حتى علم بحشود الهندوس التى بلغت مائتى الفامن المحاربين وثلاثة آلاف من الفيول.

والتقى الجمعان عند ترين ، على مقربة من ثنيسر ، فلم يستطع جند المسلمين الثبات أمام عنف حملات الهنادكة وتدفق قواتهم. ودق مركز السلطان نفسه حتى أصيب بجراح شديدة وهو يقاتل بنفسه . وكاد يضيع فى الميدان من فرط ما بذل من جهود خارقة ، لولا أن بصر به أحد الجند الخلجيين فانطلق به حتى أبلغه مأمنه . ولم يستطع جند غزنة أن يلم شمله من جديد إلا بعد ارتداد طويل بلغ الاربعين من الأميال ، فثبتوا فى مراكزهم ، ودفعوا عنهم كل هجوم شُن عليهم .

ولم يكن محمد الغورى ليسكت عن هذه الصدمة العنيفة التى لم يتلق المسلمون مثيلالها بأرض الهند من قبل ، فعاد إلى إعدائه فى العام التالى على رأس مائه وعشرين ألفا من المقاتلين الأشداء، من أتراك وأفغان وغيرهم ، كان عليهم أن ينازلوا ثلاثمائة ألف من فرسان الهنادكة ، مع ثلاثة آلاف من فيلة الحرب ، استعدوا للقائهم يقودهم بربتى راجا صاحب دهلى وقنوج .

ولم يفت تفوق الهنادكة الساحق فى عضد صاحب غزنة ، فرسم خطته على أن ينطلق من بين صفوفه أربع فرق . قوام كل واحدة منها عشرة آلاف رجل ، فتوالى مهاجمة العدو من كل جانب ثم يرتد أفرادها متفرقين على أثر كل هجوم بهيئة من يفر من الميدان .

وإذ أدى نجاح هذه الخطة إلى إرهاق قوى العدو ارهاقا شديدا وتشتيت جموعه ، برز السلطان بنفسه على رأس اثنى عشر الفا من فرسانه راحوا يشيعون الموت والدمار فى صفوف اعدائهم حتى هلك من الهنادكة ألوف كثيرة وفيهم جملة من الامراء . أما زعيمهم برتى راجا فقد اتخذ سبيله إلى عاصمته هربا . ولكنه لم يكد يبلغ سرسوتى باقليم سنهسل حتى لحق به مطاردوه فقضوا عليه .

هذا وتعد هذه الواقعة البداية الحقيقية لانهيار سلطان الأمراء الراجپوتيين التام ونهايته الحاسمة فى شمال الهند . وقد استولى المسلمون على اثرها على سرسوتى وسمنه وكهرام وهنسى ثم آجمير التى أمر السلطان بتحطيم ما بمعابدها من أوثان ، ثم هدم هذه المعابد نفسها واستخدم اعمدتها وأحجارها فى إقامة مساجد ومدارس للمسلمين .

وعهد محمد الغورى ، قبل أوبته إلى عاصمته ، بإدارة أملاكه إلى قائده قطب الدين أيبك الذى وصل فى فترة قصيرة بفتوح سيده إلى دهلى فاتخذها قاعدة لحكومته .

هذا وكان يقع بقلب الدوآب ، فيما وراء دهلى حتى حدود بنارس ، إمارة قنوّج اعظم امارات الهند التى ذاع صيتها فى اساطير هذه البلاد وفى تاريخها على السواء .

وبدا لصاحبها جايا چندرا أن يجمع حوله شمل الامراء الراچپوتيين من جديد ، بعد هلاك بريتى راجا دهلى ، فى أمل أن يصير بهم سيد الهندستان كلها بعد طرد المسلمين منها .

على أن السلطان الغورى مالبث أن فطن لتدبير عدوه ، فأيقن أن حكومته الهندية لن يُكتب لها الاستقرار إلا بالقضاء على سلطان هؤلاء الأمراء ، فخرج إليهم فى جيش كثيف التقى بهم عام ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م فى السهل المنبسط بين چندوار واتاوه .

وفضلا عن هزيمة الهنادكة الساحقة ومقتل زعيمهم راجا قنوج . فقد كان أخطر أثر لهذه المعركة هو انسحاب كبار الأمراء الراچپوتيين جميعـــا من وجه المسلمين والهجرة إلى صحراء الراچپوتانا التى حملت اسمهم فيما بعد .

وواصل السلطان الغورى الظافر زحفه بعد فتح قنوج حتى

بنارس فأقام بها مسجدا كبيرا ثم آب الى حاضرته .

ولم يتردد قطب الدين أيبك نائب الغوريين بالهند فى استغلال ما أشاعته انتصارات المسلمين القوية هذه من رهبة وفزع فى نفوس محاربى الهند فغزا آجمير من جديد كما فتح نهرواله واستولى على بيانه وكَـوالیار وما حولها ، فى الوقت الذى انطلق فيه محمد ابن بختيار الخلجى ثانى قواد الغوريين بالهند صوب الشرق ففتح بهار ونفذ إلى البنغال . ومن عجب أن تجمع الروايات على أن جند الأمير الخلجى لم تكن تعدو فى هذه الفتوح بضع مئات .

هذا وكان إقليم بهار (فهار) ، الذى استولى عليه محمد بن بختيار ، هو الإقليم الهندى الوحيد الذى صادفت البوذية فيه ازدهارا كبيرا بفضل الرعاية العظيمة التى كان يحبوها بها ملوك أسرة پالا الهندوكية . وظلت هذه العقيدة رائجة فى هذه الإمارة حتى اقتحمها القائد الخلجى فخرب معابدها واستولى على ما كان بها من أموال وكنوز .

وتابع هذا القائد زحفه من بعد فتح هذه الإمارة فى ثمانية عشر رجلا من رجاله ، ليس غير ، بلغ بهم ناديه عاصمـــة البنغال عام ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م ، وكان عليها ملك شيخ من اسرة سِنا[١]

١ ـ Prasad India pp 118 — 20

يُدعى لكشمن سنا عرف برعايته العظيمة للفنون والآداب .

وفتح الحراس بوابة المدينة للوافدين وقد خُيِّل إليهم أنهم من تجار الخيول فلم تخالجهم أدنى ريبة فى أمرهم . هنالك اتجهت العصبة الغازية من فورها إلى قصر الراجا ، فما إن بلغ أذنى لكشمن العجوز صريخُ الضحايا من رجاله بخارج إيوانه ، وكان يتناول غذاءه ، حتى هب لوقته فاتخذ سبيله إلى دكّا هاربا .

ولم يغادر محمد بن بختيار المدينة إلا بعد أن خربها تخريبا تاما ، ومن ثم تركها إلى لكهناوتى فاتخذها قاعدة له ، وصلى فيها بالناس ودعى فى الخطبة للسلطان الغورى ، وضرب السكة باسمه .

كذلك خرج قطب الدين أيبك عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م لحرب برمردى ، أمير بُندلخند ، فانتزع منه حصن كلنجر ، امنع قلاع الهند اذ ذاك واشدّها بأسا . ثم اردف ذلك بالاستيلاء على بداون وكالبي .

وبهذا خضع شمال الهندستان كله ومعه اقليم كَواليار لسلطان الغوريين خضوعا تاما(١) .

واطمأن محمد الغورى إلى ترك أملاكه بالهند فى أيدى قواده الأمناء الأقوياء ، فأخذ يتطلع إلى بلاد ما وراء النهر ومدن

---

١ — تاريخ فرشته أول ص ٥٦ ، ٥٧

إيران الزاهرة . فاندفع يغزو خوارزم عام ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م، ولكنه أصيب هناك بهزيمة شديدة أخذ على أثرها كثير من الولايات والقبائل الخاضعة لنفوذه تعلن الخروج عليه ، حتى أقفلت غزنة نفسها أبوابها فى وجهه .

ولم يقف الأمر عند استيلاء تاج الدين يلدز ، أحد قواده الذين خرجوا عليه ، على غزنة والاستقلال بها ، بل سار أحد القواد الغزنويين بدوره ، ببراءة مزيفة ، إلى الملتان حاكما عليها ، كما انقلبت قبائل الكهكر بالپنجاب تعيث فى الأرض فسادا .

على أن محمد الغورى ما لبث بمضاء عزيمته أن استرد غزنه والملتان بعد قليل ، كما أفلح قواده بالهندستان فى إخضاع الخارجين عليه من جديد .

وراودت السلطان الغورى ، كرة ثانية ، أحلامه بالتوسع غربا برغم ما أصابه من خسائر فادحة كادت تقضى القضاء التام على سلطانه . وفيما كان يمهد لهذا الأمر ويعد له عدته ، اغتاله أحد الهنادكة، عند نهر جهلم وهو فى طريقه من لاهور إلى غزنة، فقضى فى شعبان ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م[١] .

١ — طبقات ناصرى لمنهاج السراج أبى عمرو عثمان (الترجمة الانجليزية لرافرتي) ص ٤٨٤ ، ٨٥ .

ولئن كان محمود الغزنوى قد مهد بغزواته الهندية الطريق أمام خلفائه من السلاطين وجعل لجند المسلمين المهابة والرهبة أينما زحفوا وحيثما حلوا ، فإن محمدا الغورى هو الذى ثبت أقدام المسلمين كذلك فى شمال الهند بأكمله ، وأقام الحكم الإسلامى هناك، بفضل رجاله، على أساس ثابت وطيد . وهو أمر لم يتح لمحمود من قبله . إذ كان الغزنويون عموما ، فضلا عن خلو رجالهم من كفاءة الإدارة والتمرس بالحكم ، يجتزئون على إثر كل فتح بالعودة إلى منازلهم ومعهم من كنوز الهند مابهرهم وسحر الباجم

وعلى أيدى رجال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهند. فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار والإقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها، وبهذا احتفظت الهند بأموالها وثرواتها فى نطاق شبه القارة نفسها ، فلم يعدو الأمر انتقال أجزاء منها من أيدى الهنادكة إلى أيدى المسلمين الذين صار لهم هناك دولة قوية مرهوبة الجانب وسيعة الرقعة عظيمة السلطان .

دولة المماليك

لم يترك السلطان معز الدين محمد بن سام الغورى وريثا للعرش من بعده ، إذ يذكر عنه المؤرخ منهاج السراج أبو عمرو عثمان ، صاحب طبقات ناصرى ، أنه كان يقول ، بأن الله قد عوضه عن الأبناء بمواليه المخاصين من الأتراك يحافظون على ملكه ويجرون الخطبة بذكره فى كافة أنحاء سلطنته .

ونصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهندستان فى عام ٦٠٢ هـ/١٢٠٦ م عقب وفاة مولاه محمد الغورى [١] .

وكان أيبك هذا فى طفولته مملوكا لقاضى نيسابور الذى ضمه فى الدرس إلى أولاده ، فقرأ معهم علوم الكتاب والسنة، كما نبغ فى الفروسية وركوب الخيل ، واشتهر بالشجاعة والمروءة .

وحين مات القاضى بيع المملوك إلى أحد التجار الذى عرضه بدوره على السلطان محمد الغورى . وكفلت لأيبك خصاله الحميدة أن ينال الحظوة عند سيده الجديد حتى بلغ مرتبة القيادة . وزاد من

١ــ تاريخ فرشته أول ص ٦٣

قدره عند السلطان عظم وفائه وإخلاصه حين بادر من فوره لنجدته على أثر الكارثة التى نزلت بجيوش الغوريين عند أبواب خوارزم وما نتج عنها من انتقاض أمراء وقبائل كثيرة على صاحب غزنة . وعرف له سيده فضله هذا كله فكافأه عليه بتثبيته نائبا له على أملاكه الهندية التى كان له اليد الطولى فى توسيع رقعتها حتى صارت تمتد من البنغال شرقا إلى آخر حدود البنجاب غربا .

وبادر سلطان الهندستان الجديد من فوره، إلى إقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك ، فبنى ، فى سبيل تحقيق ذلك ، بأخت تاج الدين يلدز ، وكان أيبك قد استرد غزنة منه ثم عاد فردها إليه كرما منه . كما زف ابنته إلى التتمش وأصهر كذلك إلى قباچه ، وكان كلاهما من زعماء المماليك الغوريين .

واشتهر قطب الدين فى حكمه بإقرار الأمن فى كافة نواحى بلاده ، وحرصه على قيام العدل بين الناس مع حسن معاملته للهنادكة خاصة .

وقد بنى بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدهلى والآخر بأچمير .

وسقط به جواده سقطة قاتلة عام ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م فخلفه شمس الدين التتمش أحد قواده، وكان من مماليكه وأصهاره كما ذكرنا من قبل ، فى حين استقل قائده قباچة بالملتان والسند ، كما تولى

الخلجيون الأمر فى بهار والبنغال ، وكانوا هم أيضا بدورهم من رجال السلطان محمد الغورى .

على أن أمراء آخرين من رجال الغورى ، ومعهم طائفة من أتباع السلطان الراحل قطب الدين أيبك ، لم يتقبلوا هذا الوضع الجديد بقبول حسن ، فلم يرضوا بأن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك .

وإلى جانب هؤلاء الناقمين ، كان هناك جملة من أقيال الهنادكة ، الذين اغتصب المسلمون أراضيهم ، مازالوا يرون فى سيادة المسلمين بلادهم مجرد محنة عابرة ، عليهم ألا يغفلوا أبدا عن انتهاز أى فرصة تلوح لهم للخلاص منها .

لكن التتمش بدوره عرف كيف يواجه جميع ماصادفه من مشاكل وصعاب فى حزم وقوة. فما إن أقر الأمور فى سلطنة دهلى وتوابعها ببداون وأوده وبنارس وسوالك ، حتى خرج إلى البنجاب الذى أغار عليه يلدز ، فهزمه وناصرالدين قباچه حاكم السند واستولى على الإقليم كله .

ذلك أن يلدز هذا كان قدخرج من غزنة، التى ثبت ملكه بها، فى غزوات ناجحة فيما وراء الهندكوش حتى بلاد خوارزم التى استعصت عليه، ومن ثم استدار إلى الهند . على أن التتمش مازال

يطارده حتى أسره ثم قتله ، كما رد قباچه إلى إمارته المسلوبة بعد أن تعهد بالولاء له

كذلك أفلح التمش فى القضاء على جميع الفتن التى أثارها بعض أمراء الهنادكة على إثر وفاة السلطان ايبك سالف الذكر .

ولم يكن جميع ما تعرض له التمش من متاعب ، ليعد شيئا مذكورا بالقياس إلى الخطر الداهم الذى أقبل على الهند فى ركاب المغول حين ظهروا عند حدودها عام ٦١٨ ﻫ / ١٢٢١ م يقودهم الخان الأعظم چنكيز . وكان هؤلاء قد خرجوا من ديارهم بصحراء جوبى فاكتسحوا فيما اكتسحوا بلاد ما وراء النهر وخربوا أغلب مدنه الزاهرة وقتلوا كثيرا من أهله .

ولقد اجتاحوا ، فيما اجتاحوا ببلاد ما وراء النهر ، مملكة خوارزم التى كانت تمتد إذ ذاك من خيوه إلى سمر قند وبخارى ويدخل فى دائرة نفوذها هراة وأصفهان . هذا وكان خصام أميرها مع المغول من أسباب تعجيل الأخيرين بزحفهم على البلاد الإسلامية .

ولجأ جلال الدين ، آخر سلاطين خوارزم ، إلى الهندستان هربا من وجه هؤلاء الغزاة ، فتعقبوه وساروا فى أثره حتى أنزلوا به

هزيمة حاسمة على ضفاف السند (١).

هذا وكان جلال الدين، حال وصوله السند، قد بادر بالكتابة إلى التمش يسأله الالتجاء عنده بدهلى بعض الوقت. لكن الأخير خاف مغبة ما قد يؤدى إليه نزول شاه خوارزم عنده من التفاف الجند الأتراك حوله، وكانوا فى دهلى كثيرين، فبعث يعتذر إليه متعللا بما قد يجلبه له حر الهند من متاعب صحية لاقبل له باحتمالها.

هنالك لم يجد جلال الدين بُدا من منازلة المغول. وحالفه التوفيق أول الأمر فأشاع الاضطراب فى صفوف عدوه. لكن جموعهم المتدفقة سرعان ما عاودت حملاتها العنيفة فلم تكتب النجاة إلا لسبعة آلاف من الجند الخوارزمى من بين الثلاثين ألفا الذين كانوا يحاربون تحت لوائه.

واستطاع السلطان، فى فريق من رجاله، أن يعبر السند تحت وابل من سهام العدو فى شجاعة وجرأة، فانقض من فوره على قباچه، والى السند من قبل دهلى، فأسره وحبسه فى حصن الملتان ثم أخذ ورجاله يعملون السلب والنهب فى الإقليم كله.

على أن الأجل لم يمتد من بعد ذلك بجلال الدين. فقد أنبئ باستعداد جند العراق لشد أزره وعونه، فسار، على هدى

---

١ — تاريخ المغول لعباس اقبال. طهران ١٦٢٣. جلد اول ص ٦٢

أمله الجديد ، إلى إيران ليقع فى الطريق بأيدى بعض الناقمين فيقتلوه .

وكان من حسن طالع الهند أن جيوش المغول لم تطق حرها فاستدارت صوب الغرب من جديد لتنجو هـذه البلاد من جحافلهم وشرورهم .

هنالك تنفس التمش الصعداء ، فراح يعمل على إخضاع الخارجين على حكمه . ذلك أن الأمير غياث الدين الخلجى ، وكان من أحسن الأمراء المسلمين سريرة بالهندستان ، كان قد بسط نفوذه على چاينكر وكروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلى وأعلن استقلاله بها . وقبل هذا الأمير مهادنة التمش أول الأمر على جزية كبيرة دفعها له ، كما أعاد قراءة الخطبة باسمه . لكن جند دهلى ما كادت ترجع عنه حتى انقض على إقليم بهار فاستولى عليه وسرعان ماسار إليه ناصر الدين محمد شاه ، حاكم أوده من قبل دهلى ، فهزمه وقتله ، كما أوقع فى أسره جميع أعوانه من الخلجيين ، وأخضع كافة الأراضى الممتدة حتى لكهناوتى ورنتنبهور ومندوار .

هذا وكان قباچه بدوره قد استطاع ، بعد زوال الخطر المغولى ، أن يسترد الملتان لنفسه من جديد . ومالبثت قواته أن تضاعفت

على أثر هزيمتـــه لجند الخوارزميين والخلجيين الذين كانوا يطمعون فى أراضيه وطردهم منها . حتى أوجس صاحب دهلى خيفة منه ، فأوعز إلى نائبه فى لاهور بالزحف على الملتان ، فى حين خرج هو بنفسه على رأس جيش قوى إلى أوكا مقام خصمه . هنالك لجأ قباچه ، بجنده وأمواله، إلى قلعة بهكر فتحصن بها . وما لبث أن قضى غرقا فى السند بعد قليل وهو يحاول عبوره هربا من وجه عدوه .

وكان أن أعلن الخليفة العباسى المستنصر بالله عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م تثبيته لالتمش على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين ، فكان من أثر هذا الإعلان أن قوى مركز صاحب دهلى بين مسلمى الهند قوة عظيمة ومكن من نفوذه بينهم . وقد قابل التمش صنيع الخليفة هذا بتقديمه فى الخطبة عليه وضرب السكة باسمه .

واغتنم التمش فرصة تأييد الخليفة له فخرج يبغى القضاء على خصومه وتوسيع رقعة ملكه . فهزم الخلجيين فى المناطق الشرقية مرة أخرى ، وكانوا قد سارعوا باسترداد نفوذهم القديم عقب وفاة ناصر الدين محمد شاه فى البنغال . هذا كما خرج إلى كواليار فاستردها من الأمير الهندوكى منجال ديوا وأرغمه على الفرار منها. كذلك استولى التمش على مالوه ، فدخل حصن بهيلسا ثم رحل

نه إلى أويان عاصمة فكر ماديتا القديمة فحطم ما كان بمعابدها
ن أصنام مشهورة ثم آب إلى عاصمته .

وكان من أثر هذه الحروب ، التى ظل هذا السلطان يمارسها مدى
بع قرن من الزمان ، أن أنهكت صحته . فقضى بدهلى فى شعبان
ن عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٥ م بعد أن أرسخ نفوذه فى كافة الأقاليم
لتى فتحها سلفه وسيده قطب الدين أيبك .

هذا والمعروف أن حروب التمش على كثرتها لم تمنعه من أن
مد رعايته إلى المشتغلين بالعلوم والفنون . وقد لاقى فى عهده فن
لعمارة بالهند ازدهاراً كبيرا . ومن آثاره الباهرة منارة القطب
دهلى التى يبلغ ارتفاعها ٢٤٢ قدما والتى تعد من أروع العمائر
لإسلامية بالهند قاطبة . وينسبها بعض المؤرخين خطأ إلى قطب
لدين أيبك . وحقيقة الأمر أن التمش قد أطلق عليها هذا الاسم
سبة إلى ولى بغدادى ، يدعى قطب الدين ، تبركا .

وقد أفاض صاحب طبقات ناصرى فى ذكر فضـــائل هذا
لسلطان ، وكان معاصراً له ، وذكر الكثير عن شدة تقواه
عدله وبره برعاياه . وأوصى التمش قبل موته بالملك لابنته رَضِيّة
ون أبنائه من الذكور الذين لم ير من بينهم من هو جدير بحكم
لهند . لكن رجال البلاط ما لبثوا أن عهدوا بالملك إلى الأمير

ر كن الدين فيروز شاه أحد أبنائه ، انتهز شـــاة تركان فرصة انصراف ابنها السلطان الجديد إلى الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها فتستأثر بتصريف شئون البلاد فى استبداد أدى إلى إثارة ثائرة الأمراء فى أوده وهنسى وبداون والملتان ولاهور . وجرى فى خاطر أم السلطان المستبدة أن تكون الأميرة رضية من وراء هؤلاء الأمراء فى خروجهم عليها ، فحاولت ، فى وسط هذه الاضطرابات ، أن توقع بها ، لكن تآمرها باء بالفشل فقضى عليها وعلى ابنها .

هنالك التف الأمراء حول السلطانة رضية من جديد وأجلسوها على عرش أبيها ، فاستطاعت بما أوتيت من حسن السياسة والحزم أن ترغم على طاعتها جميع الأمراء ببلادها . ومن غرائب المفارقات أن صادف حكمها بالهند تولى شجرة الدر ، قاهرة الصليبيين ، الأمر بدورها فى مصر .

على أن هذه السيدة التى قادت بنفسها حملات عديدة ناجحة للقضاء على عصيان الأمراء من مسلمين وهنادكة ، والتى كانت تجوب الأسواق فى ملابس الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى شكاواهم ، غلبتها أنوثتها آخر الأمر فتعلق قلبها بأمير الخيل فى بلاطها ، وكان عبدا حبشيا يدعى جمال الدين ياقوت (١) ، فأثارت

١ — Lane-Poole India, p. 75.

بذلك عليها حفيظة الأمراء جميعا ، فقتلوا ياقوت ثم انقلبوا يحاربونها بزعامة أخيها بهرام شاه .

وبرغم توصلها بدهائها إلى كسب بعض القواد إلى صفّها ، إلا أنها أصيبت آخر الأمر بالهزيمة . وفيما كانت تهيم على وجهها فرارا وقعت فى أيدى عصبة من الهنادكة فقضوا عليها .

على أن بهرام شاه ما لبث بدوره أن سلك سبيل الشدة فى حكمه . حتى إذا ما أقبل المغول عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م على البنجاب استطاعوا أن يخرّبوا لاهور ، دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وذلك بسبب نفور القواد المسلمين بالهند من سلطانهم واستبداده وطغيانه حتى اجتمعوا عليه آخر الأمر فقتلوه .

وولى الأمر من بعده علاء الدين مسعود شاه حفيد التمش . وفى عهده دخل المغول الهند من جديد ، عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥ م ، بقيادة مانكو وتوغلوا فى السند حتى تصدى لهم بَلْبَن قائده ، فردهم عن سلطنة دهلى بعد أن أنزل بهم خسائر فادحة . وإلى هذا القائد يُرد أيضاً الفضل فى القضاء على ثورات الحكام المسلمين فى كواليار وچندرى ومالوة ونروا .

وبرغم أعمال هذا القائد الباهرة فقد أفلحت الوشايات فى إقصائه عن بلاط دهلى بضع سنين .

وخلف ناصر الدين محمود شاه أصغر أبنـــاء التمش أخاه علاء الدين بعد عزله ، فانصرف إلى مصاحبة العلماء والدراويش تاركا عبء الحكم كله على أكتاف وزيره القائد بلبن الذى اضطلع به فى قدوة وكفاءة تامة . وحين وافى السلطان أجله عام ٦٦٤ هـ/١٢٦٦م رقى الوزير العرش مكانه .

ينتسب غياث الدين بلبن هذا إلى قبيلة إلبارى التركية التى كان من أبنائها التمش نفسه ، وكان أبوه من بين زعمائها وشيوخها المقدّمين .

ولكن حدث ان سقط بلبن بأيدى المغول فى إحدى غزواتهم ، وكان إذ ذاك فى صدر شبابه ، فبيع بالبصرة إلى مَن يدعى خواجه جمال الدين ، فأحسن مثواه ثم صحبه معه إلى دهلى حيث باعه بدوره إلى شمس الدين التمش سلطانها إذ ذاك ، فلم يزل يرقى بجده واجتهاده حتى غدا من خاصة حرسه المقربين .

وبلغ بلبن مرتبة أمير الصيد عند الملكة رضية . حتى اذا ما ثار أمراء الدولة فى وجهها لما شاع من أمر كلفها بأمير خيلها ياقوت الحبشى ؛ — بادر من فوره بالانضمام إليهم وبذل الجهد لنُصرتهم .

واعترف له السلطان بهرام ، حين خلف أختـه رضية ،

بصادق عونه وإخلاصه فولاّه رِواری وضمّ إليها بعد قليل ولاية هنسی ، فانصرف إلى إدارة هاتين الإمارتين إدارة حكيمة استقام معها حال الأهلين وتقدمت الزراعة عندهم وراجت أحوالهم الاقتصادية .

وأقبل المغول بقيادة مانكو على الهند عام ٦٤٣ هـ/١٢٤٥ م فغزوا السند وحاصروا حصن أوكا ، فكان بلبن ، دون سائر الأمراء الآخرين، هو الذى انبرى لهم وحده حتى أوقع بهم هزيمة قاصمة، ارتدوا على أثرها من الهند سراعا تاركين وراءهم ما كان بأيديهم من أسرى كثيرين ما بين مسلمين وهنادكة .

وقُلِّدَ هذا القائد القدير الوزارة فى عهد السلطان ناصر الدين محمود ، الذى عرف بانصرافه إلى أهل التصوف والأدب ، فطفق ينظّم شئون الدولة فى حزم بالغ . حتى إذا ما تم له ذلك ، انطلق يبغى تأمين سلطان دهلى ويثبت من هيبتها ، فعبر على رأس قواته نهر راوى ، أحد روافد السند ، إلى منازل الكَهكر وغيرها من القبائل الثائرة فاقتحمها عليهم . كما خرج كذلك مرات عديدة إلى الدوآب فقمع الفتن التى كان يثيرها أمراء الهنادكة بها ، واستولى على حصن تلْسنْده فى قنوج ، وأخضع رانا ملكى مع كافة الأراضى الواقعة بين كالنجر وكرّه .

هذا كما استخلص كذلك مِوات ورنتنبهور من أيدى هنادكة الراچپوتانا ، فى حين أوقع قائده شيرشاه فى أسره عز الدين زعيم الثوار عند أوكا . فلم ترجع جيوش دهلى إلى قواعدها فى ربيع الأول من عام ٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م حتى كانت كَوالِيار ، جندرى ومالوه ونارور قد دانت جميعها للسلطان وناله منها أسلاب وأموال طائلة .

وتَنفّس فريق من الأمراء والقواد على بلبن أعماله الباهرة هذه فانتهزوا فرصة خروج السلطان الى الملتان وأوكا دون قائده الأكبر فاقبلوا ، بزعامة القائد عماد الدين ريحان ينصبون شباك الدس له عند سيدهم حتى بلغوا غايتهم فأبعد بلبن إلى إقطاعه عند سوِلك وهنسى ، واستُبدل به الوزير محمد جنيدى ، فى حين رقى القائد ريحان إلى منصب الحجابة .

ولم يكن أمراء الترك وقادتهم ببلاط دهلى ليقبلوا ، فى بساطة ، الخضوع لهندوكى قريب العهد بالإسلام مثل القائد ريحان . فسرى التذمر بينهم إلى كافة أرجاء البلاد ، وانهالت رسائل الحكام والأمراء على مقام السلطان بطلب إقصاء هذا القائد عن شئون الدولة .

وتفاقم الحال بالتفاف أمراء كره ومانيكبور وأوده وترهوت وبداون وسمانه وكوهرام وسونام وتبار هنداه وإقليم سوالِك حول الوزير المعزول . وما عتم أن انضم إليهم من الأمراء الكبار

ألُغ خان وجلال الدين مسعود شاه فزحفوا جميعا على رأس قواتهم إلى العاصمة .

ولقد كان حريّا بالقائد ريحان أن يبادر من فوره بالتخلى عن منصبه حقنا للدماء ، لكنّه ركب رأسه وحمل السلطان على الخروج بجيشه حيث دارت الدائرة عليه عند تبار هنداه فأرغم على إبعاد حاجبه إلى بداون .

ورُد الوزير القديم إلى منصبه ، فاستقبلته العاصمة ، فى ذى الحجة من عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م ، استقبال الغزاة والفاتحين بعد غياب استغرق عامين من الزمان .

وشمّر بلبن عن ساعد جِده المعهود فقضى على فتن الدوآب المتكررة وأقر الأمور فى أوده والسند حيث كان قُتلُغ خان زوج أم السلطان ومعه القائد عز الدين بلبن قشلوخان وفريق من أمراء الهنادكة قد جنحوا هناك إلى نبذ طاعة السلطان وإعلان العصيان .

وأقبل المغول على السند من جديد ، عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م يقودهم نوبين سارى ، فما إن أحيطوا بتدبير الوزير القائد لنزالهم حتى ارتدوا على أعقابهم من حيث أتوا .

وكان آخر وقعة كبيرة ذات خطر خاضها الوزير بلبن هى التى

خرج فيها عام ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م للقضاء على ثوار الهنادكة الذين راحوا بزعامة أميرهم مَلكا يعملون السلب والنهب فى قرى سوالك وبيانه وهريا، إلى جانب إنتهابهم لأملاك المسلمين فى موات، فلم يردهم عن غيهم ما نزل بهم من ضربات شديد قبل ذلك بسنوات ثلاثة على أيدى ألغ بك أحد قواد دهلى. وأفلح الوزير فى تطهير المنطقة كلها ثم عاد إلى العاصمة ليقف إلى جانب سلطانه فى استقبال مبعوث من لدن هولاكوخان المغولى حفيد چنكيزخان.

وهكذا أظهر بلبن فى الفترتين اللتين ولى فيهما الوزارة جدارة فائقة فى تصريف أمور الدولة وإقرار النظام فيها والأمن والقضاء على كل ما كان يتهددها من أخطار سواء فى الداخل، حيث قضى على عصيان الأمراء فى الدوآب والسند، أو فى الخارج حيث دفع عنها عدوان المغول وحصن حدودها الشمالية الغربية فى وجههم.

ورقى غياث الدين بَلبن عرش الهند على أثر وفاة السلطان ناصر الدين كما ذكرنا من قبل، فعمل على أن يسترجع لمنصب السلطنة سابق هيبته ونفوذه الذى زعزعه ضعف السلاطين من أبناء التمش من جهة وازدياد سطوة المماليك الشمسين أتباع التمش من جهة أخرى؛ هذا إلى جانب الخطر المغولى الذى مابرح يطل على السند من آن لآخر.

وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض جميعها أعاد بلبن تنظيم قواته وتدعيمها حتى تمكن بها من إقرار الأمن فيما حول عاصمته وفى الدوآب والپنچاب . ومن ثم وجها لدفع خطر المواتيين ، وكانت عصاباتهم قد تفاقم أمرها بدرجة مخيفة حتى طفقت تهدد دهلى نفسها، فلم يزل جنده تطاردهم وتتعقبهم فى الأدغال والغابات حتى طهرتها منهم تماما . كذلك عمل بلبن على تأمين الطرق والمسالك فى انحاء بلاده من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا من الكثرة بدرجة مخيفة ، لاسيما فى الدوآب ، حتى كان يستحيل فى أغلب الأحيان نقل المؤن والبضائع من موضع إلى آخر بأمان .

ودعم السلطان عملياته الكثيرة هذه بإقامة كثير من المعاقل والحصون فى مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح ، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر الأدغال والأحراش .

هذا وقد استعان بلبن على ضبط الأمور ، فى مملكته المترامية الأطراف ، بشبكة محكمة من الجواسيس كانت توافيه بكل ما كان يجرى فى البلاد من حوادث وما كان ينزع إليه عماله من تصرفات فى دقة وسرعة وتفصيل تام .

وبلغ من حرص صاحب دهلى على إلزام عماله جادة الصواب والعدل أنه لم يتردد فى الاقتصاص من أكثر من واحد منهم فى

عنف وشدة حين بلغه قتلهم بعض السكان ظلما .

على أن بلبن ، برغم ما كان له من جند كثيف عالى التدريب ، فقد لبث فى هم مقيم خوف قدوم المغول . فلزم عاصمته موجها كل جهوده إلى تأمين حدوده بإزاء غزوات جحافل هؤلاء البدو الآسيويين غلاظ الأكباد ، الذين أنزلوا الخراب والدمار بأغلب بلاد المسلمين . فهاهم أولاء قد اقتحم بهم خانهم هولاكو ، حفيد جنكيز ، بغداد مدينة الخلافة فدكوها على أهلها وقتلوا المستعصم أمير المؤمنين بها شر قتلة . وهاهم بالهند قد احتلوا إقليم لاهور ثم راحوا فى غاراتهم تترى يكتسحون أرض السند والپنچاب .

وبلغ من فرط تحرط سلطان دهلى وشدة حذره أن أبعد عن بلاطه كل مَن كان يخالجه أدنى شك فى إخلاصه له ، حتى عزل فى سبيل ذلك جميع الهنادكة عن مناصبهم . وأصبحت موارد الدولة كلها وجهودها وقفا على تحصين البلاد ووقايتها من خطر المغول .

وكان من ذلك أيضا أن عهد إلى ابنيه ، محمد وبُغرا خان ، بالمرابطة فى الملتان وسمنه أقرب مراكز الحدود الشمالية تعرضا للخطر ، وأمدهما بجيوش قوية حسنة التدريب .

وجرّ على بلبن لزومه عاصمته ، دون الخروج منها للغزو والجهاد على سنة أسلافه ، كثيرا من المتاعب فى مختلف ولايات

الدولة لاسيما ما كان منها على مبعدة من مقره . بل أن هيبته بدأت تقل فى أعين سكان دهلى نفسها الذين لم تعد تهز أسماعهم أنباء الانتصارات السلطانية أو يشاهد واعساكر المسلمين خارجة للغزو والجهـــاد .

وأرغمت اضطرابات البنغال بلبن آخر الأمر على الخروج من عاصمته . ذلك أن أميرها طُغرُل كان قد جهر باستقلاله بعد أن أوقع بحملات دهلى إليه مرات متكررة (١) .

هذا والواقع أن نفوذ دهلى فى البنغال كان قد طفق يتضاءل عموما منذ حكم الخلجيين هناك . وساعد أمراء هـــذا الإقليم على نبذ طاعة دهلى بُعـــد بلادهم الشاسع عنها مع سوء المواصلات معها ورداءة الطرق إليها ، فضلا عن انتشار الملاريا بها انتشارا وبائيا شديدا.

ولقد أتيح لألتمش من قبل أن يقر الأمور فى هـذا الإقليم وقتاً ما حتى نصب عليه ابنه . لكن الأحوال مالبثت بعد موته أن عادت هناك إلى سيرتها الأولى نتيجة للاضطراب والتفكك الذى دب إلى الحكومة المركزية فى دهلى بما فصلناه من قبل .

---

١ ـ رياض السلاطين اوتاريخ بنكالة ـ لغلام حسين سليم . كلكته ١٨٩٠م ص ٧٧ ـ ٨١

وزين لطغرل خان نائب بلبن على هذا الإقليم ، مستشاروه خلع طاعة دهلى ، وقد خيل إليهم أن السلطان قد شارف على الهلاك لشيخوخته ، فى حين شغل ولداه بقتال المغول فلا قبل إذن لأحد بالمسير إليهم .

ودفعت بهذا الأمير أطماعه إلى مهاجمة چاچنكر ، فانتهبها واستولى فيها على أسلاب ثمينة طائلة . ومن ثم راح يجهر باستقلاله فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين وأمر بضرب السكة وقراءة الخطبة باسمه ، ثم راح يفيض على رجاله مما استحوذ عليه من الغنائم جلبا لولائهم ورضائهم .

وبعث بلبن، أول الأمر، بقائده آبتكين المعروف بأمير خان إلى البنغال فأصيب بهزيمة شديدة انفرط على أثرها عقد الجند ، فمنهم من بادر بالانضمام إلى صفوف المنتصر ومنهم من ركب طريق الفرار . وبلغ من شدة انفعال بلبن وفرط غضبه ، حين بلغه خبر هذه الهزيمة ، أن أمر بقائده أمير خان فشنق على أسوار أوده ، مركز إقطاعه ، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال الدولة مثيرة لقلقهم .

وسير بلبن حملة ثانية إلى البنغال لم يكن نصيبها بأفضل من نصيب سابقتها . ذلك أن طغرل كان على أثر انتصاره قد زحف

خارج حدود بلاده حتى بلغ لكهناوتى فانقض على جيش دهلى فأباده .

هنالك بلغ ارتياع السلطان أشده ، فقرر لوقته الخروج بنفسه إلى البنغال . فعهد بشئون الدولة إلى ملِك فخر الدين ثم قصد إلى سمانه وسنام فطلب إلى ابنه بُغراخان أن يصحبه فيما اعتزم عليه من حرب ، فى حين أوصى ابنه الآخر محمدا بمزيد الالتفات إلى ما بيده من أقاليم ، وأن يرقب الحدود بعين ساهرة حذر المغول .

وبرغم عنف موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات فقد جدّ السلطان السير . حتى إذا بلغ حاضرة البنغال وجد أن طُغرل قد غادرها فرارا إلى چاچنكر وقد صحب معه كنوزه وصفوة من رجاله الأشداء . هذا كما اختفى من لكهنا وتى كذلك أغلب أعيانها خوف بطش السلطان ونقمته عليهم لتقاعسهم فى الحد من نفوذ الأمير البنغالى .

وأقسم السلطان ألاّ يبرح البنغال إلى دهلى قبل أن يوقع بطغرل ، ولو اقتضاه ذلك ركوب البحر وراءه . واستطاع رجال المخابرات السلطانية آخر الأمر الاهتداء الى معسكر الأمير الثائر فى مخبأ يتوسط الغابات ، فسقطوا عليه فى غفلة من الحرس . وأصاب أحد الجند طُغرل بسهامه وهو يحاول عبور أحد المجارى

المائية هربا ، فقطع رأسه وأسرع بها إلى مقام السلطان .

ولم يرجع بَلَبن إلى حاضرته إلاّ بعد أن أنزل بسكان لكهناوتى مذبحة قاسية لم تعرف الهند لها نظيرا فى تاريخها إلا القليل . وأوصى ابنه بغراخان، بعد أن ولاه البنغال، بسلوك طريق العنف والحزم معهم .

وظل هذا الأمير وخلفاؤه من بعده يحكمون البنغال ماينوف على نصف قرن،فى حين لم تستطع أسرة بلبن نفسهـــا أن تحتفظ بعرش دهلى بعد وفاة عميدها أكثر من سنوات ثلاث .

ولم يكتف السلطان بمـا أراق من دماء غزيرة فى الأقاليم الشرقية ، فبادر حال وصوله حاضرته إلى القصاص من كل من ثبت عليه أدنى اتصال بالثائر طغرل ورجاله .

هذا وكان بلبن قد وكل بابنه الأكبر محمد أمر الجبهة الغربية كما قلنا من قبل ، وكان بها حاميتان قويتان إحداهما بالملتان والأخرى بسمانة أقرب المراكز إلى المناطق التى كان يحتلها المغول .

وخرج هذا الأمير عام ٦٨٤ هـ/١٢٨٥ م لدفع خطر المغول عن لاهور وديپالپور فنالته رماحهم . وقد حزن أبوه عليه حزنا شديدا عجل فى نهايته بعد قليل .

ويُذكر عن هذا الأمير ميله الشديد إلى مجالسة العلماء

والأدباء . وكانت ندواتهم عنده تدور على دراسة كتب الشعر والتاريخ والفلسفة كالشاهنامة وديوان سنائى والخاقانى وخمسه نظامى . وكان من بين كبار رواد هذا الأمير شاعر الهند الكبير خسرو الدهلوى تلميذ نظام الدين أوليا .

وبعث بلبن على أثر هذه الكارثة إلى ابنه الآخر بُغراخان يدعوه إليه ليوليه عهده ، لكنه آثر البقاء بالبنغال بعيداً عن مشاكل الملك بالعاصمة . ومن ثَم أوصى السلطان بالملك من بعده لحفيده كيخسرُو ابن الأمير الشهيد محمد .

ولقد وَلِى بلبن عرش الهند أربعين عاما حكم فيها البلاد بحزم ومقدرة عظيمة ، فدفع جحافل المغول عن حدودها كما قضى على كل ما شاع فى ملكه من فتن واضطرابات كثيرة .

وأضفى هذا السلطان على بلاطه تقاليد راقية رفيعة فألزم حاشيته ورجال دولته بمراسم معينة فى لباسهم وفى سلوكهم ومناصبهم على السواء . كما ألزم نفسه ورجاله بالتمسك الشديد بآداب الإسلام وفضائله ، ونشّأ أولاده عليها ، ودفع بنى قومه على التحلى بها ، حتى ايرُد المؤرخون صفوة عادات المجتمع الهندى اليوم وتقاليده الرفيعة إلى ما استنه منها هذا الأمير وخلفاؤه من بعده[1] . وشُهر بلبن ،

---

١ — Prasad. Med. India. pp 171,2

إلى جانب ذلك كلّه، برعايته للعلماء والأدباء مع برّه الشديد بالناس جميعا لا فرق عنده بين مسلم وهندوكى، وإن كانت ظروف البلاد فى حربها مع المغول قد دفعته اعتباراتها إلى إبعاد الأخيرين عن مناصب الدولة.

وضرب رجال البلاط فى دهلى صفحا عن مشيئة سلطانهم الراحل ووصيته لهم، فأجلسوا على العرش الأمير كيقُباذ بن بغُراخان، فكان اختيارا غير موفق حمل فى ثناياه نهاية هذه الأسرة.

ذلك أن السلطان الجديد لم يكن له من الجدارة ما يليق بسد الفراغ الكبير الذى تركه جده العظيم بعد موته.

ولئن كان هذا الأمير قد نُشّىء فى الواقع تنشئة طيبة منذ حداثته، وجهد القائمون على تربيته فى تثقيفه تثقيفا عاليا وبث الفضائل وحميد الخصال فى نفسه :- إلا أن توليه العرش فى سن المراهقة، اذ لم يكن يعدو السابعة عشرة، دون وجود نصحاء مخلصين له من حوله، قد أسلس قياده لزمرة من أصحاب الأهواء أخذوا يزينون له الاستماع بمباهج الحياة وعبثها، حتى استجاب لهم وانصرف عن شئون الملك بكُليّته إليهم.

واستطاع رجل من أصحاب الطموح والأطماع بالبلاط، يدعى

نظام الدين ، أن يستأثر بتصريف الأمور بتعضيد ختنه فخر الدين أمير الجند بالعاصمة ، فراح ينتقص من حقوق الأمراء ويقصى عن مراكز الحكم أكفاءهم، وفيهم أولئك الذين كانوا يخدمون الدولة بوفاء وجد وإخلاص منذ أمد طويل .

وما لبث نظام الدين أن تطلع إلى العرش نفسه. فهاهم أولاء الأمراء والقادة قد ألزمهم طاعته والخضوع لمشيئته. وهاهو ذا بُغرا خان، أقوى ابناء بلبن، يقيم بالبنغال التي تبعد عن العاصمة مئات الأميال فلا سبيل يسيرا له إليه . فرتّب خطته على أن يبدأ أولا بالتخلص من الأمير كيخسرو ، وهو الذى كان بلبن قد عهد إليه أصلا بالعرش قبل موته ، فما زال بالسلطان حتى زين له اغتياله وحمله عليه ، فقُتل عند رهتان وهو قادم فى طريقه من الملتان إلى دهلى تلبية لدعوة السلطان.

وحين أثار مقتل هذا الأمير سخط رجال الدولة ، برز نظام الدين يلقى بالتبعة على خواجه خاطر وزير السلطان ، فمثل به شر تمثيل وطُوف به المدينة على حمار ثم قُتل. ولقى فى هذه الفتنة كذلك جملة من رجال بلبن المخلصين نفس المصير بتدبير من هذا الأمير الذى عرف كيف يجعل من السلطان أداة طيعة لتنفيذ مآربه وتحقيق أغراضه وأهدافه .

ونظر نظام الدين ومعـــه ختنه فخر الدين فرأيا معارضيهما

والساخطين عليهما يلوذون بالأمراء الخلجيين ويتطلعون إليهم فى هذه المحنة الجارفة. فحزما أمرهما على الإيقاع بهؤلاء الأمراء الذين، فضلا عن توليهم لمناصب هامة فى الدولة، كانوا وآباؤهم هم الذين أرسخوا فتوحات المسلمين فى البنغال والأقاليم الشرقية.

ولقد حاول بُغراخان صاحب البنغال أن يرد السلطان إلى صوابه فالتقى به فى جيش كبير عند أوده، لكنهما لبث أن ارتد بعد قليل إلى طريقه القديم حتى انتهى به انغماسه فى العبث والمجون إلى الإصابة بالفالج.

وأدى اضطراب الأحوال وتناحر الأمراء فيما بينهم إلى أن ذهب فريق منهم إلى حريم القصر فأتوا بغلام من أبناء السلطان المريض ورفعوه على العرش.

هذا وكان الأمراء الخلجيون بدورهم قد أحسوا بما كان يدبر لهم فى الخفاء فخرج بهم زعيمهم جلال الدين فيروز مع أتباعهم وجندهم إلى ظاهر العاصمة.

هنالك حسبها الأمراء الأتراك بدورهم فرصة سانحة لخلاص الأمر لهم. لكن أبناء الأمير فيروز الخلجى سرعان ما أحبطوا خططهم باختطاف السلطان الصبى والفرار به إلى معسكرهم.

وإن هى إلا أيام قليلة حتى أجتاح الخلجيون المدينة بجندهم

فقصد فريق منهم قصر المرايا، حيث كان كيقباذ طريح الفراش ، فقتله رجل منهم انتقاما منه لأبيه . وألقيت جثته بنهر چمنه فى التاسع عشر من المحرم عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م .

وبمقتل كيقباذ انتهى أمر سلاطين المماليك وانتقل الملك إلى أيدى الخلجيين .

الخلجيون

يُرجع محمد قاسم هندو شاه ، صاحب تاريخ فرشته ، نسب الخلجيين إلى الترك ، ويحتج على ذلك بترداد ذكرهم فى تاريخ ملوك غزنة خصوصا أيام حكم سبكتكين وابنه محمود[1] . فى حين ينسبهم نظام الدين أحمد ، صاحب طبقات كبرى ، إلى قليج خان أحد أصهار جنكيزخان[2] ، حيث تقول الرواية بأنه نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ثم حرف اسمه بعد ذلك إلى خلج الذى ينسب إليه الخلجيون . ويقول بهذا الرأى كذلك ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاه محتجا بكراهية الخلجيين للترك .

ومهما يكن الأمر فإن الخلجيين قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها ، فصاروا يعدون أنفسهم أفغانيين أكثر من أى شىء آخر .

---

١ ــ تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندو شاه ــ ص ٨٨، ٨٩

٢ لا تزال بعض قبائل الهزرا بمناطق بلاد الأفغان الجبلية محافظة على المقومات الجنسية واللغوية المغولية غالبا حتى اليوم ، وقد نشر الأستاذ جابيلنز بحثا شيقا فى هذا الموضوع بمجلة المستشرقين الالمانية Zdmg Bd XX S 326-8

وبدأ نجم هؤلاء الأمراء فى الظهور بالهندستان أيام محمد الغورى وقطب الدين أيبك وشمس الدين التمش ، فكانوا حكاما على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك كثيرا من المناصب الرفيعة الأخرى فى الدولة . والتف الأمراء الأفغان حولهم ببلاط بلبن وخلفائه فى جهة تناهض نفوذ الترك الآخرين وغيرهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلى عام ٦٨٩ م / ١٢٩٠ هـ وكان فى السبعين من عمره.

ولم يتقبل أهل العاصمة حـــكم الخلجيين أول الأمر بقبول حسن لفرط ما ارتكبته قواتهم معهم من ضروب القسوة من جهة ، ولبشاعة مقتلهم لسلطانهم المفلوج من جهة أخرى. ولكن السلطان الشيخ ما لبث، بحسن سياسته وعدله ومودته، أن تألف القلوب حوله من جديد . فقد أثر عنه أنه ، لفرط بغضه لإراقة الدماء ، كان يكتفى بنفى قطاع الطرق إلى البنغال دون قتلهم . كما بلغ من تسامحه كذلك أن عفا عن ملك چجو ، ابن أخى بلبن وحاكم إقليم كرّه ، حين وقع أسيراً فى يده ، وكان قد زحف إلى العاصمة فى جيش كبير بدعوى أحقيته فى العرش ، فاكتفى فيروز شاه بخلعه عن إمارته وتنصيب ابن أخيه جلال الدين الخلجى مكانه .

ولم يكن تسامح جلال الدين وقفا على المسلمين دون غيرهم. فقد خرج من عاصمته إلى جهاين ومالوه بعد ما بلغه من انتهاب راجا رنتنبهور لهما، فما إن رأى هـــذا الأمير الهندوكى يحتمى بإحدى حصونه خوف بطشه حتى رجع عنه حقنا لدماء الرعية.

على أن بغض السلطان الخلجى الشيخ لإراقة الدماء لم يكن ليقعده بطبيعة الحال عن الذب عن بلاده إذا ما اكتنفتها الاخطار أو تهددها الغزو. فما إن عاد المغول إلى الهندستان من جديد يهاجمونهـــا بجحافلهم حتى تصدى لهم جلال الدين وأنزل بهم هزيمة منكرة أسر فيها بضعة ألوف منهم أنزلهم بضواحى دهلى. وهم الذين عرفوا هناك بالمسلمين الجدد. وقد صارت محلتهم مثابة للتآمر والاضطرابات التى جرت على دهلى كثيرا من المتاعب فيما بعد.

وأذن جلال الدين لابن أخيه علاء الدين عام ٦٩٤ هـ/١٢٥٤م بالخروج إلى الدكن غازيا، وكان هذا الأمير واسع الأطماع طموحا فبيت فى نفسه أن يبتعد عن دهلى ويقيم لنفسه هناك ملكا.

وبرغم ما كان معه من جند قليل لا يجاوزون ثمانية آلاف فارس، فقد استطاع أن يغزو بهم إمارة ديوكر الهندوكية الواسعة ويهزم صاحبها رام جندرا وسنكره ديوا ثم عاد إلى مقره بكره

محملا بغنائم طائلة كانت تضم فيما تضم أكداسا من الجواهر الثمينة وأربعين من الفيلة وبضعة آلاف من رءوس الخيل .

وطار السلطان فرحا بما حازه ابن أخيه من انتصارات، وكان إذ ذاك فى نواحى كواليار ، فعزم على الخروج بنفسه للقائه .

وكاد جلال الدين يستجيب لتحذيرات بعض خلصائه وارتيابهم فى نوايا ابن أخيه . حتى إذا ما أقبل عليه الماس بك ألُغْخان برسالة من علاء الدين يلوّح له فيها بقتل نفسه أو أن يضرب وكنوزه فى الأرض على غير هدى إذا ما عدل السلطان عن تشريفه بالقدوم إليه ؛ — أصم أذنيه عن مقالة رجاله برغم مزيد إلحاحهم عليه وتبصيرهم إياه بسوء نواياه ، فعزم على الخروج إليه من فوره .

وهكذا عبر جلال الدين الكنج فى فئة قليلة من رجاله . فما إن بلغ مقام علاء الدين فأقبل يحييه ، حتى انهالت ضربات السيوف عليه وعلى رجاله ثم نودى فى الناس من بعد ذلك بالأمير الغادر سلطانا عليهم .

وروّع الخبر دهلى فبادر الأمراء ورجال البلاط بالالتفاف حول ملكه جهان زوجة جلال الدين التى بلغ بهم الغضب والحزن

مبلغه لاغتيـــال السلطان الشيخ الرحيم بهذه الأساليب الوحشية الوضيعة .

وبادرت هذه السيدة ، بحسن تدبيرها ، فغمرت الزعماء بالهبات والعطايا كما نثرت الفضة والذهب على عامة الشعب بالمجانيق حتى اجتمعوا جميعاً على تنصيب ابنهـــا ركن الدين إبراهيم على عرش دهلى .

على أن علاء الدين سرعان ما اقتحم المدينة على أهلها وأرغم سلطانها الشاب على الفرار إلى الملتان . وهكذا جلس هذا الأمير المغامر الطموح على عرش الهند عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥ م فأجريت الخطبة له وضُربت السكة باسمه .

وغزا المغول أرض الهند من جديد فانبرى لهم علاء الدين فى حروب طويلة استمرت الى عام ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٤ م حتى رد غائلتهم عن البلاد . وكان أكبر عون له فى حروبه هذه قائده الكبير غازى تُغلُق ومعه ظفر خان وألغ خان. وكان علاء الدين قد نهج كذلك نهْج سلفه العظيم بلبن بإقامة حصون قوية مستديمة عند الحدود الغربية وتزويدها بالجند المدرب القوى والعتاد الحربى .

ولقد بدأت هذه الحروب فى السنة الثانية من حكم هذا السلطان حين خرج الأمير داود المغولى من بلاد ما وراء النهر فى عشرة

آلاف مقاتل يبغى الاستيلاء على الملتان والسند والپنچاب ، فتصدّى له ألغ خان قائد دهلى وأنزل به هزيمة شديدة .

على أن هؤلاء الغزاة لم يثنهم عن عزمهم ما أصيبوا به من خسائر فادحة ، فعادوا إلى الهند بعد قليل ، فالتقى بهم القائد الخلجى ظفر خان فى معركة كبيرة أسر فيها منهم الفين ومعهم قائدهم فسيقوا جميعا إلى دهلى مصفدين فى الأغلال .

وكان أخطر هجوم مغولى تعرض له علاء الدين هو الذى وقع عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م حين زحف قُتلق خواجه على راس قوات كثيفة صوب دهلى . لكن السلطان ومعه قائداه ألغ خان وظفر خان ثبتوا لهم حتى تم لهم النصر بعد قتال عنيف تضاعفت فيه خسائر الفريقين وسقط فى ميدانه القائد الخلجى المحنك ظفر خان .

وظهر فى الميدان على أثر هـــذه الواقعة جيش جديد من المغول بقيادة زعيمهم تارجى ،لكن الأمير نظام الدين تصدى له وشتت شمله .

ولئن كانت حدّة الخطر المغولى قد انكسرت على أثر هذه الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم ، إلا أن غزواتهم طفقت مع ذلك تتوالى على مناطق الهند الغربية حتى تمكن غازى ملك تُغلق، بفضل حنكته الحربية وشدة مراسه وماأنزله بهم من ضربات

شديدة، من أن يُبْعِد خطرهم عن سلطنة دهلى تماما .

وإذساد الاستقرار والأمن سلطنة دهلى من جديد ، انصرف تفكير علاء الدين إلى الغزو والفتوح . فأخذ يمهد لذلك بالعناية البالغة بأمر الجيش وتقويته مع تهيئة مايحتاج إليه من مصانع للسلاح وعمال لها ، إلى جانب إنشاء الحصون لاسيما بمناطق الحدود عند سمانه ودپالپور بالپنجاب . وكان يعاونه فى ذلك كله نخبة من قواده الممتازين الذين كادت فتوحاتهم تشمل شبه القارة الهندية بأكملها .

ولقد بعثت فتوحات هؤلاء القادة ، وماجلبوه من كنوز طائلة ، نشوة مشوبة بقدر من الغرور فى نفس علاء الدين حتى تراءى له أن يسيرهم إلى فتح الدنيا بأسرهـا على غرار ما فعل الإسكندر المقدونى من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أبعد من ذلك، فغدا يصرح بأن قادته هم منه بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبى الأكرم ، فهو قادر بهم على تنظيم الدعوة لدين جديد يخرجون للتبشير به فى أركان المعمورة وسيوفهم مشهرة .

وهنا يقول المؤرخ ضيابارانى صاحب تاريخ فيروزشاهى ، وكان معاصرا له ، إن القاضى علاء الملك عم السلطان بادر بالاعتراض على علاء الدين فى قوة وحزم حين سأله النصيحة فى هذا الأمر . فقال له بأن الدين إنما هو وحى من عند الله وليس بأمر وضعى

من صُنع البشر، وأن النبوة لم يُختص بها الملوك أبدا أو كانت من نصيبهم عموما وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيبا . وهذا خان المغول چنكيز ، برغم ما أهرق من دماء فى بلاد المسلمين ، لم يمكنه حمل المقهورين على الدخول فى ملته ، بل إن ماحدث هو العكس، فقد أقبل المغول الفاتحون أنفسهم يدخلون فى دين الله أفواجا.

أما عن مسألة فتح العالم فقد أبان القاضى للسلطان بأن العصر يغاير تمام المغايرة زمان الإسكندر ولا يقاس عليه ، هذا فضلا عن أنه كان للمقدونى وزير ناصح حكيم هو أرسطو وهو مالا نظير له عند علاء الدين .

وختم القاضى نصيحته للسلطان بأن أوصاه بقصْر جهوده وتركيزها فى إخضاع الهندستان كلها لحكمه ، واقرار الأمور فيها بالقضاء على الثورات والفتن وتأمين الحدود فى وجه المغول .

ولقى كلام القاضى أذنا مصغية من علاء الدين فبعث بقائديه ألغ خان ونصرت خان عام ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م للاستيلاء على حصن رَنتنبهور فنفذا إليه فى قوات كبيرة عبْر صحراء الراچپوتانا بعد أن استوليا فى طريقهما على حصن جهاين.

وفيما كانا يحاصران هذه القلعة ، أصابت إحدى قذائف المدافعين الحجرية نصرت خان إصابة قاتلة جرته إلى حتفه فى

مدى يومين . وما لبث رانا همير صاحب الحصن أن خرج إلى المسلمين فى مائتى ألف من الجند اجتمعوا له ، وأرغم بهم ألغ بك على الارتداد إلى قلعة جهاين بعد خسائر كثيرة .

هنالك بادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هـــذا الحصن ، ولكنه فوجىء فى الطريق بتآمر ابن أخيـــه سليمان شاه اتكخان على حياته، ومعه أتباعه من المسلمين الجدد ، قصد انتزاع العرش منه على غرار ما فعله هو نفسه بعمه جلال الدين من قبل . على أن علاء الدين ، برغم ما أصابه من جروح شديدة ، أفلح آخر الأمر بالقضاء على المتآمرين جميعا .

وتابع الأمير الخلجى سيره إلى غايته فاكتسح فى طريقه مالوه ودهار . حتى إذا ما وصل حصن رنتنهبور قابله أصحابه بمقاومة عنيفة أطال من أمدها جنوح بعض رجال الدولة بدهلى إلى التآمر على السلطان فى غيبته وإشاعتهم الفوضى فى المدينة .

وأصر السلطان على ألا ينصرف عن الحصن قبل الاستيلاء عليه فبعث بقائده ألغ خان إلى دهلى فأقر الأمور فيها بعد عناء شديد .

واستماتت الهنادكة فى الدفاع عن قلعتهم فى شجاعة خارقة وثبات عظيم فلم تسقط فى أيدى علاء الدين إلا بعد عام من المقاومة المجيدة. ومن ثم آب السلطان إلى عاصمته فى نهاية عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م

بعد أن أمر بالحصن فهُدم وسويت اسواره بالأرض . وصارت الإمارة كلها لآلغخان .

وأغرى هذا الانتصار الكبير علاء الدين على التطلع إلى اقتحام مِوار أمنع إمارات الراچپوتانا وأعظمها . ولم يفت فى عضده ما حصنت به الطبيعة هذا الإقليم من جبال شامخة ودروب وعرة وغابات كثيفة موحشة ، إلى جانب حصونه الكثيرة وفيها حصن چيتور الذى قُدّ من الصخر على قنة جبل وعر كفلت له مناعته رد كل فاتح أوغازعنه ، فلم يفكر أحد من قواد المسلمين بالهند من قبل فى محاولة النفاذ إليه .

على أن علاء الدين ما عتم يدبر لرانا بهيم صاحب چيتور مايدبر حتى أفلح فى استدراجه إلى خارج حصونه ثم أوقعه فى أسره . وهنا تقول الرواية إن السلطان عرض على أسيره أن يرده إلى مقامه إن سير إليه ابنته پدمنى . وكانت هذه الأميرة الهندوكية على جمال رائع وفتنة ذاع أمرها فى كافة أرجاء الهند .

وأجمع رجال الحصن ، حين بلغهم الخبر ، على أن يبعثوا إلى سيدهم سرا بقدر من السم يضع به حدا لعذابه فى الأسر وينقذ معه بذلك شرف قومه ، فإذا بالأميرة الجميلة ، وكانت ذات عقل راجح وتدبير سديد ، تنبرى لهم معارضة فتعلن إليهم عزمها على المسير إلى مقام السلطان

على خطة محكمة، أسرتها إليهم، فيها الخلاص والسلامة لأبيها ولها معا.

وبلغ ركب الأميرة معسكر السلطان ومعه أحمالها فى الهوادج. فما إن توسطت القافلة مضارب علاء الدين حتى انشقت هوادجها عن سبعمائة من فدائيى الهنادكة الأشداء الذين أفلحوا بعد قتال مرير فى إنقاذ أميرهم وردّه وابنته إلى حصنه بسلام.

ولم يكن علاء الدين ليسكت عن هذا الحادث، فاقتحم الحصن بنفسه فى الغداه وأعمل ورجاله السيف فى حاميته فى عنف بالغ، وإن لم يستطع على كل حال أن يظفر بالأمير الهندوكى وابنته أحياء، إذ آووا مع جملة من الأعيان إلى بعض الكهوف حيث أهلكوا أنفسهم (١).

وتبع سقوط هذا الحصن استيلاء قوات السلطان على مالوه ثم ماندو ويوجين ودهرا نجرى وچندرى. وهكذا لم ينصرم عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٥ م حتى كانت مملكة علاء الدين الخلجى تمتد من البنچاب إلى البنغال ومن جبال الهملايا إلى تلال الوندهايا، وهى الرقعة التى اصطلح المؤرخون على إطلاق اسم الهندستان عليها.

واتجهت أنظار صاحب دهلى من بعد ذلك إلى الدكن. وكان

---

١ — تاريخ فرشته ص ١١٥ — هذا وتذكر بعض المصادر الهندوكية أن الاميرة كانت زوجة لصاحب الحصن لا ابنة له.

هذا الإقليم، إلى جانب بعده عن العاصمة، يقوم على حراسته عصبة من أمراء الهند الأقوياء.

وخرج جيش المسلمين من حاضرتهم وعليه القائد كافور، وكان مملوكا حبشيا قديرا جلبه القائد نصرت خان إلى سيده من منطقة خليج كمباى.

واخترق الجند مالوه ثم الكجرات، أعظم أقاليم الهند التجارية وأغناها وأطيبها مناخا، ليهاجموا راى كران الذى ماعتم أن فر مع إبنته إلى صاحب ديوكر.

هنالك انضم ألغ خان ورجاله إلى قوات كافور فساروا جميعا إلى ملجىء غريمهما، فما لبثا أن ظفرا به وبمجيره بعد قتال عنيف. على أن السلطان، بعد أن زف ابنة راى كران إلى خضر خان ولى عهده، مالبث أن رد صاحب ديوكر وابنه إلى بلادهما مكرمين، فضمن بصنيعه هذا دوام ولاء هذا الأمير الهندوكى ووفائه له.

وعلى أى، فقد بعثت إنتصارات كافور الرعب فى قلوب بقية أمراء الدكن ومايليها جنوبا. فما عتمت تلنجانا قاعدة إقليم أورانكل أن فتحت أبوابها للغزاة المسلمين عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وافتدى أميرها، براتاب رودرا ديوا كاكاتيا، قومه وعشيرته بكنوز طائله حملها إلى دهلى الف بعير كادت تنوء بها، عدا مئات من

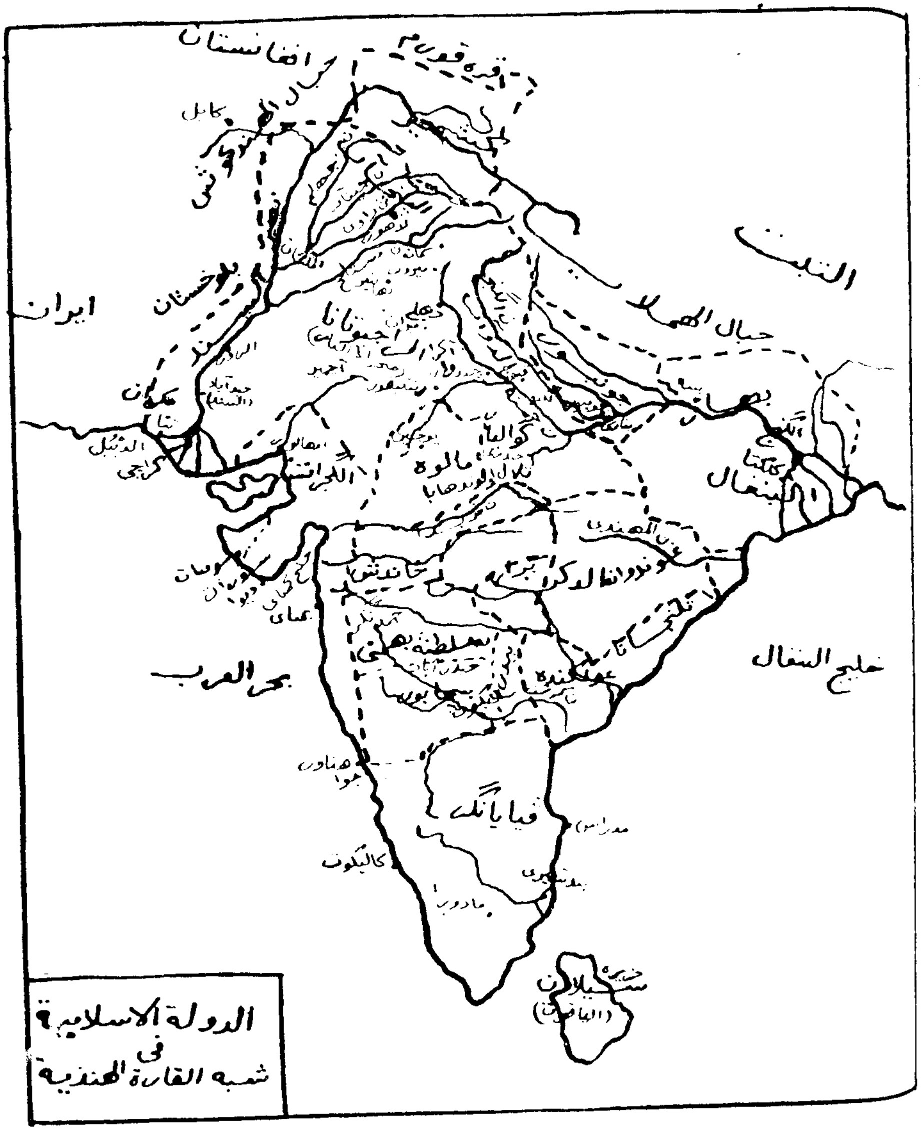
الفيلة وألوف من رءوس الخيل .

وشجع ما وصل دهلى من أسلاب وغنائم ، حكومتها على المضى فى الفتح طلبا للمزيد من الأرض والكنوز . فغادر كافور بجنده العاصمة من جديد فى جمادى الآخرة من عام ٧١٠هـ/١٣١٠م فبلغ إقليم معبر ، فى الجنوب الشرقى من الدكن ، ليُخرج له صاحبه، فير بلال ، من أكداس الجواهر والأموال ما لم ينل من ضخامتها ما وهبه السلطان منها لرجاله وجنوده فى سخاء بالغ .

ولم يرجع المحارب الحبشى الجسور عن الدكن حتى تم له إخضاع الجنوب الهندى كله ، فلم يهل عام ٧١٢هـ / ١٣١٢ م حتى كان سلطان الخلجيين يظل شبه القارة الهندية بأكملها .

واتجه علاء الدين من بعد ذلك إلى تنظيم شئون ملكه الواسع وتدعيم سلطانه بعد أن تحققت آماله فى الفتح، وقد صار له جيش قوى غدت به البلاد فى مأمن تام من الغزو المغولى ، من جهة، وساعد على كسر شوكة الأمراء والنبلاء من جهة أخرى .

ولقد قامت سياسة هذا الأمير الخلجى الداخلية على قدر غير قليل من الشدة والعنف إذ وضع يده على جميع الملكيات الزراعية وأثقل كاهل الهنادكة خصوصا بالضرائب . كما نهج نهج سلفه بلبن فى إقامة شبكة قوية من الجواسيس لتنقل إليه أخبار



الدولة الاسلامية
في
شبه القارة الهندية

الناس خاصتهم وعامتهم على السواء .

وتعرض هذا السلطان لنقد رجال الدين الشديد حين راح يستأثر لنفسه ، دون بيت المال، بأموال الدولة وما حمله جنوده إليه من كنوز الهند الوفيرة ، إلى جانب مغالاته فى فرض الضرائب بما يتنافى مع قواعد الشرع الشريف . وقد اعتذر لشيوخه هؤلاء بضرورة ما ذهب إليه طلبا لاستتباب الأمن فى بلاده الواسعة وللقضاء على ما ينشب فيها من فتن واضطرابات .

وبهذا كان علاء الدين أول سلطان مسلم بالهند جعل من إرادته المطلقة وحدها دستور الحكم ، فقلده فيها كثيرون ممن جاءوا بعده .

وتشدد هذا الأمير فى تحريم الشراب ببلاده ، وجعل من نفسه القدوة لقومه فحطم كل ما كان ببلاطه من أدواته . على أنه اشتط فى معاملة الهنادكة فنهاهم من اتخاذ المراكب أو التزين بثمين الثياب أو السلاح .

وصادفت النظم الإدارية والمالية التى وضعها علاء الدين قدراً كبيرا من التوفيق والنجاح . وأدت رقابته على الأسواق والأسعار مع تشدده فى معاقبة مدلّسى التجار إلى أن عم اليسر

والرخاء البلاد[1]. وهنا تقول الرواية بأنه كان يأمر بالمطفف فيُستكمل الميزان بقطعة تقدُّ من لحمه حيا، عظة لغيره وعبرة .

كذلك لم يهمل علاء الدين تعمير بلاده فأقام بها كثيرا من المنشآت النافعة ، كما عنى بنشر الثقافة وأسبغ رعايته على علماء زمانه وشعرائهم من أمثال الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

ومن البديهى أن أمراء المسلمين والهنادكة على السواء ، الذين سلبهم السلطان كل ما كان لهم من نفوذ وامتيازات، ومعهم التجار الذين غدت أرباحهم لا تعْدو القدر الضئيل الذى تحدده الدولة لهم وتراقب تنفيذه فى صرامة بالغة حرصا منها على رخاء الشعب :- هؤلاء جميعا كانت نفوسهم تختزن الغضب وتفيض بالسخط ، فلم يكن يمنعهم من الجهر به إلا ما يعلمونه ، علم اليقين ، من عظم بطش الأمير الخلجى وشدة بأسه .

على أن علاء الدين حين تقدمت به السن ، ذهب فى كثير من شئونه ينقاد إلى آراء قائده كافور الحبشى وعصبته من حثالة القوم ، الذين كان قد أتى بهم ليقوموا على خدمته مكان الأمراء

---

١ — Prasad, India p 210

الذين أبعدهم عن بلاطه ، فما عتموا أن بلغوا أعلى المناصب . وبلغ من تأثيرهم عليه أن أهمل تعليم أبنائه بتحريض من قائده هذا .

وما إن مات علاء الدين فى عام ٧١٥هـ/١٣١٦م حتى ولى الأمر كافور وصيا على العرش بعد أن أجلس عليه حدثا صغيرا من أولاد سيده ، يدعى شهاب الدين عمر خان ، كان قد حمل السلطان قبل وفاته على البيعة له .

وعلى أى ، فإن علاء الدين الخلجى يُعد بحق من أعظم ملوك المسلمين فى عصره. فقد توفرت له صفات الجندى الطموح الجسور والإدارى الحازم الموفق ، فقاد جنده حتى دانت له شبه القارة الهندية كلها ، كما دفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب ، وأقر الأمن فى كافة ربوع بلاده ، ونظم الجهاز الحكومى تنظيما شاملا مكينا كان من أبرز مظاهره توفير الأقوات لسكان الهند جميعا بأسعار فى متناول أدنى طبقاتها ، وهو صنيع انفرد به علاء الدين دون حكام عصره جميعا .

وساق كافور البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية ، إذ طفق يعمل على إزاحة الأمراء الكبار من طريقه، إما بالقتل أو بسمل الأعين، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فلم يسلم من بطشه أحد حتى ملكه

جهان [1]، زوجة علاء الدين نفسه، إذ جردها من أملاكها وأموالها وألقى بها فى الحبس. وكُتبت النجاة من هذه المحنة للأمير مبارك خان، الذى ولى العرش من بعد، إذ اكتفى كافور بزجه فى السجن .

كذلك أقصى المغتصب كل من بقى من رجال علاء الدين القدامى بالبلاط وعهد بوظائفهم إلى رجال من أتباعه وبطانته. حتى وفق فريق من مماليك علاء الدين آخر الأمر ، بمعاونة أمير يُدعى ملك شير ، فى الفتك بكافور وتخليص البلاد من شروره وعصبته فعهدوا بالملك إلى الأمير الخلجى مبارك خان [2].

وارتقى قطب الدين مبارك شاه عرش الهند عام ٧١٦هـ/١٣١٦م فبدأ حكمه بداية طيبة ، فأطلق سراح المعتقلين ورد الأراضى والأملاك المغتصبة إلى أصحابها ورفع كثيرا من الضرائب عن كاهل التجار .

ثم وجه قائده خسرو إلى الكجرات والدكن للقضاء على الثورات التى نشبت هنـــاك ، فهزم راجا هربال ديوا فى ديوكر ثم سار إلى تلنجانا فباغت فى ثلاثمائة من رجاله أورانكل، وكان يحميها عشرة آلاف من الفرسان مع عدد كبير من المشاة ،

---

١ — تعرف بهذه التسمية الزوجة الأولى لكل سلطان ومعناها «ملكة الدنيا»

٢ — يختص الأمراء عادة بلقب خان فى حين يلقب السلطان بالشاه .

فأنزل بهم مذبحة قاسية غنم من ورائهـــا كثيرا من الأموال والكنوز . ومالبث أميرها أن خرج على أثر ذلك من حصنه فأعلن استسلامه له على جزية سنوية طائلة وأموال كثيرة .

على أن السلطان الجديد ما عتم بعد قليل أن انقلب ينغمس فى الشهوات والمبـــاذل إلى درجة بشعة حتى اتخذ لباس النساء وخرج به فى الطرقات قاصدا دور الأمراء ليواصل مجونه بها . بل لقد كان كثيرا مايُحرض من فى صحبته من بنات الهوى على معابثة كبار الأمراء الذين كانوا يُرغمون على مجالسته بالبلاط .

ووثب عليه آخر الأمر قائده خسرو فقتله وجملة من الأمراء الخلجيين . وبموت هذا السلطان انتهى حكم الخلجيين بدهلى .

وجلس خسرو من بعده على عرش الهند، عام ٧٢٠هـ/١٣٢١م وتلقب بناصر الدين ، وكان من أصل هندوكى وضيع بالكجرات. فما لبث أن أطلق أيدى أتباعه فى البلاد يعيثون فيها فسادا ، فنهبوا الناس وانتهكوا الحرمات وأشاعوا الظلم . ولم يترك هو نفسه أى أميرة من زوجات علاء الدين وقطب الدين وبناتهما إلا وقدا ستحياها ثم خلعها على بعض أصحابه . هذا كما اغتصب أموال الدولة وراح يبذل منها لبعض كبارها بغيه شراء تعضيدهم له وتأييدهم .

وهدف خسرو إلى إحياء الهندوكية من جديد ، واسترجاع مجد الهنادكة القديم وسلطانهم بالتالى، فجمع حوله عصبة من مواطنيه عاهدوه على المضى معه فى هذا الأمر ، فراحوا يحطون من قيم الإسلام فى استهتار وجرأة بالغة حتى اقتحموا المساجد(١) فأقاموا أصنامهم وأوثانهم بها وجعلوا من المصاحف قاعدة لها . ولو لم يُشغل الأمراء الهنادكة فى هذه المحنة الجامحة بتحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة عن الاستجابة التامة لدعوة خسرو هـــذه ، لنزل بالحكم الإسلامى وأصحابه بالهند ضربات قاصمة دون شك .

وأثار سلوك خسرو وقومه ثائرة الأمراء العلائيين وأتباعهم فبعثوا من فورهم بأمير منهم يدعى فخر الدين جونه إلى أبيه غازى ملك تُغلق مستنجدين بهذا القائد الحازم صاحب الفضل الأكبر فى دفع المغول عن سلطنة دهلى .

وخرج تُغلق من ديبالپور فسارع جميع الأمراء بالانضمام بجنودهم إليه فى زحفه صوب العاصمة .

ودفعت الكبرياء بمغو لتكن أمير الملتان إلى التقاعس عن نصرة المسلمين إذ كان يرى فى نفسه ندا لتغلق فلا ينطوى تحت

---

١ — تاريخ فرشته أول ص ١٢٨

إمرته ، فبادر القائد بيرم خان بالقضاء عليه وضم قواته إلى الجيش الزاحف .

ولم يغن خسرو ما بذله من أموال كثيرة لشراء الجند والقادة إلى صفوفه،فأصيب بهزيمة حاسمة انطلق على أثرها هائما على وجهه ليختفى فى مقبرة وهو فى طريقة إلى چاپت ، ولكن مطارديه ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى أخيه فأوردا ورد الردى فى آخر رجب من عام ٧٢١ ﻫ / ١٣٢١ م .

وهكذا أنقذ غازى ملك تُغْلُق مرة أخرى مُلك المسلمين بالهندمن محنة قاسية قاصمة ،كما أنقذه من هول المغول من قبل .

واستقبلت المدينة منقذها استقبالا منقطع النظير ثم راحت تعرض عليه عرشها ، فلم يقبله إلا بعد أن تأكد لديه عدم وجود وريث شرعى له من صلب السلطان علاء الدين الخلجى ولى نعمته.

آل تُغلق

أرتقى غازى ملك تُغلُق عرش دهلى فى شعبان من عام ٧٢٠ هـ / ١٣٢١ م باسم السلطان غياث الدين تغلق . وهو تركى الأب من قوم چغتاى زُطى الأم من الپنجاب ، بدأ حياته جنديا[1] بسيطا فظل يرتقى بجده واجتهاده حتى بلغ مرتبة القيادة . ومالبث أن لمع نجمه إبان حكم السلطان علاء الدين الخلجى حين ساهم بجهود بارزة فى دفع المغول عن الحدود الغربية ، ثم طفق ينزل بهم من بعد ذلك مزيدا من الهزائم حتى انجاب خطرهم عن البلاد .

وجهد تُغلق فى تدعيم ملكه واستعادة سلطنة دهلى سابق هيبتها ونفوذها، فبدأ بإحياء تعاليم الإسلام فى حكومته، ورد للأمراء والأعيان ما اغتُصب من أملاكهم وامتيازاتهم، كما أحاط بالإكرام والعناية كل من بالبلاد من الأمراء الخلجيين .

كذلك نجح غياث الدين فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزة دهلى . فبعث بابنه ألغ خان الى

---

١ ـ تاريخ فرشته أول ص ١٣٠

الجنوب فانتزع تلنجانا من أيدى براتاب ديو الثانى راجا أورنكل وضمها إلى ملكه. ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد انتهز فرصة ضعف الدولة أيام مبارك شاه الخلجى فنفض عنه طاعة السلطان ورفض إرسال الجزية إليه. وبأسره ختم دور هـام لعبته هـذه الإمارة فى تاريخ جنوب الهند. وسار هو بنفسه إلى الأقاليم الشرقية حتى بلغ البنغال فأقر له بالطاعة أميرها ناصر الدين حفيد بغراخان بن بلبن.

ونهج هذا السلطان نهج علاء الدين الخلجى فى الاحتفاظ بجيش نظامى قوى تقوم الدولة بالإنفاق عليه، كما نظم الأداة الحكومية وطهرها مما لحق بها من فساد أيام مبارك شاه الخلجى وقائده خسرو، وحرص على إشاعة العدل بين الناس جميعا.

كذلك أنشأ غياث الدين نظاما محكما للبريد لم تعرف الهند له ضريبا من قبل فى دقته وسرعته، حتى بلغت العاصمة أخبار الرحالة العربى ابن بطوطة بعد وصوله مصب السند بأيام خمسة قطع فيها البريديون ما يزيد على تسعمائة ميل، هى المسافة بين المكانين، فى طريق آمن معبد. وقد أشاد هذا الرحالة بما كانت عليه الهند من تقدم ومدنية فى عهد هذا السلطان وخلفائه. وسنشير إلى ذلك كله فى موضعه بقدر من التفصيل.

وشجع تغلق الناس على تعمير الأرض وفلاحتها فأصلح من طرائق الري، وشق كثيرا من الترع والقنـــوات وخفّض من خراج الأرض.

ولقى هذا السلطان حتفه في ربيع الأول من عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م على أثر إنهيار أحد قصوره به. وينسب بعض المؤرخين تدبير هذا الأمر لابنه وولى عهده فخر الدين جونه ألغ خان مع الشيخ نظام الدين أوليا الذى كان على خلاف كبير معه، فى حين يقول آخرون بانقضاض صاعقة على البناء فهدمته.

وخلف الأمير فخر الدين أباه وتسمى بمحمد تغلق، فاستهل حكمه يبذل المال والعطايا لرجاله ورعاياه فى سخاء بالغ، حتى قيل إنه حين وفد العاصمة قادما من تغلق آباد كان فى ركابه جملة من الفيلة المحملة بالذهب والفضة راح فيالوها ينثرون أحمالها على الناس. وترامت أخبار هبات السلطان وكرمه إلى خارج حدود الهند فوفد إلى بلاطه جموع من أهل العراق وخراسان وفارس وبلاد ماوراء النهر طمعا فى نواله وعطائه.

وكان من بين الوافدين عليه كذلك طائفة من المشتغلين بالعلوم والفنون والآداب. ذلك أن محمد تغلق لم يكن من رعاة العلوم والفنون فحسب بل كان هو نفسه من بين طليعة المشتغلين بها

والضليعين فيها فى عصره . فمنثوراته ومنظوماته الفارسية والعربية على السواء، تشهد له بالذوق الأدبى الرفيع مع حسن السبك وجمال الصورة . هذا إلى جانب عنايته الفائقة بتجويد فن الخط والنقش، وتمكنه المكين فى علوم الفلسفة والحكمة والمنطق حتى نبغ فى تشخيص الأمراض وقام على علاج الناس بنفسه. ولعل تعمقه فى دراساته وأبحاثه الطبية إنما كان استجابة وصدا لإنسانيته الرقيقة التى دفعته إلى إقامة الكثير من دور الشفاء وملاجىء العجزة وموالاة الإشراف عليها بنفسه .

وقد تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عن هذا السلطان فذكر له كثيرا من الفضل والعلم، ولم ينكر ماعرف عنده من غرائب الأطوار الطباع التى كانت تدفعه فى بعض الاحيان إلى أن يأتى بأى شحاذ يصادفه على بابه فيرفعه بسخائه المذهل إلى مصاف الأثرياء المعدودين، أو يسقط على أحد سراة قومه فيذيقه الوان الفاقة والحرمان .

وقدعاش الرحالة العربى بالهند سنوات ثمانية ، فولى قضاء دهلى كما سفر لها بالصين . وغادرها عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م بعد أن سجل فى مذكراته الكثير عن عادات المسلمين والهنادكة هناك فى دقة يؤيدها مؤرخوا الهند أنفسهم عن ذلك العصر (١)

---

١ ــ رحلة ابن بطوطة طبع باريس ثالث ص ٢١١ ــ ٢١٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

وعلى أى ، فقد كان هذا السلطان صاحب مُثل فى تفكيره
وخططه. ولو أن الظروف كانت قد واتته فى تحقيق مشروعاته
العمرانية والإجتماعية التى رسمها لأفادت الهند منها خيرا كثيرا .

وتعرض محمد تغلق بدوره لخطر الغزو المغولى ولما تستقر
بعد أمور الدولة عقب وفاة أبيه . ذلك أن ترمشيرين خان بن
داودخان زعيم قبائل الأولوس الچغتائيين ، وكان ذا شهرة ذائعة
بين المغول لعدله وشجاعته ، أقتحم حـــدود الهندستان عام
٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م على رأس جيش كبير بنية فتح هذه البلاد ،
فاستولى على لمغان والملتان عند الحدود الشمالية الغربية ثم اتخذ
طريقه إلى دهلى نفسها .

وبدا لمحمد تغلق أن يتجنب الإلتحام بهذا العدو القوى ، فاحتال
لذلك أن بعث من فوره بوفد من رجاله حملوا معهم قدرا كبيرا من
الأموال والهدايا إلى الزعيم المغولى ، وطفقوا يخطبون وده ويبالغون
فى تملقه حتى ارتضى آخر الأمر الرجوع عن بلادهم ، فانسحب
منها عبر السند والكجرات بعد أن انتهبها وأسر كثيرا من أهلها .

وحين انجابت هذه المحنة ، راح السلطان يدبر الأموال اللازمة
لتحقيق مشروعاته الإصلاحية ، فتغالى فى فرض الضرائب بإقليم
الدوآب ، أخصب مناطق الهند وأغناها ، حتى هجر الأرض أصحابها

إلى الغابات فرارا مما ألزموا به من أموال عجزوا عن أدائها ، فعم الإقليم الخراب واجتاحته المجاعة . ويرد فريق من المؤرخين مسلك محمد تغلق هذا إلى ما عُرف من ميل أعيان هذا الإقليم إلى الجنوح للثورات وإشاعة لاضطرابات على الدوام، حتى نهج علاء الدين الخلجى معهم مثل ذلك من قبل ، وإن كان احتباس الأمطار الموسمية عنهم فى بعض السنوات قد زاد من خطورة الحال هناك.

وأعجب السلطان بموقع مدينة ديوكر الطبيعى الحصين ، وكان قد سار إلى جوارها للقضاء على ثورة ابن أخيه بهاء الدين كُشْتاسب بالدكن ، فعزم على أن يتخذ منها حاضرة له ، أطلق عليها اسم دولت آباد فيما بعد ، ليبتعد بذلك عن مواطن الخطر المغولى من جهة ، ويتوسط ، من جهة أخرى ، دولته الواسعة التى كانت تمتد من الهملايا إلى جنوب الدكن ومن البنغال إلى أرض كابل .

ولو كانت خطة السلطان هذه قد اقتصرت على البدء بنقل دولاب الحكومة إلى العاصمة الجديدة ثم إجراء هجرة السكان إليها بالتدريج لهان الأمر وأمكن تحقيقه فى شىء من اليسر . لكنه شرع من فوره يشق الطرق من الشمال إلى الجنوب ، ثم زوّد سكان دهلى بالمؤن وأعدلهم وسائل النقل ، وأمرهم جملة

بالرحيل إلى العاصمة الجديدة مع متاعهم . ولقد كان من الطبيعى أن يعم السخط أولئك الذى أرغموا على ترك عاصمتهم ، التى عاشوا فيها أجيالا ، إلى بلد آخر لا يدرون من أمره شيئا ، هذا فضلا عما تعرضوا له من متاعب لاقبــــل لهم بها فى طريق يبلغ طوله سبعمائة ميل ، فنزلت بهم الأمراض وفتكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى هلك منهم خلق كثير . وأما الذين كُتبتْ لهم النجاة فبلغوا العاصمة الجديدة سالمين ، فقد انتابهم شعور من أرسل بهم إلى المنفى (١) .

ويبالغ بعض المؤرخين فى وصف ما ارتكبه محمد تغلق من ضروب القهر لحمل الناس على الهجرة إلى حاضرته الجديدة ، فيروُون أنه لم يتردد فى إعدام رجل مكفوف وآخر كسيح تخلفا بدهلى عن الركب . ولئن كان هذا السلطان قد حرص حرصا بالغا على تنفيذ مشاريعه الإصلاحية حتى استقدم إليه فى سبيل ذلك جملة من الخبراء وأجزل لهم العطاء فى كرم زائد أثار ثائرة من حوله ، هذا كما كان يقسو مع كل من كان يحاول معارضة خططه او عرقلة تنفيذها ، إلا أنه حين استبان له مدى الكارثة التى حلت بالناس فى هجرتهم هــــذه ، أباح لهم من فوره العودة إلى

---

١ — ابن بطوطه ثالث ص ٩٥ — ٩٧

دهلى من جديد لمن يرغب فيها . ولم يكتف بذلك فحسب بل شرع يقيم لهم على مقربة منها مدينة جديدة هيأ لهم فيها كثيرا من أسباب الراحة والاستقرار . ذلك أن العاصمة القديمة التى كانت تضارع لوقتها القاهرة وبغداد كان الخراب قد دهمها بدورها على أثر هجرة أهلها منها .

واستبان لمحمد تغلق حاجته الشديدة لجيش كبير يستطيع به إقرار الأمن فى ربوع ملكه الواسع ، فتفتق ذهنه ، بسبيل تدبير الأموال لهذه القوات ، عن خطة انتهى فشلها إلى تصدع كيان البلاد الاقتصادى تصدعا شديدا . فقد أمر بضرب عملة نحاسية تقوم فى التعامل بين الناس مقام الذهب والفضة بضمان بيت المال ، فنتج عن ذلك أن انقلبت أغلب الدور الخاصة إلى مسابك لضرب هذه العملة الجديدة طلبا للثراء . وإن هى إلا فترة قصيرة حتى أخذ التجار المحليون يرفضون التعامل بها إلا على أساس قيمة معدنها ، فى حين طفق غرباء التجار لايبيعون وارداتهم إلا بالذهب ، ويشترون صادراتهم بالنحاس .

وحين أدركت الحكومة مدى ماعم البلاد من الخراب من جراء ذلك فأعلنت رفع هذه العملة من الأسواق ورد قيمتها إلى أصحابها ذهبا وفضة ، أقبل الناس على بيت المال ومعهم ما كانوا

قد زيفوه من الأكداس الطائلة النحاسية ، فاستنزفوا الكثير من أموال الدولة .

ولم يكن محمد تغلق على كل حال هو أول من لجأ إلى استعمال العملة المعدنية بضمان الذهب ، فقد كانت هذه الطريقة معروفة بفارس وكذلك بالصين التى كانت تتداول العملة الورقية أيضا ، قبل أن يعرفها العالم بزمن طويل ، بضمان خاتم الإمبراطور . فما أعوز هذا السلطان إنما كان تمام الضبط والحيطة .

واستجاب محمد تغلق لتحريض المماليك المصريين له على غزو خراسان والعراقين . وشجعه على الإقبال على هذا الأمر ما كان من تحقيق أحد أحلامه الكبرى بالحصول على تأييد الخليفة العباسى له وخلعه عليه ، وأعد لهذا الغرض جيشا قوامه ثلاثمائة وسبعين ألفا من الجند ، ولكنه ماغدا أن سرحهم بعد أن ظل يؤدى لهم عن ذلك نفقاتهم من بيت المال عاما كاملا ، وذلك حين عدل المصريون عن ذلك إلى محالفة أبى سعيد ميرزا صاحب بلاد ماوراء النهر وإطلاقهم ليده فى بلاد الفرس والتركمان .

هذا كما بعث محمد تغلق كذلك بحملة قوية إلى ولايات الهملايا العليا فدهمتها الثلوج فقضت على أكثر أفرادها . وقد ادعى بعض المؤرخين بأن سلطان دهلى إنما سير هذه الحملة لغزو الصين

طمعا فى كنوزها ، فى حين أنه لم يرم من ورائها فى الغالب إلاّ إلى نشر الاسلام فى هذه المناطق وتأمين الدروب إلى خراسان .

وانتهى ماجره فشل السلطان فى مشروعاته، ومانتج عن ذلك من محن قاسية ، إلى أن اجتاحت البلاد موجة قوية من الاضطرابات والثورات التى زاد من حدتها جنوح حكومة دهلى إلى مصادرة الكثير من أموال الأعيان والتجار حين الحت عليها الحاجة اليها .

وكان أول من رفع لواء العصيان فى وجه محمد تغلق هو الأمير جلال الدين إحسان شاه الذى أعلن استقلاله بَمبر فى الدكن فضرب السكة باسمه عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م . وبرغم ماكانت تعانيه دهلى من مجاعة قاسية فقد خرج السلطان بنفسه لقمع هذه الفتنة، لكنه لم يبلغ تلنجانا حتى أخذ وباء الهيضة (الكوليرا) يفتك بجنده فرجع عن خصمه .

وعمت الاضطرابات البنغال بدورها على نطاق واسع . ذلك أن قائدا هناك يدعى فخر الدين سقط عام ٧٣٧ هـ على أميره قدر خان صاحب الكهناوتى فقتله وجلس مكانه ، ثم ما لبث أن جهر مطمئنا باستقلاله ، إذ كان على علم تام بما يعانيه سلطان دهلى من متاعب لا يستطيع معها أن يزحف اليه .

وارتدت الدكن إلى الثورة من جديد ، فطلب السلطان من قائده عين الملك صاحب أوده وظفر آباد أن يتوجه بقواته إلى دولت آباد ويشرف منها على إقرار الأمور هناك .

على أن هذا القائد الذى كان له وإخوته جهود كبيرة فى معاونة السلطان على تخفيف وطأة المجاعات والمحن التى اجتاحت البلاد ، ترامى إلى خاطره أن السلطان إنما يرمى من وراء ندبه لهذا الأمر ، إلى الاستيلاء على أملاكه وأراضيه ، فاعتصم وجنده بإقطاعه حتى أقبل عليه محمد تغلق بنفسه فباغته فى مضاربه وأسره ثم ألقى به فى الحبس ، وإن عفا عنه بعد قليل لسابق خدماته وإخلاصه .

وبلغ السلطان من بعد ذلك خبر انقضاض بعض زعماء الزط على لاهور وقتلهم لتاتارخان نائبه هناك ، فسير إليهم من فوره قائده خواجه جهان فأسر كثيرا منهم وساقهم إلى العاصمة حيث أعلنوا إسلامهم بها .

والتفت محمد تغلق إلى الدكن من جديد بعد أن أقر الامور فى الشمال . ذلك أن استقلال الأمير جلال الدين إحسان شاه بإمارة مبر قد أغرى بعض الأمراء الآخرين على أن يحذون حذوه . وكان من بين هؤلاء الأمير الهندوكى هارى هـــارا الذى أسس هو وأخوه إمارة ڤيايانكر فيما بعد. وما ابث هندوكيو الجنوب بزعامة

كرشانا ياك أن شدّوا من أزر هذه الإمارة التي اتسعت رقعتها وازدادت قوتها حتى قامت على حماية الجنوب كله من أى غزو إسلامى يفد إليه من الشمال .

وسرت الاضطرابات بدورها إلى الكجرات وديوكر التي غدت تعرف بدولت آباد ، فلم يكد السلطان يغادرها ، بعد أن خُيل إليه استتباب الأمور فيها ، حتى نهض عام ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م أمير أفغانى شاب يدعى حسن كانكوى ، فوضع يده على الإقليم كله . ويعرف هذا الأمير في التاريخ باسم علاء الدين أبي المظفر صاحب سلطنة بهمنى الدكنية التي لعبت دورا هاما في تاريخ المسلمين بشبه القارة الهندية .

ووافى محمد تغلق أجله عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م إبان إحدى حملاته في السند ، وقد انفرط عقد سلطنته ذات الولايات الثلاث والعشرين إلى عدد من الامارات القوية المستقلة ، فلم يبق تابعا لدهلى من الولايات الكبيرة إلا الكجرات .

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صادف هذا السلطان من الفشل في مشاريعه الكثيرة الى سوء طالعه وما كان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص . ويذكر ابن بطوطة لهذا الملك كثيرا من الفضائل ، كما يثنى المؤرخ ضياء الدين بارانى ، معاصره ،

تمسكه بأهداب السنة وحرصه على إقامة العدل بين الناس. ويشير أغلب مؤرخى الهنادكة المحدثين إلى تسامحه حتى قرّب اليه كثيرا من الهنادكة وولاّهم عدة مناصب فى الدولة، وينفون عنه ما أشيع من ميله لسفك الدماء وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة، ويقولون بأن تشنيع بعض المؤرخين عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقهاء. ولعل قياس هذه الحوادث جميعا على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليده قد رَبأ بهذا السلطان عن أن يحشر فى زمرة جلادى عصره(١).

ولم يكن لمحمد تغلق ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلق. وكانت أمه السلطانة كدبانو هندوكية الأصل، فأبوها هو رانا محل بهاتى. وقد قبلت هذه الأميرة الجميلة أن تتزوج من والد فيروز أخى غازى تُغلق دفعا للضُر عن أسرتها (٢).

وعُرف السلطان الجديد بميله إلى المسالمة وبعده عن إراقة الدماء مع شغفه الشديد بمخالطة رجال الدين وأهل التصوف. بل

١ — Prasad. India. 227,8

٢ — كان آل تغلق قد وفدوا الى الهند قادمين من خراسان أيام علاء الدين الخلجى حيث ولى غازى تغلق إمارة ديبالبور. هذا ويرد لين پول فى كتابه عن الهند فى العصر الوسيط Lane-poole. Medieval India pp. 298, 9 أسباب ضعف المسلمين إلى مصاهرتهم للهنادكة مع أن كثيرا من سلاطين المسلمين العظام بالهند كانت أمهاتهم من الهندوكيات.

لقد قيل إنه أبدى كثيرا من التردد فى قبول الحكم، إذ كان يؤثر عليه الخروج إلى الأراضى المقدسة طلبا للحج والإعتكاف بها متعبدا إلى آخر عمره.

وأيا ما كان القول، فقد أدى قبول هذا الأمير لمنصبه إلى القضاء على النزاع الذى قام بين قادة الجيش حول ولاية العرش. هذا وكان خواجه جهان، أحد الأمراء الكبار، قد بادر بتنصيب طفل بدهلى تنسبه الى محمد تغلق، لكنه ما إن علم بقدوم فيروز تغلق إلى العاصمة حتى سعى إليه معتذرا بطلب الصفح.

وهكذا جلس على عرش دهلى فى رجب من عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م سلطان جديد اكتسب فى عهد سلفه دراية كبيرة بشئون الحكم وتمرس بأساليبه.

ونتج عن الاضطرابات التى شغلت بها الدولة عقب وفاة محمد تغلق أن انتهز حاجى إلياس هذه الفرصة فأعلن استقلاله بالبنغال ولقب نفسه بالسلطان شمس الدين، ثم ما برح ينشر قواته فى إقليم بهار حتى بلغت بنارس.

هنالك عزم فيروز على الخروج لرد هذا المغتصب عما استولى عليه من أرضين، فسبق حملته بمنشور، أذاعه فى أهل البنغال وما حولها، أعلن فيه أنه إنما يتولى السلطنة بتفويض من الخليفة

العباسى أمير المؤمنين ، فمن خرج عليـــه فقد خرج بالتالى على إجماع أهل السُّنة . كذلك دعا الأهلين إلى الانضمام إلى صفوفه والخروج على عدوه واعدا إياهم بإعفائهم ، مسلمين وهنادكة ، من دفع الضرائب عاما بأكمله مع بذل الأمان لهم .

وأفلح سلطان دهلى الجديد آخر الأمر فى أن يستدرج خصمه من حصن إكداله الذى كان يعتصم فيه إلى ضفاف الكنج حيث نشب بين الفريقين قتال عنيف دارت فيـه الدائرة على الثوار فارتدوا ثانية إلى حصونهم .

ووجدت ضراعة النساء فى حصون العدو طريقها إلى قلب السلطان ، فأعرض عن نصح رجاله بالتوغل فى البنغال محتجا ببدء الأمطار الموسمية ، وآب إلى عاصمته قانعا بالصلح مع خصمه.

وبُعثت الآمال فى النفوس من جديد لاسترداد البنغال حين استنجد الأمير ظفر خان بالسلطان من عسف ختنه شمس الدين. فخرج فيروزشاه عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م كرة أخرى إلى هذا الإمارة ليجد أميرها الجديد إسكندر شاه يحذو حذو أبيه فى الاعتصام بإكداله ثم يبعث إليه بالهدايا الكثيرة مشفوعة بتوسلاته التى رق لها قلب السلطان المسالم مرة أخرى ، فرجع عن البنغال للمرة الثانية مكتفيا باصطحاب الأمير ظفر خان معه ، وقد كان فى

مقدوره ضمها إلى ملكه فى غير عناء كبير .

ونزل فيروز شاه عند أوبته من البنغال بمدينة جونپور التى كان قد أمر بتشييدها تذكارا لابن عمه فخر الدين جونه[1] ، ومن ثم اتجه إلى إقليمججنكر (أوريسه الحالية) الذى يشتهر بخصبه ووفرة الأرزاق فيه من الحبوب والفاكهة والماشية ، فانطلق جنده ينتهبونه ويحطمون معابده حتى أقبل أميره الهندوكى راجا أديساران آخر الأمر يعلن ولاءه للسلطان على جزية كبيرة . ومالبث أن حذا حذوه جملة من الأمراء الهنادكة المتاخمين لحدوده .

كذلك وفق سلطان دهلى فى العام التالى فى إخضاع حصن نكركت ، وكان صاحبه قد جنح أواخر أيام محمد تغلق إلى خلع نير دهلى عن كاهله . وصار هذا الحصن يعرف فيما بعد باسم محمد آباد تخليدا لذكرى السلطان الراحل .

ولعل أكبر حملة خرج فيها السلطان فيروز هى تلك التى قصد بها إلى إخضاع الهنادكة من الزط وغيرهم ، وكانوا قد جنحوا بدروهم عندتتا بمصب السند إلى العصيان أواخر عهد محمد تغلق . ونجم عن سد الأمطار الغزيرة للطرق وإتلافها ، شح الأقوات

---

١ — وهو السلطان محمد تغلق سالف الذكر.

بين القوات حتى اضطر فيروز إلى الارتداد بجنده إلى الكجرات. على أن قائده ووزيره خان جهـــان مقبول ، وكان من مسلمى الهنادكة ، ما لبث ، مع إمدادات وفدت إليه من الدوآب وبهار ، أن خاض مع الثوار معركة حاسمة انتهت بأسر زعيمهم جام بابينيا ، ليعفو السلطان آخر الأمر عنه ويجرى عليه معاشا مجزيا بدهلى ، ويقيم أخاه مكانه .

وأدى إهمال السلطان لشأن الدكن أن أمكن لامارتى بهمنى وڤيا يانكر أن يرسخا أقدامهما ويوسعا من رقعتيهما هنـاك على حساب سلطنة دهلى التى انحسرت حدودها الجنوبية إلى الشمال من تلال الوندهايا .

ولئن أدى ميل فيروز تغلق للسلم وتجنب الحروب إلى ضياع مساحات واسعة من أراضيه ، إلا أنه هيئ له على كل حال الفرصة للانصراف إلى شئون الدولة الداخلية والتفرغ لرسم خطط الإصلاح والتنظيم التى اتاحت للأهلين قدرا من الحيـاة الطيبة المستقرة . وقد طفق كبار سلاطين الهند المصلحين يترسمون مناهج هذا السلطان الإنشائية ونظمه من بعده قرونا عدة ، وكان من بين هؤلاء السلطان أكبر المغولى أعظم حكام العـالم فى عصره على الإطلاق .

ذلك أن هذا الحاكم المصلح قسم أراضى الدولة إلى إمارات عهد بإدارتها إلى جملة من الرجال الأكفاء، كما عنى بأمر الزراعة فعمل على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى البور، وأحكم نظام الرى، وجد فى حفر الآبار والقنوات حتى توافرت الأرزاق وعم الرخاء الى درجة كاد الناس معها أن ينسوا قسوة المجاعات الجارفه التى ألمت بهم من قبل .

كذلك التفت فيروز تغلق إلى الضرائب فأحكم نظامها، ورفع الكثير منها عن كاهل الأهلين ، وأمر الا تعدو جبايتها حدود الشرع ، وراقب ذلك كله بنفسه فى حزم وشدة .

أما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعى منها وأطلق الباقى لرجاله وفقراء شعبه .

وأدى تمسك السلطان بقواعد الشرع إلى توفير العدالة لرعاياه وإبطال الكثير من العقوبات والعادات غير الإنسانية التى كان يمارسها الهنادكة على الخصوص ومنها عادة الساتى حيث تُقبل الأيم التى ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها .

ولم تقف جهود فيروز تغلق عند هذا الحد حيث شاع اليسر والرخاء والعدل بين أوساط الناس وعامتهم خاص، حتى ذهب فى سبيل إصلاحه الإجتماعى، يأمر بإحصاء العاطلين فى بلاده

وحصرهم ، فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة الحقة بخدمة الديوان ، ومن كان منهم على دراية بحرفة أو صنعة هيأ له ما يناسبه منها سواء بمنشآت الدولة أو بغيرها من المنشآت الأهلية ، ومن بقى منهم من بعد ذلك الحقه بخدمة الأمراء ورجال الدولة .

وإلى جانب ذلك كله أنشأ السلطان ديوانا يعرف بديوان الخيرات ليعين بماله على تزويج الفتيات الفقيرات ، ويرعى المرضى والضعفاء والشيوخ بما يجريه عليهم من أموال وما يقيمه لهم من دور للشفاء ورباطات .

وبلغت دور الشفاء عند فيروز تغلق المائة ، وكان الدواء والغذاء يقدمان فيها للناس بالمجان . وإلى جانبها أقيم دور للعلم عديدة كان من بينها ثلاثون مدرسة جامعة لدراسة العلوم الشرعية والنقلية على السواء .

وأدى شغف هذا السلطان بالعلم إلى قدوم طائفة من علماء المسلمين بلاده ليضطلعوا بالتدريس فى مدارسه ، وكان من بينهم مولانا جلال الدين الرومى العالم المشهور . وقد دون هذا السلطان سيرته بنفسه فى كتابه المعروف « فتوحات فيروز شاهى » .

وعمل فيروز كذلك على إحياء الدراسات الهندية القديمة ، وحض البراهمة على حل نقوش أعمدة آزوكا القديمة ، وكان قد

استخدم جملة منها فى منشآته . كما أمر بترجمة جملة من أمهـــات الـكتب السنسكريتية ، التى وقعت بأيديه فى حصن نـكركـُت ، إلى الفارسية[١] .

ومنشآت هذا السلطان التى بلغت التسعمائة ما بين مدارس ومساجد ودور للشفاء ورباطات وقصور وحمامات ، وإلى جانبها مدن ثلاث كبيرة بالقرب من دهلى ، وهى فيروز آباد وفتح آباد وجونبور ، عدا الحدائق الـكثيرة التى بلغت الألف عـــدا ، استلزمت هذه كلها استخدام عـدد كبير من الأيدى العاملة مما ساعد على تخفيف أزمة البطالة بين العمال[٢] .

وركبت العلل السلطان الشيخ على كر السنين وتوالى الحدثان ، فما غدا أن أطلق يد وزيره خان جهان ظفر خان فى تصريف شئون الدولة .

وتراءى لهذا الوزير ، فى سبيل تثبيت سلطانه المطلق ، أن يزيح من طريقه ولى العهد الأمير محمد فاتهمه عند أبيه بتآمره على العرش هو وجملة من الأمراء الذين عرفوا بكراهية فيروز تغلق لهم .

---

١ — Prasad, India pp 266,67,91,2

٢ — تاريخ فرشته ص ١٥٠

على أن الأمير حين وقف على ما كان يبيت له طفق يصطنع الحيلة حتى لقى أباه ، فمازال به حتى أقنعه بخبث طوية وزيره فعزله وولاه مكانه .

وحين اطمأن محمد إلى إمساكه بزمام الدولة كلها حتى دُعى له فى الخطبة مع أبيه ، انصرف إلى مآربه الخاصة ومتعه لا يلقى بالا إلى مشورة رجال البلاط وكبار الأمراء الذين حدا بهم حرصهم على سلامة الدولة إلى الالتفاف حول ابنى أخى السلطان الأميرين بهاء الدين وكمال .

وأدى هذا الانقسام آخر الأمر إلى الصدام الحربى بين الفريقين، فشهدت شوارع دهـــلى التحامات بشعة سقط فيها الكثير من رجال الفريقين . ولم يوقف سير هذه المجازر العنيفة إلا ظهور السلطان الشيخ على محفته فى الميدان ، فإذا الجند تبادر إلى الالتفاف حوله والانضمام إلى صفوفه مكبرة مهللة ، فى حين بادر الأمير محمد إلى الهرب فتحصن فى تلال سَرْوَرْ .

وعهد فيروز بالملك على أثر هذه الفتنة إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خان . وإن هى إلا زمن يسير حتى قضى السلطان الشيخ فى رمضان من عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وكان قد جاوز التسعين من عمره . وبعث السلطان الشاب فور ارتقائه العرش برجاله يطاردون

الأمير محمد الذى إستطاع آخر الأمر التحصن فى قلعة نكركُت التى امتنعت على المهاجمين .

وماغدا غياث الدين تغلق الثانى هذا أن غلبته فتنة الشباب على أمره فانصرف عن شئون الدولة إلى متعه الخاصة وملاهيه. حتى إذا ماركب الشطط فى معاملة ذوى قرباه من الأمراء ورجال الدولة فسلك معهم سبيل العنف ، اجتمع عليه ابن عمه ابو بكر ونفر من أفراد أسرته فأطبقوا عليه فى قصره .

ولئن أفلح الأمير فى الخروج من باب جمنه ووزيره سالمين ، إلا أن الثوار سرعان ما لحقوا بهما عند النهر فقتلوهما لوقتهما ، ولم يكن قد مضى على السلطان الجديد فى الحكم إلا شهور خمسة وبضعة أيام .

ولم ترض عصبة الأمير محمد بن فيروز عن جلوس الأمير أبى بكر على العرش فتربصوا لوزيره شاه خوشدل عند سمانه وهو فى طريقه لقتال زعيمهم ، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أميرهم فى حصنه وحرضوه على القدوم إليهم والدفاع عن حقوقه الشرعية فى الحـــكم .

وبرغم ماجمعه الأمير محمد من قوات الدوآب فقد توالت هزائمه أمام ابن عمه بظاهر دهلى. حتى إذا ماضاق الناس فى العاصمة ذرعا بشدة وطأة أبى بكر عليهم وعنفه معهم ؛ — بعثوا يحرضون

ابن عمه على الزحف إليهم من جديد ، فلم يملك أميرهم إلا الهرب وفئة من أنصاره إلى بهادر نهير صاحب ميوات لاجئين

وما إن جلس السلطان الجديد ناصر الدين محمد تغلق الثانى على عرش دهلى فى رمضان من عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م حتى عهد بالوزارة إلى إسلام خان ، ثم أمره وولى عهده همايون بالخروج فى طلب أبى بكر ، فمازا لا به حتى أوقعاه ومضيفه فى الأسر ، ليعفو السلطان من بعد ذلك عن صاحب موات ويلقى بابن عمه فى الحبس فيقضى بعد قليل .

كذلك أنفذ ناصر الدين إلى الكجرات قائده ظفر خان ، وهو الذى استقل بها فى أوائل القرن التاسع الهجرى وأسس بها أسرة مالكة . وحذا حذوه فيما بعد أمراء مالوه وخاندش فلم تسترد دهلى نفوذها هناك إلا أيام الدولة المغولية .

وأفلح إسلام خان فى القضاء على ثورات بعض الأمراء الراچپوتيين فى الدوآب ، فى حين سار السلطان بنفسه الى أتاوه فهدم حصونها . وكان الثوار يتعرضون منها القوافل الحجاج والمسافرين.

وفيما كان محمد تغلق الثانى فى طريقه الى العاصمة بلغه تآمر إسلام خان للاستحواذ على لاهور والملتان لنفسه حتى راح ، فى سبيل تحقيق مأربه هذا ، يهيء لقيام الاضطرابات بها ، فساقه

حال وصوله إلى حتفه .

وخرج السلطان عام ٧٩٥ هـ/١٣٩٢ م بنفسه الى ميوات، برغم مرضه، للحد من طغيان صاحبها بهادر نهير الذى غره عفو صاحب دهلى عنه فاقدم على انتهاب ماحول العاصمة من أماكن، فهزمه وأرغمه على الفرار .

وماإن بلغ السلطان حصن محمد آباد بظاهر دهلى حتى أودت به العلة . ولم يجلس ابنه همايون الملقب بسكندر إلا أياما قليلة على عرش دهلى حتى فارق الدنيا بدوره .

ورقى العرش من بعده أخوه ناصر الدين محمود فخلع على وزيره خواجه جهان لقب وكيل السلطنة فى حين ولى سارنك خان إقليم ديبالپور .

وأدى تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بينهم على مظاهر النفوذ وانقسامهم شيعا واحزابا، مع ضعف السلطان، إلى أن جنح كثيرون من حكام الولايات وأمراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلى والاستقلال بما بأيديهم من إمارات وحصون . بل إن الوزير خواجه جهان نفسه أعلن استقلاله بجونپور وأسس فيها أسرة حاكمة هى التى تعرف فى التاريخ باسم أسرة ملوك الشرق (شاه شرقى) .وقد امتد نفوذهـــا فى أوقات كثيرة إلى البنغال جارتها

الشرقية . هذا فى حين لم يكتف سارنك خان باستقلاله بدبپالپور حتى سقط على الملتان فهزم الكهكر ودخل لاهور .

ولم يقف الحال بالدولة عند هذا القدر من التفكك . فقد خرج السلطان عام ٧٩٦ ﻫ / ١٣٩٤ م إلى بيـــانه وكواليار وفى صحبته جملة من الأمراء وفيهم سادات خان ، فما إن أحس هـــذا الأخير بتآمر بعض زملائه عليه حتى سقط على بعض منهم فقتلهم ، ثم قفل راجعا إلى العاصمة ليجد مُقرّب خان نائب السلطان قد سبقه إليها فقفل أبوابها فى وجهه .

هنا لك بعث هذا الأمير الثائر يستدعى أحد احفاد فيروز شاه ، فنادى به بمدينة فيروز آباد سلطانا على الهند باسم نُصرت شاه . ولئن كان سادات خان قد لاقى حتفه بعد قليل على أيدى أعدائه إلا أن صنيعه هذا قد أدى إلى قيام شيعة قوية ، التفت حول السلطان الجديد ، تناهض حزب صاحب دهلى . وصارمّ كل فريق منهم القضاء على غريمه دون أدنى التفات إلى مصالح البلاد أو إشفاق عليها حذر الهاوية التى كانت تتردى فيها . فما قد أقبل تاتار خان بن ظفر خان صاحب الكجرات ومعه قتلغ خان بجنودهما لشد أزر نصرت خان ، فى حين قدم راجاموات ومعه ملو إقبال خان أخى سارنك خان صاحب دبپالپور والملتان

فنزلا بقواتهما بظاهر المدينة متربصيْن بالفريقين اللذين ظلا يقتتلان طوال أعوام ثلاثة هلك فيها خلق كثير حتى كان يجاوز عدد القتلى بضعة آلاف فى اليوم الواحد .

وجاءت الأنباء فى هذه الأثناء بعبور پير محمد جها نكير، حفيد تيمور السند فى مستهل عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م واستيلائه على حصن أوكا وتوغله فى الملتان ؛ والأحزاب المتقاتلة سادرة فى غيّها .

فهذا إقبال خان يبادر بالانضمام إلى نُصرت خان الذى مايلبث بعد قليل أن يقف على مايدبر له من كيد فيتركه إلى پانى پت ؛ فى حين ما يزال السلطان محمود يتحصن مع مقرّب خان وبها دُر نهير بدهلى القديمة .

وتمكن إقبال خان آخر الأمر من أن يقضى على مقرب خان، وبهذا غدا السلطان محمود فى قبضته يوجهه كيف يشاء .

ولئن كانت الفتنة قد تكسرت حدتها وطفق إقبال خان يبذل الجهود لتنظيمّ شئون الدولة وأمورها من جديد ، فإن الأوان كان قد فاته على كل حال . ذلك أن تيمور كان قد أقبل بنفسه على الهندستان فما برح يسوى حصونها بالأرض ويحرق مدنها ويهلك الجموع الغفيرة من أهلها حتى بلغ دهلى التى استعصت

من قبل على المغول وغيرهم من الغزاة قرونا أربعة [1] .

الغزو التيمورى وآثاره

تروى « ملفوظات تيمور » [2] أن هذا المحارب الجبار حين حدثته نفسه بالخروج للغزو والجهاد استشار رجاله إلى أى البلدين يخرج ، الصين أو الهند . فبينوا له أن من يقصد الهند عليه أن يواجه عقبات أربعا كبيرة ، إن اجتازها وتغلب عليها دانت له هـذه البلاد بكنوزها وثرواتها التى يخطؤها الحصر ولا يحصيها العد . أما أولى هـــذه العقبات فنهر السند بفروعه الخمسة التى لا يتسنى اجتيازها إلا بالسفن والجسور ، والثانية آجام الهند وغاباتها كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان وعرة المسالك ، والثالثة أمراء هـذه البلاد من مسلمين وهنادكة ، وكلهم على دراية تامة بدروب السير فى هـــذه الآجام والعيش فيها ، والرابعة فيول الحرب المدربة التى يستخدمها أهل هـذه البلاد فى مهارة فائقة ، حتى لتنتشر مسرعة خفيفة فى حومة الوغى فتطوى الفارس

---

١ — Lane-Poole India, P 159

٢ — وتعرف أيضا باسم توزك تيمورى ، وهى سيرته التى أملاها بنفسه (وهى بالجغتائية) انظر ص ٣٩٤ — ٩٦ من الترجمة الانكليزية لها فى Elliot and Dowson. History of India. London 1871. vol. 3

وفرسه بخرطومها ثم ترفعهما فى الهواء ، وما تلبث تضرب بهما الأرض حتى يقضيا نحبهما . وهذا هو السلطان محمود الغزنوى ، وكان فى قلة من الجند لا تصل إلى ما فى ركاب تيمور ، قد تغلب على ذلك كله من قبل وآب من هناك بأكداس طائلة من الذهب والفضة والجواهر .

وانبرى من بين الحاضرين شاهرخ، أحد أبناء تيمور، يحرّض أباه بدوره على فتح هـــذه البلاد حتى يصير سيد الأقاليم السبعة بلامنازع، فقال له: « إذا كان صاحب الروم يُكنى بالقيصر وسلطان التتر بالخاقان وإمبراطور الصين بالفغفور ، وملك إيران وطوران بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ،وذلك لخضوع أمراء الهند وراجواتها له ، وقد صرت ، والمنة لله ، شاهنشاها على إيران وطوران فمن المؤسف ألا تمد سلطانك إلى الهندستان . »

هذا وقد نبه تيمور رجالُه بأن عليه عند فتح هذه البلاد ألا يطيل وجنده الإقامة بها . ذلك أن البيئة الهندية من شأنها أن تبعث الخور والضعف فى النفوس ، فتفترهم الجند على مر الزمن ويفقدوا بالتدريج صفات الشجاعة ومستلزمات البطولة .

وفيما كان تيمور يعد العدة لغزو الهندستان وافاه بريد حفيده پير محمد جهانكير ينبئه فيه بأنه ، بعد أن دانت له بلاد كابل وغزنة

وما حولها ، استطلع أحوال الهندستان فوجدها بعد وفاة فيروز شاه قــد استبد بالأمر فيها اثنان من أمرائها أخوان ، فأقام أكبرهما، ويدعى ملو إقبال خان، بدهلي إلى جانب سلطانها محمود، في حين استقر الثاني، وهو سارنك خان ، بالملتان[١].

وتقدمت طلائع تيمور وعليها حفيده هذا فعبرت السند في مستهل عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ واستولت على حصن أوكا ثم اتجهت إلى الملتان كما ذكرنا من قبل .

وحاول سارنك خان أن ينقذ هذه المدينة ، لكن القائد التركي[٢] فاجأ قوات هذا الأمير الكثيرة وهي تعبر السند فضاع أغلبها. وكان مَن غرق من رجالها أكثر ممن سقط تحت ضربات السيوف .

وسقطت المدينة نفسها بأيدي جها نكير بعد حصار دام ستة أشهر استطاع سارنك خان إبانه أن ينجو بنفسه منه .

وأقبل تيمور لذلك بنفسه على الهندستان فعبر السند بقواته في المحرم من عام ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م فالتقى بقوات شهاب الدين مبارك،

١ — يوحي هــذا الحديث كله بأن تيمور لم يكن يقبل على غزو بلد ما قبل الوقوف على أحواله .

٢ — تيمور وأولاده هم من عروق الترك لا المغول وسنبين ذلك تفصيلا في الجزء الثاني من هذه الكتاب في حديثنا عن الدولة المغولية إن شاء الله .

أمير بهيت ، وكان قد خضع أول الأمر لپير محمد ثم انتقض عليه . وقضى تيمور على أول قوات اعترضت سبيله ليعبُر جيناب، رافد السند الكبير ، من بعد ذلك إلى حصن تولمبه عند ملتقى هذا الرافد بأخيه راوى حيث انتشر جنده ينهبون ما حوله من أرضين طلبا للمؤن ، ويجمعون الأموال التي لم يُعف من أدائها إلا العلماء والشيوخ . ولم يبرح الغزاة المكان إلا بعد أن أعملوا سيوفهم في حماة هذا الحصن وكانوا يزيدون على الألفين من الكهكر .

وبلغ تيمور من بعد ذلك ديپالپور، وكان أهلها قد فتكوا بمظفر كابلى نائب جها نكير عليها ، فوجد أكثرهم قد نزحوا عنها فرقا فاعتصموا بحصن بهتنير القوى المنيع . على أن دفاع راى دل چندو رجاله الأشداء عن هذه القلعة لم يغنهم فتيلا أمام بأس الغزاة الذين اقتحموها عليهم فأعملوا سيوفهم بمن كان فيها من هنادكة ومسلمين ثم سووا البناء بالأرض . وأعجب تيمور ببسالة الأمير الهندوكى وشدة مراسه في القتال فعفا عنه وخلع عليه .

وانطلق الغزاة من بعد ذلك إلى سرسوتى فلم يمنعهم استسلام أهلها لهم بعد مقاومة قصيرة - وكان أغلبهم من الهنادكة - من أن يعملوا سيوفهم فيهم ، فلم ينج منهم من القتل إلاّ من نطق بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

ونزل تيمور من بعد ذلك بمدينة فتح آباد ليُنفذ منها فريقا من جنده ليتعقب ـ في مناطق التلال والغابات القريبة ـ قبائل الزُّط التي دأبت على قطع الطريق على المسافرين والتجار والحجاج وإلحاق الأذى بهم .

ووافى الغازي التركي عند كهيتل ، على مقربة من سمانه ، جيوشه التي كانت تنتشر في المُلتان ولاهور فانضمت إلى قواته فأخذ يعد العدة بها جميعا لاقتحام دهلي .

وسارت جموع الغزاة إلى حاضرة الهند فإذا بالبلدان والقرى على طول الطريق قد هجرها أغاب أهلها هربا من وجه الغزاة ، فلم يتركوا بها من الأرزاق والمتاع ما قد يجد العدو فيه نفعا له أو مددا .

وبلغ تيمور پاني پُتْ فنزل في جهانمه ، إحدى منشآت فيروز تغلق الفخمة ، لينتقل منها بعد قليل ، عبر جمنه ، إلى الدوآب فيستقر بقلعة لوني بعد أن أفنى حاميتها على بكرة أبيها . وقد توفر له في مقامه الجديد هذا تموين قواته بما تحتاجه من مؤن وأرزاق .

وندب تيمور من فوره ، قائديه سليمان خان وجهان خان لاستكشاف الأرض عند مشارف دهلي الجنوبية والجنوبية الشرقية ، في حين عبر هو النهر في نفس اليوم في سبعمائة فارس ليدرس موقع المدينة عامة .

هنالك أراد سلطان دهلى ومعه وزيره ملو إقبال أن يباغتا عدوهما وهو فى قلة من جنده فسيروا إليه خمسة آلاف من الفرسان ومعهم سبعة وعشرون من الفيلة لكنهم باءوا بالفشل وقُتل قائدهم محمود سيف .

وآب تيمور إلى معسكره ليأمر قواته بالتحرك فى الصباح التالى صوب الشرق من مواقعهم . حتى إذا ما أنهى إليه بعض رجاله بشيوع الفرح والسرور بين الأسرى فى معسكره حين علموا بمباغتة قوات دهلى له فى حملته الاستكشافيه : — خشى أن يركنوا ، والمعركة دائرة ، إلى تهديد مؤخرته وتخريب معسكره ، فأمر من فوره بقتل كل من كان منهم فوق الخامسة عشرة ، وتوعـد كل من قد يتوانى من رجاله فى تنفيذ ذلك بضرب عنقه ؛ فكان من بين مرافقيه من العلماء من اضطُر إلى ارتكاب إثم القتل أول مرة فى حياته إبقاء على نفسه . ونا ف عدد من سقط من الأسرى فى هذا اليوم على المائة ألف (١) .

وعبرت القوات الغازية النهر فى مستهل جمادى الأولى من عام ٨٠١ هـ ، وكان تيمور على قلب الجيش ، فى حين قاد الجناح الأيمن پير محمد جهانكير ويادكر برلاس ، وقاد الجناح الأيسر

١ — ملفوظات تيمور ص ٤٣٦

سلطان حسين والأمير خليل وجهان شاه .

وبرز محمود تغلق سلطان دهلى ومعه وزيره إقبال خان على رأس عشرة آلاف من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة ومعهم مائة وخمسة وعشرون من فيول الحرب المدربة . على أن بعض قوات تيمور سرعان ما أفلحت فى التسرب خلف مقدمة عدوّهم مباغتة، فقتلت منهم ستمائة فى هجمة واحدة، فى حين نجح پير محمد فى تشتيت شمال جناح جيش دهلى المواجه له حتى اضطر رجاله إلى الفرار من الميدان .

وبرغم ما نزل بجند دهلى من ضربات شديدة ، فقد استمات السلطان ووزيره فى القتال بشجاعة واستبسال ، فاندفعا يهاجمان بقواتهما قلب الجيش الغازى فى بأس شديد . حتى إذا ما تصدعت الصفوف أمام شدة وطأة العدو ، انسحبا من الميدان عجلين فنزلا بحصن جها نبناه ، ثم مالبثا أن غادراه فى اليوم التالى إلى منطقة الجبال، فلم تصل إليهما أيدى المطاردين . واستقر المقام آخر الأمر بالوزير فى بَـيْرَن فى حين سار السلطان الى الكجرات .

وفى الثامن من جمادى الآخرة كانت بنود تيمور ترفرف بأعلى أسوار دهلى، وقد وقف العلماء والأعيان تحتها فى انتظار قدوم الخاقان الفاتح ليقدموا له فروض الولاء ويسألوه العفو والأمان .

ودخل تيمور المدينة بعد أن تم له انتهاب مضارب أعدائه فأجريت الخطبة له ودُعى له على المنابر [1].

ولم يكن ما أنزله تيمور بأعدائه من خسائر فادحة فى ساحة الوغى ليقاس بما ارتكبه رجاله فى دهلى — ولمّا يمض عليهم أيام قلائل بها — من مذابح رهيبة ونهب وسلب ندر وقوع مثله فى التاريخ.

ومجمل الأمر كما يذكره تيمور نفسه فى سيرته، هو أن فريقاً من جنده الأتراك كان قد نزل المدينة قصد الترفيه، فما غدا أن استهوت رجاله معروضات التجار فراحوا ينتهبونها. وما لبث الجند الذين بعث بهم تيمور لكف أيدى هؤلاء الناهبين أن انضموا بدورهم إليهم. هـذا فى الوقت الذى انطلق فيه جند آخرون من الغزاة يجمعون ما فُرض على أهل المدينة من غرم مالى، فى حين كانت هناك فرقة رابعة تجمع التموين للجيش من زيت وحب وسكر ودقيق. وفيما كانت المدينة تغص بهؤلاء جميعا، بلغ تيمور تحصن التجار والأعيان فى دورهم وامتناعهم عن دفع ما فرض عليهم من غرم، كما بلغه أيضاً نزول جمع كبير من الهنادكة المدينة

---

١ — ظفر نامه لشرف الدين يزدى طبع كلكتا ١٨٨٥ — ١٨٨٧ مجلد ٢ / ١١٥ وما بعدها

ومعهم أسراتهم وبضائعهم وأحمالهم قادمين من المناطق المجاورة ، فأنفذ قوة أخرى من الجند لتأتيه بهم جميعا من فورهم .

هكذا غدت العاصمة تغص بمالا يقل عن خمسة عشر ألف جنـــدى كان أغلبهم من المشاغبين باعتراف تيمور نفسه ، فاتخذوا من مقاومة الأهلين لهم ذريعة للفتك بهم ونهب أموالهم ومتاعهم .

وإذ رأى الهنادكة أموالهم تنتهب ونساءهم تسبى ، بادروا بإغلاق أبواب المدينة وذبحوا نساءهم وأطفالهم بأيديهم ، ثم برزوا مع الأهلين لقتال جند تيمور الذين توالت عليهم الإمدادات بدورهم ، فجرت فى المدينة مذبحة شنيعة مدمرة بلغ من هولها أن سدت جثث القتلى لكثرتها المسالك والطرق . ولم يمنع استسلام الأهلين الغزاة من متابعة التقتيل فى قسوة بالغة . حتى إذا ماكلت سيوفهم ، سلكوا فى أسرهم من كُتبت لهم الحيـــاة من السكان ، فكان من الجند من ضمت قيوده الخمسين منهم ، ولم يكن فيهم من قل أسراه عن العشرين ، فضلا عما حملوه معهم من الذهب والفضة وكل ثمين وغال من المتـــاع . ويقدر المؤرخون عدد ضحاياهم من القتلى بهذه المدينة وحدها بما يزيد على المائة ألف .

ويحاول تيمور في سيرته أن يبرىء نفسه من إثم هذه المجازر البشعة فيعتذر برد الأمر كله إلى المقدور وفق المشيئة الإلهية . وإذا كان هو حقا جادا في أسفه على فعلة جنده هذه، فما باله إذن لم يأمر باطلاق سراح الأسرى على الأقل وردهم إلى دورهم تكفيرا له ضعيفا عما ارتكبه رجاله من إثم وأى إثم . ذلك أنه حين دخل المدينة من بعد ذلك فأتى له بكنوزها وغنائمها ، أمر باصحاب المهن والحرف من بين الأسرى يخص بهم عماله وأمراءه، بعد أن احتجز لنفسه منهم البنائين ورجال المعمار وفيهم أولئك الذين أقاموا لفيروز تغلق مسجده الذى سجل سيرته على جدرانه. وهؤلاء أنفسهم هم الذين بنوا من بعد ذلك للخاقان التركى مسجده الكبير بسمرقند على نمط مسجد فيروز ، كما صوروا مشاهد وقائعه الهندية كذلك على جدران قصوره ، إلى جانب منشآت أخرى كثيرة أقاموها له[1] .

وأزمع تيمور لنك الإياب إلى بلاده ، فغادر دهلى فى آخر جمادى الآخرة بعد أن قضى بها خمسة عشر يوما ، فما إن بلغ فيروز آباد حتى أقبل عليه بهادر نهير صاحب موات ومعه خضر خان مستسلمين .

---

١ — بابرنامه نشر السيدة بفريدج . ليدن ١٩٠٥ . ورقه ٤٤

وسار تيمور من بعد ذلك إلى يانى پت فبعث منها بعشرة آلاف من رجاله إلى حصن ميرات (ميروت)؛ لكن حسن دفاع أصحابه عنه، وكان فيهم الياس أفغان وابنه مولانا أحمد تنيسرى، منعه عليهم، حتى خرج إليه الخاقان بنفسه فاقتحمه على حماته وانتهب أموالهم، ثم أمر بالبناء كعادته فسوى بالأرض. ومن ثم صعد المنتصرون فى تلال سوالك بالپنجاب حتى بلغوا حصن جامو فاستولوا عليه، لينطلق فريق منهم من بعد ذلك فى أثر شيخا كهكر، وهو أمير هندوكى كان قد استسلم لتيمور عند قدومه الهندستان فقربه إليه ثم مالبث أن انتهز فرصة ابتعاد قوات الغزاة عنه فطرد رجالهم من لاهور والملتان واستقل بهما. وما لبث رجال تيمور أن استردوا لاهور بعد حصار قصير وجاءوا بالثائر الهندوكى نفسه إلى سيدهم عند جامو فأمر به فأعدم. وفى جامو عهد تيمور لنائبه خضر خان بالملتان ولاهور وديپالپور ثم تابع سيره إلى سمرقند عاصمته عبر طريق كابل[1].

وكان من أثر الغزو التيمورى، وما أشاعه فى البلاد من خراب ودمار، أن اجتاحت الفوضى والاضطراب كافة الأقاليم التى

---

١ ـ ظفرنامه ص ١٤٨

دخلها الغزاة . وبدا أخطر مظهر لهذا كله فى العاصمة التى عانت من هذه المحنة مالا يبلغ وصفه بنان أو بيان . فقد هلك أغلب أهلها ونُهبت دورها ومتاجرها وتفشت فيها المجاعات الطاحنة والأوبئة الفاتكة . وظل زمام الأمور فيها منفلتا حتى أطبق عليها الأمير نُصرت شاه قادما من مخبئه من ميروت بالدوآب فى الفين من الفرسان .

على أن إقبال خان ، وكان ينزل فى بَـبْرْن غير بعيدمن دهلى ، ما لبث أن استخلص العاصمة لنفسه وأرغم هـــذا الأمير على الارتداد إلى مخبئة من جديد. وما إن انصرم عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حتى كان هذا القائد قد بسط نفوذه على منطقة الدوآب فيما بين لكهناوتى وبيانه .

واستقدم إليه من بعد ذلك السلطان محمود تغلق ، وكان قد غادر بدوره ملجأه بالكجرات إلى مالوه على أثر ما لاحظه من فتور صاحبها ظفر خان نحوه ، فأجرى عليه رزقا حسنا قنع به عن التطلع إلى الحكم .

وبلغ إقبال خان خبر وفاة مبارك شاه شرقى صاحب جونپور ، فبرز بقواته إلى قنوج وفى صحبته محمود تغلق ، وكان إبراهيم شاه شرقى أخى سلطان جونپور الراحل قد شخص إليها بدوره .

وانفلت السلطان محمود إلى معسكر خصمه وقد أمل أن يستعين به على استرداد نفوذه ، لكنه رده عنه خائبا حسيرا . وتغاضى إقبال خان عن فعلته هذه ، وقد نصبه آخر الأمر على قنوج ثم عاد إلى دهلى .

وغزا صاحب دهلى من بعد ذلك كواليار وأتاوه ، وكانتا فى حوزة عصبة من الأمراء الهنادكة فألزمهم بدفع جزية سنوية له . ثم تطلع لاسترداد الملتان فزحف إليه مع أمراء سمانه وما حولها ، لكن خضر خان نائب تيمور هناك ألحق بهم جميعاً هزيمة حاسمة فى جمادى الأولى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، سقط فيها إقبال خان نفسه صريعا ، فما إن بلغ الخبر دولت خان لودهى حاكم دهلى حتى بادر من فوره باستدعاء السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

ولم يلتفت محمود تغلق إلى الخطر الجديد الذى بدا على أثر قضاء خضر خان على قوات إقبال خان وحلفائهم فبعث بقائده دولت خان لودهى لإخضاع بيرم خان فى سمانه فى حين سار هو إلى قنوج فالتحم مع إبراهيم شاه شرقى الذى رده عنها .

وأدى سوء معاملة السلطان لجنده أن انصرف أغلبهم عنه ، حتى كاد إبراهيم شاه شرقى أن يدخل دهلى نفسها فلم يمنعها عنه

إلا مابلغه من استيلاء مظفر خان صاحب الكجرات على مالوه ومتابعته الزحف إلى جونپور .

وأقبل خضرخان نائب تيمور بدوره آخر الأمر على العاصمة فضرب عليها الحصار فى عامين متتاليين فلم يكن يرده عنها فى كل مرة إلا نفاذ مؤنه .

ووافى السلطان محمود تغلق أجله بعد ذلك بقليل فى ذى القعدة عام ٨١٤ هـ / ١٤١٢ م فخلفه دولت خان لودهى .

ولئن كان هذا الزعيم الأفغانى قد أفلح فى ضم بعض أمراء البلاد المجاورة للعاصمة إلى صفه فإنه آخر الأمر لم يقو على الوقوف فى وجه خضر خان الذى أقبل هذه المرة فى ستين ألف فارس دخل بهم دهلى فى ذى الحجة من عام ٨١٦ هـ / ١٤١٤ م بعد حصار دام أشهر أربعة .

ملوك الطوائف

لئن كان الضعف قد بدأ يتسرب إلى كيان الدولة الإسلامية بالهندستان منذ أواخر عهد محمد تغلق وبداية حكم خلفه فيروز[1]، إلا أن الغزو التيموري كان هو بلا مراء العامل الأكبر الذي أدى إلى تفكك هذه الدولة: ذلك أن أغلب ولاياتها الكبرى الهندية كالَنْوَه والكُجرات وجونْپور والبنغال والدكن، مالبثت على أثر هذا الغزو أن انفصلت عنها انفصالا تاما وأعلن أصحابها إستقلالهم بها، فلم يفلح سلاطين دهلى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات عموما من جديد، إلا فى عصر الدولة المغولية التى أقامها أحفاد تيمور لنك نفسه بالهندستان فى القرن العاشر الهجرى فعمرت قرون ثلاثة شهدت فيها شبه القارة الهندية على أيديهم حضارة رائعة قوية ومدنية مزدهرة بزت، بإجماع الثقات من المؤرخين، نظائرها عند أرقى الدول لذيالك الوقت.

---

١ ــ الواقع أن فيروز تغلق باصلاحاته ومشروعاته العمرانية المفيدة وميله لما فيه خير رعاياه قد أفلح فى حمل الناس على التعلق به والركون إلى الهدوء، ولكنه لم يصل بذلك إلى تدعيم هيبة الملك إذ غلبت طيبته ومسالمته على حزمه.

على أن أغلب سلاطين هذه الولايات المستقلة التي سنتحدث عنها فيما يلي، وهم في غمرة كفاحهم لتوسيع رقعة ملكهم أو دفع من عساه يطمع في أراضيهم، قد حرصوا كثيراً على العمل على رقي بلادهم والنهضة بها:

الكجرات: تعد هذه الامارة ثاني إمارات الهند الإسلامية بعد دهلي. ذلك أنه فضلا عن خصب تربتها وما تحويه من ثروات طبيعة هي، أولا وقبل كل شيء، باب التجارة الهندية الغربي منذ القدم ومنفذها إلى إفريقية وآسيا. فمن شاطئها عند سورات وخليجها كمباي كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب والبحر الأحمر فتنقل من بعد ذلك برا إلى موانىء البحر الأبيض المتوسط لتحملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوروبا. لهذا كان هذا الإقليم محط أنظار أغلب غزاة الهند حتى قبل عصر الإسكندر.

وكان أول من اقتحم الكجرات من أمراء المسلمين محمود الغزنوي ليحطم معبد سومنات أحد مقدسات الهنادكة العظمى. على أن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها إلا على أيدى علاء الدين الخلجي عام ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م. وقد أعلن مظفر خان، حاكم هذا الإقليم من قبل سلطنة دهلي، استقلاله به عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م وذلك على أثر الغزو التيموري للهندستان.

وخلف هذا الأمير حفيده أحمد شاه الذى قضى أغلب حكمه فى حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة ملكه. وعنى هذا الأمير بتنظيم شئون الحكومة ، كما أقام كثيرا من المنشآت وبنى مدينة أحمد آباد وحض التجار والصناع على النزوح إليها والإقامة بها. هذا كما بذل نشاطا كبيرا فى نشر الدين الإسـلامى بين السكان والقضاء على الشرك وعبادة الاوثان وقد هدم فى سبيل دعوته هذه كثيرا من معابد الهندوكيين هناك.

ويُعد السلطان محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، أعظم حكام الكجرات طرًا. وكان مما ساعد على ذيوع صيته وانتشار شهرته ماعقده من عزم فى أواخر حكمه على طرد البرتغاليين من سواحل الهند الغربية وإبعاد خطرهم عنها. وكان هؤلاء المستعمرون قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج.

وعاون المماليك المصريون والسلاطين العثمانيون محمود بيكر وخلفاءه على محاربة هؤلاء الدخلاء[1]. وبرغم حسن بلاء أساطيل

---

١ — امتد خطر البرتغاليين الى مدخل البحر الأحمر فبلغ مياه الأراضى المقدسة حتى سارع المصريون الى تحصين موانىء الحجاز. كذلك لبى قنصوة الغورى سلطان مصر دعوة سلطان الكجرات فبعث بسفنه لمحاربة البرتغاليين الذين

المسلمين فقد انتهى الامر بالبرتغاليين إلى تثبيت أقدامهم فى بضع مواطىء بالشاطىء الغربى للهند ، من بينها مقاطعة جوا البحرية التى تلح اليوم الهند عليهم بالجلاء عنها.

وقضى هذا السلطان بعد أن حكم اثنين وخمسين عاما بلغ فيها صيته محافل أوروبا لما كان عليه بلاطه من أبهة بالغة وتقاليد رفيعة ، إلى جانب ما أثر عنه نفسه من ميل إلى العدل واتصاف بالحزم والشجاعة .

ولم يأل بهادرخان ،آخر حكام الكجرات الكبار،جهدا فى توسيع رقعة ملكه فاستولى على أغلب مالوه واقتحم قلعة چتور بالراجبوتانا . ورغم هزيمته أمام همايون ثانى سلاطين الدولة المغولية بالهند ، فقد أفلح من بعد ذلك فى استرداد جزء كبير من أراضيه ، وذلك حين أخرج شير شاه ، همايون من الهند. وبذل هذا السلطان جهودا صادقة لطرد البرتغاليين من جزيرة

= أضروا بتجارة البحر الأحمر وكانت من مصادر ثروة المماليك ، كما أتت سفن سليمان القانونى سلطان العثمانيين به ورهن بمساعدة الكجراتيين وتبادل الفريقان الانتصارات مرات عدة حتى كتبت الغلبة آخر الأمر فيما بعد للبرتغاليين. حقائق الأخبار لإسماعيل سرهنك أول ص ٥٤٨ وثان ص ١٨٨

Cambridge Hist, of India Vol 3. pp 212, 16, 536, 7.

ديو التى كانوا يتحصّنون بها ، وكادت جهوده تكلل بالنجاح لولا أن دبّر أعداؤه أمر مقتله غرقا وهو فى طريقه للمفاوضة معهم .

وصار أمر الكجرات إلى أن ضمها أكبر ، ثالث سلاطين المغول وأعظمهم ، إلى ملكة عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م .

مالْوَه : وإلى الشرق من إقليم الكجرات تقع إمارة مالوه . وكان علاء الدين الخلجى هو كذلك أول سلطان مسلم ضمها إلى ملكه .

وانتهز أميرها دلاور خان الغورى ، وكان من رجال فيروز تغلق ، فرصة الفوضى التى عمت البلاد عقب الغزو التيمورى فأعلن عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م استقلاله بها ، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له . وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شاه عام ٨٠٧ هـ فنقل حكومته إلى ماندو التى زخرت بجملة من المنشآت الفخمة فى عصره .

وجر خصب أراضى هذا الإقليم عليه أطماع حكام دهلى وجونپور والكجرات وكانت جميعا تجاوره . حتى إذا مامُنى هوشنك شاه بهزيمة شديدة فى حروبه مع الكجرات خلفه على

العرش ابنه غازى خان الذى غلبه وزيره محمود الخلجى على أمره فقتله واتخذ مكانه .

وأعلى السلطان الجديد من شأن مالوه بما أحرزه من انتصارات كثيرة فى حروبه العديدة مع أمراء الراجپوتانا ومملكة بهمنى الدكنية حتى امتدت حدوده شمالا إلى مِوار وجنوبا إلى ساتپورا وشرقا إلى بندلخند وغربا إلى الكجرات . ولم تقعد به همته حتى كاد يدخل دهلى نفسها لولا صمود بهلول لودهى قائد سلطانها محمد شاه إذ ذاك فى وجهه (١) .

وقد عرف هذا السلطان إلى جانب حروبه الكثيرة باشتغاله بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل بين رعاياه جميعا هنادكة ومسلمين على السواء .

وهان شأن خلفاء محمود الخلجى من بعده بانصرافهم عن الاهتمام بشئون الدولة من جهة، واستوزارهم للهنادكة الراجپوتيين من جهة أخرى ، حتى انتزع البلاد منهم آخر الأمر بها درخان صاحب الكجرات عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣١ م ليستخلصها همايون، ثانى سلاطين المغول، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات أربع .

خاندش : كذلك كانت هذه الإمارة واحدة من بين

١ — تاريخ فرشته ص ٢٣٦

الإمارات الهامة التى انسلخت عن دهلى . وموقعها إلى الجنوب من مالوه فيما بين تلال الوندهايا والدكن ، ويحدها إقليم بِرار فى الشرق ثم الكجرات فى الغرب . وقد شجع ثراء الإقليم وخصب أراضيه حاكمه ملك راجا فاروقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى أمير مالوه . ودخل هذا الأمير، على سُنة عصره ، فى حروب كثيرة مع جيرانه لاسيما مع مظفر شاه صاحب الكجرات فكسر فيها، ليركن إلى السلم من بعدها وينصرف إلى العناية بشئون بلاده . وأفلح ابنه ناصر شاه فى انتزاع بعض الحصون من أيدى جيرانه الهنادكة كان أهمها حصن أسيركاه ، لكن خلفاءه من بعده غلبهم الضعف فصاروا فى الغالب خاضعين لنفوذ سلاطين الكجرات لاسيما فى عهد السلطان محمود بيكر الكجراتى ، حتى ضم السلطان أكبر المغولى هذه الإمارة إلى ملكة عام ١٠١٠هـ / ١٦٠١م

جَونپور : هو اقليم واسع كبير يقع إلى الجنوب الشرقى من دهلى ويجرى فى أراضيه جمنه وكوكرا أكبر روافد الكنج . عاصمته ، التى يعرف على الإقليم كله ، تقع عند شاطىء جمنة على قربة من ظفر آباد. وقد أنشأها فيروز تغلق عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م عند عودته من حملته الثانية بالبنغال . ذلك أن هذا السلطان رأى ،

فى سبيل ضمان إقرار الأمن فى هذه الولاية البعيدة،أن ينشىء على مقربة من حدودها مركزا حربيا تقيم فيـــه قوات كبيرة كافية تبادر من فورها إلى القضاء على كل ماقد يقوم من اضطرابات فى هذه النواحى ، وبهذا يتفادى ما تتعرض له جيوشه فى سيرها من دهلى من مصاعب طريقها الطويل لاسيما إبان فصل الأمطار الموسمية ، فوقع اختياره على هذا المكان الذى أطلق عليه هذا الاسم تمجيدا لذكرى ابن عمه الأمير فخر الدين محمد جونه ، ثم لم يأل جهدا من بعد ذلك فى تعمير هذه المدينة وتجميلها بالمنشآت الفخمة الكثيرة .

وأراد محمود تغلق أن يكافىء وزيره وقائده خواجه جهان سرْوَر على مابذل له من همة فى القضاء على فتن الخارجين على سلطانه فأنعم عليه عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م بلقب شاه شرقى (ملك الشرق) وعهد إليه بحكومة كافة الأراضى الواقعة فيما بين قنوج وبهار .

وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدوآب واتخذ لنفسه مقاما فى جونپور . ولم يمض إلا القليل حتى أعلن أصحاب لكهناوتى وجاجنكر خضوعهم له بدورهم ، فصاروا يبعثون إليه بالجزية التى جروا على إرسالها إلى دهلى من قبل .

وانتهز هذا الأمير فرصة تعرض الهندستان للغزو التيمورى

فأعلن إستقلاله بما فى يده من أرضين . حتى إذا ما انقلب الفاتح المخرب عائدا إلى بلاده فسار إقبال خان فى قوات كبيرة إلى جونپور، دفعه أميرها عنها ولم يمكنه منها .

كذلك لجأ محمود تغلق بدوره إلى إبراهيم شاه شرقى خليفة مبارك شاه ، على أمل أن يعينه على أسترداده لعرشه من أيدى إقبال خان ، لكن صاحب جونپور كان أحذر من أن يزج نفسه فى متاعب هو فى غنى عنها .

وأفلح إبراهيم شاه شرقى فى استرداد إقليم قنوج على أثر هزيمة اقبال خان ومقتله فى الملتان ، ثم تابع سيره إلى دهلى ، حتى إذا علم بزحف مظفر خان صاحب الكجرات بدوره إليه ، بادر بالتراجع إلى موطنه .

وركن سلطان جونپور إلى السلم من بعد ذلك خمسة عشر عاما انصرف فيها إلى تنظيم حكومة بلاده و الاشتغال بمختلف فنون المعرفة حتى غدت جونپور من أعظم مراكزها الإسلامية فى زمنه . وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا قد لجئوا إلى هذه البلاد هربا من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها كل ترحيب وإكرام[١] .

---

١ — Lane Poole, Medieval India P 169

هـــذا ولا تزال بهذه الإمارة حتى اليوم جملة من العمائر والمنشآت الفخمة التي أقامها هذا السلطان هناك .

وظل ملوك الشرق هؤلاء يحكمون في جونپور فترة طويلة تعرضوا فيها لغزوات اللودهين الأفغان أصحاب دهلي حتى انتزعوها منهم .

البنغال : ذكرنا من قبل أن فيروز تُغلق قد أضاع بتردده وضعفه هذا الإقليم الذي يُعد أخصب مناطق الهندستان الشرقية وأغناها ، وإن لبث أمراء هـذا الإقليم يبعثون من حين لآخر بهداياهم إلى سلاطين دهلي .

وقد صار هـــذا الإقليم في أواخر القرن التاسع الهجري وأوائل العاشر من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانباً[١].

ويشتهر من بين حكام البنغال حسين شاه أول من استقل به . ويذاع عنه ابتكاره لدين جديد يجمع بين عقائد الهنادكة ومذاهب المسلمين ، وهو نفس الأمر الذي نُسب إلى أكبر أعظم سلاطين الدولة المغولية من بعد . كذلك عني نُصرت شاه بن هذا الأمير بتوسيع رقعة ملكه وإقامة جملة من العمائر الفخمة ببلاده ، إلى

---

١ ـ تحدث ابن بطوطه حديثا طويلا عما شاهدة بهذا الاقليم من رواج وتقدم في رحلته.راجع ص ٢١١ ، ١٢

جانب حرصه الشديد على رواج الحياة الثقافية فى عهده . وهذا الحاكم الذى ظل ممسكا بزمام أمور البنغال من عام ٩٢١ هـ إلى عام ٩٣٩ م قد وصفه ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية فى سيرته بأنه أحد الأمراء الخمسة الكبار فى الهندستان .

وخلف الأمراء الأفغان هذه الأسرة الحسينية بهذه الإمارة حتى انتزعها السلطان أكبر من أيديهم أواخر القرن العاشر الهجرى .

الدكن : لم يتيسر لأحد من سلاطين دهلى منذ وفاة محمد تغلق أن يبسط نفوذه فى الواقع إلى ماوراء تلال الوندهايا جنوبا، فقد راح أمير يدعى علاء الدين كانكوى (جنجو) ظفرخان يتزعم حركة اضطرابات واسعة فى الدكن ، وأعلن خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣ هـ ثم راح يبسط نفوذه على كافة الأقاليم الدكنية التى كان كل من علاء الدين الخلجى ومحمد تغلق قد انتزعاها من الأمراء الهنادكة فى الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبى . وصارت بلاده تعرف بسلطنة بهمنى نسبة إلى جد له كان يدعيه هو بهمن ابن اسفنديار أحد ملوك الفرس الأقدمين . وموقعها اليوم هو إقليم بمباى وولاية حيدر آباد الدكنية [١] .

١ — تاريخ فرشته ص ٢٧٨

وحارب سلاطين هذه الأسرة راجا تلنجانا وضموا إلى ملكهم إقليم غولكونده وأورانكل وأجزاء من أوريسه فى شرق بلادهم. وبلغت بلادهم أوج قوتها بفضل وزيرهم محمود جوان الذى كان أول من أنزل هزيمة ساحقة براجا إمارة فيايانكر الهندية، واستولى على أجزاء من بلاده التى ظلت مدى قرنين من الزمان مصدر متاعب لما كان يجاورها من الإمارات الإسلامية. وبجهود هذا الوزير ازدهرت كذلك الحركة العلمية هناك، فظهرت مؤلفات قيمة فى الرياضيات والطب والأدب. واشتهرت مكتبة هذا الوزير بمدرسته فى مدينة بِدَر بما كانت تحويه من نفائس المخطوطات الكثيرة[1].

ولقد أجمع جمهرة من المؤرخين على الإشادة بحسن تدبير هذا الوزير وشجاعته وحد به على تدعيم أركان السلطنة وتوسيع رقعتها. هذا مع حرصه البالغ على قيام العدل بين الأهلين، وشدة ورعه وزهده إذ كان لا ينام إلا على حشية بسيطة خشنة، ولا يتناول طعامه إلا فى آنية رخيصة من الفخار، مع بره الشديد بالفقراء حتى كان يُخرج أغلب دخله لهم. على أن عنفه البالغ فى معاملته لمنافسيه واعدائه من أمراء الهنادكة والمسلمين على السواء، قد

١ — Frasad. Medieval India p 373.

دفعهم آخر الأمر إلى التآمر عليه بهتانا عند السلطان محمد الثالث الذى أورده حتفه بأيدى جلاده الحبشى جوهر[1] ؛ فجاء مقتله إيذانا بانهيار هذه الدولة الدكنية الكبرى .

وبلغ عدد سلاطين بهمنى أربعة عشر حاكما ، كانوا فى الغالب على غلظة شديدة وميل بالغ إلى سفك الدماء ، وإن لم يمنعهم ذلك من العناية بشئون بلادهم، فأمنوا الطرق وشقوا الترع والقنوات ، واهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ورعوا العلوم والفنون . كما أقاموا كثيرا من المنشآت والمدارس والمساجد ، وإن لم تبلغ العمارة عندهم من الروعة ما بلغتها عند غيرهم من الأمراء المسلمين بالهند . ولقد هال جوابو هذه البلاد ماراوه عندهم وعند رجالهم من الثراء الفاحش والبذخ البالغ ، إلى جانب البؤس الذى كان يقيم فيه أغلب العامة ، وهى سنة من أسوء سنن العصور الوسطى التى كانت شائعة فى كل بلد على كل حال .

ولم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جوان حتى طفق عقد سلطنة بهمنى ينفرط بالتدريج حتى إذا ما أهل عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م أسدل الستار نهائيا على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان ، فقسمت أراضيها إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة

---

١ — تاريخ فرشته ص ٣٥٧

متحاربة على الدوام هى برار وبيجاپور وأحمد نكَر وغولكونده وبِدَرْ.

وكانت بِرار هى أول إمارة انسلخت عن أسرة بهمنى، ليستقل بها عام ٨٩٠هـ/١٤٨٤م فتح الله عماد شاه، وكان فى أصله هندوكيا اعتنق الإسلام. ولبثت أسرة عماد شاه هذه تحكم تلك الإمارة حتى عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م ليضمها أمراء نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نكر من بعد ذلك إلى ملكهم.

أما سلطنة بيجاپور فيقال إن يوسف عادل شاه، أول سلاطينها، كان فى الواقع من أبناء السلطان العثمانى مراد الثانى، وكانت أمه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح حين بلغها ما انتواه من قتل جميع إخوته الذكور صونا لعرشه، فاحتالت على تقديم ولد آخر بدل ابنها الذى عهدت به إلى تاجر فارسى. ولم يطل المقام بالأمير العثمانى بإيران، فقصد إلى الدكن مع قوافل الفرس والأتراك الذين كان يجتذبهم صيت بلاط بهمنى الذائع، فالتحق بخدمة الوزير محمود جوان الذى أنزله فى نفسه منزلة ولده.

وحين بدأ الضعف يدب فى سلطنة بهمنى عمد يوسف هذا عام ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م إلى إعلان استقلاله بهذه الإمارة.

وتعرض هذا السلطان لهجوم هنادكة ڤيايانكر مع فريق من

جيرانه بتحريض من قاسم بريد وزير سلطنة بدر فأدى ما أنزله بهم من هزائم، مع استيلائه على معسكراتهم، إلى توطيد أقدامه وذيوع صيته.

وخان هـذا السلطان التوفيق بعد قليل حين أعلن اعتناقه لمذهب الشيعة وراح يحمل قومه على الدخول فيه قسرا، حتى تألب جميع جيرانه عليـــه، واضطروه إلى الخروج من بلاده. وحين لجأ إلى عماد الملك صاحب برار، نصحه بإعلان رجوعه إلى مذهب أهل السنه والإقامه بخاندش حتى تهدأ الأحوال.

وآب يوسف عادل إلى بلاده من جديد، فاتجه عام ٩١٧هـ/١٥١٠م على رأس قوة من الجند استرد بهم جوا من أيدى البرتغاليين.

ولم يمض أشهر قلائل على موت هـذا السلطان حتى استعاد المستعمرون هذا المرفأ الهام فبقى بأيديهم حتى اليوم، ولامناص من رجوعه إلى الهند صاحبته على كل حال.

ويثنى المؤرخون على هذا السلطان الذى عرف عنه تمسكه بالفضائل وميله إلى العلماء والأدباء، حتى دعى اليه جملة منهم من التركستان وفارس والدولة العثمانية، كما لم يتنكب طريق الحسنى فى معاملته لرعاياه من الهنادكة أو يبخل بمناصب الدولة على الاكفاء منهم.(١)

١ـ Prasad, India p 382

وحافظ أبناء هذا السلطان على تراثهم سنين طويلة ، حتى إذا ولى الملك على عادل شاه فى منتصف القرن العاشر الهجرى بادر بدوره إلى إعلان تشيعه . وأردف ذلك بتحالفه على جيرانه مع هنادكة ڤيايانـكر الذين اجتاحوا إمارة أحمد نكر فانزلوا بأهلها مذبحة شنيعة نبهت السلطان إلى مدى الخطر الذى يتهدد المسلمين على أيدى هؤلاء الهنادكة فنفض يده منهم .

وقد انتظم أمراء الدكن المسلمون من بعد ذلك فى جبهة واحدة متماسكة استطاعت أن تنزل بهذه الإمارة الهندوكية ضربات متلاحقة كان أشدها موقعه تاليكوتا عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥ م .

وآخر سلاطين بيجاپور هو إبراهيم عادل شاه الثانى الذى قضى على إمارة أحمدنكر وضمها إلى ملكه . وقد ذاع صيت زوجته چند بيى لدفاعها الباسل عن هذا الإمارة فى وجه قوات الدولة المغولية عام ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م .

أما ولاية أحمد نَكَر فرأس أسرة نظام شاهى التى استقلت بها هو نظام الملك بحرى الذى وزر لسلاطين بهمنى عقب مقتل الوزير محمود جوان ، وكان له فيه مشاركة . وقضى على هذا الوزير اطماعه بعد قليل ، فما لبث ابنه أحمد أن أعلن استقلاله بما فى أيديه من أراضى چونير عام ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م، ثم انتقل من بعد ذلك

إلى مدينة أحمد نكر الجديدة فجعلها قصبة الملك. وجهد هذا الأمير من بعد ذلك فى الاستيلاء على دولت آباد وتوابعها فبلغ غايته فى العام التالى .

ودخل خلفاء هـذا السلطان فى حروب متصله مع جيرانهم حتى انتهى أمر هذه الولاية إلى الدخول فى حوزة الدولة المغولية عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م

هذا وكان قطب الملك، مؤسس أسرة قطب شاهى بغولكونده، فى أول أمره من رجال السلطان محمود بهمنى المقربين . وأعلن هذا الأمير استقلاله بهذه الإمارة عام ٩٢٧ هـ / ١٥١٨ م، وظل يحكمها حتى اغتاله ابنه جمشيد عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م وكان قد بلغ التسعين من عمره .

وليس لسلاطين هـــذه الامارة ما يُذكر إلا مشاركتهم جيرانهم فى محاربة امارة فيايانكر الهندوكية، حتى صارت بلادهم أوائل القرن الحادى عشر الهجرى من أملاك السلطان المغولى أورنكزيب .

كذلك استبد بالأمر كله فى إماره بِدَر الوزير قاسم بريد، وذلك فى عهد السلطان الضعيف محمود شاه بهمنى ، ثم خلفه فى الوزارة ابنه الامير بريد فظل يتمتع بنفوذه الواسع هناك . حتى اذا سافر كليم الله آخر سلاطين بهمنى الى بيجاپور ، أعلن هذا الوزير

عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٦ م استقلاله بهذه الإمارة . وظل أمراء بريد شاهى يحكمون فى بدرحتى عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م ليضمها أمراء عادل شاهى أصحاب بيجاپور من بعد ذلك الى ملكهم .

ومنع أمراء الدكن الاسلامية الأربعة سالفة الذكر هذه من التوسع فى جنوب الهند ما كان من اقتتالها مما سهل على هذه الأراضى الهندوكية الواسعة المحافظة على استقلالها.

ولقد ذكرنا من قبل أن قوات علاء الدين الخلجى كانت قد اجتاحت الجنوب الهندى كله على أيدى قائده كافور . لكن اضطراب الأمور فى سلطنة دهلى ، أواخر أيام محمد تغلق ، أضعف من سلطان المسلمين فى الدكن وماورائها مما مهد لقيام إمارة ڤيايانكر القوية التى شغلت رقعة واسعة من الارض بأدنى سلطنة بهمنى .

وأمراء ڤيايانكر الهنادكة هؤلاء هم خلفاء الكوليين الذين ورد ذكرهم فى مراسيم آشوكا والذين ورثوا ملك پنديا فى الجنوب، تلك المملكة التى ذاع صيتها فى القرن الاول الميلادى والتى كانت عاصمتها مادورا تعد من أجمل بلدان الهند .

ومؤسسا هذه الامارة هما هارى هارا وأخوه بوكا اللذان ينحدران من صلب أمراء يادافا أصحاب دواكر .

ووزر هذان الأخوان أول أمرهما لراجا أنا غوندى بالملبار، ووقعا معه فى أسر سلطان دهلى محمد تغلق الذى ارتأى أن يبعث بهما نائبين عنه بهذه الإمارة فيعاون وجودهما بها على الحد من ثورات الهنادكة هناك .

لكن الوزيرين الهندوكيين ما لبثا أن عملا بنصيحة حكيم هندى يدعى ڤيديارانيا فنزعا إلى الاستقلال بما فى أيديهما من أقاليم ، وبادرا من فورهم إلى إقامه مدينة ڤيايانكر الحصينة على شاطئ تنجبهاردا لتكون لهم من غزوات المسلمين ردءا ، فأطلق اسمها من بعد ذلك على الإمارة كلها .

وانفرد هارى هارا بالملك بعد قليل فعمل على توسيع رقعة إمارته،فلم ينصرم عام ١٣٤٠م حتى كان سلطانه يظل وادى تونجبهاردا إلى الجنوب من بيجاپور مع أجزاء من كونكان وساحل الملبار

واشتبك هذا الأمير وخلفاؤه فى حروب طويلة مع جيرانهم، وفيهم سلاطين بهمنى الاقوياء ، مما عرّض إمارتهم الناشئة إلى خسائر فادحة .

وكان أعظم حكام ڤيايانكر هو كرشناديو الذى حكم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وفى عهده ازدهرت عبادة وشنا ولقيت آداب السنسكريتية والتلنجو رعاية كبيرة

وراجت العمارة والنحت [١] .

ووسع هذا الأمير رقعة ملكه على أثر انتصاراته المتكررة على حكام الدكن ، فضم أوريسه إلى بلاده مع منطقة مدراس وميسورى الحالية .

وسعى إليه البرتغاليون يخطبون ودة فأقاموا معه علاقات اقتصادية وسياسية هدفوا من ورائها إلى كسبه لصفوفهم فى حروبهم مع الإمارات الإسلامية عند ساحل الهند الغربى . وحين بلغ هذا الأمير سقوط جوا بأيدى هؤلاء المستعمرين لم يكتف بإيفاد رسله يحملون إليهم التهنئة فحسب ، بل سمح لهم كذلك بإقامة حصون لهم عند بها تكال بشواطئ بلاده الغربية .

على أن خلفاء هذا الأمير القدير لم يستطيعوا الوقوف فى وجه جبهة أمراء الدكن المسلمين الذين اقتحموا عليهم بلادهم وأعملوا فيها التخريب والتدمير . ولم تنته انتصارات تليكوتا عام ١٥٦٥ م إلى إضعاف سلطان الهنادكة فى الجنوب فحسب ، بل أدت كذلك إلى القضاء على نفوذ البرتغال الاقتصادى هناك .

وأضاع من ثمار هذه الانتصارات الإسلامية ما كان من قيام النزاع والخلاف بين الفاتحين على الأسلاب . حتى بدأت قوات

---

١ — Prasad. Medieval India p 408.

الدولة المغولية ، منذ أيام السلطان أكبر، تتوغل فى الدكن، فلم ينته عهد أورنكزيب حتى كانت رايتهم تظل شبه القارة الهندية كلها ، إلى أن ظهر المراتها فثاروا على المسلمين الجنوب من جديد .

أسرة السادات بدهلى

تلك كانت هى حال الهند - على ما قدمناه عن انفراط عقد الدولة الاسلامية بها - حين استخلص خضر خان نائب التيموريين لنفسه عرش دهلى من أيدى فلول التغلقيين عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، فأسس أسرة حاكمة عرفت فى التاريخ باسم أسرة السادات، إذ كان يقول بامتداد نسبه إلى النبي الأكرم . (١)

ولم يكن خضر خان فى الواقع غريبا عن الهندستان أو فى أصله رجلا من رجالات تيمور ، وقد نشأ عند ناصر الملك مردان دولت أمير الملتان ، ثم مالبث فيروز تغلق أن أقامه عليها بعد موت سيده .

وحين شاع الاضطراب فى الدولة عقب موت فيروز تغلق ، سقطت الملتان وأميرها فى أيدى سارنك خان أخى مالو إقبال

---

١ — تاريخ فرشته ص ١٦١

خان . لكن خضر خان احتال على الهرب من آسريه ثم اتصل من بعد ذلك بتيمورلنك حين غزا هذه البلاد ، فرضى عنه ونصبه عند رحيله نائبا له هناك .

ولئن كان خضر خان قد غدا صاحب دهلى دون منازع ، فإن سلطنته الجديدة لم تكن إلا كُفلك فى بحر لجى تحيط به الأمواج العاتية من كل جانب . فالدوآب ما فتئ منذ أيام بلبن مقيم على الاضطرابات ، وهذه هى أتاوه وقنوج وبداون وكاتهر قد ضؤل شأن دهلى فى أعين أصحابها ، من مسلمين وهنادكة ، فكفوا أيديهم عن مدها بالخراج ، وهؤلاء أمراء الكجرات ومالوه وجونپور ، الذين استقلوا ببلادهم ، لم يمنعهم اقتتالهم من مهاجمة سلطنة دهلى والتطلع الى الاستيلاء عليها ما سنحت لهم الفرصة واستطاعوا الى ذلك سبيلا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت قبائل الكهكر لا تنفك تثير الاضطرابات العنيفة عند الملتان ولاهور .

وبقى صاحب دهلى الجديد على ولائه الإسمى لتيمور وأولاده من بعده ، فكان يجرى الخطبة باسمهم ثم باسمه ، وكذلك فعل بالسكة . كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينة والفينة بقدر من المال والهدايا الى أصحاب سمرقند .

وبادر هذا الأمير من فوره إلى إعادة تنظيم شئون حكومته

مستعينا فى ذلك بطائفة من الرجال الأكفاء، حتى أتيح له أن يخفف كثيرا من آلام الفقراء والمعوزين الذين كانت تموج بهم العاصمة من أثر الاضطرابات والأحداث السياسية الطويلة التى اجتاحت الدولة .

ثم اتجهت همته من بعد ذلك إلى العمل على استعادة هيبة الدولة السابقة ومحاولة استرداد ما ضاع منها من أرضين ، فبعث بقواته ، وعلى رأسها وزيره تاج الملك تحفة ، إلى الدوآب وكواليار وچندوار وأتاوه وبارن وجاليسر وكهور وتنبل، فمازالوا بأصحابها حتى ردوهم إلى طاعة دهلى ومسالمتها . وكذلك صار حال الملتان والسند .

وحين مات خضر خان عام ٨٢٦ هـ / ١٤٢١ بكاه الناس فى العاصمة إذ كان بهم بارا ورفيقا(١) .

ونهج نهجه ابنه السلطان معز الدين أبو الفتح مبارك شاه فى تثبيت الأمراء على إقطاعاتهم وولاياتهم عساه يضمن بذلك ولاءهم ومؤازرتهم له فى القضاء على الفتن والاضطرابات التى ما فتئت تجتاح البلاد . فهذا هو جسرت كهكر ومعه طُغاى ترك مازالا يعيثان فى المناطق الشمالية الغربية فسادا، حتى سولت الأول أطماعه بالزحف على دهلى نفسها فعبر رافد ستاج السندى واستولى على حصن

---

١ — تاريخ فرشته ص ١٦٣

سر هند ، فلم يمنعه عن التقدم إلى العاصمة إلا خروج السلطان اليه بنفسه فاسترد منه أغلب الأراضى التى كانت فى حوزته وأقر الأمور فى لاهور وما حولها . على أنه لم يكد يعود إلى حاضرته حتى انحدر هذا الثائر إلى لاهور من جديد ، فلم يفلح حاكمها فى رده عنها إلا بعد أن وصلته إمدادات السلطان لتنزل بالعدو هزائم قوية أرغمته على الاعتصام بالمناطق الجبلية هناك .

والتفت السلطان من بعد ذلك إلى الاضطرابات التى نشبت فى الدوآب وكتهر وأوده وكواليار وبيانه وچندوار وكالبى فقضى عليها جميعا ، كما هزم قوات إبراهيم شاه شرقى أمير جونپور ليتحول كرة أخرى إلى المناطق الشماليه الغربية حيث انضم أصحاب كابل هذه المرة إلى الكهكر فاجتاحوا الپنجاب كله والملتان ونهبوا أراضيه .

ولئن كان السلطان قد خرج من هذه المعارك جميعا ظافرا منصورا إلا أنه لم يُفلت آخر الأمر من سيوف فريق من رجاله الذين كانوا ينفسون على وزيره كمال الملك نفوذه البالغ .

وعادت عجلة الثورات ، على سُنة العصر ، إلى الدوران من جديد ، إذ كفّ إبراهيم شاه شرقى وراى كواليار ومعهم طائفة من أمراء الهنادكة عن دفع ما لدهلى عندهم من خراج وأتاوات . وشجع

هذا الإجراء محمود الخلجى صاحب مالوه ، فخرج بجنده زاحفا إلى دهلى ، فلم يرجع عنها إلا حين برز أحمد شاه صاحب الكجرات يهدد عاصمته ماندو . وقد تعقبه فى ارتداده بهلول خان لودهى، حاكم لاهور وسرهند ، الذى كان قد أسرع لنجدة السلطان ، فانتهب مؤنه وأسلحته .

وكان مما دفع هؤلاء الأمراء إلى الخروج على سلطان دهلى من جديد ، هو عودة الوزير كمال الملك إلى منصبه كرة أخرى . ذلك أن سرور الملك الذى كان قد خلفه فى الوزارة راح، عقب تولى السلطان الجديد محمد شاه حفيد خضر خان الملك ، ينعم على أولئك الذين تآمروا على حياة السلطان السابق وفيهم سيدهو پال الهندوكى ويجزل العطاء لهم مما أثار عليه ثائرة كمال الملك وعصبته فبادروا بالقضاء عليهم جميعا .

واستمع بهلول لودهى ، على أثر ما أحرزه من نصر ، إلى تحريض الككهكر الذين زينوا له وبعض الأمراء الأفغان الزحف على دهلى وانتزاعها من أصحابها [1] .

ولم يكن صد دهلى للقائد اللودهى على كل حال إلا إلى حين . فما إن ولى العرش عام ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م علاء الدين علم

١ — نظام الدين أحمد بخشى : طبقات أكبرى كلكتا ١٩٢٣ . ص ١٤٨

شاه،وكان أميرا ضعيفا ، حتى انتقل ببلاطه إلى بيانه ليدفعه قصر نظره بعد قليل إلى محاولة التنكيل بوزيره حُميدخان الذى سارع من فوره إلى الاستنجاد ببهلول لودهى ، وكان هذا الأخير قد بسط نفوذه على الپنجاب الشمالية كلها من لاهور وديپالپور وسرهند إلى هانسى وحصار وپانى پت .

وهكذا واتت الأمير اللودهى الفرصة المرتقبة سريعة ميسرة للجلوس على عرش دهلى ، فلم يلق من آخر سلاطين السادات أدنى مقاومة ، اللهم إلا رجاء بتأمين إقامته ورزقه فى بداون ، فبقى بها إلى آخر أيام حياته حتى قضى عام ٨٨٣ هـ ١٤٤٨ م.

اللوديون الأفغان

لقد أمل الحكام السادات حين صار لهم عرش دهلى أن يستعيدوا لسلطان المسلمين بالهندستان سابق وحدته ويستردوا للحكومة المركزية ماضاع منها من نفوذ وأرضين ، فبذلوا فى ذلك جهودا مضنية ذهبت كلها أدراج الرياح ، فانتكس الحال فى أواخر أيامهم إلى أسوأ مما كان عليه أول عهدهم بالحكم . فالدكن والكجرات ومالوه وجونبور والبنغال مابرحت فى أيدى أمرائها الذين كانوا قد استقلوا بها ، وأغلب البنجاب قد صار بأيدى القائد الأفغانى الثائر بهلول لودهى ، كما غدت مهروالى وما حولها حتى سراى لادو القريبة من دهلى فى حوزة أحمد خان مواتى . أما سنبهل حتى ضواحى العاصمة فكان يسيطر عليها دريا خان لودهى ، فى حين كان يقتسم النفوذ فى الدوآب جملة من الأمراء الآخرين ، منهم قطب خان وعيسى خان ترك . هذا كما كانت بيانه من نصيب داود خان لودهى يشاركه فيها أمير هندوكى ، فى الوقت الذى كان فيه راجا برانات سنغ يبسط نفوذه على

باتيالى وبكبيله وما وراءهما .

وهؤلاء الأمراء اللودهيون ، الذين نراهم مع فريق من الأمراء الهنادكة قد انتشروا حكاما فى شمال الهند على أراض غير بعيدة عن العاصمة ، ينتمون إلى إحدى القبائل الأفغانية التى كانت تضطلع بالمتاجرة ونقل السلع بين فارس وأواسط آسيا والهندستان .

وفى ايام فيروز تغلق التحق جد هؤلاء الأمراء الأكبر ، ويدعى بيرم لودهى وكان من الأثرياء، بخدمة مردان دولت الذى سرعان ماعهد إليه بحكم الملتان .

وحين صار أمر هذا الإقليم إلى خضر خان ، عهد بقيادة جنده الأفغان إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى . حتى إذا ما تمكن هذا القائد من القضاء على حاكم دهلى إقبال خان كافأه سيده بتقليده ولاية سرهند وأنعم عليه بلقب إسلام خان . وعهد هذا الأمير اللودهى ، حين شعر بدنو أجله ، بقواته وأملاكه إلى ابن أخيه وختنه الفتى اليافع بهلول لودهى وكان أثيرا عنده لشجاعته وحزمه برغم صغر سنه .

ولئن كان الأمراء اللودهيون قد انقسموا على أثر وفاة إسلام خان إلى شيع ثلاثة متعادية ، إلا أن بهلول لودهى أفلح

آخر الأمر ، بحسن تدبيره ، فى لم شملهم فى جبهة موحدة ثبّتت مراكزهم ودفعت عنهم أخطار الكهكر فى الپنجاب وأخطار دهلى معاً .

وكان أن استنجد محمد شاه سلطان دهلى بالأمير اللودهى لدفع خطر السلطان محمود الخلجى صاحب مالوه عن عاصمته ، فأمدّه بعشرين ألفا من الفرسان الذين أشاعوا الفوضى فى صفوف العدو ونهبوا معسكراته . وانطلق بهلول لودهى ، بعد هذا النصر الذى أحرزه، يطوى تحت نفوذه أراض واسعة كثيرة بالپنجاب ثم استدار من بعد ذلك يهاجم دهلى نفسها حتى سقطت فى يده على مافصلناه فى موضعه [١] .

ولم يكن بهلول لودهى ، وهو المحارب الطموح، يرى فى استيلائه على العاصمة إلا وسيلة إلى غايته الكبرى فى تحقيق حلمه وحلم كل سلطان سبقه باستعادة مجد دهلى على الصورة التى كانت لها أيام الغزنويين والغوريين والخلجيين من قبل .

ولم يتردد زعيم اللودهيين فى سبيل تثبيت أقدامه وتدعيم سلطانه عن سلوك كل سبيل إلى غايته . فتآمر ورجاله على التخلص من الوزير القوى حميد خان ، وهو الذى كان قد مكنه بتدبيره من

---

١ ـ تاريخ فرشته ص ١٧٣ ـ ١٧٥

دخول دهلى وتسلمه لمقاليد الامور بها .

وتفصيل ذلك أن بهلولا عمد ، أول الأمر ، إلى توفير ضروب التبجيل والتوقير لهذا الوزير . حتى إذا ماقصد هذا الأخير إلى مقر الأمير الجديد فى إحدى زياراته له أوعز بهلول إلى بعض رجاله أن يُصدروا عنهم من الإشارات ما يوحى إلى من يراهم بترجيح بلاهتهم وسذاجتهم ، مما أشاع السرور والبهجة فى نفس زائره . وخرج الأمير اللودهى يرد الزيارة بدوره للوزير وفى صحبته فريق كبير من هؤلاء الرجال . حتى إذا ما بلغت أسماع حميد خان ما أثاروه من ضوضاء وضجيج عند أسوار داره ، أمر حراسه من فوره بفتح الأبواب لهم مبتهجا ، فما كادوا يستوون بمجلسه حتى رفعوا سيوفهم فى وجهه ، وقد قام زعيمهم يعتذر إليه عن قسوة هـــذا الإجراء بضرورات السياسة . وتُرك له حرية اختيار المكان الذى يرغب فى لزومه بعيداً عن العاصمة ، فقد أعفى من القتل اعترافا بسابق أياديه على بهلول .

وقصد المتآمرون من بعد ذلك إلى السلطان علاء الدين بمقامه فى بيانه يعلنون ولاءهم له ، ولكنه كان فيه من الزاهدين .

وطفق بهلول لودهى يغدق بدوره على الجند وقادتهم الهبات والعطايا ، لكن طائفة كبيرة من الأمراء الذين لم يرضوا عن

سلوك هذا الزعيم الأفغانى وعصبته ، ما غدوا أن انتهزوا فرصة خروجه إلى الولايات الشمالية الغربية فاتصلوا بالسلطان محمود شاه شرقى صاحب جونپور وتعجلوا زحفه إلى العاصمة .

وما إن أحيط بهلول بالخبر حتى بعث برسله ترحب بالسلطان الزاحف الذى كان على معرفة تامة بأساليب هذا الأمير الأفغانى وحيله الماكرة ، فلم يلق بالا إلى سفرائه وضرب الحصار على دهلى فى مائة وسبعين ألفا من الجند ومعهم أربعمائة من الفيلة .

على أن انسحاب الأمراء الأفغان المفاجئ مع قواتهم من جيش الشرق ، أرغم السلطان محمود على النكوص عجلا إلى جونپور مع من بقى معه من قوات قليلة . ونتج عن هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الأمير اللودهى ، أن اشتدت هيبته بين أعدائه وأصدقائه على السواء ، نخفتت أصوات معارضيه فى بلاده ، فى حين سارع كثير من أمراء الأقاليم المجاورة يعلنون ولاءهم له ودخولهم فى طاعته .

ولئن كان الأمر قد استتب كذلك للسلطان اللودهى فى إقليم الدوآب ، فإن أصحاب جونپور من ملوك الشرق، فيما وراء هذا الإقليم، لبثوا يرون فى بهلول ، برغم ما قام بينه وبينهم من مواثيق وعهود ، مغتصبا لعرش دهلى غير جدير به على كل حال . فتوالت

المعارك بينهم وبينه حتى كاد السلطان القدير حسين شاه شرقى أن يوقع بالزعيم الأفغانى، لولا ما عمد إليه هذا الأخير من الحيلة المشوبة بالغدر على أثر إحدى مرات التصالح والهدنة، إذ سقط على مقام ملكه جهان، زوجة ملك الشرق، فأخذها فى أسره، وإن ردها من بعد ذلك مكرّمة إلى بلادها.

وبلغ بهلول بغيته آخر الأمر على كل حال بالاستيلاء على إقليم جونپور فأقام ابنه باربك عليه، كما بسط سلطانه كذلك على كالپي ودُهلپور وبارى ومِوار ومِوات.

وفيما كان السلطان اللودهى فى طريقه إلى عاصمته، بعد استيلائه على كواليار، دهمته الحمى فلقى حتفه عام ٨٩٣هـ/١٤٨٨م.

ولئن لم تترك الحروب المتواصلة التى خاضها بهلول لودهى وقتا كافيا له للالتفات إلى تنظيم شئون حكومته، فقد أدت انتصاراته إلى استرداد الكثير من هيبة الحكم الإسلامى الضائعة بالهندستان. وقد عُرف هذا الجندى الموهوب بإجراء العدل فى بلاده مع الكرم والعطف الكثير على الفقراء، وتقدير العلماء، وفرط الزهد والتقوى حتى قيل بأنه أمر برفع اليواقيت والأحجار الكريمة عن العرش.

واختلف الأمراء فيما بينهم حول من يجلسونه على عرش بهلول،

فمنهم من رشح له همايون حفيد السلطان الراحل ، ومنهم من انتصر لباربك خان أكبر أولاده . حتى أفلحت السلطانة زينة آخر الأمر ، - بحسن تدبيرها ومعونه خان جهان لوحانى وخان خانه فرملى ، - فى تغليب الرأى القائل بإلقاء مقاليد الحكم إلى الأمير نظام خان ، وهو الذى رقى العرش باسم سكندر شاه (١) .

وسار السلطان الجديد سيرة أبيه فى تدعيم ملكه ، فبرز من فوره للقضاء على أولئك الذين أعلنوا الخروج عليه من جديد - وهى ظاهرة إقطاعية كانت تلازم كل سلطان جديد يلى الحكم ، فإن أنس الأمراء فى أميرهم الجديد القوة والحزم بادروا بإعلان ولائهم له ودخولهم فى طاعته ، وإلا فهم يتمادون فى طغيانهم ، ويحاكيهم فى ذلك غيرهم من جيرانهم إلى حد أنهم قد لا يترددون فى تهديد العاصمة نفسها بقواتهم .

وانتزع سكندر شاه قلعة ربرى ومعها حصن چندوار من أخيه الثائر علم خان ، وما زال يطارده من بعد ذلك حتى استسلم له عند أتاوه ، كما استسلم له بدوره ابن عمه عيسى خان عند باتيالى .

وسار السلطان اللودهى من بعد ذلك إلى جونپور ، وكان بها أخوه باربك الذى رفض الإقرار له بالولاء . وقد أدى إلى

---

١ - طبقات أكبرى ص ١٥٩

انهيار مقاومة هـــذا الأمير الثائر انضمام قائده محمد خان فرملى المعروف بكالا بهار إلى صفوف صاحب دهلى . على أن سكندر شاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته ، وسير معه فريق من القادة الأفغان لتدعيم تلك الجبهة الشرقية التى كان يكمن فيما وراءها ببهار السلطان حسين شاه شرقى فى انتظار الفرصة المواتية لاسترداد أراضيه .

ولم يرجع سكندر شاه إلى عاصمته فى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م حتى كانت كالبي وكواليار وبيانه قد دخلت جميعها فى طاعته بدورها(١).

ونزع أصحاب الأراضى فى جونپور إلى الثورة من جديد بتحريض من أميرهم السابق ، حتى اضطر باربك خان للفرار إلى محمد خان فرملى فى كالبي . وأدى تفاقم أمر العصاة الهنادكة هناك إلى خروج السلطان بنفسه إليهم ، حتى بلغ چنار فأنزل بهم هزيمة شديدة . لكن خسائره الكثيرة فى هذه المعارك وانتشار الأمراض والمجاعة فى صفوف جيشه ما لبثت أن أيقظت الآمال كرة أخرى فى صفوف الثوار ، فبعثوا يحرضون السلطان حسين شرقى على القدوم إليهم . وقد أفلح خان خانه فرملى أن ينزل بقوات هذا

---

١ — مخزن أفغانه وتاريخ جهان لودى لنعمت الله ترجمة برنهارد ص ٦٥

السلطان الشرقى الكبيرة ، ومعهاقوات جيرانه من الهنادكة ،هزيمة حاسمة على كل حال عند بنارس ، ففر حسين شاة على أثرها إلى بهار، فما برحت قوات دهلى تطارده هناك حتى لجأ آخر الأمر إلى كلجام من أعمال لكهناوتى فقضى بقية عمره فى ضيافة صاحب البنغـــال .

وشجع سقوط بهار فى أيدىقوات دهلى عام ٩٠٠هـ/١٤٩٥م السلطان سكندر على الزحف إلى البنغال ، فبلغ حـــدودها بعد أن دخل ترهوت وأخذ الولاء من أميرها الهندوكى . وبرغم مسير دانيل خان فى قوات كبيرة لمدافعة الغزاة بأمر من أبيه علاء الدين أمير البنغال ، فقد تحاشى الطرفان آخر الأمر النزال الجدى على تعهد من علاءالدين بعدم إيواء الخارجين على سلطان دهلى ببلاده .

ورجع السلطان اللودهى عن هذه الأقاليم الشرقية بعد أن عهد إلى دريا خان لودهى بإقليم بهار على أن تكون شئون الخراج فى ترهوت وما حولها لأعظم همايون بن خان جهان فرملى .

وضاق سكندر شاه ذرعا بمضايقات أمرائه الأفغان الإقطاعيين ، بعد أن كشف عن تآمرهم على قتله ، فلم يكتف بما أنزله بهم من عقوبات صارمة حتى استقر رأيه آخر الأمر ، فى

سبيل إحكام رقابته عليهم ، إلى اتخاذ مقام حصين يتيسر له منه تضييق الخناق عليهم فى أتاوه وبيانة وكول وكواليار ودهلپور ، وأنشأ مدينة آكرا الحالية على نهر جمنه إلى الجنوب من دهلى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م . ومن أسف أن هذه المدينة التى زخرت بكثير من المنشآت الجميلة فى وقت قصير ، ما لبث أن اجتاحها فى العام التالى زلزال مدمر خرب أغلبها .

وقضى سكندر شاه بقية أيامه ، حتى لقى ربه عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، فى مواجهة عصيان أمرائه الأفغان بأغلب نواحى بلاده ، ذلك العصيان الذى دفع بالأمراء الهنادكة فيما بعد إلى الجنوح للثورة بدورهم واقتطاع كثير من أراضى الدولة لأنفسهم .

وبموت هذا السلطان فقدت دهلى أقدر حاكم عرفته من بين اللودهيين وأعدلهم . فقد راقب سلوك عماله نحو رعاياه فى حزم ويقظة أعانه فيها شبكة قوية من العيون كانت منتشرة فى أنحاء سلطنته (١) . وبلغ من بره وعدله كذلك أنه كان يجلس للاستماع إلى شكاوى الأهلين بنفسه ، كما عمل على توفير الأقوات لهم ، وضبط أسعارها ضبطاً محكماً . هذا كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين ومنح كل واحد منهم من المؤن ما يكفيه لأشهر ستة .

١ — طبقات أكبرى ص ١٧

وكان من أثر شدة شغف هذا السلطان بالمعرفة أن نُقلت فى عهده إلى اللغة الفارسية — لسان العصر العلمى بالهندستان إذ ذاك — جملة من المؤلفات السنسكريتية المهمة خصوصا فى الطب .

هذا كما قضى كذلك على عصابات اللصوص وأمّن الدروب والطرق . وعنى عناية فائقـــة برواج التجارة ، وشجع الحرف والصناعات ، والتفت التفاتا كبيرا إلى إشتغال الجند ورؤسائهم بها فى أوقات السلم والفراغ .

ولئن أدى اهتمام هذا السلطان البالغ بنشر الإسلام فى ربوع بلاده ، إلى هدمه لبعض المعابد الهندوكية وإقامة مساجد للمسلمين مكانها ، أو قتله بعض من رفض اعتناق الإسلام من الهنادكة ، فإن مثل هذا الصنيع ، وإن كنا لا نقره اليوم ، لم يكن إلا ظاهرة من ظواهر العصر العامة التى كانت تنتشر فى أوروبا بدورها كذلك . (١)

وخلف سكندر ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكنه لم يكن له من حزم أبيه وشدة بأسه نصيب . فانطلق الأمراء الأفغان من عقالهم يجهرون بالعصيان حتى أخذ بناء السلطنة يتصدع لينتهى به الأمر إلى الانهيار التام على يد الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر حين دخل الهند غازيا .

---

١ — Prasad. Mediéval India p 482

ولقد حاول هذا السلطان اللودهى الجديد أن يخطب ود الأمراء الأفغانيين أول الأمر بالرفق والصلات وحسن المودة ، ولكنهم، وقد كانوا يعتقدون أن إقطاعاتهم وإماراتهم لم تصر إليهم إلا بقوة سيوفهم ، ما كانوا ليركنوا إلى السلم إلا إذا استشعروا فوق رقابهم يداً قوية مثل يد سكندر شاه .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء الأفغان ، كان الأمراء الهنادكة بالراجپوتانا تفيض نفوسهم بالكراهية لبيت اللودهيين ، تلك الكراهية التى زاد من رسوخها عندهم سياسة سكندر لودهى الدينية التى أشرنا إليها من قبل .

وما لبث فريق من هؤلاء الأفغان المتآمرين، أن أجمعوا أمرهم على المناداة بجلال الدين بن سكندر شاه سلطانا على جونپور ، على أن يقتصر سلطان إبراهيم على دهلى وما حولها .

ولئن أفلح خان جهان لوحانى، أحد كبار رجال السلطان سكندر، فى حمل طائفة من المتآمرين على الرجوع الى صفوف سلطان دهلى، إلا أن ذلك لم يثن جلال الدين وطائفة أخرى معه عن المضى فيما كانوا قد اعتزموه من الأمر .

هنالك لم ير إبراهيم اللودهى مناصا من إلا الخروج لقتـــال أخيه ، فحبس إخوته الآخرين بحصن هانسى فبقوا به إلى آخر

حياتهم ، ثم مازال بجلال الدين حتى انفض عنه فريق كبير من جنده وقادته وفيهم أعظم همايون شيروانى ، واضطر هو نفسه للفرار إلى كواليار .

ولم يطل بالأمير الثائر المقام فى هذا الإقليم ، إذ سير إليه أخوه قائده أعظم همايون لودهى : فقصد إلى مالوه التى غادرها بدورها بعد قليل لما لحظه من فتور سلطانها محمود الخلجى نحوه . وفيما كان فى طريقه إلى راجا كُرّقته وقع فى أيدى عمال غوند فسيروه فى الأغلال إلى أخيه ، ليلاقى مصرعه وهو فى طريقه إلى حصن هانسى (١) .

وضاق السلطان ذرعا بأمرائه آخر الأمر فانقلب يشتط فى معاملتهم ويمعن فى إنزال ألوان التعذيب والهوان بمن تصل يده إليه منهم .

وجاء زجه فى الحبس بقائده أعظم همايون شيروانى وابنه فتلغخان بعد استدعائهما من كواليار ، بمثابة إلقاء الزيت على النار . فما لبث فريق من القواد الناقمين على مسلكه الغاشم ، أن التفوا حول أعظم همايون لودهى وإسلام خان بن أعظم همايون شيروانى ، فالتحموا بقواتهم ، التى كانت تنوف على أربعين ألفا من الفرسان

١ — تاريخ فرشته أول ص ١٩٠

وخمسمائة من الفيلة ، مع جند إبراهيم اللودهى فى قتال عنيف عند أوده ، كاد يكتب لهم الظفر فيه لولا سقوط إسلام خان وأسر قائد كبير آخر هو سيد خان

وضاعف هذا النصر من قسوة هذا السلطان الذى ذهب يطيح برءوس أعدائه فى تهور بالغ فكان من بين قتلاه أعظم همايون شيروانى وحسين خان فرملى ثم ميان بهوره وزير والده سكندر .

وسار إبراهيم من بعد ذلك بقواته إلى ميوات فأنزل بجموع الأمير الهندوكى رانا سنكا ، أعظم أمراء الراجپوتانا، ضربات قوية برغم استبسالها الشديد ، فلم يكتب للرانا نفسه ، وقد أثخنته جراحه، الهرب من الميدان إلا بمشقة بالغة .

وكثر عدد الخارجين على هذا السلطان السفاك نتيجة لعنفه هذا ، حتى نادى بهادرخان لوحانى بنفسه سلطانا على بهار باسم محمد شاه ؛ وانضم إليه كثير من الأمراء فى الأقاليم المجاورة له فاستقام له قوة عسكرية كبيرة بلغت مائة ألف من الفرسان ، زحف بهم حتى سنبهل حيث أوقع بجيش دهلى هزائم متكررة .

ولم يدر السلطان اللودهى حين أرسل يستدعى اليه دولت خان لودهى أمير البنجاب — وكان قائدا قديرا قوى الشكيمة مرهوب الجانب — أن لفتته هذه ستنتهى إلى القضاء الشامل على مُلك

اللودهيين كله بالهندستان .

ذلك أن هذا الأمير حين استُدعى إلى آكرا، مقر اللودهيين الجديد لزم داره فطنا، حذرا ، وبعث بابنه دلاور خان إلى هناك بدلا منـــه ، معتذرا باشتغاله بجمع الخـــراج . وعاد الولد الى أبيه ليروى له ماأطلعه عليه السلطان إبراهيم بنفسه من كبار الضحايا العديدين الذين مازالت جثثهم معلقة على الأسوار جزاء العصيان.

هنالك رحل دلاورخان من عند أبيه كرة أخرى ، ولكن كانت وجهته هذه المرة كابل ليحرض صاحبها السلطان ظهير الدين محمد بابر باسم أبيه على غزو سلطنة اللودهيين . وكذلك فعـــل علاء الدين علم خان عم صاحب دهلى.(١)

ولم يكن الأميران اللودهيان يرميا من وراء دعوتهما هذه إلا القضاء على إبراهيم اللودهى وخلاص الأمر لهما من بعد ذلك بالهندستان . لكن أمير كابل مضى يفتح الهند حتى جلس هو نفسه وأولاده من بعده على عرشها ، وذلك بعد أن قضى على السلطان اللودهى فى موقعة پانى پت الشهيرة عام ٩٣٢ / ١٥٢٦م. وبهذا انتقل حكم الهندستان من أيدى الأفغان اللودهيين إلى أيدى الأتراك الچغتائيين .

---

١ — تاريخ فرشته ١٩١ .

الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامى للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الأولى أيام الحكم العربى فى السند بإعادة الاتصال الثقافى بين هذه البلاد ومهاد الحضارة فى أرض الفراتين .

وكان الغزاة الأول لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا فى الغالب بمبادئ الإسلام الرحيمة من الأتراك والأفغان الذين وفدوا على الهند من بعدهم ، ومعهم كثرة من الفرس ، فبسطوا نفوذهم على أغلب شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد .

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد صحبوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملة الثقافة الإسلامية التى كانت قد بلغت بدورها خارج الهند إذ ذاك درجة كبيرة من الكمال ، فكان لهم أياد وآثار بارزة لا تُنكر فى رقى الهند وتقدمها وازدهار المدنية والحضارة بها .

هذا وكانت الهند بدورها ، على الرغم من تفككها السياسى ، ما تزال للحياة العقلية بها سوق رائجة، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفة وضروب المدنية والحضارة.

وفيما كتبه أبو الريحان البيرونى ثبت قيم لما رآه بها وشاهده فى أغلب هذه النواحى(١).

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة وامتزاجها وتأثر المسلمين والهنادكة، كل بنصيب من عادات الآخر وتقاليده، مما يُرد عادة إلى إدمان الجوار فى البيئة الواحدة المشتركة، فقد ظل كل فريق منهم على كل حال محتفظا بصفات جوهرية، تميزه عن الفريق الآخر تميزا ملحوظا، منشؤها اختلاف العقائد وأسسها الإجتماعية من جهة، وتباين أصول الثقافات المبنية عليها من جهة أخرى.

ولم يكن سيف الفتح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار الإسلام بالهند، أو ميل بعض القوم إلى تقليد حكامهم والتقرب منهم، أو حتى طموح فريق من أهل البلاد إلى تقلد بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفا على المسلمين فى الدولة. إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنادكة فى الدين الإسلامى هو مالمسوه من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام نظام الطبقات عندهم، ثم الهروب من استبداد البراهمة والتخلص مما كان يُلزم به غير المسلمين عادة من الجزية.

---

١ — وأشهرها كتابه «ذكر ما للهند من مقولة للعقل أو مرذولة» وقد نقل الى لغات أوربية عدة.

ولقد قامت الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى رجال الحرب فى الغالب ، ومن ورائهم رجال الدين يذكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام فى هذه البلاد دون إكراه فيه ، فمن دخله صار له ما لأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فُرض عليه ما يفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إرهاق .

وشهد المسلمين بما سبق عدول من مؤرخى الهنادكة أنفسهم(١) ومعهم طائفة من المؤرخين الأوربيين . فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون فى أمان بكنف المسلمين ، فلم يكن ما تعرضوا له من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية عارضة لا تمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب(٢) .

وأن كان بعض السلاطين من أمثال سكندرلودهى قد حدّوا من حرية الهنادكة الدينية فحرموا عليهم إقامة معابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ، فهناك كثيرون غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحا عن احتجاج فريق من رجال الدين المسلمين ، فأظهروا تسامحا مطلقا نحو هؤلاء الذين لم يتمتعوا بحرية العبادة كاملة فى أيامهم فحسب ، بل شاركوا مشاركة فعالة كذلك فى أداة الحكم

---

١ — Prasad Medieval India P 509,10, Havell P 257

٢ — Arnold, Th. The Preaching of Islam P. 420.

ومناصب الدولة(١).

هـــذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموما مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ما سعى إليه فريق منهم ، مثل التتمش وآل تغلق ، من خطب ود الخليفة إلا من باب التشريف الدينى طلبا لمزيد النفوذ بين بنى قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمهم وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم فى الغالب .

ولقد بهرت كنوز الهند الطائلة أنظار غزاتها الأولين فشُغلوا بها وبالفتوح عن الالتفات الجدى لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده . حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن فى البلاد وبذل غاية الجهد فى القضاء على قطاع الطرق وعصابات اللصوص فى رقعة بلاده الواسعة ، فانتعشت بذلك تجارة الهند وزراعتها .

وواصل الذين جاءوا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع علاء الدين الخلجى نظاما ثابتا للضرائب وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأقوات فى البلاد وعم اليسر والرخاء .

١ – يقول لين بول أن الإسلام يلائم ، ببساطته ، العقلية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة الاسلامية ، مهما يكن من عيوبها ، كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، ويجعل ذلك من الأسباب التى أدت بالأهلين فى الغالب إلى الدخول فى هذا الدين وطاعة أصحابه Med. India. P 4

وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار فى بلاده الواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التى كان علاء الدين قد أقامها بدهلى .

وما برحت هذه المخازن السلطانية أمداً طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات العنيفة التى كانت تجتاح الهند عادة حين تنحبس الأمطار الموسمية عنها . هــــذا كما كانت الخانقاهات والمطابخ السلطانية ، المنتشرة فى أنحاء البلاد ، تقوم يوميا بإطعام حشود الأهلين فى هذه الأزمات المخيفة .

ويعرض علينا الرحالة العربى ابن بطوطة صورا مفصلة لألوان الحيـاة فى الهند التى زارها فى القرن الثامن الهجرى ، ويشيد بقيام العدل وشيوعه ، وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد .

كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق فى الهند ، وقد كانوا على كل حال ينعمون فى ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم يبلغون مراتب القيادة والوزارة ، بل لقد حكمت الهند يوما ما أسرة كلها من المماليك [1] .

هذا ويذكر الرحالة العربى أيضا أن الخانقاهات والحمامات والبيمارستانات (دور الشفاء) كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها ،

---

١ — ابن بطوطه ثالث ص ١٢٧ — ١٣٩ ، ٢٣٦

وكان يُقدّم فى الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان .

ولعل من أهم ما يلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن الهند ، أنه وجد بمدينة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات وثلاث وعشرين مدرسة للصبية ، مما يقوم دليلا على عناية الدولة بتنشئة أبنائها تنشئة صالحة ، وعدم إهمالها لشأن المرأة بصفة خاصة(١).

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهنادكة لعادة الساتى البشعة ، فلم يبيحوها لهم إلا فى أحوال قليلة نادرة وبإذن من السلطان نفسه(٢).

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ، وقد رأى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانيها الغربية ، لاسيما بروج وكاليكوت ، لشراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو بيع ما كانوا يأتون به من منتجات فارس وخراسان والعراق ومصر (٣) .

---

١ ــ ابن بطوطة رابع ص ٦٧

٢ ــ عادة الساتي هى إقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها مالم يكن لها ولد فى الغالب

٣ ــ ابن بطوطه ثالث ص ٤٠٥ ورابع ص ٨٩

وكان إقليم الكجرات ، أهم مراكز الهند التجارية منذ القدم، ينعم أهله بصفة خاصة بقدر وافر من الثراء ، وكانت أرضه تنبت أجود أنواع الكروم والقطن .

ومن مينائه كمباى كانت تصدر البهارات والنيلة فيقايضها التجار بالذهب والفضه والنحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به، ومنها النسيج على مختلف أنواع . واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحيوان ومكفته بأسلاك الذهب والفضة (١) .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمت على أثر الغزو التيمورى أن أخذت فى الانهيار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى انفراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتفككها إلى ولايات صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهلى على ولاية صغيرة كانت أقل الولايات الهندية جميعا دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى

---

١ — Marco Polo Vol 2 pp 328.33

نفس الوقت بكثير ، من الرخاء إذ أوقفت بدورها جميع دخلها ومواردها على نفسها . وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعا حظا فى هذه النواحى .

وبلغ فن العمارة والنقش فى عهد الحكم الاسلامى بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد آچمير ومسجد القطب بدهلى ومنارته ، التى ترتفع إلى ٢٤٢ قدم ويتوجها المرمر فى أجزائها العليا ، وكثير من المدارس والبيمارستانات التى نجت من من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لا يفوته فى كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الألف عمود ، بدهلى من الروعة والبهاء (١) .

وكان من الطبيعى أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند فى إقامة منشآتهم هناك ، فقد كان للعمارة فى الهند القديمة سوق رائجة تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، فجاءت الأنماط هندية فى نواتها ، وللبقاع تأثير فى الطباع كما يقول المقدسى الجغرافى . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا فى تصميماتهم ، بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامى وتساير التطور

١ — ابن بطوطه ثالث ٢١٧ — ٢٢٠

الفنى فى البلاد الإسلامية ، دون أن يطغى شىء من ذلك كله على طابعها الأصيل ، فأضيفت النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتُبست بعض الطرز بدورها منها (١).

ولقد رأينا كيف بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوى ثم الغازى تيمورلنك من بعده حتى صحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الهنود الذين عهد اليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجامع « مزار شاه » الذى بناه حول مقام الصحابى قثم بن العباس فاتح المدينة ، كما سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك(٢) .

وحين استقر بالهند سلاطين المسلمين ، من بعد الغزنويين ، طفقوا يستخدمون فى الغالب أطلال المعابد الهندوكية ومخلفاتها فى إقامة منشآتهم هناك .

وصادفت العمارة الإسلامية بالهندستان رواجا كبيرا على أيدى السلطان علاء الدين الخلجى ، الذى أنشأ كثيرا من القصور والحصون والخزّانات . ويُروى أن كل عمود من عُمد قصره الألف بأساسه رأس مغولى من الذين أسرهم فى حروبه معهم . وقد

---

١ — Arberry, Legacy of Persia. p 94

٢ — بابرنامه ورقة ٤٥ ب ومابعدها .

أطلق هذا السلطان يد البذخ فى الإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكن والجنوب التى أتى له بها قائده كافور .

وحين تفككت عُرى سلطنة دهلى أعقاب الغزو التيمورى ، رأينا ملوك الطوائف بدورهم يبذلون عناية كبيرة بالعمارة التى اختلط فيها عندهم الطراز الهندى بالطرز الإسلامية التى كانت شائعة خارج الهند، وهى التى أتى لهم بها فريق من رجال المعمار الفرس والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفد من رجال الفنون والعلوم . ولا يزال كثير من هذه الآثار قائما حتى اليوم فى جونپور والكجرات ومالوه وبلاد بهمنى الدكنية وبيجاپور وأحمد نكَر وفيايا نكر .

ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوى بالشعراء والعلماء والمؤرخين وفيهم البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والعُتبى الوزير صاحب تاريخ اليمينى (يمين الدولة محمود الغزنوى)، ثم العلاّمة أبو الريحان البيرونى صاحب التآليف المشهورة عن الهند والعارف بلغاتها وعلومها وعوائدها،(١) والفارابى الموسيقى الفيلسوف

---

١ — أجمع المؤرخون على أن البيرونى كان يجيد السنسكريتية، وأنه أفاد من الحكماء الهنود فى التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيرا من معلوماته التى قيدها فى كتبه التى أربت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار . (تعليقات القزوينى على كتاب جهار مقاله لنظامى السمرقندى ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب . ص ٥٣٠)

ولم يكن الذين خلفوا محمود فى الهندستان دونه فى رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها أنواع المعارف والثقافات الإسلامية، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين الذين لم ينقطع قدومهم إلى بلاط دهلى وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

هذا وكانت لغة التأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هى الفارسية . وقد نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك ، وفيهم الشاعر خسرو الدهلوى « غِرِّيد الهند » الذى تتجلى فى أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء . وقد عاش هذا الشاعر حقبة طويلة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه (غُرة الكمال) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوليا . ويشهد على وفرة محصول خسرو هذا فى كافة نواحى المعرفة ما تركه من منثورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية تجدها فى أشهر كتابين له وهما «إعجاز خسروى » و« خزانة الفتوح».

وعاصر الدهلوى،من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند،بدر الدين المعروف ببدر شاخ (نسبة إلى مدينـــة طشقند) ، والقاضى عبد المقتدر الشانهى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم

فقيه آل تُغلق معين الدين عمرانى .

أما كُتاب النثر فنهم مولانا خواجى ، واحمد تنيسرى صاحب أخبار الأخيار ، والقاضى الشانهى بليغ العربية ، وعين الملك الملتانى صاحب ديوان الرسائل عند الخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم . وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم « إنشاء ماهرى » وتُعد ثبتاً لأحوال الهندستان الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أما المؤرخون فنذكر منهم أبا عمرو عثمان منهاج السراج صاحب « طبقات ناصرى » ، وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ فيروز شاه الذى سجل فيه كثيرا من فنون المعرفة فى عصره ، وقد أكمله من بعده شمس السراج عفيف فى عناية بالغة . وأخيراً غلام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة(١) والفقه ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونپور ، على الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانوا قد لجئوا إلى هناك هربا من وجه الغزو المغولى ، ومعهم فقهاء اللودهيين من أمثال القاضى

---

١ — Prasad, India p 569-72.

شهاب الدين الدولتابادى صاحب حواشى الكافية والإرشاد، والفقيه إلـه داد شارح الهداية، والفيلسوف مُغيث حسنوى.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية التى كان العرب قد بدءوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف، وإنما صارت ببلاط دهلى إلى الفارسية بدلا عن العربية. وكان المسلمون فى الهنـــد هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى الغالب، فقد رأينا فيروز تغلق، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت، يعهد إلى مولانا عز الدين خالد خانى بأن ينقل إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك. وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروزشاه. كما نقلت كُتب طبية سنسكريتية أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لودهى، هى وأقسام من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة والملاحم.

وكما أطلق الحكام المسلمون للهنادكة الحرية الدينية فى أغلب الأحيان، فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى حرية تامة حتى فى المذاهب الدينية والفلسفية الخاصة بهم.

ولقد أشرنا من قبل إلى أن اختلاط المسلمين بالهنادكة فى بيئة جامعة قد نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات. ويظهر

أثر تعاليم الإسلام قويا بادى الوضوح عند بعض المصلحين من الهنادكة أمثال نامديوا كبير ونانك اللذين أنكرا عبادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامل وممارسة عادة الساتى وقيام نظام الطبقات بين الناس. وقد نادى هؤلاء جميعا بالتوحيد وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعا من مسلمين وهنادكة وغيرهم. بل لقد صرح نانك، مؤسس السك، باحترام شيعته وتقديسهم لرسل الله وأنبيائه كافة، مع الإشادة بذكر النبي الأكرم والقرآن الكريم خاصة.

هكذا كان الحكم الإسلامى فى الهند عهد ازدهار قوى ومصدر خير وبركة لهذه البلاد، وإن عُد من وجهة نظر الهنادكة، بداهة، كارثة قضت على استقلالهم وهدمت الكثير من معابدهم؛ إذ اغتصب الغزاة المسلمون بلادهم وراحوا يعلنون العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك والوثنية.

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ما غدوا بعد قليل أن استوطنوا شبه القارة الهندية واستقروا بها، فلم تعد الكنوز والأموال والثروات التى انتقلت إلى أيديهم تتسرب بدورها إلى خارج الهند، ذلك التسرب الذى ينتهى دائما إلى تعرض البلاد المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة.

ولقـــد بهر أنظـار الهنادكة ، أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون من ألوان الحضارة والمدنية الإسلامية التى تميزت فنونها على الأخص ببعدها عن التجسيم الذى كان شائعا فى كافة نواحى الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد الاجتماعية الرفيعة التى اعترف مؤرخوا الهنادكة أنفسهم بسمو أصولهـــا الإسلامية الأولى. وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الحكام الأكفاء من أمثال علاء الدين الخلجى وآل تغلق الذين عملوا فى إخلاص على النهوض ببلادهم وترقية الزراعة والصناعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ونعم الناس قرونا عدة باليسر والرخاء . وإلى جانب هؤلاء السلاطين العظام ظهرت طائفة من القواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولى المدمر مرات عديدة .

وكانت النهضات العلمية والأدبية والفنية التى عرفتها الهند على أيدى هؤلاء الحكام فسادت هناك قرونا عدة ، هى بمثابة حجر الأساس لحضارة أكبر دولة عرفتها هذه البلاد ، وهى الدولة المغولية التى أرسى دعائمها الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر فى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م) فعمّرت قرونا ثلاثة اتسعت فيهـا رقعتها حتى شملت شبه القارة الهندية بأكملها. وهى موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب بإذن الله .

مكتبة البحث

مراجع عربية وفارسية وتركية :

١ — بابرنامه ، نشر السيدة أنيت بفريدج . ليدن ١٩٠٥م

٢ — بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب للدكتور محمد يوسف الهندى . (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الثانى عشر مايو ١٩٥٠)

٣ — تاريخ البيهقى ، ترجمه إلى العربية يحي الخشاب وصادق نشأت . القاهرة ١٩٥٦ م

٤ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، ترجمة حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ هـ

٥ — تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى . القاهرة ١٣٢٣ هـ

٦ — تاريخ العتبى على هامش الفتح الوهبى . القاهرة ١٢٨٦ هـ

٧ — تاريخ فرشته لملا محمد قاسم هندو شاه . لكنو ١٣٢٣ هـ

٨ — تاريخ الكامل لابن الأثير الجزرى . القاهرة ١٣٠١ هـ

٩ — تاريخ الفلسفة الاسلامية لدى بور ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٣٨

١٠ — تاريخ المغول لعباس إقبال. طهران ١٩٣٣ م
١١ — تاريخ اليعقوبى. ليدن ١٨٨٣ م
١٢ — چهار مقاله لنظامى السمرقندى مع تعليقات القزوينى، ترجمة الدكتورين عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب. القاهرة ١٩٤٩م
١٣ — تحفة الأنظار فى عجائب الأمصار (رحلة ابن بطوطة). فى خمسة أجزاء. باريس ١٨٥٣ م
١٤ — حقائق الأخبار عن دُوَل البحار لإسماعيل سرهنك. القاهرة ١٣١٤ هـ
١٥ — حضارة الهند لجوستاف لوبون، ترجمة عادل زُعيتر القاهرة ١٩٤٨م
١٦ — ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة لأبى الريحان البيرونى. لندن ١٨٨٧ م
١٧ — رياض السلاطين أو تاريخ بنكاله لغلام حسين سليم. كالكتا ١٨٩٠م
١٨ — ضحى الإسلام لأحمد أمين. القاهرة ١٩٣٨م
١٩ — طبقات ناصرى لأبى عمر عثمان منهاج السراج (ترجمة راڤرتى). لندن ١٨٧٣-٨٩٧ م
٢٠ — طبقات أكبرى لنظام الدين أحمد بخشى. لكنو ١٩١٣م

٢١ — ظفر نامه لشرف الدين يزدى. كلكتا ١٨٨٥-١٨٨٧م
٢٢ — فتوح البلدان للبلاذرى . ليدن ١٨٨٦م
٢٣ — مخزن أفغانى وتاريخ خان جهان لودى لنعمت الله ترجمة دورن. لندن ١٨٢٩م
٢٤ — مروج الذهب للمسعودى. القاهرة ١٣٤٩ هـ
٢٥ — ملفوظات تيمور (المجلد الثالث من كتاب إليوت وداوسون عن تاريخ الهند - القسم الاسلامى) ١٨٦٧ — ١٨٧٧م
٢٦ — الهند وجيرانها تأليف بول ديرانت وترجمة الدكتور زكى نجيب محمود . القاهرة ١٩٥٠م

مراجع أوربية :

1 — Arberry. J. A. The Legacy of Persia Oxford 1953.

2 — Arnold T.W. The Preaching of Islam. London 1935.
Barthold, W. Histoire des Turcs d' Asie Centrale. Adap. Donskies. Paris 1945.

3 — Cambridge History of India. 5 Vol. Cambridge 122-29.

4 — Dunbar, G. A history of India from the earliest times to the present day. 2 Vols. London 1943.

5 — Elliot, H.M. & Dowson J. The History of India astold by its own Historians (Moh. Period). 8Vols. London 1867-77.

6 — Elphinstone, M. The History of India. London 1911.

7 — Gablentz, H. C. Ueber die sprache des Hazaras ZDMG Bd. XX..

8 · Garrat, Y. T. The Legacy of India. Oxford 1938

9 — Havell, E.B. The History of Aryan Rule in India. London n.d.

10 — Ischwari Prasad. History of Medieval India. Allahabad 1925.

11 — Ischwari Prasad. A. short History of Moslem Rule in India. Allahabad 1933.

12 — Lane-Poole, St. Medieval India. London 1916.

13 - Le Bon, Gustav. Les Civilisations de l'Inde. Paris 1887.

14 — Marco - Polo. The book concerning the kingdoms, and marvels of the East. Translated by H. Yule. 2 Vols. London 1903.

15 — Moreland, W.H. & Chatterjee, A. Ashort History of India. London 1936.

16 — Mueller, A. Der Islam in Morgen und Abendland. 2.Bd. Berlin 1887

فهرس أبجــــدى عام (1)

---

١ ــ ضبطت الأعلام وأسماء الأماكن وفق ماورد عند جمهرة مؤرخى الهند المسلمين .

تم ، بعون الله ، الجزء الأول من هذا الكتاب ،
ويليه الجزء الثانى وموضوعه « الدولة المغولية »

تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الثاني

الدولة المغولية

تأليف

الدكتور

أحمد محمود الساداتي

المدرس بكلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت: ٤٢٢٧٧

تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهندية وحضارتهم

الجزء الثاني

إشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

قامت الدولة المغولية بشبه القارة الهندية فى القرن العاشر الهجرى ، فوصلت بالحكم الإسلامى فى هــــذه البلاد إلى أرقى صوره ، وبنفوذ المسلمين إلى أوسع مداه ، وبالعقيدة الإسلامية إلى أقصى درجاتها من الذيوع والإنتشار ، حتى بلغت بذلك كله إلى تحويل ملايين عديدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى دين المسلمين ، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم .

عاصرت هــــذه الدولة ، أول نشأتها ، دولتين إسلاميتين فتيتــــين كبيرتين هما : الدولة الصفوية التى قامت فى فارس وامتـد سلطانهـا على خراسان والعراق ، والدولة العثمانية التى كانت اذ ذاك تحكم فى آسيا الصغرى وأجزاء من أوروبا ، والتى ما لبثت أن أغارت على الشـام ومصر وأجزاء من فارس فاغتصبتها .

كانت الدولة المغولية أحدث هذه الدول جميعا ، وأصحابها
انوا أكثر ملوك عصرهم تسامحاً وأعظمهم كلفا بالحضارة والمدنية ،
لم يدانيهم فى ذلك عاهل لا فى الشرق ولا فى الغرب .

وهم من أصلاب المغول والترك الذين أنزلوا الخراب والدمار
بكثير من بلاد العالم الاسلامى ، ثم ما غدوا أن انقلبوا ، بفعل
لحضارة الاسلامية ودخولهم فى الاسلام ، إلى بنائين للمدنيات ،
إن لم يعدلوا فى الغالب عن ميلهم إلى سفك الدماء ، حتى لترى
ندهم الأكبر تيمورلنك مايفتؤ يعمل التقتيل فى أعدائه ويقيم
ن هاماتهم أكداسا على هيئة المنائر العالية ، لينطلق من بعد
لك إلى رعاية العلم والعلماء رعاية صادقة وإقامة منشآت الثقافة
المدنية الفخمة . وسار أبناؤه وأحفاده من بعده سيرته فى المدنية
لاد ماوراء النهر وخراسان والهند وزادوا عليها ، حتى ازدهر
لى أيديهم كثير من المدائن التى خربها أجدادهم من قبل ، وصادفت
لمدنية والحضارة فى عهدهم رواجا كثيرا [1] .

لم يجر حكام هذه الدولة فى تسامحهم على مجرد إطلاق

---

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٩٥ — ٩٨

حرية العبادة لأهـــل البلاد من الهنـــادكة فحسب ، حتى فتحوا لهم أبواب المناصب ، وقربوهم منهم ، وأصهروا إليهم ، وحضوا رعاياهم من المسلمين على ذلك . ليستهوى الإسلام من بعد ذلك كثيرا منهم ، بقوله بالمساواة التامة بين معتنقيه ، فيقبلوا على الدخول فيه أفواجا ، حتى لنرى المسلمين فى شبه القـارة الهندية اليوم ، بعددهم الذى ينيف على المائة مليون ويبلغون به إلى أكثر من ثلث مجموع المسلمين فى العالم كله ، هم فى غالبيتهم الغالبة من أبناء هذه البلاد الأصليين .

ولقد هدف هؤلاء الأمراء التيموريون ، أصحاب هذه الدولة ، بتسامحهم هذا إلى تألف سكان الهند واتحاد شعوبها لتقوى بهم دولتهم وترسخ أسسها ، حتى كان منهم من تعدى تقريب الهنادكة والإصهار إليهم إلى التفكير فى محاولة ابتداع مذهب جديد يقوم على التوحيد ، وتذوب فيه عقائد الهند كلها ولا يتعارض مع أسسها ، ليبلغ بذلك إلى توحيد هذه البلاد كلها توحيدا حقيقيا فى ظل الدولة .

ومن آيات تسامح هؤلاء السلاطين كذلك : أنهم ، وهم فى كلفهم وشغفهم الزائد بالثقافة والمدنية ، لم يغفلوا شأن الثقافـــة والمدنية الهندية ، فلم يكتفوا بالاطلاع عليها بل انطلقوا يحرضون

أهلها ، فى الغالب ، على الاشتغال بتراثهم القديم وإحيائه وتطويره، لينجم عن ذلك كله مزيج عجيب بلغ بالحضارة الإسلامية الهندية إلى أرقى صورها فى كافة نواحى المعرفة .

وأدى الإسلام ببساطته وقوله بالمساواة التامة بين أتباعة إلى تأثر فريق من مفكرى الهنادكة ومصلحيهم بتعاليمه ، فنادوا بمذاهب ومبادىء جديدة خففت كثيرا من غلواء نظام الطبقات ، وأنكرت صراحة عبادة الأوثان ودعت إلى عبادة إله واحد أكرم عباده عنده هو أتقاهم ، بصرف النظر عن العرق أو الطبقة والجنس ، واعترفت للأرملة والأيم بحق الزواج . وصادفت جهود هؤلاء من التوفيق قدرا غير قليل بين الطبقات المستنيرة ، غير أن سلطان البراهمة بقى عند العامة أقوى من كل حركات المصلحين ، فأقامت شعوب الهند ، فى الغالب ، على خلافاتها المدمرة التى مزقتها شيعاً وطوائف ، فلم يجد المستعمرون البريطانيون ، حين أقبلوا على الهند ، مشقة كثيرة فى إخضاعها لهم ، ليمعنوا من بعد ذلك فى إذلالها ويستنزفوا فى يسر تام كل خيراتها ومواردها وثرواتها .

لقد كان للهند فى القديم حضارة رفيعة ومدنية راقية لم

تكن تقل شأنا عما كان لمصر واليونان فى القديم ، لكنها عجزت عن الصمود أمام الغزاة بسبب انقسامات أهلهـــا الطبقية والطائفية .

وبلغ بها حكامها المسلمون ـ بدورهم كذلك ـ إلى رقى حضارى ومدنى مشهور لم يغنها فتيلا بأزاء خلافاتها المذهبية المعقدة التى استعصت على كل المصلحين الذين تصدوا لها ، حتى جثت آخر الأمر أمام المستعمرين البريطانيين ، فقدّمت بذلك الدليل اليقين على أن الحضارة والمدنية لا يضمن دوامَهما والانتفاع منهما إلا السلام الذى يستلزم المحافظة عليه يقظةً شاملة واستعدادا دائما للذود عن كيانه .

إن عقائد الهند تقوم عليها نظمها الاجتماعية لسكانها جميعاً . والمسلمون الهنود يغايرون سواهم من سكان هذه البلاد مغايرة تامة فى عقيدتهم وتقاليدهم ورسومهم ، فلم يكن لهم بذلك مناص من أن يصروا على قيـــام دولة خاصة بهم تضم المناطق التى يسودونها بشبه القارة الهندية ، فلا تضيع بذلك أقليتهم الضخمة فى وسط الغالبيّة الهندوكية ، وتم لهم ما أرادوا ، فى الغالب ، عام ١٩٤٦ م ، بقيام دولة پاكستان الخـــاصة بهم فى غرب

شبـــه القارة الهندية وشرقها .

بهذا الجزء الثانى يكمل تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم . وقد تناول الجزء الأول ، الذى صدر فى العام الماضى من هـــذا الكتاب ، تاريخ دخول العرب المسلمين إقليم السند أواخر القرن الأول الهجرى ، وقيام الدول الإسلامية بالهندستان حتى أوائل القرن العاشر الهجرى ، مع فصل وافٍ فى أوله عن الهند القديمة وحضارتها ومدنيتها .

وهـــذا الجزء الثانى هو تاريخٌ للدولة المغولية التى أقامها ظهير الدين محمد بابر ، حفيد تيمورلنك وجنكيزخان ، بشبه القارة الهندية أول الربع الثانى من القرن العاشر الهجرى ، فظلت تحكم هذه البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزعها البريطانيون منها . وبآخره فصل عن الترك والمغول ودورهم فى العالم الإسلامى الوسيط. مع إجمال لتاريخ بلاد ماوراء النهر ووصف بيئتها التى انحدر منها مؤسس الدولة المغولية إلى الهند .

---

١ — يصدر بعد ذلك بحث مستقل فيه تفصيل لتاريخ دول الهند الإسلامية الصغرى وهى التى أجملنا الحديث عنها فى هذا الكتاب .

والعماد فى هذا الكتاب ، بجزأيه ، هو ، أساسا ، على مادونه مؤرخوا الهند فى مختلف عصورها بعامة ، وفى دورها الإسلامى بخاصة ، وكانت تدويناتهم هذه بالفارسية فى الغالب ، دون إغفال الإطلاع على ما كتبه المؤرخون المحدثون من أهل هذه البلاد وغيرهم فى هذا الموضوع ، وما أبدوه من آراء وملاحظات لم أُقصّر فى الإفادة منها ، هى والتوجيهات القيمة التى أدين بها للعلماء الأجلاء محمد شفيق غربال ومحمد مصطفى زياده ويحي الخشاب ،

والله المستعان .

أحمد محمود الساداتى

القاهرة : ضاحية المعادى
رمضان ١٣٧٨ هـ
مارس ١٩٥٩ م

موضوعات الكتاب

بَـابَـرُ

فى السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨ هـ / ١٤ فبراير ١٤٨٣ م بعث عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسله إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس ، خان المغول ، بشرى مولد حفيد له من ابنته قتلق نگار خانيم [١] .

وأطلق الزاهـــد الولى ، مولانا منير مرغينانى ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلفظ بهذا الاسم على عشيرته من الأتراك والمغول الجغتائيين ، وكانت عامتهم ما تزال على عُـجمـتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذى اشتهر به فى التاريخ وعرفه الناس به .

وفى عروق بابر امتزجت دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه عمر شيخ ميرزا ، حفيد تيمورلنگ التركى ، وأمه هى ابنة يونس

---

١ — بابرنامه ورقة ١ . هذا ولقب خانيم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد [illegible]ف هذا اللفظ إلى كلمة « هانم » الشائعــة فى الشرق . ونظيره لقب بيكيم أى [illegible]ـه الأمير (البك) أو ابنته ؛ ولفظ بيجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

خان مغولستان وحفيد چغتاى ثانى أبناء چنگيزخان (١) .

ولقد أدت بصاحب فرغانة أطماعه إلى قضاء أغلب عمره فى محاربة جيرانه، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد ميرزا صاحب سمرقند ، مع صهره محمود «خان طشقند» على غزوه فى فرغانة نفسها .

وحدث أن هوى عمر شيخ ميرزا إلى الأرض من أعلى حصن له بأخشى حيث كان يتفقد حمائم له هناك : فلم يصرف موته المفاجىء هذا خصومه عن فرغانة حيث خلفه بها ابنه الصبى بابر الذى لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، فاستيقنوها فرصة مواتية لانتهاب الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحمل خصوم أبيه ، من ذوى قرباه، على الرجوع عن بلاده ، لكن الأقدار اسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير من دواب صاحب سمرقند

---

١ — ينفر بابر من ذكر المغول نفوراً شديداً أثبته بأكثر من موضع بسيرته التى كتبها بنفسه (بابرنامه ورقة ٩٠) ، ويعتز بتركيته اعتزازا شديدا ، ومع هذا فقد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان الهنود قد درجوا منذ قدوم جنكيزخان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الغزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ماوراء النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ بذاته مدلولا على الأبهة وضخامة الأجسام بصرف النظر عن الجنس . هذا وقد ألحقنا بالكتاب فصلا عن الترك والمغول يجمل تاريخهم ودورهم فى العالم الإسلامى .

انهيار أحد جسور نهر قبا وتفشي الوباء فى خيوله فقنع بالهدنة مع ابن أخيه وآب إلى دياره. وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين حاصر مدينة أخشي فاستعصت عليه، واعتلّت صحته فقرر بدوره الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغانة عن أراضيهم كذلك الأمير أبا بكر، صاحب كشغر وختن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل فخلفه على عرش سمرقند أخوه محمود ميرزا الذى كان قد وسّع من رقعة أراضيه بإقليم حصار حتى بلغت حدوده الهندكوش وضمّت الصاغانيان وبلاد الختّل وبدخشان .

وبرغم أن الحيـــاة لم تطل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن الأهلين عانوا كثيرا فى حكمه لما اتسم به من الظلم وما ذهب إليه جنده من انتهاب الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يتهدده بموت عميه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يكد يسترد جانبا كبيرا من أملاك أبيه الضائعة حول فرغانة، حتى ضم إليه كذلك سمرقند، حاضرة جده تيمورلنگ القديمة ، بعد أن انتزعها من أيدى بايسنغر ميرزا ابن عمه محمود فى مستهل عام ٩٠٣ هـ .

وبقى بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر التى تزخر بآثار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذى أقيم حول مقام الصحابى قثم بن عباس،فاتح المدينة فى خلافة عثمان ابن عفان ، والذى جلب له خيرة الصناع ومواد البناء من فارس والهند ، والقلعة التى تزدان بتصاوير حروب تيمور فى الهند ، ثم مدرسة الُغ بگ ومرصده اللذان ذاع صيتهما فى العالم الإسلامى[1] .

ثم خرج بابر من سمرقند ليقضى على ما أثاره أخوه جها نگير ورجاله من الفتن بفرغانة ، فانتهز على ميرزا صاحب بخارى هذه الفرصة وزحف إلى سمرقند فهزم حاميتها واستولى عليها .

ولئن أتيح لبابر أن يستولى على سمرقند من جديد ، وكانت وقتذاك فى حوزة الأوزبك الذين كانوا قد دخلوها بعد أن غرّروا بسلطانها وأمه ، فإن شيبانى خان الأوزبك لم يسكت عنه حتى أخرجه منها بعد شهور قليلة .

وتمكن من بابر اليأس حين رأى أغلب جنده ينفض عنه

---

١ — يصف بابر فى سيرته إقليم سمرقند وصفا دقيقا مفصلا . فيتحدث عن موقعه الجغرافى ومايغله من حاصلات وما به من صناعات ، ويشير إلى تاريخه وأوان دخوله الإسلام فيه ومن ظهر به من العلماء ومشاهير الرجال ومن حكمه من آل تيمور . بابر نامه ورقة ٤٤ ب وما بعدها .

ذوى قرباه يعرضون عنه حين استنجد بهم . فعقد العزم على الهجرة إلى إقليم خطان عند الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد ما وراء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال ومتاعب .

ولم يُغن بابر فتيلا ما أمدّه به خالاه المغوليان : أحمد ، خان مغولستان ، ومحمود ، خان طشقند، من جند، حتى قدم إليه كل منهما بنفسه . ذلك أن خان الأوزبك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى أوقع الخانين المغوليين (١) فى أسره ثم انطلق من بعد ذلك يطارد بابر فى عنف متواصل حتى حمله على النزوح من بلاد ما وراء النهر كلها آخر الأمر .

فى أرض كابل وغزنة : ظل بابر بعد أن أفلت من أيدى شيبانى خان الأوزبك ، يضرب مدة على غير هدى فى منطقة تلال أسفرا ، التى تفصل فرغانة عن إقليم حصار ، حتى تغلب طموحه على نوازع اليأس فى نفسه فحزم أمره على المسير إلى خراسان لعله يصيب حظا طيبا عند ابن عمه السلطان حسين بيقرا . لذا غادر فرغانة فى المحرم من عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م وهو فى مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون الثلاثمائة ،

---

١ — تاريخ رشيدى ١٢٣ ، ١٥٩ — ١٦١.

فما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو شاه صاحب حصار بقواته وجموع من عشائر الأبل والأولوس الهاربين من وجه الأوزبك فانضموا جميعا إليه .

ورأى بابر القوم من حوله فى رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد شديد فى المسير إليهم ، فآثر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوّه من جديد .

ولئن غدت بلاد ما وراء النهر كلها بأيدى الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيبانى خان ، الأوزبك، وهدفه التالى فى الغالب، فإن أرض كابل وغزنة — فضلا عن بعدها عن مواطن العراك وقتذاك — قد أخذت الفوضى تعمها حين توفى سلطانها الُغ بگ بن السلطان أبى سعيد ميرزا . ويسر اضطراب الأحوال فى هذه البلاد لبابر امتلاكها عام ٩١٠ هـ ، دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لآل أرغون ، أولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان فى قندهار [١] .

وهذان الإقليمان ، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية [٢] . وتقوم مدينة كابل به وسط

---

١ — حبيب السير رابع ٣٠٨

٢ — هذه التسمية من مصطلحات العصور الحديثة لسكان هذه البلاد =

حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ، إلاّ أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج مركزه التجارى .

ويشتهر الإقليمان بوفرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ فى المنخفضات فى الوقت الذى يكسو الثلج فيه مرتفعاتهما شتاءا وفيهما قامت دول إسلامية قوية مهمة مثل الغزنويين والغوريين . وأدت ضآلة رقعته بالنسبة لأراضى جيرانه الفسيحة إلى طمع أصحابه فى الغالب فيما يجاورهم من أرَضين ، فانحدروا إلى سهول الهندستان ومراعى خراسان وفارس مرّات متكررة فى التاريخ .

خيّل لبابر أن الأمر قد استقر له فى مقامه الجديد حتى انطلق ، بعد أن فرغ من تنظيم شئون دولته الجديدة ، فى غزوات خفيفة لمشارف الهندستان ومنازل الخِلجيين لينتهى من بعد ذلك

= كانوا ينتمون فى الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فرس ومغول وترك وعرب، ومن هذا القبائل الهزارا والتكودرى ، ثم الأفغان ، ومنهم يوسف زى والأفريدى والبطهاذ الذين كانت مواطنهم بمنطقة التلال فيما بين كابل وبشاور . والمعروف من تاريخ هذه البلاد ، على غموض ماضيها ، أن السلوقيين الأغريق والهون والهنود والفرس ثم العرب والصفاريين والسامانيين والغزنويين والغوريين تداولوا الحكم فيها ، كما استولى عليها تيمور لنك فلبثت فى حوزة أبنائه عدة قرون .

Sirdar Ikbal. Afghanstan pp 22 - 29.

إلى الإستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار وافته بخروج شيبانى خان من سمرقند فى خمسين ألفا من الجند أواخر عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م ؛ اقتحم بهم خراسان على أبناء السلطان حسين بيقرا فأعمل السيف فى نفر منهم وسبى نساءهم . وأطلق لجنده بلادهم كلها فانتهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه[1] ، ثم استدار بهم من بعد ذلك فطاردهم من مَرْو حتى بلغ قندهار وأخذ يطرق على بابر أبواب ملجئه بأرض كابل طرقا عنيفا حتى ظن أن لا عاصم له منه إلا أن يلوذ بالهند ، فأجمع ورجالُه أمرهم بينهم على الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد اخرجوا جميعا من بلاد ما وراء النهر ، وهاهم الأتراك الچغتائيون قد صاروا جميعا فى نطاق دولة الأوزبك خوفا أو طمعا . ولئن كان بابر قد قُدّر له أن يُفلت من براثن الخان الأوزبكى ، فإنه وهو فى عزلته بكابل أضعف شأنا وأقلّ جندا من أن يواجه هذا العدو القوى الذى لا يرتضى مهادنة أو يقبل مسالمة.

١ — Vambery . Hist. of Bokhara pp 261 - 63 .

وشاءت الأقدار أن تهدئ من روع بابر، إذ اضطر الأمير الأوزبكي شيباني إلى الارتداد عن قندهار سريعا، على أثر ما بلغه من مباغتة بعض الثوار في خراسان لحصن نيره‌تو عند هرات وكان فيه نساؤه وأمواله[1]. ليشتبك من بعد ذلك في صراع عنيف مع شاه الفرس.

ذلك أن شيباني خان كان قد بعث في عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م إلى الشاه إسماعيل الصفوي يهدده باجتياح بلاده إن هو لم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه قهرا.

حتى إذا ما بعث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبك يسأله في لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضيه عند الجنوب من خراسان وكرمان ويوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب، فردّ عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى سخر منه في ادعائه ملكا لم يرثه، وطواها على عكازة وطبق كبير من البوص هما عُدّة الدراويش[2]، فكانت الحرب.

---

١ — لم يمض بابر إلا القليل بكابل بعد عودته إليها حتى رزق بابنه همايون في أواخر عام ٩١٣ هـ — ٥٠٨ م. وفي هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البادشاه الذي لم يحمله أحد من الأمراء التيموريين من قبله إذ كانوا لا يعرفون إلا لقب ميرزا. بابر نامه ورقة ٢١٥،

٢ — أراد بذلك أن يعرض بأبي اسماعيل إذ كان درويشا، وقد رد عليه الشاه=

وتوغل الشاه الصفوى فى خراسان ودخل مشهد واقتحم هرات، حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيبانى خان عليه، عمد إلى خدعة كان فيها هلاك الخان الاوزبكى وقواته. فقد استدار بجيشه فى اتجاه العراق حتى ظُنّ أنه الرحيل والجلاء، فكمن على مسيرة عشرة أميال من المدينة، وحين خرج فى أثره شيبانى خان فى عشرين ألفا من الجند، مطاردا، وقع فى الكمين الفارسى ولاقى وقواده حتفهم فيه.

ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم.

عود إلى سمرقند: بعثت هزيمة الاوزبك واندحارهم على أيدى الفرس الآمال العريضة فى نفس بابر، وبات يمنى النفس باسترداد بلاد آبائه والعودة إليها. وقوى من عزيمته دعوة البدخشانيين له بالمسير إليهم؛ وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة ودّ من سيدهم وفى صحبتهم خانزاده بيگيم أخت بابر، وكانت قد وقعت بيدى شيبانى خان بسمرقند. وأمدّ شاه فارس نفسه من بعد ذلك بابر بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى

= الصفوى، الذى كان يعتز بانتسابه إلى أبناء فاطمة البتول، بأن الرفعة لا تورث وأن الملك لاينتقل كذلك بالوراثة فى اطراد، وإلا لما صار من البيشداديين إلى الكيانيين ولما أوتيه جنكيزخان . . . تاريخ فرشته أول ص ٢٠٠ .

سقطت بأيديه بخارى ودَخل سمرقند فَخُطِب له من منابرها منتصف رجب من عام ٩١٧ هـ / ١٥١١ م .

على أن بابر لم يكد يمضى أشهر قلائل بسمر قند ، بعد أ صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيبانى خ من استرداد بخارى وإنزال هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند فاستصرخ من بعد ذلك الشاه اسماعيل الصفوى من جديد ، فبع إليه بقائده أمير يار أحمد اصفهانى الذى بلغ من عنفه أن أ بإنزال مـــذبحة مروّعة بسكان مدينة قَرْشى ؛ حين وقعـ بأيديه ؛ فقتل منهم خمسة عشر الفا فيهم نخبة من علماء السـ والأعيان.(١)

هنالك تراءى للأوزبكّ ومعهم الأهلون مدى ما يتهددهم ه الخطر فى توغل جند القزلباش (أصحاب القـــلانس الحمراء الفرس ، فجمعوا جموعهم عند غجديوان واشتبكوا مع أعدائهم قتالاً مريراً انتهى فى رمضان من عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤ م بهزيمة الفر ومقتل قائدهم أحمد اصفهانى المعروف بنجم ثانى[٢] .

وبرغم ارتداد بابر إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسار

---

١ — تاريخ فرشته أول ص ٢٥١ .

٢ — مآثر الأمراء أول ٤٠٩ .

تذكر ، إذ كانت الصدمة كلها من نصيب الفرس ، فقد رأى أن سكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمس ، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضيه السابقة ، وفيها بخارى وسمرقند ، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جد كارهون لارتمائه فى أحضان الفرس الذين لم يتورعوا فى سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسرا ، عن إنزال المذابح بالسكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السنيين فى قرشى على الخصوص ، (١) فانهارت آماله ببلاد ماوراء النهر كلها ، وقفل راجعا إلى كابل ، ليولى وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهندستان التى سار إليها أجداده من قبل ، والتى غدت مسرحا للاضطرابات والفوضى فى ظـل

---

١ — يشيد مؤرخو الفرس عموما بالشاه الصفوى ولكنهم ينكرون عليه عنفه فى سبيل نشر مذهب التشيع . (تاريخ عمومى إيران ص ٢٥٨) . والمعروف أن بابر حاول جهده أن يحمل القائد الفارسى على العدول عن هذه المذابح ولكنه لم يوفق . وكان مما أخذه الناس على بابر ارتدائه لزى الفرس العسكرى .

هذا وقد بلغ الأوزبك من النفوذ وسعة الرقعة أن صاردوق موسكو لا يعين إلا برأيهم ويلزم بدفع الجزية لهم ، فلولا تنازع امراء المسلمين فيما بينهم إذ ذاك — من الفرس والعثمانيين الأوزبك والمصريين — لتأخر قيام روسيا التى أدى ظهورها إلى إضعاف قوة المسلمين فى الدولة العثمانية وفارس ، وانتهى بضياع بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وسمرقند والتركستان . وخضوع أربعين مليونا من المسلمين لجبروت قياصرة الروس واستبدادهم .

حكومة ضعيفة مقطعة الأوصال ، وهى بثرواتها واتساع رقه
أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير في إقامه دولة كبيرة له على كل حا

فتح الهندستان : لم يكن للهندستان حين أقبل عليها بابرغا
أوائل القرن العاشر الهجرى شيء من تلك الوحدة المتماسكة
شهدتها أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها من أمثال شه
الدين الغورى وقـــواده وعلاء الدين الخلجى وغياث ال
تغلق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، فى أعقاب ال
التيمورى ، أن يستعيدوا لهذه البلاد سابق مجدها . فصادف
منهم التوفيق ، فأتيح لبهلول لودهى ـ مثلا ـ أن يسترد حدود س
دهلى القديمة ويبسط نفوذه على كافة الرقعة الممتدة بين إقليم
فى الشرق وأقصى البنجاب فى الغرب ؛ ثم خلفه ابنه اسكند
بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدوآب وأخضع لسلطانه أ
الراجپوتانا ووثق من علاقاته بحكام البنغال .

وكان عمال دهلى على ولاياتها ، عند اللودهيين ، من الأ
الأفغان من قبائل لودهى وفرمولى ولوحانى . وكانوا جميعا يد
أن الدولة إنما قامت بسيوفهم ورجالهم ، فمناصبهم ، والحالة

ليست بمنحـــة من سلطان دهلى أو هبة منه ، فهى حقهم الثابت الطبيعى معه بعــد أن نصروه وأقروا له بزعامته عليهم ، وفيما دون ذلك فهم أنداد يتساوون معه فى الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه سكندر فمال إلى امتهان أمرائه والانتقاص من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم على التراجع عن بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنا عارمة عليه بأوده وجونپور وبهار ويصرحوا بخروجهم على سلطـانه .

وما غدت البنغال وما لوه والگُجرات أن قطعت بدورها علاقاتها مع العاصمة ، وراح رانا سنگا ،صاحب اُداپور ،وأقوى أمراء الهادكة فى زمنه ، يتزعم أمراء الراجپوتانا على حلف عقدوه فيما بينهم بغية القضاء على سلطان المسلمين فى الهند كلها واستعادة أمجاد أجدادهم الغابرة (١) .

وانتهى استبداد إبراهيم اللودهى بأمرائه إلى أن انطلق فريق

---

١ — كانت امارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلى ، فى حين ستطاع آل أرغون ، بعد أن أخرجهم بابر من قندهار ، أن يضعوا أيديهم على ولاية سند والملتان وينتزعوها من أيدى أصحابها الخلجيين . Prasad. Muslim Rule pp 258-60

من كبارهم ، وفيهم دولتخان لودهى أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان، يستنجـــدون ببابر فى كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم فى إنزال سلطـان دهلى عن عرشه .

ما يفتأ ظهير الدين محمد بابر يردد القول، فى سيرته أنه منذ أن استقر به المقام فى كابل كان يعتزم التوجه إلى الهندستان، وذلك قبل أن يشرع فى فتحه الحقيقى لها ، فضلا عما كان لجده السلطان أبى سعيد من أملاك عند أطراف البنجاب والسند ، كان يرى فى نفسه الوريث الشرعى لها حتى بعث إلى السلطان اللودهى إبراهيم صاحب دهلى يطالبه بها . فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبكُ أقدامهم بها ، وبات الصفويون أصدقاؤه وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها .

ولقد أتيح لبابر أن ينحدر من الهندكوش إلى مشارف البنجاب وسهوله القريبة فى غزوتين ناجحتين بلغ بهما بهيرة وآب منها بكثير من الأسلاب والغنائم وبقدر طيب من المعلومات المفيدة عن الهند وأهلها وخار بها ، وأحوال حكومتها قبل كل شىء . حتى إذا ما استعداه بعض أمرائها على سلطانهم خرج إليها فى غزوتين أخرتين بلغ فى أولاهما لاهور قصبة البنجاب ودخل فى الثانية

آ گرا فجلس على عرش الهند وأقام بها دولته.[١]

غزو بهيرة : خرج بابر من حاضرته كابل فى المحرّم من عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م فسلك طريق بشاور فاجتاح حصن بجور على حاميته برغم استبسالها الذى كلفها ثلاثة آلاف من الأرواح[٢] حتى إذا ما عبر نيلآب وجهلم من روافد السند أقبل عليه زعماء القبائل هناك يعلنون ولاءهم له ، فبسط بذلك نفوذه على مناطق جيناب وخوشآب جينوت، وكانت جميعها من أملاك التيموريين السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحى إلى بيرة فاستسلم له أهلها على جزية كبيرة دون قتال .

هنالك نصح له رجاله أن يصالح سلطان دهلى على ردّ جميع أملاك التيموريين بالپنجاب إليه ويعود إلى بلاده .

وحمل بابر على قبول هذا الرأى ما لاحظه من ضيق رجاله بحرّ الهند اللافح ، وإن كان أمير البنجاب قد حبس رسوله إلى دهلى

---

١ — يقدر بعض المؤرخين غزوات بابر الهندية بخمس ، فمنهم من يدخل فى حسابه تجوله عند مشارف البنجاب الاستطلاعي عام ٩١٠ هـ ، ومنهم من يضيف إليها خروجه إلى بشاور لتأديب القبائل الخارجة عليه .

٢ — رأى رجال هذا الحصن البنادق لأول مرة فراحوا يسخرون من أعدائهم وهم يشعلونها . حتى إذا ما انطلقت وأصابت الكثيرين منهم بلغ الخوف منهم مبلغه . بابرنامه ورقة ٢١٧ .

عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولا هو ردّه إلى بلاده .

على أن بابر لم يكد يمضى بكابل شهرا واحدا، بعدأن عاد إليها ، حتى ارتد إليه نائبه على «بهيرة» وما حولها لخروج الهنود [1] والأفغان عليه وعجزه فى قواته القليلة عن القضاء على عصيانهم .

وأدى إلى تعويق خروج البادشاه إلى البنجاب من جديدما كان من خروج بعض قبائل الأفغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز حصون «بشاور» بحاميات قوية تستطيع السيطرة على منازل الأفريدى والوزيرى [2] وخضرخيل فيما حولها . على أنه لم يكد يبلغ مشارف بهيرة من جديد عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م حتى بلغه انقضاض شاه بيك أرغون على قندهار وإعماله السلب والنهب فيما حولها من أرضين ، فارتدإليه من فوره فأخرجه منها ونصّب عليها ثانىَ أبنائه كامران ، كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فأقام عليها ابنه الأكبر همايون.

حتى إذا ما تم له ذلك كله وتوطد الأمن فى ربوع بلاده ، فوفد إليه رسل بعض الأمراء الأفغان اللودهيين يستنجدون به من طغيان

---

١ — نطلق لفظ الهنود فى هذا الكتاب على المسلمين من أهل البلاد ، غيرالهنادكة الذين بقوا على ملة آبائهم .

٢ — لهذه القبائل صفحات بطولة مشهودة حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم بطريق الهند . حاضر العالم الإسلامى ثان ص ١٩٨ — ٢١٤ .

سلطانهم صاحب دهلى (١) طفق يعد العُـدّة لغزوة هنـدية كبرى انتهت باستيلائه على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور.

الپادشاه فى لاهور: لم يكن بابر ليتردد عن المسير إلى أرض الهند من جديد وقد تكشف له فى غزواته السابقة مدى ما عليه هذه البلاد من الثراء الكثير وما يتيحه له ترامى رقعتها وضعف حكومتها من فرصة مواتية لإقامة دولة كبيرة له ، وها هم بعض أهلها يدعونه إليهم ويحالفونه على سلطانهم .

هكذا خرج بابر من كابل فى مستهل عام ٩٢٠ هـ/١٥٢٤ م . فما إن أشرف على لاهور حتى التقى بجيش قوى لدهلى فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فأباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران فى أبنيتها وأسواقها (٢) ، ثم اتجه من بعد ذلك إلى ديالپور فاستولى عليها بعد أن أنزل بحاميتها مذبحة بشعة .

ولحق بالپادشاه فى ديالپور دولتخان أمير البنجاب ، الذى كان استنصره على السلطان اللودهى من قبل ، فهاله ما استبان له من سعيه لتثبيت أقدامه فيما استولى عليه من أرضين حتى أقام فريقا من رجاله على شئونها ، وكان الظنّ أنه ما يلبث ، حين يتم له دحر

١ — منتخب التواريخ لبداونى ص ٣٣ .

٢ — Lane - Pool . India p 209

عدوّه ، أن يؤوب قريبا إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها ، فما غــــدا حين لمس إهمال بابر له أن انطلق وأولاده يتآمرون بصاحب كابل وقواته حتى كادوا يوقعون بهم . وقد انتهى أمر المتآمرين جميعا إلى الحبس بعد أن انكشف أمرهم .

واتخذ بابر من بعد ذلك طريقه إلى دهلى . حتى إذا ما انتهى إليه خبر فرار دولتخان وابنه غازى خان من محبسهما ، بادر من فوره بالارتداد إلى لاهور خوفا من قطع خط الرجعة عليه وعلى قواته . ليرغمه ظهور الأوزبگ عند بلخ من بعد ذلك على العودة إلى كابل ، وإن ترك بالپنجاب حامية قوية من رجاله كملت له إقرار الأمور هنــــاك ودَفعتْ عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان وأنزلت بها هزيمة شديدة .

وغاظ دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلاء الدين علم خان عمّ سلطان لودهى حتى ولاّه ديپالپور، ثم أمده بالجند الكثير حين قصد إليه فى مقامه بكابل وأمر قواده بلاهور أن يسيروا معه إلى دهلى فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها . فما زال يحتال على الأمير اللودهى حتى انقاد له وقبل صحبته فى زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا عرض الحائط بتحذير قادة الپادشاه فى لاهور له منه . وقد تصدى لهم السلطان اللودهى عند ظاهر دهلى وأنزل بهم فى الليل هزيمة

حاسمة تشتت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخابىء لهم فى الجبال فى حين آثر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات دهلى .

واقعة پانى پت : لم يكد بابر يؤمن مؤخرته عند بلخ من خطر الأوزبك ، حتى طفق بعد العدة ليتم ما بدأه من فتوحه الهندية معتمدا على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

فخرج من كابل فى صفر من عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م فى غزوة الفتح آخر غزواته الهندية وأعظمها ، فقد تم له فيها القضاء على ملك اللودهيين و الجلوس على عرشهم فى آگرا ليبسط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندى ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لپادشاه كابل اثنا عشر ألفا من الجند عبر بهم السند ، حتى إذا بلغ شاطىء جهلم بعث إلى قواده بلاهور ليوافوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أمر دولتخان مع الأمـــير اللودهى علاء الدين علم خان وزحفهما معا إلى دهلى وهزيمتهما من بعد ذلك.

ولم يشأ بابر أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمن خطوطه من أى غدر قد تتعرض له ، فبعث بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى أوقعتهم فى الأسر ، ليدخل بابر من بعد ذلك معقل عدوه فى حصن « ملوت » ويستولى على ما له به من

أموال وذخائر [١] .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى فى محبسه بقلعة بهيرة بعد قليل .

وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه فى البنجاب واصل به قائده السير حتى بلغوا نهر جمنة فنزلوا فى مواجهة بلدة «سرساوه» وبعثوا بكشافيهم ليستطلعوا لهم مواقع العدو ويتسقطوا أخباره .

هنالك استقر الرأى بين القادة البابريين على دخول المعركة الفاصلة مع عدوهم ، فعبأوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين [٢] ، فربطت عربات الحرب بالسلاسل وأربطة الجلد جنبا إلى جنب تتخللها التورات [٣] ، واصطف حملة البنادق من ورائها ، ثم زحف الجمع إلى پانى پت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهى فنزلوا بظاهرها فى آخر جمادى الثانية من عام ٩٣٢ هـ ، فجعلوا المدينة إلى يمينهم وألقوا بعربات الحرب فى الجبهة ومن ورائها

---

١ — استولى بابر فى هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة كبيرة ، فاحتفظ لنفسه بقسم منها وأهدى الباقى ابنه همايون . أكبر شاه ورقة ٣٩ ب

٢ — بابر ٢٦٤ (ا) .

٣ — التورة هى جنة دروع تصنع على هيئة نسيج السلال من الحسك والغصون لتقى رجال البنادق من السهام .

المدفع وحملة البنادق والفرسان ، فى حين حُفرت الخنادق وأقيمت المتاريس إلى ميسرة الجبهة وقد تُركت بها ثغرات تسمح لمائة من الجند ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها .

وهكذا كان على بابر وقواته ، التى لم تكن تعدوا اثنى عشر ألفا ، أن تنازل ، فى هذا الميدان الذى طالما تقرر فيه مصير الهند من قبل ، جيش السلطان اللودهى الذى كان يصل إلى المائة ألف من الجند عدّا ومعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هـــذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معا فى قتال عنيف أفاحت فيه فرق المناوشة عند جناحى الجيش المهاجم ، آخر الأمر ، فى أن تفصل مؤخرة عدوها عن ساقته ، ثم ما زالت تقذفها بوابل من سهامها حتى أخرجتها من الميدان ، فى حين أطبق رجال الجبهة الوسطى ومعهم حملة البنادق وأصحاب المدافع [1] على قلب جيش دهلى ، فلم ينته اليوم حتى قضى البادشاه على قوات عـــدوه قضاء مبرما ، وسقط فى الميدان خمسون ألف قتيل توسطهم السلطان إبراهيم اللودهى

---

١ — لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لا يطلق إلا مرات قليلة فى اليوم الواحد ، ويستغرق تعبئته مدة طويلة . بابر نامه ٣٣٧ .

صريعـــا (١) .

هنالك بادر البادشاه المنتصر بتسيير فريق من رجاله إلى دهلى ومعهم قاضيه الشيخ زين الخوافى فدعوا له على منـــابرها فى منتصف رجب من عام ٩٣٢/١٥٢٦ م ، ووصلوا فقراءها بقدر من المال هبـة منـه إليهم ، فى حين وجه ابنه همايون مع نفر آخرين من قادته إلى آگرا مقر اللودهيين ومثابة أموالهم وكنوزهم .

على عرش آگرا : دخل بابر قلعـة آگرا وجلس على عرش اللودهيين بها فى التـــاسع والعشرين من شهر رجب عام ٩٣٢ ه ، فـكان ثالث غاز مسلم يتوغل فى أرض الهند ويعـد من بين أعظم سلاطينها .

وأول هؤلاء السلاطين الغزاة هو «محمود الغزنوى» ، وثانيهم هو «شهاب الدين الغورى» . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين العاهلين فى حكم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوّادهم ومواليهم فى الغالب .

ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام . ذلك أن

---

(١) تاريخ فرشته أول ص ٢٠٥ .

محمود الغزنوي ، حين أقبل على الهند غازيا ، كان له ملك سمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها وخراسان وفارس ، كما كان له من الجند ما يتجاوز عددهم المائة ألف بكثير ، ومن الهيبة ما ضمن له تأمين مؤخرته وحدوده وأوقع الرعب في قلوب أعدائه قبل لقائه.

كذلك كان للسلطان الغوري في زحفه على الهند مائة وعشرون ألفا من الجند . كما كان حكم خراسان كذلك في أسرته .

في حين لم يتيسر لبابر في غزوة الفتح الهندية إلا اثنا عشر ألفا من الجنـــد ، وموارده ضئيلة . وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك ما يزالون ببلاد ما وراء النهر عند مؤخرته يتربصون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريض في طموح وإصرار وعزم ليسجل بانتصاره عليها . من بعد ذلك . صفحة من أروع صفحات المغامرات في التاريخ .

وإلى جانب سلطنة دهلي التي تربع بابر على عرشها في آكرا ، والتي كانت تمتد من البنجاب إلى بهار وتضم معها إقليم جونپور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيتان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك

وأول هذه الإمارات هي الكجرات باب التجارة الهندية الأكبر ،

وكان يحكمها بيت مظفر شاه . وبليها إمارة بهمنى الدكنية وهى التى أنشأها الأمير حسن گنگوى بهمن شاه ، ثم إمارة مالوه أو ماندو وكان عليها أمراء من بيت الخلجيين . والبنغال وقد حكمها نصرت شاه وأولاده (١)

أما الإمارات الهندوكية فكان أكبرهما اثنتان هما قيايا نگر وچتوار . وكان يحكم الأولى راجا كرشنا دوا . فى حين كان يقوم على الثانية رانا سنگا أعظم الأمراء الراجپوتيين بالهند فى وقته وأعلاهم قدرا وأوسعهم نفوذا .

أخذ البادشاه فى آگرا يغدق على رجاله مما وقع فى أيديه من أموال اللودهيين الطائلة وكنوز الهند ، فلم يكتف بأن جعل لكل جندى سار معه قدرا وافرا من العطاء حتى بعث بهبات مالية وفيرة إلى عماله وذوى قرباه فيما وراء حدود الهند . ووصل العلماء والفقراء فى كافة المزارات الإسلامية بخراسان وبلاد ما وراء النهر والعراق والحجاز (٢) .

---

١ — فصلنا الكلام عن هذه الإمارات فى الجزء الأول من هذا الكتاب من ٢٠٤ وما بعدها .

٢ — تاريخ فرشته أول ص ٢٠٦ .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون المدينة التى بزغ فيها نجمه وعلا بها طالع سعده من العطاء نصيباً . فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شاهرخية) إلى كل قاطن بكابل ، رجلا أو امرأة ، طفلا أو حدثا ، عبداً أو حراً .

ولم ينس ، وهو فى غمرة توزيع هـذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسرة غريمه السابق السلطان «إبراهيم» فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده رزقا حسنا ، وأوصى رجاله بالسهر على راحتهم(١) .

وكان مما عرض على بابر من جواهر الهند بآگرا ماسة «كوهينور» الشهيرة التى تزن ثمانية مثاقيل والتى قدر الپادشاه قيمتها فى سيرته بما يوازى نصف نفقات الدنيا فى عصره . وكان قد أهدى هذه الماسة لهمايون بن بابر أسرة بكر ما جيت راجا گواليار لحسن رعايته لها بآگرا بعد أن هلك وليها مع السلطان إبراهيم فى حرب پانى پت .

ورد بابر هذه الماسة على ابنه حين قدمها له فما زالت أيدى السلاطين المغول بالهند تتداولها حتى سقطت بأيدى البريطانيين

---

(١) ... ورغم ذلك فقد احتالت أم السلطان اللودهى على دس السم لبابر فى طعامه . بابر نامه ورقة ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

حين دخلوا الهند فزينا بها تاج مليكتهم فكتوريا [١] .

على أن استيلاء بابر على هذه الكنوز الكثيرة وجلوسه على عرش آگرا لم يكن ليعني خضوع سلطنة دهلي لحكمه برغم قضائه على السلطان اللودهي وجيوشه . ذلك أن الأمراء الأفغان من حكام الولايات اللودهية أدركوا تماما أن البادشاه إنما قد قدم إليهم ليغتصب بلادهم لنفسه . وأنه إن يسكت حتى يقضي على جميع نفوذهم وسلطانهم . فإذا كانوا بالأمس قد دفعهم اعتدادهم إلى الوقوف في وجه السلطان اللودهي ، وهو كبيرهم وابن جلدتهم على كل حال ، فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم غريب عليهم . فمنهم من شايع أمير بهار جلال الدين بن دريا خان فالتفوا حوله ونادوا به سلطانا عليهم ، ومنهم من سار إلى الراجپوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهنادكة بها . وسهل لهؤلاء الثائرين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر غنائمه ، وجد ما حول آگرا من دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتركوها خرابا

---

١ _ Lane - Poole 204

يبابا حتى كاد لا يجد الطعام الكافى لجوده والعلف لدوابه .

وأشاعت قسوة الصيف الهندى روح القلق والتذمر بين صفوف القوات الغازية فقد حسبوا بعد أن أصابوا من الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون ، أن أميرهم ما يلبث أن يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجده عنده من أموال طائلة وكنوز .

ولم يكن بابر ليخضع لرأى رجاله فيرتد عن أرض الهند ، كما ارتد الإسكندر ومحمود الغزنوى وتيمور عنها من قبل ، والفرصة مواتية له لإقامة دولة كبيرة قوية له هناك . فما زال بقواده وأمراء جيشه يذكرهم بما ما صادفهم من متاعب وصعاب تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالفوز والغلبة . كما بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ، وأن الملك لا يكون إلا بالرعية المخلصة والأقطار المفتوحة ، وهاهم قد تيسر لهم ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، الاستحواذ على بلاد عريضة ، فليس للمتاعب والصعاب مهما كان من شأنها أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكصوا عن الهدف الذى غدوا على قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه وبلوغه ويرتدوا على أعقابهم

وكأنهم جند منهزم طحنته المعركة وأذلّه الإنكسار [1] .

هكذا تم لبابر بشجاعته وقوة عزيمته وإصراره القضاء على روح التمرّد والتذمر بين جنوده ليوجه فريقا كبيرا منهم ، بإمرة ابنه همايون ، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلى بيانه وگواليار التى تجاور عاصمته فيضمها إلى ملكه .

ذلك أنه برغم قدوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية فى الدوآب إلى السلطان الجديد ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه ، فقد ذهب أميران من كبار الأفغان ، هما نصير لوحانى ومعروف فرمولى ، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستوليا بهم على قنوج ثم اتخذا طريقهما إلى آگرا . وطفق همايون يطارد قوات الثوار فانتزع منهم جونپور وغازيپور وكالى وخير آباد . حتى إذا ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد ، عند حدود البنغال ، بعث إليه أبوه يأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجپوتيين الذى كان قد استشرى حتى امتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلى .

---

١ — تاريخ فرشته ص ٢٠٦ .

معركة خانوه: انتهز الأمراء الراجپوتيون فرصة الضعف الذى أصاب الدولة أيام السلطان إبراهيم اللودهى فعقدوا بينهم حلفا لمناهضة الحكم الإسلامى فى الهند تزعمه رانا سنگرام سنگ المعروف رانا سنگا صاحب میوار وراجا أدايپور. وكان نجم هذا الأمير الهندوكى قد بدأ يعلو أيام السلطان سكندر لودهى حين فرّ من أمامه صاحبا مالوه والگجرات وبلغت قواته مشارف دهلى. وما زال القصص بالهند يروى عن بطولته حتى اليوم.

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة اللودهية حتى اتسعت رقعة أراضيه ودخل فى نطاقها بهيلسة وسرنگپور وچندرى ورنتنبور، وحتى صار له من الجند مائة وعشرون ألفا ومعهم خمسمائة من الأفيال [1].

وانتهز رانا سنگا فرصة اشتغال صاحب آگرا الجديد بالقضاء على الفتن فى المناطق الشرقية وفيما حول عاصمته، فاستولى على حصن گهندار وراح يهاجم بيانه ودهلپور وكالپى من جديد، ثم شرع يؤلب الأمراء الأفغان على فاتح الهندستان ويدعوهم للانضمام

---

١ — Prasad Muslim Rule, pp 258,71,74. هذا وقد سبق لهذا الراجا الاتصال ببابر بدوره فى كابل قبل زحفه على الهند وتعهد له بمساعدته. p 272

في جهته ، حتى استجاب له فريق منهم ؛ وفيهم حسن خان صاحب ميوات ومحمود خان أخو إبراهيم اللودهي الذي نودي به سلطانا على قومه . فأخذوا جميعاً يعدون العدة للزحف على آگرا(١) .

ولم يكن بابر ليسكت عن هذا الخطر الداهم الذي قد ينتهي بالقضاء على كل ما جنى من فتوح ، فبرز من عاصمته في جمادى الأولى من عام ٩٣٣ هـ حتى بلغ سيكري فأقام بها معسكره ، وأخذ يحصن مواقعه . فهيئت عربات الحرب والمدفعية وحفرت الخنادق وأقيمت المتاريس .

وفي هذا المكان أذاع البادشاه في قومه وكافة أنحاء بلاده منشوراً أعلن فيه عزمه على الجهاد في سبيل الله بمحاربة الهنادكة ، ورفعه ضريبة التمغة عن كاهل رعاياه ، وإقلاعه عن معاقرة الشراب توبة إلى الله وتقربا إليه منه ، فأهرق ما بالدنان من النبيذ على الأرض وحطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقة (٢):

« نحمد توابا يحب التوابين والمتطهرين ونشكر ديانا يهدى

---

١ — منتخب التواريخ أول ص ٣٣٨

٢ — بابر نامه ٣١٢—٣١٤ وقد أذيع هذا المنشور في سيرة بابر الجغتائية باللغة الفارسية لأنها كانت اللغة الغالبة في هذه البلاد .

المذنبين والمستغفرين ... وبعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى الفطرة تميل إلى لذات النفس البشرية ، فهي ليست بمنجاة عن ارتكاب الآثام ، وما أبرّئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم (١) .

« وما هي التوبة عن الشراب قد آن أوانها في هذه الأوقات المباركة التي نعد العدة فيها للجهاد في سبيل الله ، وقد اجتمع عساكر الإسلام لحرب الكفار ... ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله (٢) فانتهزنا أسباب المعصية بقرع أبواب الإنابة - ومن قرع بابا ولج ولجَ - وافتتحنا هذا الجهاد بالجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس « ربنا ظلمنا أنفسنا (٣) » « وإني تبت إليك وإني من المسلمين (٤) فأعلنا جميعا توبتنا عن الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس الفضة والذهب - زينة مجلس الضلالة - فألقيت إلى الفقراء والمساكين والمعوزين صدقة ...

---

١ — سورة — ١٢/٥٣
٢ — سورة — ٥٧/١٦
٣ — سورة ٧/٢٣
٤ — سورة ٤٦/١٥

. هذا ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد أقبل كثير من
المقربين لدينا فالوا فى المجالس شرف الإنابة والتوبة عن تعاطى
الشراب مطيعين للأوامر معرضين عن النواهى . ولما كان الدال
على الخير كفاعله ، فنرجو الله أن يكون لنا من ثواب هذه
الأعمال نصيب ، وأن تكون لنا فألا طيبا يتزايد بسعادة الفتح
والنصر يوما فيوما .

وغايتنا من هـــذا المرسوم أن يقابل بالطاعة والخضوع ،
فينفذ ما ينص عليه من تحريم تعاطى الشراب وصناعته فى كافة
أنحـــاء بلادنا المحروسة ، حرسها الله من الآفات والمخوفات
« فاجتنبوه لعلكم تُفلحون » (١) .

وشكراً لله على هذه الفتوح وتصدقا بالقبول ، قد جاد البادشاه،
من فيض كرمه، برفع التمغة [المكوس] عن كاهل المسلمين جريا
على ضوابط شريعة سيـــد المرسلين . وصدرت الأوامر بمنع
جمعها أو تحصيلها فى أى بلد أو ثغر أو طريق أو درب . « فمن
بدّله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يُبدّلونه » (٢) .

١ — سورة ٥ / ٩٠
٢ — سورة ٢ / ١٨١ . هذا وتعد منشورات بابر عموما من الشواهد القوية
على تمكنه وكثير من خاصته من الآداب العربية والفارسية والتركية .

«وعلى الجند الذين يعيشون فى ظل العطف الشاهانى : من ترك وتاجيك (١) وعرب وعجم وهنود : وعلى المدنيين والعسكريين وأبناء كل ملة ودين، أن يقوموا جنداً لله الحى القيوم على تنفيذ ما جاء بهذا المرسوم دون انحراف عن مقاصده ، مبادرين إلى ذلك حال وصوله إليهم ممهوراً بالخاتم الرفيع الأشرفى الأعلى .
كُتِب بالأمر العالى... فى ٢٤ جمادى الأول من عام ٩٣٣هـ .»

ورأى بابر الخوف يشيع فى رجاله من قتال الهنادكة ولم يكن لهم بلقائهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم راناسنكا أعظم أبطالهم ، وتشهد على جرأته وبطولته عين فقأتها السهام وذراع بترتها السيوف وثمانون طعنة تناثرت آثارها فى جسده . وهاهو فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الإنضمام إليه على جانب سلطانهم، فى حين طفق فريق آخر منهم بـ «الدوآب» وماحولها يرتد إلى حصونه القديمة فينتزعها عنوة من أيدى حماتها الجدد .

هنالك أخذ البادشاه يستنهض همم رجاله ويقوّى من روحهم المعنوية ، فخطبهم قائلا بأن المرء مهما طال به الأجل فمصيره إلى الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد فى ميدان الجهاد فيخلد ذكره عن أن يموت خاملا حتف أنفه .

---

١ — وهم الأعاجم الذين يجرى في عروقهم دماء عربية .

« ولقد أراد الله القدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن نسقط في ميدان الجهاد فقد كُتبت لنا الشهادة وإن ننتصر فقد أعلينا كلمته تعالى » .

وجيء بالكتاب فأقسم كل فرد منهم على ألاّ يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفَس يتردد بين جنبيه(١).

لم يفتّ في عضد الجند البابرى ما رأوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، وما بلغهم من مهاجمة الهنادكة لگواليار، ونشوب الفتن في «الدوآب» ، فزحفوا إلى أرض خانوه عند مشارف الراجپوتانا يتقدمهم أصحاب آلاتهم الحربية من رجال المدفعية وحملة البنادق حتى يقيموا من نيرانهم ، إذا لزم الأمر ، ستاراً يهيء لهم الفرصة لتشكيل صفوهم للقتال في اطمئنان .

والتقى الجمعان قبيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ٩٣٣ هـ / ١٦ مارس ١٥٢٧ م ليخوضوا غمار حرب تعدّ من أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة بابر وصفا دقيقا قيّما لهذه الواقعة ننقل عنه

---

١ — منتخب التواريخ لبداونى أول ص ٣٤٠

ما يلي (١)

« الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ... وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة والمجاهدين ... وبعد ؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من النصر على الكفار ، فهى فى نظر أهـــل البصيرة أعلى درجات السعادة . والمنّة لله وحده الذى حقق لنا من مكنونات نعمه ، النصر والغلبة ، فكتبنا عنده فى سجل المجاهدين لإعلاء كلمته ... »

« وتفصيل الأمر فى مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ، أنه لما أضاءت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جنودنا بلمعات أنوار الفتح والظفر ، وأعانت أيادى التوفيق الربانى على رفع رايات النصر فى ممالك دهلى وآگرا ، وجونپور وخربد وبهار وغـــيرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب الكفر وأرباب الإسلام على السواء .

أما رانا سنگا فقد تظاهر بطاعتنا بادىء الأمر ثم ما لبث أن

---

١ — بابر نامه ٣١٧ ب — ٣٢٤ ب . وهو المنشور الذى عهد بابر بصياغته إلى قاضيه زين الدين خواف ، فحوى بالفارسية أدق تفاصيل القتال وخططه ونتائجه ، ليذاع فى كافة أنحاء المملكة .

أظهر ما بطن : فأبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ، واجتمع حوله طوائف فيها من تمنطق بالزنار وفيها من ارتدى ثياب الكفر والارتداد [1] .

« هذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع بالهند قبل أن أن تبزغ شمس دولة البادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب أن شاركه أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها .

« أما السلاطين الأقوياء من أمثال أصحاب دهلى والكجرات ومالوه ومن إليهم ، ممن كانوا فى حالة تسمح لهم بمعارضته والوقوف فى وجهه ، فقد عجزوا عن أن يتكتلوا ضده دون اتفاق الكفار وإياهم ، فغدوا لذلك يداهنونه بدورهم ويدارونه اتقاء لخطرة ودفعا لشره .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتى مدينة من مدن الإسلام التى خرب مابها من مساجد وسبى ما بها من نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها .

« أما مدى قوته ومبلغ عدته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا على قواعدهم ، فإن كل إقليم خراجه لكا (أى مائه الف) يستطيع

---

١ — أصحاب الزنار هم الهنادكة ، أما المرتدون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا فى صفوف الهنادكة .

أن يقدم مائة فارس ، وما يكون خراجه كروراً (عشرة ملايين) يقدّم عشرة آلاف فارس . ولما كان خراج ولاياته جميعا يصل إلى عشر كرور فقد كان فى وسعه أن يجتمع له مائة ألف من الفرسان» .

« هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له لأول مرة ، بدافع من عدائهم للمسلمين . وكان لهؤلاء إقطاعات واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهيلسه ورايزن وسارنكبور، كان له ثلاثون ألفا من الفرسان ، وهذا راول أودَى سنگ، صاحب دُنگرْ پور ، كان له اثنا عشر ألفا ؛ ثم حسن خان ميواتى وكان له اثنا عشر ألفا ، وبارمل عدرى وكان له أربعة آلاف ؛ ونربت هاره، وكان له سبعة آلاف ، ومندنى راى ، وكان له اثنا عشر ألفا ، وسترى كچى، وله ستة آلاف ، وهرم دوى، وله أربعة آلاف ، وبرسنگ دوى وله مثلهم ؛ وأخيرا محمود خان بن السلطان سكندر خان » فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له جمع عشرة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش [1] .

١ — لم تزد عدد قوات هؤلاء الحلفاء فى هذه الوقعة على مائة وعشرين ألف فارس Prasad 274 فى حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به فى واقعة بانى بت . هذا وقد كشفنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١١٤ عن السر الغالب فى انهزام جموع الهنادكة على كثرتهم أمام الغزاة المسلمين على قلتهم ، وإن زاد على ذلك استخدام بابر المدفعية والبنادق التى لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« هكذا ائتلفت جموع أولئك الكفار معا ، كظلمات بعضها فوق بعض ، فى حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة سيد الأنام . لكن المجاهدين انقضوا عليهم طلبا للشهادة فى جهاد الكفار والمنافقين .

« وفى يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثانى من عام ٩٣٣ هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خيامه على تل بجوار خانوه إحدى مناطق بيانه . حتى إذا ما قدم الكفار بأفيالهم - كأصحاب الفيـــل - برز لهم عساكر المسلمين - رياحين الجنة - يقاتلون فى سبيله صفا صفا كالبنيان المرصوص .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »(١)

« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية موضع حملة البنادق وستر مكانهم ، وكانوا فى الجبهة ، فنهجوا فى ذلك نهج مجاهدى الروم (٢) ، فصفت العربات أمامهم وقد شُدّ بعضها إلى البعض الآخر بالسلاسل . »

« وكانت جيوش الاسلام تنتظم فى إحكام تام ، والحرس الشاهانى قـــد توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة

---

١ — سورة ٢/ ٥

٢ — أى العثمانيون

بأقصى الجناحين . .

« وحين تقابل الجيشان، وكأنهما الليل والنهار ، بدأ الاشتباك عند الجناحين ، واشتد أوار الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزل زلزالها : وبلغ ضجيج قعقعة السلاح عنان السماء . حتى إذا ما اقتحم جناح الأشقياء الأيسر ميمنة المسلمين . سارعت نجداتنا إليهم ، فلم تكتف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيشهم .

« وألهم بالتوفيق ، نادرة عصره « مصطفى الرومى » وكان فى القلب فى إمرة ابننا « محمد همايون » فتقدم ، بمدفعه وبنادقه وقذائفه ، لحطم صفوف الكفار .

« حتى إذا ما زحفت أفواجهم من جديد تترى لنجدة رجالهم فكرّوا على جناح المسلمين الأيسر فى عنف وشدّة . طفق الغزاة ذووا النجدة يستقبلونهم فى كل مرة بالسهام فيبعثون بهم إلى دار البوار ، أو يرغمونهم على الفرار ، وهم يرددون قوله تعالى « قل هل تربّصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين » (١)

« وحين حمى وطيس الحـــرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس الشاهانى بالبروز للقتال ، وكانوا فى مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود فى أقفاصها ، فاندفعوا من يمين القلب ويساره

---

١ — سورة ٩/٥٢

بطالعة صبح صادق أطلّ من وراء الأفق ، فضرجوا الكفار فى دماء بلون الشفق وأطاحوا برءوس الكثيرين منهم . »

« هكذا كما طفق ، نادرة العصر ، الأستاذ عليقلى يقذفهم[1] وأتباعه من وسط الجبهة . بقذائف تحيل الجبال الراسيات كالعهن المنفوش . ولو كوفىء الواحد منا بثقلها أعمالاً طيبة اثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية ، فحصد بها الكثير من الكفار حصداً ...

« كذلك سقى حملة البنادق — من وراء المدفعية — كثيراً من الأعداء كأس الحمام فى الميدان ، واظهر المشاة من ضروب المخاطرة مايخلد أسماءهم مع أسد الغاب الصيد والأبطال الصناديد . »

« وفيما الحال يجرى على هذا المنوال ، صدرت الأوامر بتقدم المدفعية من مواقعها إلى الأمام ، وبدأت الحضرة الخاقانية بدورها فى تقدمها ، والفتح فى ركابها والظفر واليمن ، فزحفت على فرق الكفار . »

« واختلط الضارب بالمضروب ، والغالب بالمغلوب ، وانعقدت

---

١ ... — كان البابر إلى جانب مدفعه قطعة صغيرة أخرى يسميها فرنكية عدا بنادق التى تعرف باسمها التركى « تفك » . هذا وكانت عرباته الحربية تصل إلى ثمانمائة .
Elliot & Dowson , India vol Vi . p 468

سحب الغبار فوق الرءوس وقد حجبت الشمس عنهم حتى توارت المرئيات . فلم يكن يضىء هذا الليل الا لمعات السيوف وومضاتها، وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بحوافرها فى الكر والفر .

« وهتف الهاتف بالغزاة المجاهدين أن « لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون» (١) وأنه « نصر من الله وفتح قريب » (٢). فاقبلوا فرحين مستبشرين يقاتلون فى طلب الشهادة . وبلغت المعركة أوجها بين الصلاة الأولى والثانية . ليفلح المسلمون من بعد ذلك فى تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان واحد . »

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملحدون أنه قد أحيط بهم ، انطلقوا مستيئسين يهاجمون من جديد على طول الجبهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الجناح الأيسر ، لولا أن أطبق المجاهدون عليهم فاقتلعوهم من أماكنهم وألزموهم طريق الفرار قسرا . »

« هنالك أقبلت نسايم النصر على بستان حظنا ومعها مدد من

---

١ — سورة ٣ /١٣٩

٢ — سورة ٦١/١٣

قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا »[١]. وتجـــلى لأعيننا الإقبال والسعادة فى كلامه عز وجـــل « وينصرك الله نصراً عزيزاً »[٢]

« وهكذا انفرط عقد الهنادكة فتناثروا كالعهن المنفوش ، فمنهم من سقط فى حومة الوغى ، ومنهم من هلك فى تيـــه الخراب فصار طعاما لجوارح الطير ، حتى تكدّست أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكوّمت رءوسهم كالمنائر العالية .[٣] »

« وكان من بين القتلى حسن خان ميواتى وكثيرون من أمراء الكفار وأصحاب الشوكة والأعيان الذين بعثت بهم السهام ونيران البنادق إلى سقر .

« أمّا دار الحرب فقد غصت بالجرحى منهم ، فكانت جهنم حين يتلقى خزنتها المنافقين فتمتلىء بهم ، كما لم يكن هناك موطىء لقدم إلاّ وفيه صرعى من علمائهم . « وما النصر إلاّ من عند الله

---

١ — سورة ٤٨/١

٢ — سورة ٤٨/٣

٣ — من تقاليد التيموريين أنهم كانوا ، على أثر كل نصر ، يقيمون من رءوس القتلى من أعدائهم على هيئة أهرامات ومنائر .

العزيز الحكيم »[1] ..... »

هكذا استمرت معركة خانوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى بهزيمة عصبة الراجپوتيين هزيمة حاسمة ؛ وهروب رانا سنگا زعيمهم إلى أحد حصونه بالجبال مثقلا بجراحه ، فلم يمتد به الأجل إلاّ عاما وبعض عام [2] .

وبهذا أتيح للغازى[3] التيمورى أن ينزل بأعدائه بالهند ضربتين حاسمتين : فى مدى عام واحد ضعضعتا من كيانهم وقضتا على قواتهم.

ولئن مكن للبادشاه انتصاره عند پانى پت من الجلوس على عرش آگرا ، فقد تم له فى وقعة خانوه القضاء التام على الخطر الراجپوتى الذى ظل يتهدد سلطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم قائمة من بعد ذلك أبدا [4]

وبهذا النصر، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام

---

١ — سورة ٣/١٢٦ . حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب الأصل وصورته الأدبية ما وسعنا ذلك ، ولم نرفع منه إلا أسماء القواد الكثيرة .

٢ — Havell, p 425

٣ — اتخذ بابر لنفسه هذا اللقب على أثر انتصاره فى هذه الوقعة . تاريخ رشيدى ٤٠٩

٤ — Lane - Poole 210

محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طارصيت بابر ، وازدادت هيبته بين المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش آگرا ، وأرسى الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعد يحارب دفاعا عن عرشه وتثبيتا له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذ وسلطانه فى الغالب .

القلاقل الشرقية :

كان على بابر لكى يغدو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصبة الراجپوتيين وأمنت أراضيه حول دهـ وآگرا ، أن يستولى على بعض الحصون الكبرى التى ما يزا يعتصم بها أمراء من الهنادكة ، ويقضى على نفوذ الأمراء الأفغا فى المناطق الشرقية ، ويخمد ما يثيرونه من فتن هناك فقد كا يعلم أنه لا سبيل إلى مهادنتهم فى الغالب ، وهم الذين أدى كبريائهم إلى تقويض عرش السلطان اللودهى ، زعيمهم وا جلدتهم ، من قبل .

وسارت جند آگرا صوب الشرق بطريق قنوج ، فى حين قد البا شاه ، على رأس فريق آخر من قواته ، حصن چندرى فى أقصى الجنوب من گواليار ، وكان عليه أمير هندوكى قوى ميـــدنى راو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت من الحجر الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجند استطاعوا تسلق هذه الأسوار والتسرب إلى داخلها ليشتركوا مع الحامية فى قتال وحشى عنيف رُدَّ فيه فريق منهم عن أماكنه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياع قلعتهم من أيديهم ، قتلوا نساءهم بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم على سيوف الغزاة مقاتلين فى ضراوة وشدة بأس ؛ فى حين كان أميرهم ونفر من خلصائه يتبادلون فيما بينهم الطعنات حتى فنى أولئك وهؤلاء جميعا عن آخرهم(١) .

وكان فى خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هــذا الحصن ، أن يخضع بعض حصون أخرى بمالوه ثم يسير إلى الراجبوتانا من جديد ليفتتح چتور عاصمة موار ومقر خصمه المهزوم رانا سنگا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته فى الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخلاء لكناو ، فسارع إليها بنفسه .

وبلغ بابر قنوج ليعبر رجاله چمنه تحت ستار من نيران

---

١ — تاريخ فرشته أول ٢٠٩ ، ٢٢٠

.. فعية والبنادق فيلتحموا فى قتال عنيف مع ثوار بهار الذين قد عاد .. تزعمهم السلطان محمود بن سكندر لودهى بعد هزيمته فى خانوه. و .. لا تريث الپادشاه فى مطاردتهم لأمكن له من فوره القضاء .. عليهم قضاء تاما .

وعوّق حلول فصل الأمطار القوات الغازية من الاستيلاء على إقليم بهار كلّه بعد ما بلغت أوده ، مما أتاح الفرصة للثوار ليعودوا إلى إشعال نيران فتنة عارمة فى العام التالى استنفد القضاء عليها كثيرا من جهود بابر وكادت تفضى إلى اشتباكه فى الحرب مع البنغال .

ذلك أن محمود لودهى كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند استخلص بهم إقليم بهار كله وبعض الأراضى المحيطة به : حتى إذا ما سير إليه الپادشاه ابنه « عسكرى » أول الأمر ثم لحق به من بعد ذلك بنفسه فدخل « الله آباد » وچنار وبنارس فأقبل عليه الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر اللودهى ، رابه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد نصرت خان ، صاحب البنغال ، له بنزوعه إلى المسالمة وحرصه على الولاء (١) .

---

١ — أكبر شاه ورقة ٣٩ ب

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التى تشد من أزر الثوار ، إذ كانت فى مواقعها ، عند التقاء الگنج برافده گگر ، تعوق من تحركات جند آگرا فى مطاردتها للثوار .

وتيسر «لعسكرى» أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لگگر والگنج ، فطفق يناوش البنغاليين ويشاغلهم ، حتى تم عبور المدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوقع الأعداء بذلك بين فكى الكماشة ، فلم يغنهم فتيلا تفوقهم العددى وإحكامهم فى التصويب ومهارتهم فى استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار .

وهكذا انتهت معركة گگرا إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للپادشاه .

وبهذه الوقعة التى تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر فى الهند ، بعد معركتى پانى پت وخانوه ، غدا ذلك الأمير التيمورى صاحب السلطان المطلق فى الهندستان ، وغدت دولته تمتد فى رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهملايا إلى چندرى وگواليار (١) .

....

١ — Grenard.Baber pp 156-58

وآب بابر إلى عاصمته فى شوال من عام ٩٣٥ هـ فلبث بها قليلا ، ليخرج منها من بعد ذلك الى البنجاب وفى نيته أن يواصل السير إلى بدخشان ، فيدفع عنها الأوزبكَ الذين استفحل خطرهم من جديد برغم ما انزله بهم طهماسب ، شاه الفرس ، من ضربات قاصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند فى غيبته ، وبداية انهيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التى بذلها فى حروبه ، قد منعاه حتى من الشخوص إلى كابل ، وكان غير بعيد منها ، وهى التى طالما ردد اعتزازه بها وشوقه إليها .

وقدم على بابر ، بلا هور ، ولده الأكبر همايون فصحبه إلى آگرا ، وكأن القدر قد استجاب للپاد شاه حين اشتد الداء بابنه هذا ، فتمنى على الله أن يجعله فداءه ، فلم يبرأ همايون من علته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا إلى لحده [1] .

---

١ — كان مما عجل فى نهايته فى الغالب إدمانه كذلك على تعاطي المعجون (الأفيون) وإن اقلع عن تناول الشراب تماما عند حربه مع راناسنكا فى معركة خانوه . تاريخ رشيدى ٤٦٩

حين شعر بابر بدنو أجله دعا إليه رجال دولته ، فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وإخوته ونصحه باصطناع الحلم والتذرع بالحزم فى حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والپادشاه يعانى سكرات الموت ، أن يعدلوا عن وصية أميرهم فيعهدوا بالملك إلى أحد أنسباء بابر ، وكان يدعى سيد مهدى خواجة ، لتكشف لهم المصادفات عندئذ عما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشرّ فيعودوا إلى سيرتهم الأولى .

ومضى بابر فى السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧ هـ ١٥٣٠ م وهو فى الخمسين من عمره والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، فثوى فى بستان نور أفشان على چمنه . ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التى كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتى خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندى ، وماغدا أولاده يُزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعُد ظهير الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين فى عصره فحسب وفيهم اسماعيل الصفوى شاه الفرس وسليم الأول

سلطان العثمانيين ، بل هو كذلك من أقدر الرجال الذين عرفتهم العروش فى مختلف العصور ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره .

وَلِىَ عرش فرغانة ، تلك الأرض الصغيرة عند سيحون، وهو فى الثانية عشرة من عمره. وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرباه ناصح أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع فى ملكه أو على عداء سابق مع أبيه، فلولا بقية نفر من خلصاء أبيه القدماء لقُضى عليه من بادىء الأمر وضاع ما ورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه لمحن ومتاعب جارفه عنيفة ، فلم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا أبداً، فكم من مرّة انفض عنه أنصاره وأغلب رجاله حتى وقف وحيدا شريداً لا أرض له ولا مال ولا رجال ، فعاود جهاده من جديد ومضى فى مغامراته ، حتى رأيناه يذكر فى سيرته أنه منذ ولى العرش عام ٨٩٩ ه حتى عام ٩٣٣ ه ، أى فى مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض شهر رمضان عامين متتاليين بمكان واحد . (١)

ولى بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر تيمور لنك فى سمرقند ، فإذا الدوائر تدور عليه فيفقد جميع

١ — بابر نامه ٣٣٠ ا

أملاكه ببلاد ما وراء النهر ويغدو شريدا طريدا يسير أغلب ليله ويختفى معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد ليلتين متعاقبين حذر الوقوع فى يد غريمة شيبانى خان الأوزبك الذى أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواد وآباءه من قبل [١].

ويظل بابر يضرب فى الصحراوات والجبال عاما وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقه إلى الخروج من بلاده ، بجموع من عشائر المغول والأتراك ببدخشان فتسير فى ركابه هربا من وجـــه الأوزبك ومعها الكثير من أموال حصار وبدخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيموريين لسنين طويلة خلت .

ويكسر اسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبك ويقضى على زعيمهم شيبانى خان . فتتجدد الآمال عند بابر لاسترداد بلاده وبلاد آبائه بماوراء النهر بمعونة الشاه الفارسى ؛ حتى إذا ما ردّ عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهـــدهم معه ، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم عـــلى اعتناق المذهب الشيعى ، ولّى وجهه قبل الهندستان التى سبقه إليها آباؤه من قبل ، فى عزم وقوة أتيح له بهما أن يقيم بها دولته التى خلدت ذكره فى التاريخ.

---

١ — تاريخ رشيدى ١١٦ — ١٢٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

وكان لضآلة قواته فى بدء حياته ، ثم تدرجها فى الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها الفائدة جمة فى حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكينة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويئد كل تذمر أو فتن تشيع بينهم فى مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بحر الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح فى آگرا عقب دخولهم فيها ، وأستنهض هممهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتيين فى معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجندية ، ميلهم إلى الأمعان فى تقتيل أعدائهم وتفاخرهم بعظم الأكداس التى كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهابهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيهـــا مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثهـــا بابر عن آبائه وورثها

وكان لضآلة قواته فى بدء حياته ، ثم تدرجها فى الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فوائد جمة فى حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكينة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويئد كل تذمر أو فتن تشيع بينهم فى مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بحر الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح فى آگرا عقب دخولهم فيها ، وأستنهض هممهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتيين فى معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجندية ، ميلهم إلى الأمعان فى تقتيل أعدائهم وتفاخرهم بعظم الأكداس التى كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهابهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آبائه وورثها

أبناءه من بعده ، كالإدمان على تناول الشراب الذى لم يقلع عنه عند حربه مع راناسنگا الا ليدمن تعاطى المعجون ذلك المخدر القوى الذى عجل فى الغالب فى نهايته ولمّا يبلغ الخمسين من عمره ، برغم ما اشتهر عنه فى شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوى ذراعيه على الرجلين ويتخطى بهما الخنادق قفزا فى تتابع سريع ، ورغم ممارسته كافة ضروب الرياضة المعروفة فى عصره حتى ليذكر فى سيرته أنه سبح فى كل نهر صادفه فى حياته ، وقطع نهر الگنج فى أعرض مواضعه فى ثلاثة وثلاثين ضربة ، وهو ما لم يتيسر لغيره من رجاله . [1]

وعُرِفَ هذا السلطان التيمورى ببغضه للتعصب الدينى وبعده عنه ، ونهج أبناؤه فى الهند نهجه، فمارس الهنادكة طقوسهم الدينية فى حرية تامة إبان حكم الدولة المغوليه فى الغالب . [2]

وبلغ من تسامح هذا الجندى الموهوب أنه تغاضى عما أنزله به بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالفة ؛ بل لقد عفى عن هؤلاء ، حين وفدوا عليه بالهند ، برغم أن منهم من أبى أن يضيفه وأمّه حين ضاق به الحال ببلاد ما وراء النهر ؛ فقد كان يهدف أبدا إلى

---

١ — بابرنامه ٣٦٣ ب

٢ — Havell p 426-Prasad pp 286 . 87.

ولئن أبقى الپادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه ، على كل حال ، بعض النظم التيمورية ، فجعل على كل إقليم نائبين له ، يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ، ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوازن بينهما ، ويدفع للجند والعمال أجورهم (١).

كذلك كان من مبادىء التيموريين التى ساروا عليها بالهند ألا يتراخى العمال فى جمع الخراج والمكوس ، دون إلحاق الأذى بالناس ، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون فى ذلك بين مسلم وهندوكى (٢).

على أن بعثرة بابر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكنوز بآگرا ، وما ذهب إليه من بذخ فى العطاء والبذل حتى أطلق عليه أصحابه لفظ « قلندرى » (٣) ؛ ثم رفعه التمغة عن رعاياه قبيل

---

١ — يقدر بابر فى سيرته دخل الهندستان بما يوازى المليونين ونصف المليون من الجنيهات بابرنامه ٢٩٢ — ٢٩٣

٢ — The Indian Moslems pp 23 . 24

٣ — تاريخ فرشته أول ٢٠٦ ؛ وقيل إن « قلندر » كان صاحب طريقه تدعو إلى الزهد فى المال والنساء ، والقلندرى هو الزاهد فى حطام الدنيا حتى ليجود بكل ماتصل إليه يده

حرب رانا سنكا ، أدى ذلك كله إلى اضطراب ماليّته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد .

هذا ، كما أمر بمسح كثير من الأراضى وشق كثير من الطرق ليربط بها بين مختلف أجزاء بلاده ؛ وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وآكرا ، وإقامة منائر به ليهتدى بها السابلة ، ومنازل للمسافرين والدواب[1] .

ولقد زار بابر بكواليار أفخم دور الهند فى عصره وهى قصر بكرماجيت وابنه ما نسنك . وبرغم ما ذكره عن التأنق فى بنائهما ونقوشهما ، فقد ضاق بعدهما عن التناسق مع سوء التهوية و توزيع الضوء بهما

ونسى بابر، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مبانى الهند ، ما نزله على الأخص جدّه تيمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشآت الغزنويين والغوريين وآثار خلفائهم الفخمة ، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجال المعمار الهنود ليقيموا له منشآته الفخمة ببلاده ، تلك المنشآت التى طالما أشاد بذكرها فى سيرته وعظّم من شأنها .

---

١ — بابرنامه ١٣٥١

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف(١) من مهرة النحاتين والبنائين ليقيموا له منشآته من قصور ومساجد وحمامات ونافورات وخزانات للمياه، فى آگرا وسيكرى وبيانه ودهولپور وگواليار وكول.

ومنشآت بابر الباقية حتى اليوم بالهندستان هى مساجده الثلاثة فى پانى پت وسَنْبل وحصن اللودهيين بآگرا.

ويقال أن شغفه بالعمارة، مع ضيقه بمعمارى الهند، قد دفعه إلى أن يسأل سنان، معمار العثمانيين الشهير، أن يمده ببعض تلاميذه. والغالب أنه لم يجبه إلى طلبه، وآية ذلك عدم ظهور أى أثر لطابع المدرسة السنانية هناك.

وأدى كلف بابر بالطبيعة وما تبدعه إلى إقامة طائفة من البساتين والحدائق حاكى ببعضها مغانى كابل التى طالما ترنم بذكرها، ومنها بستان چار باغ بظاهر آگرا الذى جعله نظير سميه الكابلى، وقد جلب إلى رياضه هذه كثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التى لم تكن تعرفها الهند من قبل(٢)

ونهج أبناؤه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه، حتى

---

١ — بابرنامه ٢٩١ ب

٢ — المصدر السابق

لترى اليوم نمط الحدائق المغولية الهندية تقوم بطائفة من مدن ايطاليا وبريطانيا على الأخص (١)، كما تزخر متاحف العالم الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم .

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته التى كتبها بنفسه وصفا دقيقا مفصلا استوعب كل ما وقع عليه نظره فيها . فقال عنها إنها عالم قائم بذاته يختلف اختلافا تاما عن كل الأقاليم التى عرفها، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخه وزرعه وأنواع الحيوان فيه وعروق السكان وطباعهم وعاداتهم وألسنتهم وعقائدهم (٢):

« إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم تباينها عما عند جيرانها . »

« وتعتمد أراضيها وزراعاتها فى السقى على الأنهار وروافدها، فلا قنوات عندهم أو ترعا أو مصارف. وقد صدهم عن إنشائها هطول الأمطار التى تأتى بها الرياح الموسمية، فهى عماد سقيهم فى أماكن شتى، وهم يختزنون من مائها الكثير . »

١ — Garratt. Legacy of India pp 299-302

٢ — بابرنامه ٢٧٢ ـ ٢٩٣

ولم يرق بابر هيئة مدن الهند ومظهر ريفها ، ولا حدائقها « التي لا تنسيق فيها ولا أسوار لها ، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض فرغانة والماء ينساب بين خمائلها »

ولاحظ بابر كذلك وجود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة ، ذلك أنه كان من عادة أهل الهند ، حين يفد الغزاة على أرضهم : أن يفرُّوا من وجههم ويهجروا بلدانهم .

كذلك وصف بابر صنوف الحيوان والطير وأنواع الثمار والفاكهة بالهند فى دقة وتفصيل ، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسماء الشهود وأيام الأسبوع وأقسام الليل والنهار هناك :

« إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقية الأمم ، فالشعوب ، فيما عداهم ، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسما ، أما هم فيقسمونهما إلى ستين قسما ، يُدعى كل واحد منها « غرى » وفَترتُه أربعة وعشرون دقيقة . كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعة يُعرف كل قسم منها باسم « پهر » وهو الساعة الزمنية الهندوستانية . »

« وفى كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تدعى

« غريالى » وهم الميقاتيون ، وعُـدّتهم صفحة من النحاس ومطرقة من الخشب . وهم يلازمون ساعة مائية بمكان عال مخصوص ، فيقرعون غريالهم ، كلما امتلأ كأس الساعة أو فرغ قرعا سريعا متتابعا تنبيها للناس ، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم . »

« ووحدة الوزن فى الهندستان هى « الماشة » ، وكل خمس منها تعادل مثقالا واحدا . أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو « نانـگـ » ويعادل أربع ماشات . »

« وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة . فكل مائة ألف عندهم هى « لك » ، وكل مائه « لك » هى « كرور » ، وكل مائة « كرور » هى « أرب » ، وكل مائة « أرب » هى « كرب » ، وكل مائه « كرب » هى « نيل » ، وكل مائة « نيل » هى « پدم » وكل مائه « پدم » هى سنـگـ . وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلا على ضخامة ثرواتهم »

« وأهـــل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم ، ولا تقوم فيما بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع . وهم ليسوا على شيء من صفاء العقل أو حميد العادات والخصال ، فلا إنسانية عنـــدهم ولا أثارة من عبقرية أو ميل للاختراع

أو مهارة فى المهن والحرف أو خبرة بالمعمار والنقش والزخرفة . »

« كذلك تراهم لا يعرفون الخيل المطهمة ، والطعام الطيب والفواكه الجيدة والماء المثلج ، وليس لديهم حمامات أو مغاسل أو مدارس . ولا يعرفون الشموع ، فيستضيئون بمسارج الزيت القذرة فتعج بيوت كبرائهم وسَراتهم بمئات منها »

« أما أبنيتهم ، ففضلا عن رداءة تصميمها وتجردها من الجمال ، فهى لا تتوائم مع بيئتها أبداً . وهم لا يمدون الماء إلى دورهم فى القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق ، فخلت قصورهم وبساتينهم من ذلك كله »

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبه عراة ، إلاّ مما يستر عوراتهم ، وهو « لنگوتى » يشدونه حول وسطهم ويعلو عند النساء حتى يستر الصدر فيُدعى « لنگى » . »

« وفيما عدا ذلك فميزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية الأطراف ، يتوفر الذهب والفضة فيها بكثرة »

« ومناخ الهندستان فى فصل الأمطار لطيف . وأما أمطارها فغزيرة جدا ، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجرى فى الأراضى

التى ليس بها للماء عيون أو مجارٍ . وتتكثف الرطوبة فى هذا الفصل فتصيب كلَّ ما تصادفه بالتلف ، سواء فى ذلك الأبنية أو الأثاث والملابس والأوراق . »

« ويتخلل فصلَ الأمطار هَبوبٌ شديد محمل بالأتربة يسمونه « آندهى » ، وتؤدى شدته فى بعض الأحيان إلى تعذر الرؤيا . »

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة . إلاّ أن حر الصيف الهندى ، حين يشتد ، لا يطاق ، ولا يقارن بغيره فى البلاد المجاورة »

« والأيدى العاملة العادية متوافرة فى كل مهنة وحرفة إلى درجة بعيدة ، وهم يتوارثون الحِرَف والمِهَن عن آبائهم ويورّثونها أبناءهم بدورهم .

وقد استخدم تيمور لنك فئة كبيرة من النحاتين الهنود فى بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند . »

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافى ، وما بها من ولايات ، فذكر ما هو منها بأيدى المسلمين وما هو بأيدى الهنادكة ، كما فصَّل خراج كل ولاية ونصيب صاحب دهلى منه .

والغالب أن الأجل لو كان قد امتـــدّ به فطالت حياته بالهندستان ، لعدّل كثيرا فيما كتب عنها ، ولم يقصر ميزاتها على أنها إقليم كبير فيـه فضة وذهب كثير (١) .

بابرنامـه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية فى الشعر والنـــثر ضمنت له شهرة الأديب المطبوع ، إلى جانب صيت الجنـــدى الموهوب (٢) .

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركى كثير، كان ينشـــده فى مناسباته ، فقـــد ترك ديوانا له بالتركية (٣) وأشعارا أخرى كثيرة فارسية وأصواتا فى الغناء والموسيقى (٤)

وتعـــدّ سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره الأدبيه على الإطلاق ، وهى كتاب النثر التركى التقليدى بحق حتى اليوم . وقد كتبها بنفسه فى لغة تركية (چغتائية) سهلة وأسلوب يدل على ذوق أدبى رفيع ، وينم عن تمكن صاحبه من أصول

---

١ — ذكر بابر نفسه فى ختام حديثه عن الهندستان أنه لا يبخل أن يثبت من جديد ما قد يسمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد .

٢ — تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ .

٣ — نشر ما عثر عليه منه دنيسون روس J. R. A. S. B. 1910

٤ — اكبر شاه ٥٢

ثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية تمكنا تاما .

لم يذكر لنا بابر فى سيرته التاريخ الذى بدأ عنده كتابته لها . على أن إشاراته فى أوراقها الأولى . إلى رجاله ، ممن كانوا معه بهندستان ، وإلى زيج كان يستخدم بالهند ، يقطع بمراجعته لها هناك ، حتى ذكر فى أوراقها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها وإهدائها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه .

وأغلب الظن أن الأجل لوكان قد امتد به لنقح فيها كثيرا وصاغ أجزاءها الأخيرة على الخصوص فى أسلوب يتمشى مع رصانة الأسلوب فى أقسامها الأولى ، فلا تبقى أشبه بيوميات تبعث الملل عند قارئها .

ومن أسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فُقد . وأكمل مخطوطاتها التى بين أيدينا والتى يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢هـ ، ١٧٠٠م (١) به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما بيانها كالآتى : —

١ — من أواخر عام ٩٠٨ هـ إلى نهاية عام ٩٠٩ هـ .

٢ — من أوائل عام ٩١٤ هـ إلى نهاية عام ٩٢٤ هـ .

(١) وهو المعروف بمخطوط حيدر آباد ، وقد نشرته السيدة أنيتا بفريدج في مجموعة جب التذكارية عام ١٩٠٥ .

٣ — من أوائل عام ٩٢٦ هـ إلى أوائل عام ٩٣٢ هـ .
٤ — من رجب عام ٩٣٤ هـ إلى آخر هذه السنة .
٥ — من المحرم عام ٩٣٦ هـ حتى وفاة الپادشاه فى جمادى الأول من عام ٩٣٧ هـ .

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية فى عهد أكبر ، حفيد بابر ، فى نهاية القرن العاشر الهجرى ، كما نقلت إلى بعض اللغات الأوربية فى العصر الحديث . ونرجو أن يتهيأ لهذه السيرة القيمة الممتعة من ينقلها بدوره إلى العربية .

إن التقارب الكبير عند الذين أرّخوا لبابر وعصره وما وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نميل إلى تصديق حديثه حين يقول بأنه لا يهدف فى كتابته إلاّ إلى الصدق ولا يجرى قلمه بغير الحق ، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدواً أو صديقا ، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه رذائله ، إنما يبغى إقرار الواقع فحسب دون ميل أو هوى [1] .

والحق أنه فى حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفى رذيلة أو ينكر فضيلة ، فصوّر النفس الإنسانية على طبيعتها بما فيها من خير وشر .

---

١ — بابرنامه ٢٠١

فهو لا يتردد مثلا عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادقه بمعسكره، وقد بلغ به الوجد يوما أنه كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه فى طريقه فجأة. ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينغمس فى هذه الرذيلة التى شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهلين بسببها [1].

وهو حين يحمل على عمه هذا، لفرط عنفه مع رعاياه، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها.

كذلك نراه لا يخفى ولعه بالشراب، حتى كان نبيذ كابل يحمل إليه بالهندستان، ويفصّل لنا ما كان يجرى فى مجالس شرابه من عبث ولهو وتطارح بالأشعار. ولم يترك هذا كله، وهو مقدم على حربه مع الراجپوتيين، إلاّ ليقبل على تعاطى المعجون فى إدمان شديد، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم.

وهو إلى ذلك يتفاخر فى سيرته بأكداس القتلى فى معاركه الكثيرة التى خاضها، فوصفها وصفاً دقيقاً حتى فصّل من ضروب

---

١ ــ بابرنامه ٢٤ أ و ٧٥

الشجاعة التي كان يظهرها كل فرد من أبطاله. ولا يكتفي بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقرا لمدينة هرات ، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من الغزنويين والغوريين وغيرهم ، مع ضآلة قواته بالنسبة لعظم جيوشهم فضلا عن كثافة جند الهند نفسها .

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزائمه في صراحة تامة، ويبين ما صادفه من محن ومتاعب شردته في الأرض وقد انصرف رجاله عنه وتنكر أقاربه له . حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه لم يَنِ عن وصل هؤلاء جميعا ، وفيهم من ركن إلى التآمر عليه من جديد برغم إحسانه إليه ، وفيهم من قتل ذوى قرباه وسمل عيونهم بل وتعرّض لأمه وآله بالمهانة والسوء . وهو حين يذكر ذلك كله تفيض عليه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يثبته تقريراً للحقيقة والواقع فحسب [١] .

ويذكر بابر في سيرته جدّه الأكبر تيمور فخـوراً بأعماله ومنشآته وآثاره ، كما يفصّل من سيرة أغلب أبنائه وأحفاده ورجالهم . حتى إذا ما بلغ بحديثه السلطان التيموري حسين بيقرا

---

١ — بابر نامه ١ ٢٠١

أفاض إفاضة عليم متمكن فى العلوم والفنون والآداب ، فذكر من كانوا يزدحم بهم بلاط هذا الأمير ، بهرات، من الفقهاء والمحدثين والشعراء والموسيقيين ، حتى البهلوانيين. عرّف بكل واحد منهم فى إسهاب . فصور للناس بصنيعه هذا صورة شاملة لمـــا كان لفروع المعرفة من ازدهار كبير بإحدى مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى فى عصره . (١)

وأدّى ببابر سعة اطلاعه ، التى تشيع فى سيرته ، إلى اقتناء مكتبة قيمة خاصة به ، كان عليها قَيِّمٌ له يدعى عبد الله كتابدار . وقد ضم إليها كذلك قسما من مكتبة غازى خان لودهى حين استولى على حصنه بالپنجاب ، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه همايون الذى كان يحرص على تنشئته تنشئة طيبة . (٢)

هذا كما كان يراسل أساطين العلماء فى عصره ويستقبل الكثير منهم ببلاطه ، وكان من بينهـــم الشاعر المشهور على شير نوائى والمؤرخان خواند أمير ، صاحب حبيب السير، وميرزا محمد حيدر دوغلات صاحب تاريخ رشيدى .

أما وصف بابر لبلاده والبلاد التى دخلها ، فحسبه أن يذكر

---

(١) بابر نامه ٨٢ — ١٧٧

(٢) المصدر السابق ٢٥٩ ب

فريقٌ من المؤرخين ، الذين زاروا هـــذه الأماكن ، أن أغلب ما أورده عن بلاد ما وراء النهر وكابل على الخصوص يصدق عموماً على حالها اليوم . (١)

وهو فى وصفه للبلدان لا يدع شيئاً عرفه أو وصل إلى علمه إلاّ وذكره ، ففى حين يعدّد لنا أسماء الرياح التى تهب على كابل، ويقرر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السُّكر بها ، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خُراسان،مثلما يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم . (٢)

وعلى هذا جرى وصفه لسمرقند . فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها ، ووصف واديها وأسواقها وتجارتها وصنائعها وما بها من منشآت ومدارس ومساجـــد ، كما تحدث عن حكامها وسكانها وماظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم .

وكذلك ساق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيقرا ، وفرغانة مسقط رأسه ، ثم الهند التى ذكرنا له قدرا من وصفها تفصيلا فيما سبق .

ولم يكن ظهير الدين بابر فى تدوينه لسيرته بدْعا بين أفراد

١ — Elliot and Dowson, India. V.Iv p 220

٢ — بابرنامه ١٢٩ ا

أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جدّه الأكبر تيمور ، كما نهج أبناؤه نهجه من بعده .

على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته بنفسه . فلم يكن ليتأتى لكُتّاب البلاط بداهة ، وهم يدونون سير سلاطينهم ، أن يذهبوا مذهبه فى صراحته التى جرى عليها وصدقه الذى التزمه فى الغالب .

إن بابرنامه قد خلّدت ذكر صاحبها فى عالم الأدب والتاريخ ، كما خلّدته حروبه وفتوحاته فى عالم الغزاة والمحاربين . وما من شك فى أن هذه السيرة لتعد من المُثل الصالحة التى يستلهمها أصحاب الطموح على الدوام .

همايون

لم يكن عرش آكرا حين اعتلاه نصير الدين محمد همايون ابن بابر فى التاسع من جمادى الأول من عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م، محوطة الأزهار والرياحين، ولم تكن سماء الهند التى تظله تنبىء عن صفو وصفاء.

فقد ترك له أبوه خزانة خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر مما استنفدته حروبه وغزواته. كما ترك له جيشا من أجناس مختلفة، من الجغتائيين والأوزبك والفرس والمغول: أثارت كثرة الغنائم التى أتخمتهم، مع اختلاف العرق: شحناء الحسد والخصومات فيما بينهم. أما الأمراء، أصحاب النفوذ بالبلاط، وكانوا مابين خوانين من المغول وميرزاوات من الترك، فقد ذهبوا بدورهم يؤثرون منافعهم الخاصة على صالح الدولة العام؛ فى حين لم يقنع أبناء بابر الآخرون وأقرباؤه بما أصابوا من ملك حتى ثاروا على أميرهم الجديد فجرّوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيرا من المتاعب والمحن.

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد

من مشكلات : فقد كان الهنادكة بدورهم ، وهم غالبية السكان ، يرون فى الحكام المسلمين عموما مغتصبين لبلادهم وغزاة دخلاء عليهم . كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان مازالوا بأطراف البلاد يتربصون بغزاة الهند الجدد فى انتظار الفرص المواتية ليثبوا عليهم ويخرجوهم من أرضهم .

وأقوى مراكز هؤلاء الأمراء الأفغان كانت بالأقاليم الشرقية؛ وأبرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات بنى جلدته من جديد ببهار ، وكان بابر قد هزمـــه من قبل فيمن هزم من عصبة رانا سنكا بالراجپوتانا ، ثم شـــير خان سورى ذلك الداهية المجرب الذى سنراه فيما بعد ينزل بالدولة ضربات قاصمـــة .

وكانت البنغال ما تزال بعيدة عن متناول أيدى سلاطين دهلى ؛ وكان يلوذ بها أعداؤهم بالمناطق الشرقية فى الغـالب . وكذلك كان شأن الگجرات التى طفق أصحابها ، وهم سدنة باب التجارة الهندية الأكبر ، يبذلون من فيض بلادهم الغنية لتقوية جيشهم ويستمدون الأسلحة الحـــديثة من البرتغاليين الذين كان لهم بمناطقهم منازل أشرنا إليها من قبل ، حتى باتوا يتطلعون إلى عرش الهند ، ولم يبخلوا عن مـــد يد العون لأولئك الذين

يناهضون الدولة المغولية الجديدة .

ولئن كانت المـــدة القصيرة التى استقر فيها بابر بآگرا لم تيسر له القضاء التام على الخـارجين على سلطانه وتدعيم أسس دولته الهندية الجديدة ، فإن همايون ، وهو الذى تمرّس بأعباء الحكم حين أُتى اليه بمقاليد بدخشـــان وشارك فى بعض وقائع أبيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسية التى اشتهر بهـــا الأمراء التيموريون (١) . كان كفيلا بترسم خُـطا أبيه وإتمام ما بدأه من عمل ، لولا تراخيه فى كسب وُدّ رجال بابر وخلصائه ، ثم فتور همته وخور عزيمته ، فتراه لا يكاد يمضى فى الإجهاز على أحـــد خصومه والقضاء عليه حتى ينصرف عنه فجأه إلى عدو آخر غيره . وهو حتى حين يبلغ غايته فى القضاء على واحد من أعدائه ، كان يستخفه الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع إلى نصح القـــادة المجربين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر إلى نصر .

بهذا أتيحت لأعدائه فُرَص متكررة لجمع صفوفهم وضم

---

١ — Lane - Poole p 218

تابعهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجه من الهند كلها والقضاء على ما بذله أبوه من جهود .

عمل همايون بوصية أبيه ، فولى أخاه كامران إقليمى كابل وقندهار ، كما أقطع أخاه عسكرى ولاية سنبهل ، فى حين أعطى أخاه هندال ألوار وموات[1] . أما إقليم بدخشان فقد جعل عليه ابن عمه سليمان ميرزا .

على أن كامران لم يقنع بأرضه ، فاستخلف أخاه عسكرى عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون . ولم يثنه عن غايته ماعرضه عليه أخوه السلطان من ضم لمغان وبشاور إلى حوزته ، حتى انقض على لاهور واعترف له همايون بسيادته على البنجاب كله .

وأدت سيادة كامران على البنجاب إلى قطع كل صلة بين دهلى وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندكوش ، وهى التى كانت تمد حكام الهند المسلمين دواما بإمدادت لاتنفد من أشداء المقاتلين .

وتدبر همايون موقفه بين أعدائه من بعد ذلك ، فرأى أن يبدأ بثوار الأفغان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم

---

١ — طبقات أكبرى ١٨٩

بهار . حتى إذا بلغ الكهناوتى اكتفى بضرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها ، وقد كان ذلك فى متناول يده .
وسلك شبه هـــذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن چنار إذ قنع منه بالولاء الإسمى ، مؤثرا أن ينصرف عنه إلى حرب الگجرات ، دون أن يُلْقى بالا إلى خطورة هـــذا الثائر .

غزو الگجرات : وكان بهادر خان ، أحـــد سلاطين الگجرات الكبار ، قد أخضع اسلطانه أصحاب أحمد نگر وبرار وگواليار ، ووثق علاقاته بالبرتغـــاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطىء بلاده ذات المركز التجارى الممتاز ، هذا كما اقتحم إقليم مالوه مع رانا موار بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلجى لأخيه جندخان وكان ينافسه العرش ، فصار بذلك يتاخم سلطنة دهلى فى مواضع كثيرة ، وغدت آگرا نفسها غير بعيدة .

وأدى ازدياد نفوذ هـــذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق من الخارجين على صاحب آگرا الجديد ، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر سلاطين اللودهيين ، وزمرة من رجال بابر السابقين الذين زينوا له التطلع إلى عرش الهنـــد والسعى

بتخلاصه لنفسه [1]

وحين كتب همايون إليه يسأله إخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه، لم يكن من الحرب بينهما بعد ذاك مناص .

هنالك بادر صاحب آگرا بالارتداد سريعا من المناطق الشرقية ، ولمّا يَجْنِ بعدُ ثمارَ انتصاراته هناك ، حتى إذا ما بلغ مالوه فوجد بهادر خان منهمكا فى حربه مع صاحب چتور ، أبت عليه شهامته إلاّ أن يمهل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشتباكاته مع الأمير الراجپوتى (٢) .

وبرغم ما كان عند بهادر خان صاحب الگجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون ، فقد أرغمته قوات همايون على الامتناع فى حصونه ليتسلل من بعد ذلك منها فى نفر قليل من رجاله حين أيقن بانهيار مقاومة قواته لطول الحصار وعنف المجاعة التى بدأ شبحها يخيم عليهم .

وطفق البادشاه يطارد خصمه بنفسه فتبعه إلى ماندو، ثم چمپنير فأحمد آباد حتى بلغ كمباى فوجده قد لاذ بجزيرة ديو

---

١ — منتخب التواريخ أول ٣٤٦

٢ — طبقات أكبرى ١٩١

إحدى حصون البرتغاليين حتى اليوم .

وما غدا بهادر خان أن تم له ، بعونٍ من البرتغاليين ، جمع قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه . ويسّر له بلوغ هدفه ما كان من فشل ميرزا عسكرى نائب همايون هناك فى تصريف شئون حكومته وانغماسه فى الدس والتآمر ، وانصراف أغلب رجاله إلى حياة الترف التى كفلها لهم ما وقع بأيديهم من غنائم هذا الإقليم ذى الثراء الطائل .

على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الاستمتاع بثمار انتصاراته هذه ، إذ سقط فى البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين ، وهو فى طريقه للتفاوض معهم ، برغم شدة حذره وفرط تحوّطه .

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا مالوه بدورها إلى حظيرتهم ، وذلك حين خرج همايون من جديد للقضاء على القلاقل الشرقية التى طفقت تهدد ملكه تهديداً خطيرا .

البنغال وبهار : كان شيرخان سورى ، وهو من أقدر الزعماء الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلما ، قد استخلص لنفسه إقليم بهار . وتوغل بقواته فى البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر (١)

١ ــ طبقات أكبرى ٢٠٠

وما إن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غوْر حتى ارتد هـــذا الثائر الأفغـانى إلى إقليم بهار فطفق ورجاله ينهبون كافة الأراضى التى تمتد بين بهار وقنوج وجوْنبور .

وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دان له فى الغالب بالأقاليم الشرقية ، ولم يـكن يدرك ، وهو يطيل فترة استجمامه هناك ، أن عدوّه إنما تركه يوغل فيها ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تاما بالتالى . حتى إذا ما تنبه إلى هذا التدبير ، بعد فوات الوقت ، فاستدار إلى حصمه والأمطار المْوسمية على أشدّها ، استطاع شيرخان بدهائه ومناوراته المحْكمة أن ينزل بقوات دهلى ضربة حاسمة أتت عليها جميعا .

فقد جاءت الأنباء إلى همايون ، وهو بالبنغال ، بخروج أخيه هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دُعى له بمساجد العاصمة . فبادر فزعا بالارتداد إلى آ گرا فى طريق طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى هلك منهم خلق كثير .

هنالك عمد شيرخان إلى خداع السلطان ، وقد علم بتمرد إخوته عليه ، فأوفد إليه من يؤكد له طاعته وولاءه له حتى

إذا ما اطمئن همايون إلى تلك العهود فعرض على عدوه إمارتى البنغال وبهار ثمنا لخضوعه له ، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط فى الفجر على معسكره بأرض چوسا ويحيط برجاله . فمنهم من لفظ أنفـــاسه وهو يغط فى نومه ؛ ومنهم من لقى حتفه فى اليم غرقا . ومنهم من وقع فى الأسر . وبرغم ما بذله السلطان همايون نفسه من جهد وما أظهر من جلد فى القتال شديد فقد كاد هو نفسه يبتلعه المـاء لولا سقّاء يدعى نظام أبصر به فحمله على زقّه .(١) »

واتخذ هذا الثائر الافغانى لنفسه ، على أثر انتصاره فى معركة چوسا هذه ، لقب شاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى الخطبة بالدعاء له .(٢) وأردف ما أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب الگجرات ومالوه على محاربة همايون .

تدبر همايون موقفه فاستبان له أنه لن يكون له قِبل بالقضاء على خصمه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله مخلصين . وهما أمران لم تحالفه الظروف على تحقيقهما .

---

١ ـ تذكرة الواقعات أو همايوننامه جوهر ص ١٤٣ ـ وقد وقعت زوجة همايون أسيرة بأيدى شيرشاه فى هذه الحرب .

٢ ـ رياض السلاطين ١٤٧ وما بعدها

فمن ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من آكرا إلى لاهور ، فعزم على ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه ، أصابه مرض مفاجىء ، ليلقى أحدُ رجاله ، عند ذاك ، فى روعه باحتمال دس أخيه السمَّ له ، فيعدل عن وعده ، فلا يسير بأغلب جنده فحسب ، حتى طفق يحرّض فريقا من جند دهلى نفسها بالذهاب معه.

ولم يكن شيرشاه ليعلم ذلك كله ، من أحوال غريمه ، فلا يفيد من هذه الفرصة التى سنحتْ له ليقضى عليه . فعبر الـگنج فى خمسين ألف من الجند لاقى بهم مائة ألف من جند همايون عند قنوج . وادّى تراخى جند السلطان فى القتال ، حين رأوا كثيرا من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم من الميدان مع بدء الأمطار ، إلى انتصار جموع الأفغان انتصارا ساحقا كان من أثره أن أُخرج همايون من الهندستان كلها ؛ وبهذا ذهبت كل الجهود التى بذلها أبوه بابر فى فتوحاته أدراج الرياح .

وكاد همايون أن يلقى حتفه فى هذه الوقعة غرقا كذلك ، لولا أن بصر به قائده شمسُ الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر من بعد ، فانقذه (١) ليعود إلى الهند من جديد بعد خمسة عشر عاما

---

(١) منتخب التواريخ أول ٣٥٥ .

قضاها فى المنـــفى .

شيرشاه

هـــذا الزعيم الأفغانى ، الذى استطاع بشدة مراســه وقوة عزيمته أن يخرج الأمراء التيموريين من الهنـــد ، والذى ينتسب إلى بيت سور الغورى ، كان جده إبراهيم قد قدم الهندستان فى عهد السلطان بهلول اللودهى فنال الحظوة عنده حتى ولى ابنه حسن إقليم سهسرام .

وكان أن أهمل حسن هذا شأن ابنه الأكبر فريد بتحريض من صُغْرى زوجاته ، لينفر الولد من بعد ذلك إلى جونپور منتدى الصفوة من رجال المعرفـــة بالهندستان إذ ذاك ، ثم يتركها إلى آگرا فيصادف قبولا وترحيبا ببلاط السلطان إبراهيم اللودهى الذى وهبه إقطاع أبيه عقب وفاته .

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهـــار فالتحق بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لوحانى . وفيما كان الأمـــير فى المصطاد إذ وثب عليه نمر فاتك كاد يقضى عليه لولا شجاعة فريد الذى بادر بالقضاء عليه بسيفه ليشتهر من بعد ذلك باسم شيرشاه (١)

١ — منتخب التواريخ أول ٣٥٨

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب بابر على جونپور ، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر ببلاط بابر فاتح الهندستان الجديد وينال الحظوة عنده .

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهى باقليم بهار ، سار معه شير شاه ، ولكنه مالبث أن انضم إلى عصبة الثائرين التى كان يتزعمها السلطان محمود لودهى . حتى إذا ما هُزم هـــذا الأخير بإقليم خريد ، على ما ذكرنا من قبل ، أقبـــل ذلك القائد السورى يستتيب بابر من جديد فعفا عنه ، ليسقط على بهار من جديد عقب وفاته ويستخلصها لنفسه ، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرجه من الهند كلهـا .

ورأى شير شاه ، بعـــد أن جلس على عرش آكرا ، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء عـلى الأمراء البـابريين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير . فلم يبلغ الپنجاب حتى اضطرته ثوره حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهلى بعد أن عهد إلى خمسين الف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية منفذ الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم .

وأتيح لسلطان الهندستان الجديد هـذا أن يثبت نفوذه فى فى البنغال ويخضع السند والملتان وما لوه له ، كما أنزل ضربات

شديدة كذلك بالأمراء الهنادكة وبالراجپوتانا برغم استماتتهم فى القتال ورغم الخسائر التى لحقت بالجند الأفغان . وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجپوتيين ، لكنه أصيب فى معمعان المعركة بشظية من قذيفة ، لم يكتب له النجاة من أثرها ، فقضى بعد قليل فى عام ٩٥٢ هـ/ ١٥٤٥ م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة [١] . ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشر سنوات استطاع همايون من بعدها أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذى آواه فى محنته .

هذا ويعد شير شاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرفتهم الهند . فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداة الحكم ، ونهض باقتصاديات البلاد وتعمير الأرض ، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعاتها على اختلاف أنواعها . وقسم أراضى الدولة إلى سبع وأربعين ولاية تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها عمالا له ألزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف .

كما اهتم بأمر الجيش اهتماما بالغا مسترشدا بما سبقه إليه

---

١ — منتخب التواريخ أول ٣٧٢ — ٧٣

علاء الدين الخلجي من نظم في ذلك. فجعل تحت إمرته المباشرة جيشاً قوياً قوامه مائتي الف من الجند التزم بدفع نفقاتهم من بيت المال. وكان العرف يجري من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم في الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبة من الغنائم والمتاع. وبهذا أراح الناس في الغالب من تعسف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون.

ونشر شير شاه جنده في كافة أنحاء البلاد، وعهد إليهم بحراسة الحقول والمحافظة على أرواح الناس ومتاعهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم في بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد.

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه، وتحسين الطرق حتى أنشأ منها مايزيد طوله على الألفين من الأميال المعبدة، وأقام على جانبيها الأشجار ذات الظلال، وأنشأ بها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب، وأباحها للمسلمين والهنادكة على السواء.

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من حولها، مما ساعد على رواج أحوال أواسط

التجار وعامتهم[1].

ولم تكن عناية هـــذا الأمير السورى (٢) بالعلم والعلماء بأقل من عنايته بتعمير بلاده والنهوض بحكومتها. فقد أنشأ كثيرا من المدارس والمساجد،ورتب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء، وحرضهم تحريضا شديداعلى طلب العلم والاستزادةمنه.

كما فتح كثيرا من المطاعم فى أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالمجان للفقراء والمعدمين من أهل البلاد جميعا، مسلمين وهنادكة، فساهم بذلك، فى الغالب، فى تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التى كانت تجتاح بعض مناطق الهند من حين إلى حين.

وبلغ من برّه برعاياه والتزامه إقامة العدل فى ربوع دولته، أنه كان لا يتردد فى إنزال أشد العقاب بمن تحدثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهلين أو السطو على حاصلاتهم وأملاكهم، فلا تشفع له عنده مكانة المعتدى أو حسبه ونسبه (٣).

همايون فى منفاه: طفق همايون، بعد أن دحره شيرشاه، يطوف بالسند فى حالة شديدة من البؤس والشقاء، وإخوته

١ — Prasad Muslim. Rule pp 301,2

٢ — نسبة إلى آل سور

٣ — Lane-Poole 233-36.

ما يزالون يكيدون له ، وأغاب رجاله قد تخلوا عنه . بل إن صديقه القديم ملْ ديو ، صاحب جُند هپور ، حاول وفريقٌ من أمراء الهنادكة أن يوقعوه فى أسرهم ، حين دعوه للنزول عندهم ، على اتفـــاق سابق فيما بينهم وبين شيرشاه .

وبنى همايون فى تجواله هذا بحميدة بانو ابنة الشيخ على أكبر جامى فرُزق منها بابنه أكبر (١) .

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذى لم يكن يعدو العام الأول من عمره إذ ذاك ، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذى وفد إليه من الكجرات فلازمه مخلصا طول محنته .

وبلغ همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب ، شاه الفرس ، بهـا فى ترحيب وتوقـــير . وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل الفارسى حين بلغ العاهل التيمورى مقر حكمه بهرات . وظل نواب طهماسب يبالغون فى الحفاوة بسلطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقـــام سيِّدهم بنواحى قزوين .

وكان أن أفاض همايون فى بيـان ما لقيه من محن المِّت

---

١ — طبقات أكبرى ٢٠٧

به بسبب تنكر إخوته له ، حتى خشى بهرام أخو طهماسب أن أن تذهب الظنـــون بالشاه بدوره إلى القضاء على إخوته . هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسى قتل صفيه التيمورى ، بحجة الانتقام منه لتقاعس أبيه بابر عن نصرة جند فارس فى قتالهم الأوزبگ عنـــد نخشب أيام إسماعيل الصفوى ، لولا أخت لطهماسب ، تدعى سلـــطانة خانيم ، استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التدبير كله(١) .

وأُكره همايون على التظاهر بالتشيع جلبا لمعونة الشاه الفارسى الذى أمدّه بأربعة عشر ألفا من الجند ليغزو بهم بخارى وكابل وقندهار ، على أن يصبح إقليم قندهار بعد فتحه من أملاك الدولة الفارسية .

واقتحم همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران ، فزاد فتحه لقنـــدهار كثيرا فى عزيمته ، وبُعثت بذلك الآمال العريضة فى نفسه من جديد .

وصدق همايون ما عاهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة إلى ابنه مراد خان . على أنه حين طلب أن يأويه وجنـــده القليل إبان الشتاء فرفض ، دفعته قسوة البرد ورجاله إلى

١ ـــ منتخب التواريخ أول ٤٤٤

اقتحامه المدينة على صاحبها عنوة على أن يردّها له ثانية إذا ما تم لهم دخول بدخشان وكابل . وما غدا الأمير الفارسى أن وافته منيته بعد قليل ، فبقيت المدينة بيد همايون .

وطفق جند كثير من قوات كامران تفد إلى همايون فى مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم ، فدخل بهم كابل حيث التقى بابنه أكبر ، وقد بلغ الخامسة من عمره ، وكان قد تركه دون الفطام بقندهار كما ذكرنا من قبل .

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه . حتى إذا ما اضطره ما قوبل به من جفاء عنده للنزوح إلى السند فاستقر بمنازل الجكر ، بادر زعيمهم بتسليمه إلى أخيه . ومنع همايون من التنكيل بكامران ما وصاه به أبوه بابر ، من قبل ، من الرفق بإخوته ، فسمح له بالسير إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها ، بعد أن سملت عيناه .

وما لبث عسكرى أن سار فى أثر كامران إلى الحجاز كذلك بعد أن وقع بدوره فى الأسر ، لكن الأجل وافاه ، فى طريقه ، بأرض الشام . أما هندال ، فكان قد لقى حتفه بأرض كابل حين

كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران(١) .

وهكذا نفض همايون يده من إخوته جميعا الذين أدوا ، بتخليهم عن نصرته ومداومتهم على الكيد له ، إلى أخراجه من الهند وضياع كافة الجهود المضنية التى بذلها أبوهم من قبل فى فتح هذه البلاد أدراج الرياح .

وحين أطل على سهول الهندستان من جديد ، آثر أن يتريث قليلا فلا ينحدر إليها قبل أن يطلع اطلاعا صحيحا على ما صارت إليه أحوالها .

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهلى تضطرب أمورها اضطرابا شديداً عقب وفاة شيرشاه . ذلك أن ابنه جلال الذى خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهل حكمه يسلك طريق العنف مع الأمراء الأفغان ، فقتل فريقا منهم وألقى بفريق آخر فى الحبس، وبث عيونه وجواسيسه فى طول البلاد وعرضها لينبئونه بكل ما يحدث فيها ، فيتخذ من إنبائهم دون تحرّ أو روية وتدقيق ، وسيلة للعسف بالقوم والتنكيل بهم .

وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهى مع رجاله من

١ ــ طبقات أكبر ٢ : ٢٣

جديد . حتى إذا ماثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغال، لما بلغه من إيفاده بالقائد القدير شجاعت خان نائب أبيه على مالوه ، فغُلب البنغالى على أمره . خرج السلطان من نصره هذا ليمعن فى ارتكاب المظالم ، حتى صار يتصرف فى أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب السنن الحسنة التى جرى عليها أبوه من قبل .

وخلفه ابنه الصبى فيروزشاه فوثب عليه خاله مبارز خان ، ولما يمض إلاّ أياماً قليلة على العرش ، ليقتله ويضطلع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (عدلى) .

واستوزر هذا السلطان هندوكيا عالى الهمة يُدعى هيمو (هيمون) . لكن كفاءة هـــذا الوزير لم تستطع أن تُحدّ من ثورات الأمراء الأفغان التى أخذت تجتاح البلاد فى عنف بالغ ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على دهلى وآگرا ليطرده منها بعد قليل سكندر شاه سور ويضع يده على الأقليم الواقع بين السند والگنج كلّه .

وما غدا هيمو أن استرد آگرا لسيّده ، فصارت الهندستان تلك نهبا لسلاطين ثلاثة . فهذا عادل شاه يحكم آگرا ومالوه وجونپور ، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلى والپنجاب ، فى حين كان إبراهيم شاه يسيطر على رقعة من الأرض تمتد من

بيانه إلى حدود گواليار[١].

عودة همايون : رأى همايون فى هذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلاده ، فاقتحم لاهور فى ربيع الأول من عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م دون مقاومة تذكر . ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاه سورى عند سرهند هزيمة حاسمة[٢] ويدخل دهلى بعد أن اتخذ أميرُها سبيله إلى جبال البنجاب فرارا .

ويرد الفضل فى انتصارات همايون هذه كلّها إلى قائده بيرم خان التركمانى الذى أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه فى محنته ، وقد كافأه أميره على وفائه هذا بأن ولاّه البنجاب مع ابنه أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى .

ولم يطل الأجل بهمايون ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق ، فقد انزلقت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهلى ، وكان من المرمر الخالص ، فقضى بعد قليل فى ربيع الأول من عام ٩٦٣ هـ ١٥٥٦ م ، وهو فى الحادية والخمسين من عمره ، ولما يمض بالهند ،

. . .

١ — تاريخ سلاطين أفغانى ٥٤

٢ — طبقات أكبرى ٢٣٨ — وفى هذه الوقعة التى بلغت فيها قوات اسكندر سورى أربعة أمثال قوات همايون . شارك أكبر أباه الحرب الأول مرة .

وقد آب إليها بعد غياب طويل ، سوى شهور ستة .

لم يكن همايون دون أسلافه التيموريين فى الشجاعة والجرأة ، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه فى التجمل بالصبر واحتمال الشدائد ، فلم يفارقه جَلَدُه وثباته طيلة محنة المنفى، التى بلغت خمسة عشر عاما ، لولا ما كان يداخله من الغرور وينقصه من مضاء العزم الذى قعد به فى الغالب عن المضى فى مطاردة أعدائه والإجهاز عليهم ، فكان يقنع بأول ضربة ينزلها بهم ولا يزيد .

كذلك عُرف عن همايون شغفه ، كأبيه وأجداده ، بالفنون والعلوم والآداب . وقد ترك ، فيما ترك ، مكتبة عامرة بالمؤلفات القيمة لايزال بناؤها قائما بدهلى حتى اليوم . ولولا المنية التى عاجلته لأتمّ بناء المرصد الذى كان قد شرع فى إقامته هناك .

ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تعاطى المعجون (الأفيون) الذى بكّر بنهاية الأب وهدّ من كيان الإبن .

أَكْبَرْ

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو فى كلانُور بالپنجاب يطارد الثائر سكندر سورى ، فبادر مرافقه القائد الشيخ بيرم خان إلى المناداة به سلطانا على الهند، باسم جلال الدين محمد أكبر (١) ، ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة من عمره .

ويُقسّم المؤرخون مدة حكم أكبر التى امتدت من عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م حتى عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م إلى فترات ثلاث : فالفترة الأولى هى التى كان زمام الحكم الفعلى فيها بأيدى الوزير الشيعى المجرّب بيرم خان الذى كان خير معين لهمايون فى منفاه . وأما الفتره الثانية فهى التى حاول فيها بعض نساء القصر إملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن ، بالدس والوقيعة والخداع ، فى إبعاد بيرم خان من منصبه بسبب تشيعه وتقويض ما كان له من نفوذ بالغ . وكانت الفترة الثالثة ، وهى التى انفرد فيها أكبر بالأمر كلّه ، أطول هـــذه الفترات

---

١ — كان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من ربيـــع الأول عام ٩٦٣ هـ / مارس ١٥٥٦ م. منتخب التواريخ ثان ص ٨

جميعا إذ امتــــدت من عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م حتى وفاته عام ١٠١٢ هـ / ١٦٠٥ م .

وتعـد هـذه الفـترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند التاريخية . ومن أجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم ، السلطان أكبر أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك (آزوكا) حامى البوذية فى القديم ، كما سلكه المحدثون من كتّاب التاريخ فى مصاف أعاظم الملوك الذين عرفهم العالم فى عصره طرّا . (١)

وكما يقسّم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث كذلك يسلكون غزواته وفتوحاته فى أدوار ثلاثة :

الدور الأول ، ويبـــدأ من عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م حتى عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٦ م .

وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها .

الدور الثانى ، ويبـــدأ من عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م حتى عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م .

وفيه تم له تأمين حدوده الشمالية الغربية ومناطقها التى تعد أخطر أبواب الهند ، فهى منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهول السند والگنج منذ القدم .

---

(١) Prasad, Muslim Rnle pp 831,88

الدور الثالث ، ويبـــدأ من عام ١٠٠٦ هـ / ١٥٥٨م حتى عام ١٠٠٩هـ/١٦٠١م وهو الذى طفق أكبر يتوغل إبّانه بالدكن حتى تم له ضم أغلب مناطقه الملكه .

والواقع أن الهندستان ، حين جلس أكبر على عرشها ، كانت تفيض بالاضطرابات . فأمراء أسرة سورى ، خلفاء سيرشاه ، كان منهم سكندر شاه بالپنجاب يتحفز للأنقضاض على دهلى وآگرا واسترداد الأراضى التى أخرجه همايون منها ، فى حين استقر محمد عادل شاه سورى فى چنار بعد أن أخرجه ابراهيم خان سورى من دهلى ، وبعث بقائده الهندوكى هيمون على رأس قوات كثيفة وقف بها غير بعيد من العاصمة فى ارتقاب الفرصة المواتية لاستردادها من جديد ، هـــذا كما كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله فى البنغال .

ولم تكن أسرة سور هذه هى وحـــدها التى تهدد سلطان أكبر بالهند ، فإن ميرزا حكيم ، أخا أكبر ، كان قد أعلن استقلاله بكابل ، أرض الرجعة لسلاطين المسلمين بالهنـــد وطريق الإمدادات إليهم التى كانت تمدهم بحارنى بلاد ماوراء النهر الأشداء ، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصره إلى أرض الهنـــد نفسها

وبتيام إلى الجلوس على عرشها .

وكانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت عن سلطان دهلى بدورها لسنين خلت ، فى حين راح الأمراء الرجپوتيون ، فى موار وحسالمير وبوندى وجُدْهبور ، يغتمون ما أتاحه لهم اضطراب الأحوال من فُرص لاستعادة الكثير من سلطانهم القديم ونفوذهم ، واستردت مالوه والكجرات استقلالهما الضائع وثبّت أمراء الدكن المسلمون أقدامهم فى بلادهم من جديد ، فى خاندش ، وبرار وبيدر وأحمد نكر وبيجاپور وغولكونده .

ومن وراء أولئك وهؤلاء جميعاً كان الأمراء الهنادكة ، أصحاب إمارة ڤيايانكر فى الجنوب ، يجهدون فى المحافظة على استقلالهم من إعتداءات جيرانهم أمراء الدكن المسلمين .

وكان البرتغاليون بدورهم يقيمون فى حصونهم القوية فى جُوا وديوا على شاطىء الهند الغربى بعد أن خاضوا غمار معارك بحرية عنيفة ضد سلاطين الكجرات المسلمين وأعوانهم من سلاطين المماليك المصريين والعثمانين .

ونتج عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم سلطانهم فى مناطق الخليج العربى وبحر العرب والمحيط الهندى

وعند منافذ البحر الأحمر حتى اقتربوا من شواطئ الحجاز وراحوا يهددون طرق التجارة الهندية والحج الإسلامى إلى البيت الحرام (١).

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتهم على أن يعملوا أولا على التخلص من آل سور ، خلفاء شير شاه ، الذين كانوا يجهدون لاسترداد عرش الهند . وفيما كان جند الدولة يجد فى فى مطاردة سكندر شاه سور بالپنجاب هاجم هيمون قائد محمد عادل شاه سور مدينة آگرا فى خمسين ألف من الخيل وخمسمائة من الفيول .

وكان هذا القائد الهندوكى ، الذى يشتهر فى كتب التاريخ باسم البقال (٢) ،قدتم له من قبل دحر إبراهيم شاه سور ، بالقرب من دهلى ، وكاد يقتحم عليه معقله فى بيانه لولا ما كان من زحف سكندر خان صاحب البنغال على أملاك عادل شاه فى جونپور

---

١ — انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢١١ ، ٢١٢ .

٢ — كان هيمون فى أول أمره بقالا بمدينة روارى باقليم موات ثم عهد إليه بمراقبة الأسواق حتى صار مديرا لإمدادت الجيش ، غير أن لقب بقال لصق به طول حياته . ومازال يرتقى حتى بلغ مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيرا) للسلطان محمد عادل شاه الذى كان يشتهر بين العامة باسم عدلى (طبقات أكبرى ص ٢٤١)

وكالبى . وما إن تم لهيمون دفعُ قوات البنغال عن أراضى أميره حتى اقتحم حصن آگرا وأرغم سكندر أوزبگ قائد أكبر هناك على الارتداد إلى دهلى.

هنالك بادر أكبر من فوره بتسيير قائده عليقلى خان زمان إلى دهلى لمؤازرة تردى بيگخان ورجاله فى الدفاع عن هذه المدينة وصد جحافل هيمون عنها ، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة إلا بعد فوات الفرصة .

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل لهم أول الأمر ، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية فى القلب أن يدحر القائد المغــــولى تردى خان حتى بادر بالانسحاب من الميدان دون أن يفطن إلى عدول خصمه عن مطاردته ، فقد فتَّ فى عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهــة ، وعظم قــوة عدوه من جهة أخرى .

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هـذا النصر لقب بكرماديت (ڤكرماديت)(١) الهندوكى القديم ليعلن بذلك عزمــــه على

---

١ — وهو من الأبطال الذين يمجدهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء . وكان قد أخرج السيث والسكا من الهند ووحدها تحت حكمه (الجزء الأول ص ٣٢ ، ٣٣)

إحياء أمجاد أمته القديمة ومناهضته للاسلام والمسلمين . فلم يكتف بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات .

وبرغم عنف المجاعة التى كانت ما تزال تجثم على دهلى وآكرا وبيانه وماحولها حتى طعم الناس الجِيَفَ وهلك خلق كثير ، فإن هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان پانى پت ، وهو الميدان الذى انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة على حشود الهند الكثيفة لثلاثين عام خلت .

وهال رجالَ أكبر كثرةُ قوات هيمون ، التى كانت تبلغ مائة ألف من الجند وخمسمائة من الفيول ، بالقياس إلى ضآلة قواتهم التى لم تكن تعدو عشرين ألفا مابين فرسان ومشاة ، حتى أشار أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل . لولا إصرار السلطان ووزيره بيرم خان على القتال .

هنالك عهد أكبر إلى صهره خضر خان بمواصلة قتال سكندر سور . ثم خرج هو على رأس قواته للقاء الأمير الهندى وعصبته .

استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جَنَاحَىْ جيش أكبر، برغم سقوط مدفعيته بأيدى عدوه ، غير أن سهما أصابه فألقى به من فوق فيله الذى كان يُدعى « الهوا » لخفة حركته البالغة .

وحين طلب إلى فيّاله أن يسير به وبدابته إلى خارج الميدان توهم
سخطه وقوع الهزيمة بهم ، فانفرط عقدهم لساعتهم وتفرق شملهم
ووقع هيمون نفسه فى الأسر . وفى هذه الوقعه لقى كثير من
الأمراء الأفغان حتوفهم .

وأبت على أكبر شهامته أن يستجيب لوزيره بيرم خان ، حين
أشار عليه بقتل أسيره ، محتجا بأنه ليس من المروءة التنكيل
بأعزل جريح [1] ، غير أن الوزير وثب على هيمون وقتله، ثم بعث
برأسه إلى كابل وبجثته إلى دهلى ليرى العصاة فى مصير صاحبها عبرة
لهم وعظة .

ودخل السلطان المنتصر دهلى من جديد ، فاستقبله الأهلون
على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة . وما غدا أن أقبل عليه
پير محمد شروانى ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه فى مِوات
من نفائس ، وفى ركابه خاصة أتباعه وأهل بيته .

وفتت هزيمة ذلك القائد الهندوكى الكبير ومقتله فى عضد
أمراء أسرة سور ، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديدا ، فما
إن خرج أكبر إلى لاهور فبالغ جالندهر حتى رجع سكندر سور
من تلال سيوالِك إلى حصن ما نكُت فاعتصم فيه . حتى إذا

---

١ — منتخب التواريخ بداون ثان ص ١٥ ، ١٦

ما قدم أكبر ومدفعيته فشدد الحصار عليه ، لم يجد بُداً من طلب الصلح، مع التعهد بالولاء التام للسلطان، على أن يُسمح له بالمسير إلى البنغال فى أمان .

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولاّه بهار وخريد فى الشرق ؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين .

أما عادل شاه سور فقد اقتحم عليه مقرّه فى چنار ، خضر خان وإخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاما منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالى بظاهر آكرا .

وحاول شير شاه الثانى بن عادل شاه هذا أن يستحوز على جونپور بعد مقتل أبيه، لكن خانزمان قائدَ أكبر تصدى له ودحره وضم كل أراضيه إلى أملاك الدولة .

أما إبراهيم شاه سور فقد زينت له بعض القبائل الأفغانية الإستيلاء على ولاية مالوه . حتى إذا أخفق فى هذا الأمر انطلق إلى ولاية أوريسة فى إقليم البنغال فبقى بها حتى عام ٩٧٥ هـ/ ١٥٦٨ م حيث لقى مصرعه على أيدى القائد المغولى سليمان كِرانى . (١)

وعَرف الپادشاه لوزيره بيرم خان همته وحزمه فى القضاء على آل سور خلفاء شيرشاه، على الخصوص، فأنعم عليه بلقب خان

---

١ — طبقات أكبرى ص ٢٤٥

خانان (أمير الأمراء) وجعله وكيلا للسلطنة وزوّجه بابنة أختــــه .

والحقُّ أن هذا الوزير المجرّب بذل جهدا صادقا فى تصريف شئون الدولة على أحسن وجه ، كما نظم الإدارة ، وبعث بالجُند ففتحت گواليار وآجمير واقتحمت جونپور وأمّنت الحدود الشمالية الغربية ، فأمكن بذلك لسلطنة دهلى أن تستعيد أغلب الأراضى التى كانت لها أيام بابر . وعمل كذلك ، وهو فى غمرة مشاغله الكثيرة ، على تثقيف السلطان الشاب ، وحضّه دواما على طلب العــــلم والتزود بالمعرفة .

غير أن هذا الوزير الشيعى طفق يحابى أبناء مذهبه ويخصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة ويُمعن فى اضطهاد السُّنِّيين جملة، أصحاب الغالبية بين مسلمى الهند ، مستغلا فى ذلك حادث اندحار القائد السُّنى تردى بكخان أمام القائد الهندوكى هيمون فى معركة دهلى ، حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه . (١)

واستغلّ نساء القصر ، وعلى رأسهن حميدة بانو بيگم

---

١ — ليس هناك ما يؤيد ماذهب إليه بداونى ، منتخب التواريخ ثان ص ١٤ ، من حصول بيرم خان على أمر صريح بقتل تردى بك بسبب هزيمته . وقد أثارت فعلة بيرم خان هذه نفوس رجال البلاط Muslim Rule. 316

أمّ السلطان وماهم أنكه مرضعته ، ما كان من تضييق الوزير على السلطان فى النفقات وما أشيع من ميله سرّا إلى أبى القاسم ابن كامران [١] ، الذى كان يطمع فى الجلوس على عرش الهند ، فراحوا يحرّضون أكبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه .

وأحسّ بيرم خان بدوره بنفور أكبر منه فعقد النيّة على الابتعاد عن البلاط بالسير إلى البيت الحرام . حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجندَ فى أثره ، مخافة أن يستحوذ على البنجاب ، على مادس الدساسون ، استبد به الغضب فأعان عزمه على مناهضة قوات الدولة ، غير أنه وقع فى الأسر . وقد عفى عنه أكبر على كل حال وذلك لسابق أياديه وعظيم خدماته ، وسمح له بالانطلاق إلى الحج .

وفيما كان بيرم خان يجتاز الكجرات عام ٩٦٨ هـ ، فى طريقه إلى البيت الحرام ، اغتاله أفغانى ، يُدعى مبارك خان لوحانى ، كان أبوه قد لقى مصرعه على يديه . وعلى أثر مقتله

---

١ ــ هو ابن عم لأكبر

٢ ــ منتخب التواريخ ثان ص ٣٢

احتضن أكبر ابنه عبد الرحيم بيلاطه وكان إذ ذاك فى الرابعة من عمره ، فما زال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة .

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليقع تحت تأثير حاضنته الداهية ، على الأخص . حتى كان لا يبرم فى الغالب أمرا دون رأيها . وطفقت هذه السيدة تعهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام ابنها أدهم خان ، وإن لم تستطع أن تبلغ به الوزارة على كل حال .

على أن أكبر ما غدا أن تكشف له خطورتها بعد قليل عليه فأخذ يراقب سلوكها وعصبتها بعين اليقظة والحذر . فحين بعث بأدهم خان ومعه پير محمد شروانى لفتح مالوه فدخلاها عام ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م ، بعـــد أن هزما بازبهادر بن شجاعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها ، فلم يصل إلى آگرا من غنائم الفتح إلا القليل ، دفعته الريبة فى سلوك قائده هذا إلى أن يفاجئه بظهوره هناك ليطلع بنفسه على ما بحوزته من أسلاب ضخمة ، ولم يملك أدهم خان عند ذاك إلا أن يدعى بأنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة .

وانفرد پير محمد شروانى بالحكم فى مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى آگرا لينطلق من بعد ذلك إلى إعمال السلب

والنهب والتخريب فى كافة المنـــاطق المجاورة لإمارته حتى شواطىء نهر نربدا الجنوبية ، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكى أو مسجد أو معبد ، حتى اجتمع الأهلون عليه ليتاح لأميرهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعونتهم من جديد ، وما زالوا يطاردون نائب أكبر هذا حتى اتى حتفه غرقا فى نهر نربدا وهو فى طريقه إلى ماندو فرارا (١) .

وما غدا الپادشاه أن بعث بقائده عبد الله خان أوزبك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد . وقد لاذ بازبهادر بيلاط اُداى سنغ ، أحـــد امراء مروار ، ثم ما لبث أن سعى إلى التماس الصفح من الپادشاه فأجيب إليه .

كذلك لم يمنع حر الهند أكبر من أن يسير إلى جونپور فيفاجىء عامله هناك عليقلى خان الأوزبكى بدوره ، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل ، ويرده إلى طاعته .

ذلك أن هذا القائد ، بعد أن تم له رد جموع الأفغان التى التفت حول شيره شاه الثانى بن عادل شاه سور بحصن چنار فخرجت تبغى الاستيلاء على جونپور ، بدا من تصرفاته وعصبته من الأوزبك ، الذين كانوا فى رعاية بيرم خان من

---

١ — منتخب التواريخ ثان ٥٢ .

قبل ، ما أثار الريب فى نفس البادشاه حتى خرج إليهم بنفسه .
ثا إن غادر كالبى فبلغ قرة حتى جاء إليه عليقلى خان وأخوه
بهادر خان فجـــدد له الولاء وإن عاود العصيان بعد ذلك
ببضـــع سنين .

بلغ أكبر فى هذه الأثناء مبلغ الرجال ، وغدا يدرك مدى خطورة المسئوليات التى يلقيها عليه منصبه ، فاتخذ له وزيرا من رجال أبيه الأكفاء المخلصين ، هو شمس الدين محمد أتكه . حتى إذا ما ثارت عصبة ماهم أتكه ، مرضعة البادشاه ، لهذا الإجراء ، ورأت فيه ما يحد من نفوذها ، فبرز أدهم خان بن ماهم أتكه فى زمرة من رجاله فوثب على الوزير وهو يؤدى فريضة الصلاة بالبلاط فقتله ، باغت أكبر القاتل وقبض عليه بنفسه ثم أمر فقُذف به من حالق حتى هلك ، وماغدت أمه أن لحقت به كمدا بعد قليل .[1]

تقريب الهنادكة : هكذا قضى أكبر القضاء التـــام على دسائس نساء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ

١ ــ طبقات أكبرى ٢٧٧

بذلك عهداً جديداً فى حكم الهند . ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعا مسلمين وهنادكة تحت رايته ، فطفق فى سبيل تحقيق هذا الأمر ، يقرّب زعماء الهنادكة وأمراءهم منه ويفتح لهم أبواب بلاطه ويعهـد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السواء . فكان ممن أصهر إليهم من كبارهم راجا بهر مل أمير جايپور الراجپوتى ، كما كان ممن قلدهم المناصب الهامة راجا تُدر مَلْ ، الذى خلف خواجه ملك اعتماد خان ، فسار فى شئون الدولة المالية على الخطة الحسنة التى كان اختطها شيرشاه فى إصلاحاته من قبل ، بعد أدخل عليها قدرا من التعديلات والتحسينات .

كذلك رفع أكبر الجزية ، التى كانت تُفرض على الهنادكة والرسومَ التى كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدساتهم ، فغدا رعاياه جميعا على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق . وكان صنيعه هذا كلّه هو البداية العملية لتحويل الهنادكة وأمرائهم من أعداء للدولة إلى خدّام لها وحُماة لأراضيها .

حـروب الشمال والوسط : التفت أكبر إلى الفتوحات على نهج أجداده ، فاندفع فى حروب وغزوات تكاد حلقاتها

تتصل حتى عام ١٠٠٩ ﻫ / ١٦٠١ م لينتهى بذلك إلى تدعيم ملكه من جهة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى :

غوندوانا : تبدأ هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط ، وكانت تحكمها ملكة هندوكيـــة تدعى رانى درگاوتى وصية على ابنها الصغير برنرايان ، وقد اشتهر اسم هذه الملكة فى التاريخ لاستماتتها فى الدفاع عن بلادها حتى سقطت فى ميدان الشرف .

وحين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف فى وجه آصاف خان قائدالقوات المغولية آثر تناول السم (الجوهر) على التسليم لأعدائه فلحق بأمه .

وعوق من خطة أكبر فى الفتوح ، بعد ما اصابت قواته أسلابا كثيرة فى غوندوانا ، ما كان من انتقاض الأوزبك ، رجال بيرم خان القدامى عليه . ولئن انتهى الأمر سريعا بعبدالله خان الأوزبكى إلى طرده من مالوه بعد هزيمته حتى لجأ إلى الگجرات ، فإن عصيان أخيه عليقلى خان زمان فى جونپور وما حولها ، حتى جهر بخلع طاعة أكبر والدعاء لأخيه حكيم مكانه ، قد اقتضى من السلطان الكثيرَ من الوقت والجهـــد ليتم له القضاء عليه .

ذلك أن أكبر لم يكد يمضي في مطاردة قوات الثائر الأوزبكي ، حتى بلغه مهاجمة أخيه للبنجاب ، بتحريض من الأوزبك بعد أن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من كابل ، مستعينا في ذلك بالقوات التي كان أخوه قد بعث بها إليه لنجدته .

ولم يكن البادشاه ليغفل عن أهمية المركز الاستراتيجي لمنطقة الحدود الشمالية الغربية التي تعتبر بابَ الهند ، فبادر من فوره برد أخيه وقواته عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور .

وما غدا حكيم خان أن استرد حاضرته كابل من أيدي سليمان شاه واستقرّ بها ، ليعود أكبر من بعد ذلك مسرعا إلى المناطق الشرقيه ثانية، فمايزال يطارد الثائر الأوزبكي وعصبته حتى التحم بهم عندما نيكپور حيث سقط خانزمان في الميدان ، في حين استسلم أخوه بهادرخان وفريق كبير من بني جلدتهم فأوردوا جميعا موْرد الردى [١]

واستبان لأكبر أنه لن يَصير له السيادة على الهندستان كله إلاّ إذا تم له اخضاع حصونه الكبرى التي ما يزال فريق من

---

١ — طبقات أكبرى ٣١٨ — ٢١

لأمراء الراجپوتيين يسيطرون عليها ويعتصمون بها .

چتور : يُعد حصن چتور أمنعَ هذه المعاقل جميعا ، إذ كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال ثمانية على نُتوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق فى السهل . وكان صاحبه أوداى سنغ رانا موار قد غدا يأوى عنده فريقا من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادرخان أمير مالوه السابق ، فضلا عما كان يسديه من العون و يبذله من التعضيد لأبناء عمومة البادشاه من الطامعين فى ملكه .(١)

ولم تمتنع هذه المعاقل على جند الدولة برغم وعورة مسالكها واستماتة جاى مل وفتح (پتا) سنغ قائدى الأمير الراجپوتى ورجالهما فى الدفاع عنها بعد أن لاذ سيدهم وأسرته بالجبال . فقد بلغ من عزم المدافعين حين رأوا زمام الأمر يفلت من أيديهم ، أن عمد نساؤهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم، فمنهم من جرع السم، ومنهم من عرّض نفسه على نيران المواقد . ثم فُتحت أبواب الحصن من بعد ذلك لتنطلق الحامية منه فتشتبك مع مهاجميها فى قتال وحشى عنيف فنى فيه أغلبها (٢) .

---

١ — تاريخ الفى ١٧٠ — ١٧٤

٢ — منتخب التواريخ ثان ١٠٤

وأثار ما أظهره الراجپوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى احتفظ بتمثالين قيل إنهما للقائدين الهندوكيين(١). والحق أن هذا البادشاه المغولى كان ممن يقدرون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه فى مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال من أعدائه، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام.

وكان من أثر حسن صنيع أكبر هذا، لا سيما مع الأمراء الراجپوتيين: أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلاته معه. وكان من بين هؤلاء راجا بيكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أجمير وابنه بهگوان داس وحفيده من سنغ وقد صحبوه جميعا إلى آگرا وأصهر إليهم فيما بعد.

على أن راى براتاب، حين خلف أباه أوداى سنغ فى إقليم موار، عاد يرى فى توثيق الصلات بين الأمـــراء الراجپوتيين وسلطان المغول خطرا شديدا قد يؤدى إلى القضاء التام على أمجاد بنى جنسهم وما بذله أسلافهم من أمثال جـــده رانا سنگا من تضحيات وما خلدوه من صفحات البطولة الرائعة دفاعا عن شرف عنصرهم. فنصّب نفسه للدفاع عن تراث الهنادكة وماضيهم التليد، ومن ثم طفق يستنهض من همم أقرانه ويعمل على إثارتهم

---

١ — Muslim Rule. 325

وتحريضهم على مناهضة الدولة . وقد بنى خطته على تحصين حدوده وحدود حلفائه ثم إطلاق عصاباتهم جميعا من بعد ذلك لتقض من مضاجع صاحب آگرا .

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتسح إقليم موار كله ، فإنه لم يتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزه من انتصارات متكررة على رانا براتاب وابنه أمر سنغ .

رنتنبهور : لم يكد البادشاه يفرغ من حرب چتور عام ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م حتى أخذ يعد العدة لاقتحام حصن رنتنبهور ثانى قلاع الهندستان الكبرى ، فسارت قواته إلى هناك فى العام التالى ليلحق هو بها بنفسه فى رمضان من نفس السنة .

وحين رأى راى سورجانا ، صاحب الحصن ، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلا تل يواجه معقله المنيع فتنهال قذائفهم عليه ، بادر ، بوساطة من بهگوان داس ومَن سنغ اللذين كانا فى صحبة البادشاه ، إلى إعلان خضوعه واستسلامه ، فخلع أكبر عليه وعلى ولديه ، وما غدا بعد قليل أن أقامه على إقليم بنارس ، كما عهد إليه بقلعه چتور .

وأدى سقوط حصنى چتور ورنتنبهور إلى تيسير مهمة الحملة التى كان السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كالنجر فى

بند لخاند وهو فى طريقه إلى ثانى القلعتين سالفتى الذكر . وصار أمر راجا چندرا صاحب هذا الحصن إلى أن أقطع إقطاعا على مقربة من أحمدآباد .

وباستيلاء أكبر على هـــذه الحصون الثلاثة المنيعة رسخت أقدامه وتعززت حدوده . وأدى ما سلكه مع أصحاب هـــذه الحصون، حين استسلموا إليه ، من طريق المودة والرفق، فصحبهم إلى بلاطه فى الغالب وأجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليهم بقدر من مناصب الدولة ، إلى أن ركن أغلب الامـراء الهنادكة إلى السلم وطفقوا يساهمون معـــه فى بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص(١).

وفى ذلك الوقت رُزق أكبر بابنه وولى عهده الأمير سليم ، الذى يـعرف فى التاريخ باسم جهانگير ، من أم هندوكية هى ابنة بهار مل راجا جيپور وكان قد بنى بها عام ٩٦٩ ﻫ / ١٥٦٢ م .

وعلى أثر مولدهذا الأمير عام ٩٧٧ﻫ/١٥٧٩ م انتقل البادشاه بحكومته إلى مدينة سِكرى ، عند حدود الراجپوتانا من ناحية آگرا ، فاتخذها حاضرة له وسماها فتحپور ، فلم يهجرها إلى آگرا

.....

١ — Muslim Rnle. 327-28

إلا حين انهار خزان المياه بهـا عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م
يغمرها الماء .

وكان مما حبب إلى أكبر النزوح إلى هـذا المكان ، قيام
ولى صالح به يدعى سليم چشتى كان قـد بشره وتنبأله بمولد ابنه
هذا بعد أن مات له أطفال كثيرون من قبل . وبلغ من تعلـق
السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجته هذه حين ظهرت عليها بوادر
الحمل فأقامت إلى جواره ، حتى إذا وضعت حملها أطلق على
المولود اسم الولى تبركا . وفى رحاب هذا الشيخ ولد أكثر
أولاد البادشاه .

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عنـاية بالغة حتى لتعد
منشآته بها من أروع نماذج العمارة الهندية الاسلامية . وكان من
بين هـذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع ، الذى أقيم على طراز
البيت الحرام ، ثم ضريح الولى سليم چشتى ، وجملة من القصور أجاد
المعماريون فى تصميمها كما أبدع النقاشون فى زخرفتها وترصيعها
بمختلف الزخارف والتصاوير (١) .

وأعظم آثار أكبر بهذه المدينة هى بُلَنْد دروازه (البوابة

---

١ — Lane-Poole, 271-75

الكبيرة) التى أقامها تذكارا لانتصاراته فى الگجرات ، ذلك الإقليم الذى تم لأبيه همايون إخضاعه لسلطانه قبل إخراجه من الهند ، والذى يعد ، إلى جانب خصب تربته ووفرة زراعاته ، عظم مراكز التجارة الهندية . فمن موانيه ، بروج وسورات وكمباى ، كانت السفن تبحر وعليها منتجات الهند التى كان يتهافت عليها سكان العالم منذ القدم ، حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلاّ وكان فى حسابه دخول هذا الإقليم . ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوى الذى أغراه موقعه وطيب هوائه حتى جرى بخاطره أن يتخذه مقاما دائماً له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة .

فتح الگجرات : كان مظفر شاه الثانى آخر سلاطين الگجرات ، الذى خرج إليه أكبر فى ربيع الثانى من عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، ضعيفا خاملا ، اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ ، ثم ما غدا نفر منهم أن انتهز فرصة الفوضى التى كانت تسود الدولة فى عهده فراح يسعى إلى الاستقلال بما بأيديه من إقطاعات .

واستسلم سلطان الگجرات من فوره للپادشاه الذى أجرى عليه رزقا حسنا . وحذا حذوه كثير من رجال الگجرات ،

لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر ، من بعد ذلك ، ومعه إمدادات من مالوه وچندرى ، فيطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم الپادشاه وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك ، فما زال بهم حتى أخرجهم من سورات .

على أن أكبر لم يكد يعود إلى سِكرى فتحپور حتى ارتد الگجراتيون إلى العصيان من جديد ، فلم يرجع عنهم هـذه المرّة إلاّ بعد أن استخلص من أيديهم مدينة أحمد آباد ودخل كمباى وبارودا ، كما اقتحم حصن سورات المنيع الذى طالما استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها .

وفى هذا الحصن ، الذى كانت أسواره يصل سمكها إلى ما يزيد على أمتار أربعة مسلحة بالحديد ، عثر الپادشاه على قطع من المدفعية تحمل اسم السلطان العثمانى سليمان القانونى ، فهى بقايا من آلات أسطوله البحرى الذى كان قد بعث به لمعاونة سلاطين الگجرات فى دفع خطر البرتغاليين عنهم (١) .

ورجع أكبر من هناك فى منتصف عام ٩٨١ / ١٥٧٣ م بعد أن عهد إلى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين احمد خان من بعده بتنظيم شئون هـذا الإقليم الغنى الذى كان خراجه يُعَدّ

---

١ ــ طبقات أكبرى ٣٥٠

من أهم مـــوارد الدولة .

وظلت الأمور فى هذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتيح لمظفر خان أن يجمع قوات جديدة سقط بهـــا عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م على أحمد آباد فدخلها كما استولى على كمباى وباردوا فتم له بذلك السيطرة على أغلب الگجرات ، حتى سير إليه البادشاه قائده عبد الرحيم خان خانان بن بيرم خان فرده عن كثير مما وقع بايديه من أرضين ، وما زالت قوات آگرا تطارده من بعد ذلك حتى استسلم إليها عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م ليقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفيها فى ثيابه .

وقد عهد أكبر إلى ثانى أبنـائه مراد بشئون هذه الولاية التى صارت جزءا من أراضى الدولة وبقيت فى حوزه السلاطين المغول قرابة قرنين من الزمان .

هذا وكان البـادشاه قد صادف بالـگجرات البرتغاليين لأول مرة . وكانوا فئة قليلة تقدمت لشد أزر مظفر خان فى حربه معه ، فلم يتعرض لهم بسوء ، واكتفى بأن أخذ عليهم موثقا بألا يتعرضوا لحجاج البيت الحرام حين يخرجون من موانىء الهند التى كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها (١) .

---

١ _ Dunbar 186

وقد أشرنا من قبل إلى صلة البرتغاليين بالكجرات وكيف تسربوا إلى بعض موانئها بعد معارك بحرية شديدة ساهم فيها المصريون والعثمانيون بنصيب كبير (١).

غزو البنغال: بيَّنا فيما سلف كيف اتخذ شيرشاه من البنغال وما جاورها قاعدة لحملاته التى انتهت إلى إخراج همايون شاه من الهند. ولبث هذا الأقليم فى حوزة أمراء من الأفغان حتى انتزعه من أيديهم سليمان خان كرانى صاحب بهار فى عهد سليم شاه سورى. وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه الإسمى للدولة المغولية، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله وزراؤه بعد قليل، جاء أخوه وخلفه داود ليغريه ما بخزائنة من أموال كثيرة وما تهيأ له من جند كثيف على مهاجمة أراضى الدولة المغولية الشرقية وتخ فها حتى بلغ بتنة وخرّبها.

ولئن كان أكبر قد خرج إلى هذا الثائر بنفسه عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٥ م حتى بلغ بنارس فاقتحمها على صاحبها كما استولت قواته بدورها على بتنه، فإن قائده منعم خان رَضىَ آخر الأمر بالصلح مع خصمه بفعل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة؛ وأقطعه

---

١ ــ انظر الجزء الاول ص ٢١١ــ٢١٣

إقليم أوريسه برغم معارضة زميله تدرمَلْ . وما غدا داود ، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهيضة ، أن انطلق يسترد أراضيه السابقة ، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد فقضى عليه فى ساحة راجا محل فى ربيع الثانى من عام ٩٨٤ هـ / ١٥٧٦ م . وبمقتله قُضى على استقلال البنغال الذى لبثت تنعم به قرابة قرنين ونصف القرن .

على أن خان جهان لم يكد يقضى عام ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م . حتى خلفه مظفر خان تُربتى ليؤدى ما فرضه على أصحاب الأراضى من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء المـــلاك .

وأدى إلى اتساع نطاق الفتن ، حتى شملت البنغـال وجونپور كلها ، نفور أغلب العلمـــاء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفلسفية واللاهوتية التى كان البادشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير فى ابتداع مذهب جديد يذيب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد ، حتى لم يتردد مُلا محمد يزدى ، قاضى جونپور ، أن يفتى بوجوب حرب السلطان لما استحدثه من بدع تزعزع بناء الإسلام فى الهند .

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قُتل ظفر خان نفسه نائب أكبر هناك كما اضطرت قوات البادشاه التى كانت قد قدمت من

.شلى إلى الاعتصام وقائدها تُدرملْ فى حصن منفر ، حتى جاء
.يرزا عزيز كوكا فقضى على تمرد باب خان وعشائره الجغتائية
.البنغال ، لينطلق من بعدذلك قائده بازخان إلى بهار فيرغم معصوم
. خودى زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سوالك بالپنجاب

ثورة ميرزا حكيم : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من
.فغان وأوزبك أن يعمدوا فى الغالب ، وهم فى غمرة العصيان ،
.لى أثارة القلاقل والفتن بأيدى أبناء جلدتهم عند حدود الدولة
.الغربية والشمالية الغربية تخفيفا لضغط قوات السلطان عليهم .

ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الإستجابة لهؤلاء
.الثائرين ، وهم الذين دأبوا على التلويح له بعرش آ گرا إذا
.ما عاونهم على التخلص من نير أخيه الجالس عليه . وقوى فى
.عضد هذا الأمير هذه المرة . على ما عرف وعنه من خور فى
.عزيمة وانكباب على الشراب . ما كان من انضمام فريق من
.بلدة أكبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه ، حتى خرج عام
. ٩٩١ هـ ١٥٨٣ م . إلى البنجاب فدخل لاهور وانتهب ما حولها
.من أرضـــين .

.فما غدا أكبر أن أسرع إلى هناك فى خمسين ألف من الفرسان
.وخمسمائة من فيول الحرب وجموع كثيفة من المشاة ومعه ولداه

سليم ومراد ؛ فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر ممر خيبر ، فى حين اتجه مراد إلى كابل فالتحم بقوات عمه وأرغمه على الفرار. على أن البادشاه ما لبث أن ردّ أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبك ببلاد ما وراء النهر (١) .

وهلك فى حملة البنجاب هذه خواجه شاه منصور ، ديوان (٢) السلطان وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية فى إقرار الأمور فى الجبهة الشرقية من قبل ، إذ دسّ عليه راجا مان سنغ بضع رسائل قيل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر أكبر من فوره بشنقه دون تثبت من أمره ، وقد ندم على فعلته هذه من بعد.(٣)

ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية هى منذ القدم باب الهند الأعظم الذى ينفذ منه الغزاة إلى هذه البلاد ، فإن اهتمام سلاطين الهند الجدّى بتحصين هذه المنطقة لم يبدأ الا غداة غزو چنگيزخان وأبنائه من بعده للهند ؛ حتى رأينا آل بلبن والخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم يقيمون بها سلسلة من المعاقل والحصون القوية حبسوا بها

---

١ — طبقات أكبرى ٢٥ ؛

٢ — الديوان هو القيم على شؤن المال ، وهو وزير عادة

٣ — Muslim Rule 432-33

قوات كثيرة العدد والعُدد .

وأتيح لتيمور لنگ اجتياح أغلب هـذه الحصون حين فتر الإهتمام بها ودب الإهمال إليها لما كان عليه آخر سلاطين آل تغلق من الضعف . حتى جاء أكبر فعمرّها من جديد لتدفع عنه أخطار الأوزبگ ، أصحاب بلاد ماوراء النهر والدّ أعداء الأمراء التيموريين وأشدّهم مراسا ، ومعهم القبائل التى تقطن أرض كابل وغزنة من الأفغان وغيرهم الذين طالما أغراهم ثراء الهند جارتهم ، بالقياس إلى جدب أراضيهم وفقر بلادهم ، بالسقوط عليها وتخطف أراضيها وانتهاب أرزاقها ، بل والتوغل فيها ما سنحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم أعين نواب دهلى على البنجاب .

وكان من أثر مبادرة البادشاه إلى أرسال قواته لاحتلال إقليم كابل عقب وفاة أخية ميرزا حكيم فى شعبان من عام ٩٩٢ هـ ١٥٨٥ م وضمه إلى أراضيه ، وما أنزله قواده من أمثال راجا من سنغ وزين خان وراجا بيربل ، بعبد الله خان الأوزبگ وقبائل يوسفزاى الأفغانية من الهزائم الحاسمة ، أن أمنت حدود الدولة فى المناطق الغربية والشمالية الغربية ، لتتجه قوات آگرا من بعد ذلك بقيادة راجا بهگوان داس لغزو كشمير فتضمها إلى أملاك

الدوله عام ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م .

كذلك دخلت جيوش الپادشاه إقليم أوريسه كما سيطرت على السند والملتان ومنازل البطهان لتطل من بعد ذلك على قندهار التى كان أكبر يمنى النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس ، فهى مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية .

وانتهز السلطان الهندى فرصة اشتغال عباس الصفوى شاه الفرس بحروبه مع العثمانيين والأوزبگ فدفع بقواته عام ٩٩٨هـ / ١٥٩٠م إلى هذه الأيالة ، فلم يَهِلّ عام ١٠٠٣ هـ حتى صارت فى حوزته دون قتال ، إذ وصل إلى غرضه فى مهارة سياسية فائقة أبقت على علاقات المودة بينه وبين جارة (١) .

وهكذا صار لأكبر ، ولمّا ينصرم القرن العاشر الهجرى بعد ، ممالكة متسعة الأرجاء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية إلى ماوراء الهندكوش وأرض كابل وغزنة وقندهار فى الغرب ، ومن جبال الهملايا فى الشمال إلى نهر نربدا فى الجنوب . ولمّا تتجه فتوحه بعد

فتوح الدكن : لبث سلاطين المسلمين فى الهند ستان يرون فى الدكن وما وراءها جنوبا بلادا غريبة عنهم ، فى الغالب ، بأهلها

---

١ muslim Rule. 347

و عاداتها ورسومها . على أن أطماعهم ، حين كان يستتب لهم الأمر في الشمال الهندى كله ، كثيرا ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذى كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجى عما به من . والذى قامت به دويلات وإمارات إسلامية أبى أصحابها الاعتراف بسيادة دهلى عليها طواعيه .

وكان من الطبيعى أن يتطلع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب ، هو المحارب الطموح ، بعد أن ساد سلطانه الشمال وعظم شأنه وأمنت حدوده .

واستعصت إمارة أحمد نگر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقائده عبدالرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة چندبيبي عنها ، فلم تسفر جهود هذين القائدين بالدكن إلا عن ضم إمارة برار إلى أملاك الدولة (١) .

---

١ — هذه الأميرة هى ابنة حسن نظام شاهى وأرملة إبراهيم عادل شاه في صاحب بيجابور . وقد رجعت إلى مسقط رأسها في أحمد نگر بعد موت أخيها لتقف إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهي صاحب الحق الشرعي في الامارة ، مما أدى بالوزير ميان منجهو ، وكان يناصر أميرا آخر يدعي محمد خدابنده ، إلى الاستنجاد بمراد بن أكبر الذى كان يحكم بالكجرات . وبرغم نجاح هذه الأميرة في إقرار الأمير بهادر على بلاده ، فما غدا انصاره من الاحباش =

كذلك لم يفلح قواد البادشاه فى حسم موقفهم مع قوات أحمدنگر وبيجابور وغولكونده مجتمعة حين التقوا بهم من جديد، حتى جاء الوزير أبو الفضل بن المبارك بنفسه إلى الدكن فى جند كثيف، وما غدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد بأمر حكومته إلى ابنه سليم.

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك، موت ابنه مراد من جهة وانضمام أمير خاندش إلى الخارجين عليه من جهة أخرى.

وسيّر أكبر ابنه دانيالْ إلى أحمد نگر فى حين قصد هو إلى خاندش، فما إن دخل عاصمتها بُرهانپور ثم شرع من بعد ذلك فى حصار «عسير» أقوى حصونها، وكان يمتنع فيه صاحبه ميران بهادر، حتى وافته الأنباء بخروج ابنه سليم عليه وتنصيبه لنفسه سلطانا فى مدينة الله آباد بأدنى الدواب(١)، فلم يثنه ذلك عن المضى فى خطته حتى سقط الحصن فى يده وتبعه استسلام إمارة أحمد نگر

= والدكنيين أن انقلبوا عليها حتى ضيعوها وضيعوا إمارتهم معها.

هذا وفي الجزء الأول من هـذا الكتاب ص ٢١٩ — ٢٦ تفصيل لنشأة إمارات الدكن جميعاً.

١ — عفى أكبر عن ابنه حين عاد إلى آكرا فولاه البنغال وإن لبثت العلاقات متوترة بين البادشاه وابنه إلى آخر أيامه.

بدورها .

وبسقوط هـــذه الإمارات فى مستهل القرن الحادى عشر الهجرى ، وختام القرن السادس عشر الميلادى ، تم لأكبر السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمسة (١) ، وصارت الدولة المغولية ، أعظم الدول لعصرها وأقواها وأكثرها ثراءً وغنى(٢) ، بمـا دخل فى حوزتها من أرضين وما انطوى تحت لوائها من الأمراء وما عمرت به خزائنها من أموال الفتح وغنائمه وكنوزه .

ولم يطل الأجل بأكبر حتى يُتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكمله بعد أن شرع فيه ، وقد كان بوسعه تحقيق هذا الأمر فى أمد قصير بعد أن أقر الأحوال فى الشمال كله بقضائه على أسرة سور وكبحه جماح الأوزبـك وفتحه للبنغال واقتحامه حصون الراجپوتيين الكبرى وتأمينه حدوده كافة ، لولا ما تعرض له من ثورات وفتن عنيفه بسبب ما ذاع عنـه من

---

١ ــ كان من أثر طول مقاومة أمارات الدكن الاسلامية للمغول ، ابتعاد الخطر إلى حين عن أمارة فيايانكر الهنـــدوكية التى كانت تقــع إلى ما ورائها جـــنوبا .

٢ ــ Muslim Rule 352

أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب ديني جديد .

المذهب الإلـهي:

برغم أن أكبر ينحـــدر من أسرة امتـــازت بالثقافة المتوارثة فيها . فقد أدى اضطراب حيـــاة أبيه فى الغالب إلى حرمانه من قدر وافر من التعليم فى الصغر ، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة . ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلى . إذ كان قوى الملاحظة كلفا بالمعرفة ؛ فتعلم عن طريق التلقين مكتفيا بالإصغاء والتأمل . وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرؤ فى حضرته من الكتب القيمة التى جاوز عددها فى مكتبته الخاصة أربعا وعشرين ألفا .

ولقد ولد أكبر عن أب سنى المذهب وأم شيعية ، وبنى ببعض أميرات من الهنادكة . وطفق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناكورى وولديه فيضى وأبى الفضل . وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعـــلوم الحكمة ؛ ففتحت ، عيناه على كثير من المسائل الفلسفيه والأسرار الصوفية ، ودفعوه معهم فى طريقهم ، طريق البحث عن الحقيقة ومحاوله الوصول إلى الحق المجرّد .

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى اقامـــة دار للعبادة

« عبادتخانه » ، بمدينة فتحپور حاضرته الجـــديدة . تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م لتكون منتـدى للفقهـــاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة.

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام . هذا كما كان يتعبد كذلك فى كهف غير بعيد من قصره ويمضى ليالىَ بأكملها يناجى ربه برموز الصوفية واصطلاحاتها .

كان هـــذا السلطان يرى فى المُلك نعمة من نعم الله العظمى ، يتجلى العرفان بها فى حسن إدارة الحاكم لحكومته على وجه يجعل رعاياه جميعـا يتفانون فى طاعته وتلهج ألسنتهم بالثنـــاء عليه .

وعلى هدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنادكة مزجا عميقا لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحـــدة لا تنقسم أو تتجزأ . فمضى يعمل على انضواء الهنادكة جميعا تحت راية الحكم الإسلامى عن رضى وقبول بتألف قلوبهم ، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلـــغ كثيرون منهم أعلى

مناصب الوزارة والقيادة (١) ، كما أصهر إلى كثير منهم كذلك ، وإن أدى سلوكه هذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم فى دينهم .

وكان من ثمرة نهجه هذا الذى انتهجه أن طفق فريق من الأمراء الراجپوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه فى الفتوح والقضاء على الفتن التى كانت تنشب من حين لآخر فى أنحاء بلاده الواسعة .

وكان من بين هؤلاء راجا بهگوان داس وابنه مَن سنغ اللذان ظاهراه فى حصاره لحصن چتور أقوى قلاع الهند ، ثم راجا بيرمل الذى لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية .

ولعل تدر ملْ هو أبرز هندوكى قام على خدمة أكبر فى إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جليّة فى تاريخ الهند . فهذا الوزير الذى كان قد نشأ عند السلطان القدير شيرشاه

---

١ — بلغ عدد المناصب الكبرى فى الدولة أيام أكبر ٤١٥ ، كان الهنادكة يشغلون منها ٥١ منصبا .

..ألم بالكثير من اتجاهاته السديدة فى شئون الإدارة والحكومة ، .. شارك بنجاح فى حملات البادشاه البنغالية ، كما أظهر كفاءة ..دراية كبيرة حين عُهد إليه بتنظيم شئون حكومة الكجرات ، ..غنى إمارات الهند ، وتنسيق مواردها المالية ، حتى صار من .. ذلك خير مشير لأكبر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت ..افة نظم الحكم وشئون الدولة (١) .

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لايمكن حكمها وإقرار الأمور فيها أقرارا حقيقياً إلا بقيام المؤاخاة والألفة بين أهلها على ..ختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم . وهو حين قرّب إليه ..هنادكة ، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من ..ثقافات ورسوم قديمة ومعتقدات ، فعهد إلى فريق من العلماء ..نقل عيون الكتب الهندوكية القديمة من السنسكريتية إلى ..لى الفارسية ، لسان العصر بالهندستان ، ومن بينها الرامايانا (٢) ،

---

١ — Lane-Poole 260 - 62

٢ — قام المؤرخ بداوني بنقل الرامايانا إلى الفارسية فأتمها فى أربع سنوات، ..هى تحوى خمس وعشرين ألف بيت ، يتركب كل بيت منها من خمس وستين ..حرف وبطلها رام جند ، وكان مسقط رأسه مدينة أوده . وقد زينت هي ..المهابهارتا التى قام فريق من علماء الهنادكة وأدباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية ..نقوش كبار النقاشين فى بلاط السلطان. منتخب التواريخ ثان ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

ثم المهابهارتا ، كتاب الهند القديمة الأقدس ، التى يُعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ، كما يقرء المسلمون القرآن وأتباع المسيح الإنجيل ، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر ، فى حين لا تعدو إلياذة هو ميروس ، نظيرتها عند اليونان القديمة ، خمسة وعشرين ألف بيت .

ولم يكتف البادشاه بقراءة هذه الأسفار حتى راح فى سبيل دراساته ، يستدعى إليه ، فى دار العبادة وفى قصره شيوخ . العقائد من برهمية وبوذية وجينية وويشية وزرادشتية ونصرانية (١) ، ليعرضوا عليه بضاعتهم عله يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقه اختها وتحرّم على أتباعها أن يطاعموا غيرهم أو يخالطوهم .

ولم يكن أكبر ، وهو المفكر المسلم الحرّ ، ليحجم عن إعلان إعجابه بما يُعرض عليه من نواحى الخير والمبادىء الإنسانية فى هذه العقائد ؛ بل لقد بلغ من تلطفه مع أصحاب هذه الملل وحدْبه على استمالتهم إليه أن ارتدى مسوح الهنادكة وجرّب معهم طقوسهم (٢)

---

١ — نقل الإنجيل إلى الفارسية كذلك على يد الوزير أبى الفضل بن المبارك «منتخب التواريخ ٣٦٠»

٢ — من ذلك أنه رتل معهم الإبتهالات الدينية البرهمية التى زعموا له بأنها

و... عن استخدام الثوم والبصل فى أطعمته وتقديم اللحوم
فى مائدته .

ولقد كان أكبر فى الواقع لا يهتم أبداً بأصناف الطعام ، فنشأ منذ
صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرّمه على نفسه محتجا
بأنه لا يليق بالإنسان أن يجعل من جوفه مقبرة للحيوان ، وإن
لم يحرّمه على رعاياه .

كذلك كان يكنّ كراهية شديدة للقصّابين والصيادين الذين
كان يرى فيهم أناسا وقفوا حياتهم على قتل الحيوان (٢) . هذا كما
منع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها حبيس الأقفاص .

... تجعل الشمس وفق هواه . ولم تقف تجاربه عند هذا الحد حتى راح يحاول اختبار
فطرة الإنسانية فى أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع ،
... عليهم مبادىء الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ما عسى أن تهديهم
... فطرتهم . لكنه فشل فى تجربته إذ استبان له بكمهم جميعاً بسبب عزلتهم
... منتخب التواريخ ثان ٢٨٨ » .

(٢) — لا يتفق تحريم اللحوم هنا ومقاطعة الجزارين ومن إليهم بما ادعاه بداوني
... ذبحة السلطان لحوم البقرة واقتنائه للخنازير والكلاب بقصره . وقد أفصح هذا
... عن وجه الحق فى إتهاماته هذه وغيرها بما كان يحز في نفسه هو ومن كانوا
... هواه حين كانوا يرون السلطان يقرب الهنادكة إليه ويعاملهم بالتسامح والتكريم
المصدر السابق ٢١٤ » .

ولم يكن أكبر كذلك يتناول سوى الماء القراح ، وإن كان قد عكف فى شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت .

كذلك اجتبى الپادشاه اليسوعيين الذين وفدوا إلى بلاطه ليستمع إلى بيان النصرانية من أفواههم لا من بطون كتبهم ، فأكرمهم ، وكانت لهم بعوث تبشيرية تنتشر فى مستعمرات البرتغاليين بالهند ، حتى حملوا على تحمل رغبته فى التنصير ما أظهره من التبجيل والتوقير للإنجيل حين رفعوه إليه ، ولأيقونة المسيح وأمه البتول حين أطلعوه عليها . وما كان من رده المهذب عليهم حين عرضوا عليه الدخول فى ملتهم ، فقال لهم بأن الأمور كلها تجرى وفق المشيئة الإلهية . وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا يجنحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثر عنه من رفق ولطف .

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعا فى حرية وتسامح دينى مطلق وقت أن كانت أوروبا تجتاحها موجات مدمرة من التعصب ، فالكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت فى فرنسا ، والبروتستانت كانوا يذبحون الكاثوليك فى انجلترا ، ومحاكم التفتيش كانت تنكل ببقايا المسلمين واليهود فى إسبانيا ، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يُحرقون بتهمة الهرطقة جمهرةً من العلماء

تدين لهم المدنية والحضارة الحديثة بالكثير .

والمعروف أن هذا الأمير التيموري الذى كان يعمل ، فى سبيل بلوغ الحقيقة ، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة التى قد تنتهى به إلى غايته ، هداه تفكيره الفلسفى وبصيرته النفاذة إلى أن يرى الديانات عموما ، بعد اطلاعه عليها ، كأنها رموز مختلفة تمثل الأسرار التى تحيط بالكون وأهله . لذا ودّ لو أنه استطاع إذابتها فى مذهب جديد يقوم على التوحيد ، ويجمع مافى هذه العقائد من فضائل ، ويقضى على الخلاف بينها . ويزيل مابين الناس من فوارق ، ويدعم أخوّة الإنسان لأخيه الإنسان ليبلغ بذلك كلّه إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده .

إلاّ أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح فى مؤتمر الأديان الذى عقده فى « عباد تخانه » ، وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ العقائد على اختلاف مللهم ونحلهم . ذلك أن هؤلاء الأعلام لم يتبادلوا فيما بينهم الاّ أفظع التُّهم وأفحش الشتائم[١].

١ — اقترح أحد المناظرين ، وكان يدعي شيخ قطب جليسرى ، أن تختبر المسيحية بإزاء الإسلام بمحنة النار ، وذلك بأن يخوض وأحد القساوسة اللهب ، فمن خرج منه سالما كانت فرقته صوت الحق فى الارض ، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه « منتخب التواريخ ثان ٢٩٩» .

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر ، قبل أن يأتى الفلاسفة المحدثون بزمن طويل ويقرروا ، على وجه التحيق ، أن المعتقدات مستقلة تمام الإستقلال عن العقل الصرف [1] .

ورغم سخرية البادشاه من هؤلاء جميعا فقد راح أصحاب كل مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء

ادّعاه الزراد شتيون حين وضع علاماتهم على ثيابه ، وادعاه الهنادكة حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد واستخدام البصل والثوم فى طعامه ، ويحض الناس من حوله على ذلك . ونسوا تشدده المطلق فى محاربة عادة الساتى الخاصة بهم — حيث تقبل الأيّم التى ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها — حتى تدخل بنفسه لإنقاذ إحدى نساء الأشراف ومنع عشيرتها من إرغامها على ذلك [2] . كما أباح زواج الأرامل وحضّ عليه ، على خلاف شرائعهم .

وادعاه النصارى حين أمر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل

---

١ — اختلال التوازن العالمي لجوستاف لوبون ص ٣٥١

٢ — هي ابنة أداى سنغ وأرملة جاى مل أحد أبناء عمومة راجا بهكوان داس من زعماء الهنادكة المقربين من البادشاه . وقد ركب أكبر بنفسه لإنقاذ هذه الأميرة .
Muslim Rule. 353.

وأدخل دراسة النصرانية فى تعليم ابنه ، ولم يمانع — على حد قولهم — فى تنصير أحد من أهل الهند ، على الإختيار . وزعموا أنه ، بفضل تعاليمهم ، أحال المساجد فى حاضرته إلى إصطبلات للخيل والفيلة، بدعوى الاستعداد للحرب،وأمر بحرق المصاحف وحرّم ذكر النبى الأكرم ببلاطه واقتصر على زوجة واحده ، وحرّم على أتباعه المسلمين ختان أولادهم الذكور حتى يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم فتكون لهم الخيرة فيما يعتنقونه من الأديان (١) .

وعلى هدى نشأه اللغة الأوردوية فى الغالب ـ وهى مزيج من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند ، نشأت نشوءا غريزيا من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض ، حتى غدت بالكاد لغة الهند القومية ـ هدت أكبر قريحته : بمعاونة وزيره أبى الفضل وأخيه فيضى ، إلى ابتكار مذهب جديد يتألف كل ما هو حسن فى سائر العقائد على وجه يقضى ، فيما ظنه ، على تناحر الفرق والأديان ويهيىء السلام للناس والأمن للدولة .

وهذا المذهب الذى يُعرف فى التاريخ باسم « دين إلهى » والذى يقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه

---

١ — Muslim Rule 375-81

التصوف والفلسفة بالعبادات : فيه البادشاه هو الإمام العادل[1] ظل الله على الأرض ، والمجتهد الأكبر ، من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة .

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة . التى رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل ، أن يقر المؤمن بها باستعداده لتضحية أملاكه وشرفه وحياته وعقيدته فى سبيل البادشاه ، وأن يقتصر فى غذائه على النبات، ويمتنع عن تناول اللحم أياما كثيرة مرسومة ، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتله الحيوان ، ولا يحبس حيوانا أو طيرا عنده ، ويتجنب البصل والثوم ، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين

وكانت تحيتهم فيما بينهم هى : « الله أكبر » وجوابها : « جلّ جلاله »[2] .

---

١ — فكرة الإمام العادل هى عند أكبر بتأثير المذهب الشيعي ونظرية المهدى المنتظر ، حتى اصطنع له تقويما جديدا يبدء من عام ارتقائه العرش ، وهو ما حدا به كذلك في الغالب إلى أن يوحي لفريق من المؤرخين ، وعلى رأسهم مولانا أحمد داود بن قاضى تتا ، بكتابة « تاريخ ألفى » الذى يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم إلى العام الألف من تاريخ انتقال النبي الأكرم إلى الرفيق الأعلى .

٢ — لم يقل أحد من المؤرخين بادعاء أكبر الألوهية أو النبوة . وما يذكره بداونى في هذا الصدد (منتخب التواريخ ثا ص ٢١٠) — وكان من أشد الناقمين على هذا

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الإجتماعية المفيدة . فمنع عادة الساتى ، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج ، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينجم عن ذلك من ضعف النسل وفتور فى الميل ، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ (١) . وزواج النساء المتقدمات فى السن بشبان يصغرهن بكثير .

وفرض كذلك عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار ، كما منع تعاطى الشراب وتداوله ، وأمر بعقاب شارب الخمر وبائعها ومشتريها وصانعها ، وقصر بيعها للتداوى على متجر خاص بمقربة من قصره وجعل به سجلا يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها (٢) .

= المذهب الجديد ـ أن البادشاه رغب عام ٩٨٣ هـ في ضرب عبارة « الله أكبر » على السكة والخاتم الشاهاني ، فنصحه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى « ولذكر الله أكبر » حتى لا تحمل الأولى على ادعاء الألوهية ، فاحتج عليه السلطان بأن كل ما فى الأمر هو موافقة مقتضى الحال ، فكيف للانسان أن يرقى إلى ادعاء الألوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف .

١ — نص هذا التشريع على أن لا يقل سن الشاب عن ستة عشر عاما والفتاة عن أربعة عشر .

٢ — يرى بداوني فى هذا الإجراء تنظيما غير مباشر لتعاطي الشراب فحسب وترخيصا مقنعا به ، وبلغ من فرط تحامله هنا أن صرح بأن النبيذ يدخل لحم الخنزير =

وأمر كذلك بجمع البغـــايا فى دار تدعى « شيطانپور : أى محلة الشيطان » ووكل بهن عاملا خاصاً يقوم على شئونهن ، ثم أخذ من بعد ذلك يستدعى إليه كل واحدة منهن فيستوضحها عمن أغواها ودفع بها فى طريق الشرّ والفساد، لينتهى من ذلك إلى قتل كل من ثبتت هذه التهمة عليه .

ولم يـكتف بتعميم هذه الدور فى مناطق كثيرة ببلاده حتى أمر بأن يساق إليها كل زوجـــة يثبت إدمانها على الخصام والشجار مع زوجها .

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب [1] واختلاط النساء بالرجال فى الأسواق وعند شواطىء الأنهـــار طلبا للسقى أو الإغتسال .

وأعفى الهنادكة من ضريبـــة الرءوس ورفع عنهم رسوم

== فى صناعته «منتخب التواريخ ثان ٣٠١ »

١ — هذا الإجراء يعد ، على ضوء ملابسات القرن السادس عشر الميلادى ، من أنبل ماشرعه ملك ، فضلا عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الـكبرى فى الدعوة للتحرير وفك الرقاب . ولا ننسى أن الهنادكة كانوا يسقطون عن الأسرى قيمتهم الإنسانية فيسلـكونهم فى عداد المنبوذين. هذا وتجد بيان هذه التشريعات جميعاً فى الجزء الثالث من آيين أكبرى لابى الفضل بن المبارك بمواضع عـــديدة متفرقه منها .

الحج (١) ، حتى يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين . ولم يكتف بأن يصرح للذين أجبروا فى صباهم على الإسلام أن ينظروا متى بلغوا سنّ الرشد، فى البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آبائهم ، حتى راح ينادى بحرية الناس جميعا فى تخـــيُّر ما يروقهم من الأديان والعقائد ؛ ويسدى لهم النصح بألا يتعرضوا للذين يخالفونهم فى عقيدتهم بسوء أو أذى ، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمـــة حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق .

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل النـــاس أبداً على الدخول فى مذهبه الجديد هذا . ولم يلق بالا إلى رفض راجا بهگوان داس وراجامَن سنغ (٢) الإستجابة إلى دعـــوته ولا إلى احتجاج قائده عزيز ككا برغم أنه كان بوسعـــه ـ بطبيعة الحال ـ أن يحمل كثيرا من رجاله على الانتظام فى حزبه .

---

١ — كان يجبى من الهنادكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجيج إلى أماكنهم المقدسة ، وهذه هي التى رفعها أكبر عن كاهلهم ـ هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سير المحمل الهندى إلى الأراضى المقدسة.

٢ ـ كان من رد مان سنغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائما للموت فى سبيل السلطان ، وأنه على دين الهنادكة ، فاذا ما طلب إليه أن يسلم فقد يفعل ذلك ، وهو لا يعترف بغير هاتين الملتين على كل حال .

ولئن التف فريق من الناس حول المذهب الجديد جلبا للنفع وطمعا فى اكتساب الحظوة فى الغالب ، فإن الفشل التام قد أصاب البادشاه فى مشروعه هذا الذى لم يكن ليقوى أبدا على هدم التقاليد الموروثة ، فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها بعقائدها ومذاهبها .

ولم تكن حركة أكبر هذه إلا واحدة من المحاولات القوية التى اضطلع بها نفر من المسلمين والهنادكة ، من قبله ومن بعده ، للتقريب بين الإسلام والهندوكية وتضييق شقة الخلاف بينهما وإحلال التفاهم وتحقيق الوحدة بينهما .

وهـــذه التعاليم ، التى اضطلع بها كيتانيا ونانك وكبير وداراشكوه ، يلاحظ فيها تأثير التوحيـــد الإسلامى تأثيرا كبيرا ، حتى لترى فرقة السِّك الهندوكية تجهر صراحة بتعظيم النبى الأكرم على الخصوص ، وتمجيد القرآن الكريم .

وأدّت هذه الحركات فى الغالب إلى إضعاف روح التعصب الدينى والعِرْقى وأوهنت من ضغط نظـــام الطبقات إلى حـــدّ كبير .

وبلغ أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء الهنادكة حتى أولئك الذين لم يعتنقوا مذهبه الجديد ، واستطاع

وما أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التى كان يهدف إليها ويعمل فى سبيلها(١) .

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفه البادشاه هو صاحب السلطان المطلق فى الدولة الذى يوجه أمورها وفق هواه ، إلا أنه سار فى حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق ، فنظر إلى رعاياه دون أدنى تفرقة فى الدين أو الجنس ، فمارسوا جميعا طقوسهم الدينية على اختلاف مللهم ونحلهم فى حرية تامة ، فى الوقت الذى كان فيه ملوك أوروبا ينكلون أصحاب المذاهب

....

١ — لم يصرح أكبر فى الواقع بتنكره للاسلام أو خروجه عليه وإن اضطهد جماعة من شيوخ المسلمين . ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه ، فقد كانت السياسة هي دينه ، ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته . وما ذهب إليه السيد أمير على ، العلامة الهندى ، من أن أكبر لم يغفل فى حياته تعاليم الرسول والأئمة ، (Islamic culture. October 1927) إنما كان لاستمساكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى . وإن لم ينف ذلك عنه ورعه الخوض فى بعض مسائل الفروض والعبادات بما يخالف الشرع، فضلا عن تأثره بفكرة التناسخ عند الهنود وإعجابه بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التى تفرضها العرف وترسمها التقاليد الدينية ، واقتناعه بآراء اليوبانشاد فى القول بأن كل إنسان إنما يسمي الكائن الأسمي باسم يلائم وجهة نظره .

التى تغاير مذاهبهم فى المسيحية على ما كان يفعل الأليزابثيون مع كاثوليكي أيرلندا ، وأصحاب فيليب الثـــانى ملك أسبانيا مع البروتستانتيين .

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولى ليتردد عن مشاورة رجاله فى تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين ، حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أنه لم يعارض فى فرض ضرائب جديدةٍ عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قدراً مما كان يفرض عليهم من قبل .

وهذا السلطان، الذى قيل أنه قد أوتى حظا وافراً من رجاحة العقل حتى صار الموجه الفعلى لكافه المشروعات والإصلاحات التى تمت فى عصره ، كان يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، فى تصريف الأمور على طائفة من كبار الرجال فى الدولة وعلى رأسهم وكيل السلطنة ، وكان فى أول عهــده بالحكم بيرم خان قائده ومربية . ويأتى من بعد الوكيل فى المرتبة الوزير أو الديوان . وهو القيم على شئون المال فى الدولة ، وكان يشغل فى العادة مركزاً كبيراً فى الجيش (منصبدار) شأنه فى ذلك شأن جميع أصحاب المناصب فى الدولة ؛ ويليه مير بخشى وهو الذى يقوم بدفع مرتبات الجند والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها ، ويُعد مسئولا

بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص . ويأتى من بعده حان سامان وهو صاحب شئون البلاط ، وكان يلازم الپادشاه فى حله وترحاله ويشرف على شئونه الخاصة جميعها . ثم قاضى القضاة وهو الموكول به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع . وأخيرا المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموما .

وإلى جانب هؤلاء الكبار ، كان هناك فريق آخر من أصحاب المناصب المهمة ، دونهم فى المنزلة ، مثل المستوفى ، محاسب الدولة الأول ، والكُتْوَل وهو بمثابة رئيس الشرطة ، وكان يوكل إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث عن اللصوص وقطاع الطرق ومراقبة السكان ورقابة الأسواق ، ثم صاحب البريد وأمير العرض الذى يرفع إلى الپادشاه الالتماسات والشكاوى .

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دولته أنه كان ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات الدولة أن يبعثوا بها إليه ، كما كان يفتح أبواب قصره للناس يوما معلوما فى كل أسبوع ليتلقى منهم ظلاماتهم بنفسه أو يتلقاها من ينيبه عنه من ثقاته حين كان يتغيب عن مقرّه .

وكان صدر الصدور (المفتى) وقاضى القضاة ومساعدوهم

يعاونون البادشاه عادة فى الفصل فى ذلك كلّه وفق قواعد الشرع الشريف ، مع مراعاة رسوم الهنادكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشاكل ويقوم بينهم من خصومات .

وقد ألغى أكبر كثيراً من العقوبات البدنية التى تتنافى مع الإنسانية ، كبتر بعض أعضاء البدن ، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الأعدام منوطا بمصادقته شخصيا على الحكم .

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية فى الهند ، قبل عصر أكبر ، تعرف التقسيمات الإدارية فى الغالب ، اللهم إلاّ ماذهب إليه شيرشاه فى هذا الباب من قبل ، إذ كان تحديد الإقطاعات رهنا بمشيئة السلطان وحده .

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضى الدولة إلى ولايات « سپَه » وكل ولاية إلى عدة مراكز (سركار) وكل مركز إلى جملة دساكر (برگنْا) .

وكانت هذه الولايات فى أول أمرها اثنتى عشرة ، حتى إذا ما فُتحت الدكن بلغت خمس عشرة هى : آگرا والله آباد وأوده ودهلى ولاهور والمُلتان وكابل وآجمير والبنغــــال وبهار

وأحمد آباد ومالوه ومِوار وخاندش وأحمد نگر (١) .

وراس كل ولاية ، فى هذا النظام ، يدعى سپهسالار ، أى القائد العـــام ، وهو نائب السلطان بهـــا . ولم يكن له أن يدخل فى حرب أو يبرم التحالف والصلح دون مشورة السلطان ورأيه .

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء فى إقليمه . وله أن يعيِّن صغار العمال ويقيلهم . ولم يكن له أن يتدخل فى الأمور الشرعية التى هى من اختصاص الصدر وحده ، أو يصدر الحكم بالإعدام دون إذن السلطان نفسه .

ويليه فى المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم : الديوان ، والصدر ، والعامل ، والبتخشى ، والخزندار ، والفوجدار والكُتوَل ووقائع نويس . وبيان وظائفهم هو كالآتى :

الديوان : ويناط به شئون المال بالولاية ، وهو يلى السپاهسالار فى المرتبة . وكان فى أول أمره يعيَّن من قِبل أمير الأقاليم نفسه ، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعا له ليكون رقيبا من لدنه على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال ، ويحـــد من

---

١ — انظر آيين أكبرى لأبي الفضل بن المبارك .

سلطانه كذلك إذا لزم الحال .

الصدر : وهو صاحب الشريعة فى الإقليم كله،وكان فى العادة من العلماء أصحاب المهابة ، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره .

العامل : وهو صاحب الخراج ، وكان عليه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عُماله جميعا فى يقظة تامة وحذر على وجه العدالة ، وأن يجرى تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها ، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم وما يملكون ، ويطهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء .

البتخشى : وهو المحاسب الذى يراجع أعمال العمّال ورجال الدخولية ، ويشترط فيه أن يكون ماهرا فى الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات . وأن يسجل ذلك كله فى سجلاته بالتفصيل .

الخِزَندار : وهو صاحب الخزانة الحافظ لأموال الدولة ، وعليه أن لا يُخرج مالا دون إذن الديوان ، مع إيصال بالتسلم ، ويثبت ذلك كله فى دفاتره .

الفوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية ، وعليه أن يعاون السپهسالار فى إقرار السلام فى الإقليم كله ، ويعين العمال

ى تحصيل الضرائب من أهل القرى والدساكر الذين يمتنعون
ن أدائها ، على أن يكون ذلك بطلب مكتوب وتصريح من
حاكم وكان هو الذى يطارد بقواته عصابات اللصوص وقطاع
طرق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب فى الإقليم .

الكوتوَل : وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ
الأوامر والقوانين فى المدن .

وقائع نويس : وهو مسجل الوقائع ، وضابط الاتصال بين
الحكومة المركزية والولاية ، والرقيب الذى لاتخفى عليه فى الإقليم
منه خافيــــة .

وبواسطة هؤلاء الرقباء كان الپادشاه يقف على كل أمر ،
صغير أو كبير ، يجرى فى كافة نواحى دولته المترامية الأطراف .
وكان ، على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الاقليم ورجاله علما بما
يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتفصيلها
إلى السلطان .

وبرغم أن الپادشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا
ن مختلف أنحاء دولته وأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض
الآخر ، فإن صعوبة المواصلات وترامى المسافات ، مع اشتغال
الدولة نفسها بالحروب والغزوات المتواصـــلة فى الغالب ، قد

اضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكام الأقاليم يتصرفون عموما وفق هواهم وعلى مسئوليتهم الخاصة.

وامتدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظام خراج الأرض الذى كان يُعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرءوس عن كاهل الهنادكة وإعفائهم من ضريبة الحج .

ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض على نظام كفل العدل للمسلمين والهنادكة على السواء ، فقد سبقه إلى ذلك شير شاه سورى ، وإن كان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده فآثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحاف بالغ الأهلين .

وحين عهد أكبر إلى تُدر مَل وزير ماليته «ديوان أشرف» بوضع نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار الأهلون به ، عمد هذا الأخير أولا - على ضوء تجاربه السابقه بالگجرات حين عُهد إليه بتنظيم شئونها - إلى مسح أراضى الدولة كلها وبيان ما يجود منها فيُزرع على مدار السنة ، وما يُزرع مناصرة واحدة فى العام ، وما لا يُنبت إلا مرة واحدة فى كل بضعة أعوام ، وما يعتمد منها فى السقى على الأمطار ، وما يسقى منها من الأنهار والينابيع والآبار ، وما هو فى حكم

البور ، ومايقع منها فى السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تغطيه الاحراش والغابات (١) .

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج فى عشر سنوات ، على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقدا فى الغالب ، بعملة العصر ، وكانت دقيقة الصنع مضبوطة الوزن ، مالم يصب الزرع بآفة أو ينقطع الماء عن الأرض فتجدب .

كذلك حاول أكبر جاهدا أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات المروّعة التى كانت تدهمها حين كانت تجدب الأرض بسبب انحباس الأمطار الموسمية عنها . فاهتم إهتماما بالغاً باستصلاح الأراضى البور ، وحضّ الأهلين على الأشتغال بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضى المنزرعة،وأمدهم بما يحتاجونه من البذور ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض .

وكان من ثمرة هذه الجهود أن نعم الناس فى الغالب بحياة طيبة لم يألفوها منذ زمن بعيد ، وازدهرت عيشتهم ، وصارت الأسعار فى متناول أيديهم جميعا .

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر الحكومية والإدارية

١ — منتخب التواريخ ثان ١٨٩

والإقتصادية ، حـــين صار إليهم زمام الأمـور فى الهند .

وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهندوكى تدرمل ، بتوجيه من سلطانه ، حين أمر بتحرير سجلات الدولة كلها بالفارسية ، لغة المسلمين الرسمية بالهند إذ ذاك ؛ فأقبل كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلم هذه اللغة ، مما أدى إلى رواجها رواجا كبيرا(١) ، فهى اليوم ثانى لغات العالم الإسلامى انتشارا بعد العربية .

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردوية المكتوبة ، تلك اللغة التى هى مزيج من لغات المسلمين ولغات الهند ، والتى نشأت نشوءا غريزيا من صلات سكان الهندستان من المسلمين والهنادكة بعضهم ببعض ، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليل وتعم البلاد كلها .

الجيش : جرى سلاطين المسلمين فى الهندستان على الاستعانة فى حروبهم بما كان يمدهم به أصحاب الإقطاعات من الرجال فى الغالب . وكانت هذه الحشود ، على ضخامة عددها تجهل أساليب القتال وفنونه عموما ولا يتيسر لها فرص المران والتدريب. حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الإقطاع وصارت

---

١ — Lane-Poole 246-66

الأراضى كلها ملكا للدولة ، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة نواب للسلطان يوليهم شئونها على نظام مرسوم ، رأى أن ينهج فى تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلجى وشيرشاه سورى من قبل ، فتغدو للدولة قوات نظامية دائمة تقوم بدفع أجورها من الخزانة العامة .

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة الپادشاه نفسه فهى بمثابة حرسه الخاص ، ومنها من كان يعمل تحت إمرة حكام الولايات . هذا عدا القوات الخاصة التى كان يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة (المنصبدارية) .

وقضى هذا النظام على كثير من مساوىء سابقه ، ومنها ما كان يبذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن ، وما كان يستتبع ذلك من إرهاقهم لسكان الإقطاع وابتزازهم لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم وأملاكهم .

هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المشاة والمدفعية والفرسان والبحرية .

والمشاة ، إذا استثنينا منهم حملة البنادق (بندقجى) وأرباب السيوف (شمشير باز) ، لم يكن لهم فى المعـــارك شأن يذكر فى

الغالب . فعامتهم ، على كثرة عددهم ، كانوا يضطلعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير .

أمّا سلاح المدفعية ، وهو الذى أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ما ذكرنا من قبل ، وعرفه الگجراتيون من بعد ذلك على أيدى البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه فى حروبهم مع همايون ، فقد كان مناط عناية البادشاه الكبرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه . وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانة ومن العثمانيين ومولدى البرتغاليين بالهند . وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحدبه على إدخال كل تحسين ممكن عليه ، أنه احتال على تيسير استخدام قطعه الثقيلة ، التى كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر ، بأن وجه مصانعه إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده .

وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية فى الجيش ، حتى كان البادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله ، وينزل إلى حظائرها ، ويراقب تدريب رجاله .

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة ، وقوام كل واحدة منها كان يتراوح بين العشرة والثلاثين . وكان

كل فيل يحمل إسمـا خاصا به على العادة التى لاتزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم .

كذلك عُنى أكبر بتدعيم سلاحه البحرى وإن لم يبلغ به إلى درجة الأساطيل التى كانت تجوب أعالى البحار فى عصره على كل حال . وأغلب سفنه كانت تعمـل فى أنهار الهندستان وفى حدود موانيه ، ومن بينها ما كان يحمل المدافع الخفيفة وآلات الحرب .

وقام ، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه ، عدةُ مصانع لبناء السفن مختلفة الأحجام والأشـكال فى لاهور وأحمد آباد وكشمير . وكان يعمل على هذه السفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يفدون من ساحل الملبار وكمباى ليلاقوا من تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط فى جيشـه البرى .

هذا وتتباين أقوال مؤرخى أكبر فى تحديد عدد قواته، حتى ليذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان عنده بأربعمائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعة مـلايين .

والثابت المعروف أن الجيش الذى سار به البادشاه للقضاء على فتنة أخيه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم

قرابة خمسين ألفاً من الفرسان مع خمسة آلاف من فيول الحرب وألوف كثيرة من المشاة ، وجميعهم كانوا يتناولون رتباتهم من الخزانة العامة.

ومن الطبيعى أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات الولايات ، وينكمش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم .

الحياة والفكرية والثقافية : وقف المؤرخ عبد القادر ابن ملوك شاه بداونى فى المجلد الثالث من كتابه « منتخب التواريخ » على ذكر من عاصر أكبر واختلط به من الحكماء والعلماء والفقهاء والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة .

والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطانا مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب ، وأتصلت ندواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال وتوقير وتقدير ، حتى بلغ من احترامه لشيخه عبد النبى صدر الصدور مثلا أنه كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه . بل إنه حين بلغه مقتل وزيره الفضل ، وكان عالما ومؤرخا كبيرا مشهودا له بسعة الإطلاع وغزارة المعرفة ، اشتد حزنه عليه حتى ودّ لو كان هو المقتول مكانه ، فنوابغ العلماء ، على حد قوله ، لا يجود بهم الزمان إلاّ فى النادر القليل ، بخلاف الملوك وإن صلحوا .

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر ، المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه، وعبدالقادر بداونى سالف الذكر ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ومحمد عبد الباقى صاحب مآثرِ رحيمى . وكان أبعد هؤلاء ذكرا وأخلدهم صيتا الوزير أبوالفضل بن مبارك العلاّمى الذى لعب دورا هاما فى توجيه آراء الپادشاه الفلسفية ومبادئه المذهبية على السواء . وله كتابان مهمان أولهما أكبر نامه ؛ وفيه يستعرض تاريخ الدولة منذ نشأتها ، وقد أكمله من بعده الشيخ عناية الله ليتم به تاريخ حكم الپادشاه كله ، ثم آيين أكبرى الذى يعد ثبتا كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصّل عن الهنادكة ورسومهم وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى دون أخيه أبى الفضل فى نباهة الذكر . فهذا الشاعر الذى لم يكن له نظير فى عصره، حتى كتب فى المثنوى والديوان أكثر من عشرين ألف بيت ، كان على نبوغ كبير فى الكتابة والفقه ثم الطب الذى بلغ من شغفه به أن أوقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من

النوادر فى الشعر والطب والفلك والموسيقى والرياضيات والفلسفة والحديث والفقه . وقد نقلت جميعها ؛ على أثروفانه ،إلى البلاط بعد تصنيفها . (١)

وإلى جانب فيضى ، اشتهر الشاعران الهند وكيان تنسى داس وسورداس اللذان كانا يجيدان النظم فى الفارسية والسنسكريتية معا.

ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات عصره الفنية الرائعة التى يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى اليوم . ولقد وفد إلى بلاطه جملة من مشاهير النقاشين الفرس وعلى رأسهم ميرسيد على وعبدالصمد،فلقوا عنده كل عنايةو تشجيع. ودفع بأكبرولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش مرة فى كل أسبوع تشجيعاً منه للفنانين وتشحيذاً لهمهم وإغراء لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده .

ولم يغفل بدوره كذلك عن تشجيع فنانى الهنادكة حتى نشأ من بينهم طبقة فئة غدت تنافس نقاشى المسلمين فى أكثر من ناحية (٢) .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتى من الأحاسيس الفنية

---

١ — بداونى منتخب التواريخ ثالث ٣٠٥

٢ — Laurence Binyon : The court Paimters of the Grand Moghul. Oxford 1921 .

ما جعله يصرّح بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبدو ، طريقته الخاصة للإقرار بواحدنية الخالق المبدع . فهو ، حين يصوّر الكائنات الحيــــة وينقش أعضائها وأطرافها وملامحها على لوحته ، لا بُد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى التفكير فى إبداع خالقها الذى نفخ فيها بمـــا يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وقد تخلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياة البلاط ورسومه وكثيرا من مظاهر المجتمع لعصره فى إبداع منقطع النظير .

ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها الذائع فى عالم الفنون على كل حال .

كذلك كانت مصانعه تخرج طُرفا من النسيج المزركش والسجاد الفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان .

ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير والنقش . وما تزال الأنغام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التى تعد بحق من مبتكرات العصر الأكبرى ، ففى القصور والمساجد والحمّامات وغيرها من المنشآت ، بمدينة فتحپور على الخصوص ، ما يُعد من بين خير نماذجها

التى تجلت رائعة فيما بعد فى مثوى تاج محل بآكرا الذى يعد من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هى جملة ،باعتراف المؤرخين الأوربيين . لم تكن فى عصر أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها فى بعض نواحيها (١) .

ابتُلى أكبر فى أواخر أيامه بكوارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدّت من كيانه . من ذلك فقده لولديه مراد ودانيال على التوالى بإدمانهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر سليم وعصيانه له حتى دبّر مقتل الوزير العالم أبى الفضل بن المبارك أعظم خلصاء البادشاه وأكبر مستشاريه (٢) .

واشتد الداء على أكبر عام ١٠١٤ هـ/١٦٠٥م فأسلم روحه إلى بارئها فى جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز كُكا ومعه الأمير الهندوكى راجا مَن سنغ ، والبادشاه فى أيامه الأخيرة ، أن يمهدا للمناداة

---

١ — V. A. Smith. History of Fine Arts in India and Ceylon. Oxford 1930 .

٢ — تكمله أكبر نامه لعناية الله ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣

بالأمير خسرو، ابن سليم وحفيد أكبر، سلطانا على الهند بدلا من أبيه الذى أدى ببغيه إلى تمكن كراهيته من قلوب الكثيرين . لكن تدبيرهما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو فى النزع فقلده سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده[1] .

ولم يكن أكبر بهى الطلعة ، وإنما كان قوى البنية مقداما شجاعا ، لم يتقاعس أبداً عن مشاركة جنـــده فى أعنف المعارك أو يتردد فى مواجهة أضرى النمرة والأسود والفيلة وأشدها شراسة فى المصطاد : كما كان يستخف بأربعين ميلا يمشيها فى اليوم الواحد : ويندفع بحصانه فى مجرى الگنج إبان موسم الأمطار والفيضان وسيوله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصا : حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حدّ .

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة التافهة بنفسه ويضمها إلى صدره ممتنا، مع أنه كان لا يكترث بهدايا الأمراء والأعيان (٢) .

---

١ — وقايعي « حالات » اسعد بك قزويني ١٦٩ ـ ١٧١

٢ — الهند وجيرانها ١٣٧

وكان،إلى جانب نظافته الشديدة،بسيط الثياب فى الغالب ، فلم يكن يميل كثيرا إلى التحلى بالجواهر ، غير كلف بأنواع المآكل والمشارب . ولقد أقلع فى كهولته عن تناول الشراب ، ولكنه ظل طوال حياته مدمنا على تعاطى معجون الأفيون،وهى رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلا (١) لتوردهم موارد الردى فى سن مبكرة فى الغالب .

هذا وكان أكبر طموحا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسّرت له أن يقضى وقتا مرسوما فى النظر إلى شئون الدولة وماتقتضيه نظمها من ضروب الإصلاحات التى كان يجيش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يفدون إليه من كل أمة على إختلاف مذاهبهم ومللهم، حتى شهدت الهند فى عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

وترك أكبر من بعده لابنه دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن .

---

١ — جرب البادشاة كذلك التدخين وكان التبغ حديث الورود إلى الهند . وقايعي أسعد بك ١٦٥ — ١٦٧ ، وفى هذه الصفحات نقاش طريف بين أسعد بك وطبيب السلطان الذى كان يحذره من الأندفاع وراء تقاليد الاوربيين في عاداتهم دون تبصر .

..كان هو أول من انتقـــل بالبابريين من محاربين وطلاب
.مغامرات إلى أصحاب أسرة مالـكة عظيمة . ذلك أن بابر ، أول
..لاطين المغول فى الهند ،كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحه
..يلة حياته ، فى حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره فى
.لنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذى كان قد انتزعه منه الأمير الأفغانى
..ير شاه سورى ، وطرده من الهند كلها ، ثم كُتب الاستقرار على
..لى عرش الهند لأبى الفتوح جلال الدين محمد أكبر. فتجلت عبقريته
.ف تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ،حتى كانت طريقته فى الحكم
..ى التى أذاعت من صيته أكثر مما أذاعته فتوحاته ، فأجمع كثير من
.المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفته الهند ، حتى ليسلك كذلك
..ن أعاظم الملوك فى التاريخ طرا (١).

---

١ — Lane-Poole 288 - Dunbar. 197

جِهـانگيـر

لم يكن أكبر ، وهو من هو فى رعايته للعلم والعلماء ، لينسى لابنه سليم مقتله لوزيره المؤرخ العالم أبى الفضل بن المبارك . كذلك لم يكن ليروقه منه ولعه الشديد بالشراب ، حتى جال بخاطره يوما ، بتحريض من صديقه رانا مَن سنغ وقائده عزيز كُكا ، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيده خسرو .

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تدبير هذا الأمير حين قدم إلى أبيه مستتيبا عما بدر منه من عصيان وعقوق فى السابق ، ليجلس من بعد ذلك على عرش الهند فى آگرا فى الثامن من جمادى الثانى عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م باسم السلطان أبى المظفر نور الدين محمد جهانگير .

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب ، فقد كان على درجة كبيرة من الثقافة ، شغوفا بالمعرفة التى نشّأه أبوه عليها ، متشبثا بالتسامح المطلق الذى دأب أبوه على غرسه فى نفسه وبثّه فيه ؛ حتى غدا فى ذلك كله صورة مصغرة لسلفه أعظم سلاطين

...ـد المسلمين بلا شبهة .

ودفع جهانكير حرصه البالغ على ضمان إجراء العدل المطلق فى دولته ، بالوقوف على شكاوى رعاياه والنظر فى تحقيقها بنفسه ، إلى أن أمر بمد سلسلة العدالة التى ذاع صيتها عنه : « أول ما أمرت به بعد جلوسى على العرش هو مدّ سلسلة العدالة لأطّلع بنفسى على شكاوى المظلومين من إهمال رجال ديوان العدالة لأمرهم » [1] . وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطـول ثلاثين ذراعا ، وتتدلى منها أجراس سبعة ، وتمتد من شرفة البرج السلطانى الخاص بقلعة آكرا لتبلغ أسطونا شُدّت إليه عند شاطىء جمنة . والغالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمال كان أقوى من إرادة السلطان ، فلم تُحرّك هـذه السلسلة وتهز أجراسها إلاّ مراتٍ قليلةً .

هذا كما كان فى أسفاره ورحلاته الكثيرة لا ينى عن تفقد أحوال الناس والجلوس إليهم وتحقيق مظالمهم بنفسه .

دستور أمل : ودعم جهانكير صنيعه هذا بإصدار « دستور أمل » وهو أثنتـا عشرة وصية وجهها إلى عماله ليسيروا على

---

١ ــ واقعات جهانكيرى ص ٢٨٥ . وهي تقليد جرى عليه بعض حكام الصين الاقدمين .
Modern Universal History . vol . vII p 206

هديا فى علاقاتهم برعاياه وتدبيرهم لشئون الدولة .

وقد نظَّم هذا الدستور وظائف الدولة ومناصبها المدنية والعسكرية والدينية على السواء ، وفسر شئون الميراث وقوانين الضرائب ، ودفع عن كاهل الأهلين ما كانوا يلزمون بدفعه للولاة والعمال من الضرائب ليفيدوا منها لأنفسهم ، كما حظر تطبيق العقوبات التى تؤدى إلى جدع الأنف أو قطع الأذن أو بتر أى عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب . كذلك حرّم هذا الدستور تعاطى الشراب وصناعته وتجارته ، وحضّ على إقامة دور الشفاء فى كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء ، على أن تقوم الدولة بالإنفاق عليها ، فتصرف الغذاء والدواء للمرضى بالمجان ، وحرّم على الولاة والعمال استخدام أقاربهم فى مناصب الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهلين دون إذن صريح من السلطان ؛ وحثَّهم على إضفاء الأمن والطمأنينه على الناس فلا تُغتَصب أملاكهم أو أموالهم ، وأن يكفُوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التى يأوى الأشرار عادة إليها ، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر الآبار فيها فيأنس الناس إليها .

كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب

والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علما مرسوما (١) .

ونهج جهانكير نهج أبيه أكبر فى التشبث بالتسامح المطلق إزاء رعاياه من الهنادكة على الخصوص فقرّبهم إليه وفتح لهم باب المناصب الرفعية فى الدولة .

والثابت أن هذه السياسة قد ساعدت فى كثير من الأحوال على إقرار السلام فى أراضى الدولة المغولية المترامية الأطراف أكثر مما عاونت عليه قواتها العسكرية وآلاتها الحربية . وحين عدل حكام هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التسامح هذه التى جرى آباؤهم عليها ، أخذت الدولة تتعرض لمتاعب شديدة دفعت بها آخر الأمر فى طريق التفسخ والانهيار .

ولئن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برسنغ ديو ، قاتل الوزير أبى الفضل ، بالكثير من الرّعاية ، فإنه لم ينس ، على كل حال عبد الرحمن خان خانان بن الوزير المقتول فرفعه مكانا عليا . كما تغاضى كذلك عن فعلة القائد عزيز ككا وراجا مَن سنغ ، حين كادا يميلان بأبيه إلى ابعاده عن ولاية العهد، فأجزل عطاءه لهما ، وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو الذى كادا يناديان به مكانه فى السابق .

١ ـ واقعات جهانكيرى : ٢٨ ـ ٢٨٧ .

ثورةالأميرخسرو : ما غدت نوازع الشباب الغض وأطماعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن لهمن بين الكبار فى الدولة ظهراء فى آماله ، فانطلق من حصن آ گرا ، حيث كان أبوه يستبقيه به تحت عينيه ، واتجه إلى البنجاب فى بضع مئين من رجاله وقد رفع بنود العصيان .

وانضم إليه فى الطريق بعض صغار القادة ومعهم عبد الرحيم ديوان لاهور ، الذى اتخذه وزيراً له ؛ كما نفحه گورو أرجونا زعيم طائفة السك وصاحب جرانث صاحب ، أقدس كتبهم ، قدراً كبيراً من المال بدوره ، حتى إذا ما بلغ لاهور ؛ امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها ، ليقبل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيصدّه عنها ويوقعه فى أسره ويمثل بمن مالأه فى عصيانه من القادة أشنع تمثيل (١) .

وكان مادفع بجهانگير إلى خروجه بنفسه عَجِلا فى أثر ابنه، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوّه راجا مَن سنغ فى البنغال ، أو الأوزبگ والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيُفتح بذلك بابٌ للمتاعب والأخطار التى لا تحمد عاقبتها .

١ — واقعات ٣٠١ ، ٣٠٢

على أنه ارتكب خطأ شنيعا حين أمر بقتل زعيم السّك ،
.. رو ،لمدّه ابنه الثائر بالمال ، وكان فى مقدوره أن يأتى بهذا الشيخ
.. الحبس حتى يوافيه أجله بسلام ، فيتجنب بذلك إثارة عداء
.. فة السّك الكبيرة القوية التى رفعت شهيـــدها إلى مرتبة
.. ديسين،وراحت تنادى على طول الزمن بالثأر لمقتله ، فساهمت
.. داتها هذا مساهمة فعّالة فى تعجيل انهيار بناء الدولة المغولية
.. ين بدأ الضعف يعتورها .[١]

وكأن الحبس لم يفتّ فى عضد الأمير خسرو ، فما غدا بعد
.. ليل أن استمال إليه نفراً من حرّاسه ليتآمروا معه على قتل
.. لسلطان . حتى إذا ما وقف جهانگير على تدبيرهم، حين بلغ لاهور
.. ادما من كابل حيث كان يستجم ، أمر بقتل المتآمرين ، دون
.. نه الذى سملت عيناه وإن ترفق به الكحال حتى استرد بعض
.. صره بعد قليل . وقد بقى ، خسرو فى محبسه حتى وافاه أجله بالدكن
.. ام ١٠٣١ هـ : ١٦٢٢ م .[٢]

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال فى البنغال،
.. كثرة توالى الحكام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به ، إلى أن

---

١ — Prasad, Muslim Rule. p. 432

٢ — انتخابات جهانگيرشاه ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

جمع الأفغان هناك شملهم من جديد ، فراحوا بزعامة من يدعى عثمان أفغان ، يثيرون القلاقل والفتن ، حتى قدم إليهم القائد مهابت خان فقضى على عصيانهم وأقر الأمور فى هذه البلاد من جديد .

وكان لحسن صنيع جها نگير مع زعماء الثوار فى البنغال ، حين عفا عنهم وقلد بعضهم مناصب فى الدولة ، أكبر الأثر فى ركونهم إلى طاعته وتفانيهم في خدمته .

وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار سنغ صاحب موار فوصله وابنه وبالغ فى إكرامهما .(١)

مـلك عنبر : كانت الدكن قد ظهر بها قبيل وفاة أكبر وزير حازم وقائد شجاع هو مـلك عنبر الحبشى وزير ملوك نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نكر .

وقاد هذا الوزير بصيرته النافذه إلى الإفادة من المرهتها الهنادكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور فى القتال ، فدربهم على حرب العصابات ومعارك الأدغال .

وقد استفحل أمر هـذه الطائفة حين بدأ الضعف يدب فى الدولة المغولية . فصارت لهم دولة وقوة رهيبة طفقت تهدد حكام

---

١ — Muslim Rule. pp 445,6

الهند المسلمين تهديدا خطيرا .

وأمكن لهذا القائد الحبشي أن يسترد أغلب الأراضي عند أسيرگاه وما حولها ، وهي التي كان قد استولى عليها أكبر ومنعه خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها . حتى إذا ما توالى قواد جهانگير على الدكن فصدّهم عنهـا وأرغمهم على الارتداد إلى الگجرات [١] ، بعث السلطان بالخان خانان فمهّد الأرض بضرب العدو ، ليقدم شهزادة خرّم من بعد ذلك ويقر الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية إلى أراضي الدولة ، وإن لم تكسر شوكة الوزير الحبشي ورجاله ، حتى تمكن خليفته حميد خان ، وكان من بني جلدته ، أن يصرف قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال .

قد أقام السلطان ابنه خرّم نائبا له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو اللقب الذي عُرف به من بعد ذلك في التاريخ .

كذلك كُتب لجهانگير التوفيق بالاستيلاء على حصن كنجرا الهندوكي الشهير عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهرا . وكان قد امتنع من قبل على فيروز تغلق وأكبر نفسه ، بل وكل الفاتحين المسلمين منذ أيام محمود الغزنوي الذي تم له اقتحامه

---

١ — واقعات ٣٣٣ ، ٣٣٤

فانتهب ما بمعبد نكركُت الذى يقع فى نطاقه من أموال وكنوز(١)

ثورة شاهجهان : أدى ضياع قنـــدهار من أيدى الدولة المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان،بتحريض من زوجته نورجهان ، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه وجهره بعصيانه له .

ذلك أن هذه المدينة فضلا عن أهميتها التجارية الكبيرة ، حتى كان يمر بها فى العام الواحد ما ينوف على أربعة عشر ألف جمـــل تحمل البضائع فيما بين الهند وفارس ،كانت موقعاً حربياً خطيرا عند حدود الهند الشمالية الغربية ، مما حدا ببابر وأولاده من بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ بها فى أيديهم

ولئن كان الفرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلى عنها إلى حين ، فإنهم لم يعدلوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت فيها أو تغفل عيونهم عنها أبداً . فانتهز الشاه عباس الصفوى فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند عند وفاة أكبر فزحفت قواته إلى المدينة ، فما زال أميرها شاه بيگ خان ممتنعا فيها حتى وافته قوات جهانگير فأبعدت هؤلاء الغزاة عنها .

هنالك شرع الشاه الفارسى يلاحق محاولاته الودية عند

١ — واقعات ٣٧٤ ، ٣٧٥

السلطان الهندى علّه يسترد مدينته سلما . حتى إذا ما أيقن بفشل مساعيه بادر عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م بضرب الحصار عليها .

وحين طلب جهانگير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من الدكن إلى قندهار لدفع الفرس عنها ، خاف إن هو سار إلى خارج الهند ، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان فى غيابه ، وكانت قد شرعت تحشد جهودها ومعها أخوها آصاف خان لحمل السلطان على جعل ولاية العهد للأمير شهريار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من زوجها الأول شير أفكن ، فجهر بعصيانه لأبيه حتى رفض أن يسيّر إليه جند الدكن حين طالبه بها .

هنالك اهتبلت نورجهان هذه الفرصة التى سنحت لها بذلك ، فراحت تحط من قدر الأمير الثائر وتُعلى من قدر ختنها أصغر أبناء السلطان حتى عقد له جهانگير لواء حملة قندهار .

وفيما كانت السلطانة منهمكة فى تنفيذ خططها ، سقطت قندهار بأيدى الفرس ، لتفد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوى إلى جهانگير وتؤكد له حق أميرها المتوارث وقومه فى هذه المدينة فيتقبلهم بقبول حسن ويبعث فى أثر قواته يأمرها بالارتداد إليه .

وقوّى من جبهة نورجهان أن كان يناصرها فى خططها فريق من كبار القواد والأمراء ، وفيهم آصاف خان ومهابت خان وبرسنغ

بندلا قاتل أبى الفضل ؛ وها هو السلطان نفسه يسير برأيها ؛ وموارد الدولة كلها رهن تصرفها .

واشتبك الخصمان ، السلطان وابنه ، فى قتال عنيف عند الجنوب من دهلى. حتى إذا مادارت الدائرة على شاهجهان ، فاعتذر ملك عنبر وسلطان غولكونده عن مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن ، انطلق إلى أوديسه فتم من هناك إخضاع البنغال وبهار له . على أن فشله فى الاستيلاء على أوده والله آباد ، وما تكشف له من تفشى الخيانة بين صفوفه ؛ اضطره إلى الارتداد إلى الدكن من جديد ، فرحب به ، فى هذه المرة ، ملك عنبر الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذاك مع قوات الدوله فى بيجاپور .

ووضح لشاهجهان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن ، فلم يكد يكتب إلى أبيه مستتيبا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه ، على أن يبعث بابنيه ، دارا شكوه وأورنگزيب ، وكانا حدثين إذ ذاك ، رهائن بدار السلطنة (١) .

مهابت خان : لم تكن نور جهان لتذهب هذا المذهب فى حمل السلطان على الإستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدالها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على خطتها وهدفها الأكبر فى

---

١ — تتمة واقعات ٣٩٦

الحصول على البيعة لختنها شهريار .

ذلك أن مهابت خان ، وهو ذلكم القائد القدير الذى تم على يديه إقرار الأمور بالبنغال ودحر قوات شاهجهان من بعد ذلك ، ساق ذرعا بنورجهان التى غدت تسيطر بنفوذها على شئون الدولة والتى أدى بها غرورها إلى الحط من أقدار كبار الرجال ، فانطلق يدعو لأخذ البيعة لبرويز ثانى أبناء السلطان ، وكان طوع يمينه ، ضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلا .

وأدى غلو السلطان ، بتحريض من زوجته ، فى اضطهاد ابنه وقائده حين أمر الأول بالسير إلى الدكن والثانى بالتوجه إلى البنغال ، إلى أن فر الإثنان من عنده وخرجا عن طاعته .

وما غدا مهابت خان أن كمن للسلطان وهو فى طريقه من لاهور إلى كابل قادما من كشمير ، فسقط عليه فى خمسة آلاف من محاربى الراجبوتيين الاشداء عند نهر جهلم رافد السند وأوقعه فى أسره (١) .

ولم تفلح نورجهان أول الأمر فى فك أسار زوجها ، فباءت محاولتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورهما فى الأسر ، لتصل بدهائها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير فى

---

١ — إقبال نامة جهانكيرى ٢٥٧

حفنة قليلة من رجاله ، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس فهرب إلى الدكن .

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لنجدة أبيـــه حين علم بوقوعه فى الأسر ، فـــلم يبلغ السند حتى وافته رُسل نورجهان تنبئه بما أشاعه خبر مقدمه من الاضطراب فى صفوف مهابت خان ، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه ؛ وتشير إليه بالارتداد سريعا إلى الدكن لإقرار الأمور فيها.(١)

نور جهان : هذه السيدة ، التى صارت صاحبة السلطان المطلق فى الهند فى عهد جهانگير ، هى ابنة تاجر فارسى يدعى ميرزا غياث ساقته الأقدار إلى بلاط أكبر فولى ديوان كابل واضطلع به فى مقدرة فائقة . وما غدت ابنته هـــذه ، وكانت تدعى مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسى آخر يدعى على قلى استاجلو ويشتهر كذلك باسم شيرافكن ، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان خانان الذى ألحقه بأحد المناصب فى الجيش .

وصحب على قُلى هـــذا الأمير سليم (جهانگير) حين سيّره أبوه أكبر لقتال رانا موار ، ولبث معـــه

---

١ — مآثر جهانگيرى ٤٤٤ — ٤٤٥

كذلك بعض الوقت بالدكن ؛ حتى إذا ما خرج الأمـــير على أبيه ، كان ذلك القائد الفارسي من بين الذين تخلوا عنه من القادة وتركوا بمعسكره .

وحين ولى جهانـگير العرش ، فتناسى لكل رجال أبيـــه السابقين ما كانوا قد ارتـكبوه فى حقه وشملهم جميعا ببرّه ، عهد إلى شيرا فـگن بدوره بأحد المناصب فى البنغال ؛ حتى إذا ما استراب فى اتصاله بعصاة الأفغان هناك ، فبعث إلى نائبه البنغالى قطب الدين يأمره بتسييره إليه ، اهتبل هذا القائد فرصة انفراده بحاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضى عليه، لولا أن أسرع إليه حرس قطب الدين فمزقوه إربا بسيوفهم وأنقذوا أمـــيرهم .

وسُـيّرت أرملة شيرا فـگن عقب ذلك إلى البلاط فلبثت به سنوات أربع حتى بنى بها جهانـگير عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م .

وماتقوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيـّدة منذ أن رآها بالدكن أيام أبيه ، حيث كان زوجها يسير فى حاشيته ، حتى انتهى إلى تدبير مقتل زوجها بالبنغال لتخلص له، قد نجد له سندا فى حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شيرافـگن ، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساقٍ عنـــد الشاه الصفوى إسماعيل الثانى ، وأنه سار سيرة أهل

البغى والفساد فى البنغال (١) .

ولعل بناء جهانكير بهذه السيدة، بعد أن تركها تقيم سنوات أربع فى حرم أمه ؛ إنما كان فى الغالب لينسى الناسُ قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير أليم . وأيًا ما كانت حقيقة المسألة ، فإن هذه السيدة ، التى كانت لاتزال على جمال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان . قد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الذكاء ورجاحة العقل ما يسرّ لها أن تغدو صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة، حتى خضع لمشيئتها السلطان والقادة وتقبلوا جميعا مشورتها بأحسن القبول . ولا أدل على دهائها وسعة حيلتها من نجاحها فى تخليص نفسها وزوجها من أسر القائد مهابت خان والإيقاع به بدوره على ما فصلناه من قبل .

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشجاعتها الخارقة ، حتى انبرت لصراع أشد الكواسر فتكا ، كما كان لها كذلك مشاركة فى الدراسات الأدبية وتفنن ذائع فى تصميم الأزياء ونقوش النسيج والجواهر والحلى (٢) .

---

١ — اقبال نامه ٢٠٤ ، ٢٠٥

٢ — Muslim Rule. 441

ولقـــد كان حريا بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التى حققت الكثير منها ، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثير من الجور عنها وساهمت مساهمة فعالة فى معاونة الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج . فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجها ، حتى ضربت السكة باسميهما(١) وذيلت مراسيم الدولة بخاتميهما جنبـــا إلى جنب ، إلى أن طفقت ، بوحى من أطماعها ، تعمل لحمل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختنها الأمير شهريار ، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان ، صاحب الحق الأول فى ولاية العهد ، حتى جهر بالخروج على أبيه . ونهج نهجه كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حين رأوا هذه السيدة تعمد ، بدافع من غرورها وكبريائها ، إلى محاولة النيل من أقدارهم ، لتزعزع هذه الدسائس والفتن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها من بعد ذلك .

وساعد على إطلاق يد نورجهان فى تصريف شئون الدولة ، فضلا عن وله جهانكير بها ، ما كان من إدمانه على الشراب ، الذى قضى على أخوية وهما فى ميعة الشباب من قبـــل ، وتعاطيه

---

١ — Lane-Poole 317

للأفيون ، حتى قضى فى ٢٨ صفر من عام ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م ، والكأس فى يده ، بعد أن حكم أثنين وعشرين عاما.

شخصية جهانكير : لولا محنة الشراب التى ابتلى بها جهانكير لأفادت الهند منه خيرا كثيرا .

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أبيه العالية التى أرادها له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضائل . فنهج نهج التسامح المطلق فى حكمه وقرّب إليه المسلمين والهنادكة على السواء ، ولاطف الأوربيين ومبشّريهم حين قدموا إليه .

هـذا ، كما كان له مشاركة كبيرة فى الدراسات الأدبية والتاريخية ، وإلمام واسع بعلوم الحيوان والنبات خاصة ، وشغف بالغ بالحدائق وتنسيقها بل وبتزويدها بكل نبت جديد ، مما لم تكن تعرفه الهند ، على ما كان يفعله جدّه بابر من قبل .

وبلغ من رسوخ قدم جهانكير فى الفنون الجميلة ، وبخاصة فى فن النقش والتصوير ، أنه كان فى مقدوره أن يميز نقوش كل فنان بخصائصه ، فى سهولة ويُسر ، حتى عند ما يشترك جملة منهم فى نقش واحد [1] . وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور

---

١ ــ واقعات ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

..ذكهم وأمرائهم ، كان يأمر نقاشيه بنقلها ، تترا ، ليزين بها ..جدران بلاطه .

وقد كتب بدوره سيرته ، على غرار ما فعل آباؤه فى الغالب ، .. ضمنها الكثير من أعماله ومشاهداته . ويؤكد صـــدق روايته ..عموما ، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين ..زاروها (٢) .

البريطانيون عند جهانگير: أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن ..بلغ ثراء الهند الطائل ، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم ..المسيحيين وملاطفتهم لهم ، أن قصد هـــذه الأرض فى القرن ..السابع عشر الميـــلادى نفر من تجار الهولنديين والبريطانيين ..والفرنسيين ليبغى كل واحد منهم لأمته قدرا من الامتيازات ..ظاهرها التجارة وباطنها وهدفها الاستعمار .

وسبق البرتغاليون الأوربيين جميعا إلى الهند على ما فصلناه ..من قبل ، ثم جاء الهولنديون فى أثرهم ، وكان لهم نشاط تجارى ..ملحوظ فى جزر الهند الشرقية ، وفى جاوه وبتاڤيا على الخصوص، ..نجحوا فى إقامة بعض مصانع لهم بسورات بالگجرات وعند ..شواطىء ڤيايانگر وغولكونده الشرقية ، ودعموها بالحصون

---

١ — Muslim Rule 467-72 Morland, India 231

لتقف فى وجه منافسيهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد . وما زالوا يجدّون فى نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آ گرا نفسها (١) .

واقتفى البريطانيون أثر الهولنديين فى غزو الأسواق الآسيوية والهندية بخاصة . وجاءهم إلى الهند عام ١٦٠٨م وليم هوكنز ، فكان أول بريطانى يظهر فى آ گرا ويلتقى بالسلطان . وحين عرض على جها نگير رسالة من مليكه جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده ، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيرا حتى أذن له بمشاركته مجالس شرابه . وبقى عنده فترة من الزمن ، حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه ، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذى ابتغاه . وكان مما ألقاه هؤلاء إلى السلطان فى شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملك صغير على جزيرة صغيرة ، تدعى انجلترا ، أغلب سكانها من صيادى الأسماك . (٢)

ومهد ازدياد النفرة بين حكام الگجرات والبرتغاليين

---

١ — Dunbar, India 220

٢ — Lane-Poole, 263-302

ومشيريهم ، إلى الترحيب بتوماس رو مبعوث ملك الإنجليز حين وصل إلى هناك من بعد ذلك عام ١٦١٥ م ، فاستطاع بلباقته وحزمه وما جلبه معه من الطرف والجواهر والحلى ، وما قدمه لرجال الدولة من الهدايا الفاخرة ، أن يبلغ عند السلطان مكانة ملحوظة ويصل إلى ما يريد. فثبتت شركة الهند الشرقية البريطانية أقدامها فى أماكن عدة ، وصار لها مصانع فى سورات ، وعند ساحل كوروما ندل ، وغولكونده ، وإلى الجنوب من مدراس .

وقد وصف هذا السفير وسلفه ، سلطان المغول الهندى وبلاطه وما كان له من أبهة بالغة ، كما تحدثا عن نظام حكومته وجيشه وتقاليد القوم ورواج الثقافة عندهم .

هذا ، وكان التجار الأوربيون يحرصون عموما على أن يجلبوا إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويغمروا أسواقها بالكماليات وأدوات الزينة التى كان الناس هناك يكلفون بها كلفا شديدا ويتهافتون عليها تهافتا عظيما ، ليأخذوا منهم فى نظيرها المواد الأولية والبهار والقطن والنيلة ، فيجنون من مقايضاتهم هذه أرباحا طائلة وغنما وفيرا . وكانت هذه المقايضات تجرى فى الغالب فى موانىء بروج وسورات وكمباى وقاليقوط ثم فى كلكتا

من بعـــد ذلك . (١)

وكان مما يَسّر للبريطانيين على الخصوص غزو أسواق الهند، خلو جالياتهم أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل فى شئون الناس وتظاهرهم بالمودة والمداهنة لهم .

وادّى تعرّض البرتغاليـــين لبعض السفن التى كانت تحمل بضائع برسم السلطان ، مع نفور الناس منهم ، إلى أن أغرى جهانكير البريطانيين بقتالهم ، بعد أن طردهم من بلاطه ، فنزلت بهم فى البحر ضرباتٌ قاصمـــة .

وكسب التجار البريطانيون بصنيعهم هـــذا امتيازات أخرى ما زالت تزداد على مر الزمن ، وماغدوْا يدعمونها بالخبث والدهاء ويثبتونها بالغدر والخيـــانة حتى وضعت بريطانيا أيديهـا على شبه القارة الهندية كلها .

---

١ — Dunbar 213

شاهجهان

حين مات جهانگير سارع آصاف خان بإنباء صهره شاهجهان بالدكن بالخبر ، ثم عمد من فوره إلى إخراج داور بخش ، حفيد السلطان الراحل من ابنه خسرو ؛ من محبسه وأجلسه على العرش ، ليتقى بهذا الإجراء المؤقت ماعساه أن يحدث من اضطراب الأمور فى المدينة ، حتى يتأتى له تخليص أولاد شاهجهان ، محمد داراشكوه ، وشاه شجاع ، وأورنگزيب ، وكانوا جميعا يقيمون عند نورجهان [1] منذ أن بعث بهم أبوهم رهائن فى دار السلطنة .

ولم تكن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوها آصاف فحرضت ختنها الأمير شهريار على أن ينادى بنفسه فى لاهور ، قصبة البنجاب ، سلطانا على الهند . وظاهره على هذا الأمر أمير من أولاد عمه دانيال ، ليسارع إليه من بعد ذلك آصاف خان بنفسه ويقتحم المدينة عليه ويُلقى به فى الحبس بعد أن سُملت عيناه .

---

١ ــ باد شاهنامه ص ٥

وتناهى خبر ذلك كله إلى شاهجهان ، ولما يبرح الدكن بعدُ ، فكتب في التو إلى صهره آصاف خان يحرضه على القضاء على منافسيه جميعا ، فكان لتنفيذه كل مارغب فيه زوج ابنته أكبر الأثر في ارتفاع مكانته عنده وازدياد نفوذه في البلاط بالتالي ، حتى صار وزير السلطان الأول ولُقب بيمين الدولة . ولم تكتب النجاة من مذبحة آصاف خان تلك إلا لداوربخش فلاذ ببلاد فارس حتى أواخر أيامه .

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعتزل الحياة العامة . وقد تناسى لها السلطان الجديد كلّ ما كان لها معه من عــداء وأجرى عليها رزقا حسنا . ووافاها أجلها بلاهور عام ١٠٥٥ هـ/١٦٤٥ م فثُويت إلى جوار زوجها جهانكير ببستان دلكشا بظاهر قصبة البنجاب .

ولد شاهجهان عام ١٠٠٠ هـ/١٥٩٢ م،من أم هندوكية ، كأبيه هي ابنة رانا مروار . وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدرهم جميعا ، اتصف برجاحة العقل والذكاء وقوة العزيمة حتى كان جدّه أكبر شديد الاعتزاز به كثير الحدب عليه . وقد عرف دون سائر أمراء أسرته السابقين بعزوفه ، في الغالب ، عن مقاربة الشراب مع مجانبته اللهو والعبث . وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه

...دون أخويه : خسرو ، الذى عمد إلى عقوقه له منذ صغره .
...يز الذى لازمته العلل وضعف الإدراك منذ ولادته ، وكان
...هما يدمن الشراب فقضيا به فى حياة أبيهما .
...اد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة
... حرب الراجپوتيين عند موار ، وما أبداه من حنكة ودراية
...ين أرغم ملك عنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أنزله من
الهزائم المتكررة بقوات الدولة ، فأنعم عليه بلقب شاهجهان
وعهد إليه بإدارة حكومة الدكن . حتى إذا ما توجست
...ورجهان الخيفة من علو شأنه فخشيت أن يطغى بنفوذه على
...سلطانها ، راحت توقع ، بالدس ، بينه وبين أبيه ، فما غدا أن
رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك - وكان قد بلغه
ما تدبره زوج أبيه لحمل السلطان فى غيبته على البيعة إلى ختنها
أصغر الأمراء شهريار - لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى
الجهر بعصيان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها من
جديد على الوجه الذى فصلناه من قبل .

وحين دخل جهانگير فى النزع ، تدبر آصاف خان
الموقف ، على ضوء مصالحه الخاصة ، فى روية وحذر ، فآثر
أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشيد شاهجهان معرضا عن أخته

نورجهان وختنها شهريار ، ليصل من بعـــد ذلك ـ وفق ما قدّر ودبّر ـ عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ويصير له بالدولة شأن وأى شأن .

ممتاز محـــل : بنى شاهجهان عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م وهو فى صدر شبابه بأرجمند بانو بيگيم ابنة آصاف خان وهى التى تشتهر فى التاريخ باسم ممتاز محل أو سيدة التاج .

وهذه السيدة، التى حرص أبوها على تنشئتها تنشئة طيبة وتزويدها بالعلوم والآداب منذ صغرها ، كانت على جمال فاتن وخلق نبيل وصفات عالية أدّت بها إلى ملازمـــة زوجها فى كل المحن التى مرّت به ، إبان خلافه مع أبيه وحروبه معه . فى وفاء وإخلاص قل نظيره . وحـــين رقى زوجها العرش صارت له خير ناصحة ومرشدة ؛ فلم يَتَبَدْ منها أبدا ما كان من شأنه أن يغضب رجال الدولة أو يثير ثائرة القادة ، وإن أخذ عليها بعض المؤرخين دفع زوجها ، بوازع من تقواها وورعها ، إلى العدول بعضَ الشيء عن التسامح المطلق الذى كان يصطنعه آباؤه بأزاء الهنـــادكة والمبشّرين المسيحيين. ولعل شاهجهان إنما منع ، بوحىٍ منها كذلك، سجود الناس للسلطان ، على ما كان متبعا منذ أيام أكبر ، وعاد

الدولة إلى اتخاذ التقويم الهجرى فى أعمالها (١)، وحرّم التطاول على مقام الخلفاء الراشدين عند شيعة بلاده، وحدّ من بناء معابد جديدة للهنادكة .

ولم يبطر ممتاز محل ما كان لها من نفوذ بالغ وثراء طائل، فكانت تقيم على البر بالفقراء والأرامل، وتعين بمالها الفتيات الفقيرات على الزواج، كما وسعت رحمتها كثيرا من المذنبين، حتى كانت تبلغ بتدخلها عند زوجها إلى ردّ حياتهم عليهم فى الغالب، وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم (٢) الأولى .

ووافاها أجلها عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م وهى تضع طفلها الرابع عشر، فحزن عليها زوجها حزنا شديداً، حتى عزف عن كل مباهج الحياة برغم امتداد الأجل به من بعدها خمسة وثلاثين عاما. وقد أذاع من صيتها ذلك المثوى الفخم الذى أقامه زوجها لها، فكان من آيات وفائه لذكراها . ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محلّ » ويُعد بحق من بين روائع الفن المعمارى فى الدنيا .

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض

---

١ — بدلا من التقويم الألفى الأكبرى

٢ — Muslim Rule. p 485 .

ثورات فى الدكن ، كان منها ثورة راجا ججهار سنغ فى بُندلخاند. ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد ورث عن أبيه برمَن سنغ ، قاتلِ أبى الفضل ، أموالا طائلة ، فجال بخاطره أن يناهض الدولة فى قوات أبيه السابقة ، وكانت بدورها وفيرة العدد ، حتى اضطر السلطان أن يسيّر إليه قائده مهابت خان فى سبعة وعشرين ألفا من الفرسان وستة آلاف من المشاة ، فأرغمه على الإستسلام له ، ثم عاود عصيانه فى العام التالى من جديد ، وينطلق ينتهب أراضى جيرانه من الهنادكة ، ولكن خروجه ماغدا أن انتهى به إلى مقتله وولده بكرماجيت .

وفرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتنطلق قواته فى العام الثانى من حكمه فى آثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهى حين أشعل بالدكن نيران ثورة ثانية. فقد عمد هذا القائد الأفغانى، عقب وفاة جهانكير وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة ، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . وأطمعه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين ولاه بعض الدكن . فانطلق يعنف بالأهلين ويشتط فى ارتكاب المظالم والجور ، ليسيّر إليه السلطان عندئذ قائديه عبد الله خان ، ومظفر خان فما زالا يطاردانه حتى ظفرا به بعد عامين فأوردا حتفه(١).

---

١ ــ بادشاهنامه ص ٢٢

الجاعة والقحط : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليواجه محنة القحط الذى اجتاح بلاده فى العام الرابع من حكمه ، وذلك بسبب انحباس الأمطار الموسمية التى تعتمد عليها الهند فى السقى والرى ، فانجاب عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها فى الكجرات والدكن ، وزاد من سوء الحـــال انتشار الأوبئة الفتاكة بين السكان .

وبرغم مابذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس ، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانيـــة لهم وأعفاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم ، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوّق كثيراً من بلوغ هذه النجدات أهدافها، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطعموا الجِيَف من المخمصة، وغلبهم تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم ، حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه(١)، وكثيرا ماسدّت الطرقَ أجداثُ الألوف من الصرعى، وأقفرت قرى وأحياء بأكملها من ساكنيها .

البرتغاليون : ضاق شاهجان ذرعا باستبداد التجار البرتغاليين

---

١ — بادشا هنامه ٢٤ ، ٢٥

عند شواطىء البنغال ، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك قسرا ليبيعوهم فى سوق الرقيق ، وفرضوا على السكان مكوسا لحسابهم ، حتى عم أذاهم وجورهم أغلب المناطق التى كانوا ينزلون بها عند شواطىء الهند الشرقية والغربية على السواء .

وتفاقم خطر مبشريهم تفاقما خطيرا ، فقد جهدوا ، فى ظل مواطنيهم هؤلاء ، لحمل الأهلين على قبول عقيدتهم قسرا ، كما راحوا يتدخلون فى شؤن الدولة التى يعيشون فى كنفها ويتآمرون عليها مع تجار الهولنديين وغيرهم من الأوربيين الذين كانوا يفدون إلى هذه البلاد لا متصاص مواردها . ويشجعون بعض الخارجين على سلطان الدولة من أبنائها على العصيان حتى كتب أسقف جوا البرتغالى نفسه يشكوهم إلى مليكه (١) .

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين أقدموا ، إبان محنته مع أبيه ، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجه ممتاز محل حين نزل على مقربة من محلتهم ، فسكت إذ ذاك على مضض ولم ينسها لهم . حتى إذا ما ولى الحكم وفزع الناس إليه من عسفهم بعث من فوره عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م بقائده قاسم خان (٢) .

. . . .

١ — Muslim Ku'e 388

٢ — بادشا هنامه ٣٢ — ٣٥

.. كما على البنغال وأمره باقتحام مراكز هؤلاء الطغاة وتشتيتهم.

وبرغم امتناع هؤلاء الدخلاء فى حصون قوية ، كانوا قد ...روها بالمدافع وشحنوها بالبنادق والرجال ، فقد اقتحم عليهم رجال السلطان أقوى مواقعهم فى هوجلى وخلصوا من أيديهم عشرة آلاف من أهل الهند كانوا معدين للتصدير.(١)

ولم تخسر الدولة فى هذه الحرب أكثر من ألف قتيل ، فى حين سقط من أعدائها عشرة آلاف، ووقع فى الأسر أربعة آلاف آخرون منهم ، سيقوا إلى آگرا ليخيروا بين اعتناق الإسلام أو الحبس .

ولئن كان شاهجان قد عمد بإجرائه هذا مع أسراه إلى أن يرد الصاع صاعين لمبشرى البرتغاليين (٢) ، وهو خطأ لم يكن لمثله أن يرتكبه ، فهو على كل حال لم يذهب إلى ماذهب إليه ملوكهم بأوروبا وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمى الأندلس بين اعتناق المسيحية أو الموت حرقا . وقد رد السلطان الهندى هؤلاء البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال ، وإن لم يستطيعوا أن يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها

١ — منتخب اللباب ٢١٢

٢ — Muslim Rule. 489

من الدمار .

ولم يتردد البريطانيون ، على الخصوص ، فى الإفادة من هذه المحنة التى نزلت بأعظم منافسيهم بالهند فبذلوا جهودا كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الإمتيازات لهم ولقومهم بالتالى .

حروب الدكن : تاق شاهجان إلى أن يتم الفتوح التى بدأها أبوه وجده من قبل بالدكن والتى شارك هو بنفسه فى بعض منها أيام جهانكير . وشد من عزيمته للمضى فى هذا الأمر ، وهو السنى المتمسك بعقيدته ، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذى كان بعض سلاطين الدكن قد طفقوا يروجون له فى إماراتهم ويرحبون بأصحابه الفرس ، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوءة السنيين فى الهند وإثارة الفتن بين السكان .

ولئن قعد بشاهجهان بعض ما اعترض عهده من الأحداث عن المضى بخطته إلى غايته ، فقد أضطلع بهذه المهمة ابنه أورنگزيب من بعده ، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه ، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب ، بل لقد أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أدناها إلى أقصاها .

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهابت خان على

[.]ـاعة السلطان جهانگير ، وما تبع ذلك من أحداث فصلناها فى [.]ـضعها ، أن ضعف سلطان الدولة فى الدكن ، لينتهز أصحاب [.]ـجاپور وغولكونده هذه الفرصة فيخلعوا عنهم الولاء للسلطان [.]ـغولى ويوسعوا ، من بعد ذلك ، فى رقعة أراضيهم على حساب [.]ـمارة أحمد نگر التى بقيت على ولائها الاسمى للسلطان .

واستبد بشئون الحكومة فى أحمد نگر قائد مراهتى يدعى [.]ـاهجى ، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه ، [.]ـظاهره فى استبداده هذا أصحاب بيجاپور فراحوا يمدونه بالمال [.]ـالرجال ، فلم ير شاهجهان بازاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدكن ، وكان قد طلب إلى أصحاب بيجـاپور وغولكونده أن [.]ـعدلوا عن عدم دفع الخراج لشاهجى ويعترفوا بسلطانه من جديد [.]ـلم يستجيبوا له .

وأدى ظهور شاهجهان بالدكن فى قواته الكثيفة إلى أن بادر أمير غولكونده بإعلان طاعته له من جديد ، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده ، وإجراء الخطبة بالثناء عليهم ، والعدول عن الدعاء لشاه الفرس فيها .

وبقى صاحب بيجاپور على عصيانه حتى اقتحمت قوات السلطان بلاده ففتكت بأغلب قواته وانتزعت عددا كبيرا من

من حصونه ، ليرضى آخر الأمر بالخضوع ويتعهد بالابتعاد عن القائد المراهتي شاهجي الذي بادر بمهادنة السلطان بدوره . ولم يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام ابنه أورنگزيب نائبا له هناك عام ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٦ م وقد دخلت في حوزته دولت آباد وأحمد نگر وتلنجانا وخاندش وبرار [١] .

مكث أورنگزيب بالدكن سنوات ثمانية ، حتى إذا لم يستطع صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر داراشكوه من قلب أبيه ، فصارت أمور الدولة لا تجرى إلا وفق مشورته قدم بنفسه إلى العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آرا ، وكانت قد أصيبت بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت ، فلم يجدها نفعا ما بذله الأطباء من جهود كثيرة لانقاذ حياتها . لولا ترياق صنعه لها مولى يدعى عارف أزاح به آلامها عنها ورد الحياة إليها . وقد قابل السلطان صنيعه هذا بإغداق الأموال والإنعام عليه .

بلخ وبدخشان : بسعى الأميرة جهان آرا رضى السلطان عن أورنگزيب من جديد فندبه لحكومة الگجرات فقضى بها عامين اضطلع فيهما بشئونها على خير وجه ، حتى وجهه من بعد ذلك إلى بلخ وبدخشان ، ليشترك هناك في حروب عنيفة مع

---

١ — باد شاهنامه ٥٨

الأوزبكك : كان شاهجهان يبغى من ورائها استرداد بــلاد ما وراء النهر كلها ، موطن آبائه السابقين ، التى لم يغفل أحد من سلاطين المغول بالهند عن السعى إلى استرجاعها ما واتتهم الفرصة وتكشف لهم ضعف حكامها.

ولئن أفلح أورنكزيب فى إنزال ضربات قاصمة بالأوزبكك، على كثرة عددهم بالقياس إلى قلة قواته ، فقد انسحب آخر الأمر من بلخ بعد أن أجلس على عرشها أحد أحفاد نظر خان حاكمها السابق ، على الولاء له ، ليفتك الزمهرير بفريق من قواته من بعد ذلك وهى فى طريق العودة وتضيع كل الأموال والجهود التى أنفقتها الدولة فى هذا الغزو هباء (١) .

قندهار : أشرنا من قبل إلى ضيــاع قندهار من أيدى جهانكير حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها، إذ كان قد بلغه ماتدبّره نورجهان فى الخفاء لحمل زوجها السلطان على البيعة لختنها الأمير شهريار من بعده .

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م أن يستعيد هذا الإقليم بالمودة من أيدى الأمير الفارسى على مردان، نائب الشاه الصفوى عليه، لكن مسعاه باء بالفشل . حتى إذا ما كتب أمير قندهار

١ — شاهجهاننامه ٨٢ ، ٨٣

إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيه ، حمل مطلبه على غير حقيقته فظنّه لا يبغى من وراء ذلك إلا تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته ، فسيّر إليه قوات كبيرة ، لا لتشدّ من أزره وإنما لتوقعه فى أسرها وتعود به إلى العاصمة .

وحين وقف على مردان على ما كان يُدبرّ له ، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل المغولى يستنجد بشاهجهان ، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تدفع قوات الشاه الفارسى عنها بعد قليل .

ولم يسكت الفرس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم . حتى إذا مارقى الشاه عباس الثانى عرش الصفويين اعتزم الخروج لاستردادها فى شتاء عام ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م وهو يعلم أن ثلوج الهندكوش سوف تَعُوق أى مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حاميتها إبّان هذا الفصل .

وصح ما جرى فى حساب الشاه الصفوى . ذلك أن دولت خان ، نائب شاهجهان هناك ، حين بان له تردد دولته فى تسيير الجند إليه إبّان فصل الثلوج ، وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواته فلا يجد لمطلبه سميعا ، لم يصبر طويلا على الحصار

يستسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل
لنقص كبير طرأ على مؤنهم ، وأن قوات الهند كانت بالفعل
في طريقها إليه .

وجهد شاهجهان من بعد ذلك فى استرداد هذه المدينة من جديد ؛
فسيّر إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم ابنه أورنگزيب
ووزيره سعد الله خان الذى خلف آصاف خان بعد وفاته .

وكان حريا بالسلطان أن يستجيب لأورنگزيب حين
طلب إليه أن يأذن له بالسير فى محاولة ثالثة نحو هذه المدينة(١)،
وكان قد أمكن له فى حصاريه السابقين لها أن يدرس مواقعها
وإمكانيات حاميتها دراسة خبير ، حتى كاد أن يتم له دخولها
لولا إقبال الشتاء ونفاذ مُؤنه ؛ فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم
تسييره دارشكوه إليها هذه المرة ، على قلة درايته وخبرته الحربية ،
إلى رد قوّات الدولة عنها كرة ثالثة وضياع ما بذل لفتحها من
أنفس وأموال هباء (٢) .

أورنگزيب فى الدكن : عاد أورنگزيب إلى الدكن
عام ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ ، بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاها فى

---

١ ــ عمل صالح ثالث ٥٣٤

٢ ــ شاهجهاننامه ١٠١ ، ١٠٢

الگجرات وعند بلخ وقندهار ، ليرى حكومتها قدساءت أحوالها حتى غدت عبئاً ثقيلا على الدولة ، تستنفد إدارتها كثيرا من أموال بيت المال بدار السلطنة بعد أن كانت تمدُّه فى السابق بخراج وفير. فقد انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، فأهملوا شأن الزراعة بها وطفقوا يثقلون كاهل الأهلين بما فرضوه عليهم من مكوس لحسابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفرُّوا من قراهم ، فأجدبت الحقول وخوت البساتين والحدائق على عروشها . فما غدا ، بمعاونة إدارى حازم يُدعى مرشد قُلى خان ، أن نهض بالزراعة ، عماد ثروة الإقليم ، من جديد ، فجعل كافة الأراضى الخصبة تحت إدارته مباشرة ، وأمّن الفلاحين فى أعمالهم وأمدّهم بالبذور الجيّدة والماشية وشجعهم على استصلاح الأراضى البور وزراعتها .

واهتدى مرشد خان بنظم تُدرمَل وزير أكبر ، فأمر بمسح الأراضى كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد ، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التى تزرع على مياه الأمطار ، وثلثه من الأراضى التى تروى بمياه الآبار ، فيما عدا البساتين والحدائق فيجبى منها ربع المحصول . أما الأراضى التى كانت تسقى من الترع والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة

والنقصان بحسب طبيعة تربتها .

وبهذا النظام ، وما كفله من توفير الأمن للفلاحين ، أقبل هؤلاء على أعمالهم في جد ونشاط أدى إلى استقرار اقتصاديات الدكن من جديد ونهوض مواردها بالتالى .

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن ، إبان غياب أورنگزيب عنها ، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجاپور إلى سابق خروجهم على طاعة السلطان ، فامتنعوا عن دفع ما فرض عليهم من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك . حتى أغتنم أورنگزيب فرصة سنحت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جمله — وكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون ألفاً من من المشاة — فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى تخليص أسرة الوزير من الحبس ورد أملاكها إليها . ولم يُغن سلطان غولكونده فتيلا ما بعث به إلى قادة القوات المهاجمة من أموال كثيرة وجواهر عساهم يرجعون بذلك عنه ، فاقتحم محمد بن أورنگزيب عاصمته وأوقعه في أسره .

وعفى شاهجهان آخر الأمر عن قطب شاهى ورده إلى إمارته

بعد أن أقسم على الولاء له، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زُفت ابنته إلى محمد بن أورنگزيب [١].

وما غدا مير جمله بدوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفا لسعد الله خان.

وسار أورنگزيب كذلك إلى بيجاپور، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه، فما زال بها، ومعه مهابت خان ومير جمله، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وگوالبور گــة وگلياني وبارنده. فما إن فرغوا من أمرها عام ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م فانطلقوا إلى مدينة بيجاپور نفسها، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال، إذ رضي سلطانها بالصلح على جزية كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه، وتنازله عما ضاع من أيديه من الحصون [٢].

فتنة الأمراء: رأى شاهجهان، حين اشتد به المرض عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م أن يعهد بالملك من بعده إلى داراشكوه أكبر أبنائه الأربعة من ممتاز محل دون إخوته، وكان قد استبقاه إلى

---

١ ــ شاهجهان نامة ١١٨، ١١٩

٢ ــ عمل صالح ١٢٨

جانبه بآكرا حتى يتدرب على التمرس بأعباء الحكم.

ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حربية أو حنكة سياسية، إلا أنه كان واسع الإطلاع، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة، حتى نقل، بمعاونة بعض علمـــاء البراهمة، اليوپانيشاد المقدس من السنسكريتية إلى الفارسية. وجرّ عليه اختلاطه بالهنادكة واشتغاله الكثير بعلومهم، سخط علماء السنّة، مما يسر لأخيه أورنكزيب أن يفيد من ذلك مستقبلا، حتى بلغ إلى تأليب المسلمين فى الهند عليه إبّان نزاعه معه على العرش.

أما شجاع، ثانى الأبناء، فكان فى مقامه بالبنغال منصرفا فى الغالب إلى ملاذّه. وقد تعاون جو هذا الإقليم وإدمانه للشراب على إضعاف عزيمته والهدّ من كيانه.

هذا، فى حين كان أورنكزيب يسوس شئون الدكن فى همة ونشاط.

ولم يكن رابع الإخوة، مراد بخش، وهـــو فى مقامه لكجرات إلاّ صورة أخرى لأمير البنغال.

وأثار نبأ البيعة لداراشكوه ثائرة إخوته الآخرين، إذ كان كل واحد منهم يرى نفسه أحق بالملك من أخيه. (١) ومن هذا الأمير، بخاصة، الذى كان يُشاع عنه ميله إلى محاولة إيجاد دين

---

١ — تاريخ مفضلى ١٤٣

جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنادكة .

على أن أورنگزيب — وهو الذى قد كفل له محبة الناس وثقتهم به ماأظهره من كفاية فى الحرب وما عُرف عنه من الحزم والخلق القويم والتمسك التام بأحكام الشرع ـ تمكن من أن يُغرى أخاه مراد بالائتلاف معه،على أن يقتسما أرض الهند فيما بينهما فيكون للثانى منها البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان . فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من اُجَين وقد أعلنا معا أنهما إنما قد قدما لتخليص البلاد من ربقة ذلك الأمير المرتد داراشكوه .

واتجه شجاع ، بدوره ، على رأس جيش كبير ، إلى دهلى بعد أن كان قد نادى بنفسه سلطانا على البنغال ، لكن قوات سليمان بن داراشكوه ما غدت أن أرغمته على الإرتداد إلى إمارته بعد أن بلغ بنارس (١)

وباءت بالفشل كل الجهود التى بذلها الوسطاء لمنع الصدام بن قوات داراشكوه وأخويه ليُمنى من بعد ذلك جند دهلى بهزيمة شديدة ساعد عليها نفور بعض القواد المسلمين فى جيش

---

١ — منتخب اللباب ٢١٥

الدواة من السير تحت إمرة قادة من كبار الهنادكة فانحازو إلى صفوف مهاجميهم .

وقوى من عزيمة أورنكزيب ما انضم إلى جبهته من قوات عديدة ، وماوقع بأيديه من أسلاب وذخائر حربية ومؤن ، فاتجه إلى گواليار حتى حط رحاله بسهل سموگره إلى الشرق من آگرا ، ليُنزل من بعد ذلك هزيمة أخرى قاصمة بعدوه ، بعد قتال عنيف عظمت فيه خسائر الطرفين ، حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الإرتداد إلى آگرا سريعا فى الليل تاركا كل عتاده ومؤنه لأخيه .

وحين بلغ الأمير الظافر آگرا فكتب إلى أبيه يعتذر إليه عن هذه الحرب التى أكرهه أعداؤه على خوض غمارها ، بعث إليه شاهجهان بسيف يدعى عالمگير هدية منه ودعاه للقدوم إليه . غير أن رجال أورنگزيب حذروه مما قد يكون أعده له أبوه من شراك للإيقاع به ، وأشاروا عليه بأسر السلطان على الفور حرصا على سلامته وتأمينا لمركزه .

وأدى قطع الماء عن حصن آگرا إلى استسلام حاميته بعد دفاع مجيد ، لتحُدَّد من بعد ذلك إقامة شاهجهان فى جناح الحرم بالقلعة ، ولم يكن يرخص لأحد الاتصالَ به إلاّ لابنته

جهان آرا التى تفانت فى السهر على راحته حتى آخرَ حياته .

ووقع بأيدى أورنگزيب رسالة كان أبوه قد بعث بها إلى داراشكوه يحذره فيها من القدوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلى ، فتكشّف له بذلك سوء نوايا أبيه نحوه وصح لديه ماحذّره رجاله منه فى السابق ، فحرّم الكتابة على السلطان المعتقل .

وأحس أورنگزيب ، وهو فى طريقه إلى دهلى زحفا، بنفور أخيه مراد منه حتى شرع يتآمر عليه ، فدبّر بدوره أمر اعتقاله غدراً ليُسيره من بعد ذلك إلى الگجرات ويعتقله بقلعتها . وما غدا أن اُدين هناك لقتله ديوانَه على نـقِى فقـُتل به عام ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ م (١) .

وحين بلغ أورنگزيب دهلى نودى به عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م سلطانا على الهند باسم عالمَگير .

هـــذا ، وقد ظل داراشكوه يضرب فى أرض البنجاب والملتان والگجرات وآجمير ، حتى حط به المطاف عند زعيم من البطهان يدعى : ملك جيوَن ، كانت له عليه أيادٍ سابقة كثيرة ، فلم يغن عنه ذلك كثيراً ، إذ غدر به الأفغانى ودفع به إلى أخيه

---

١ ــ عمل صالح ١٣١ ، ١٣٢

أفتى العلماء بكفره وأباحوا دمه (١) .

أما شاه شجاع فما زال به قواد أورنگزيب يطاردونه فى
.غال حتى اختفى فى جبال آسام وانقطعت أخباره .

ولو أن شاهجهان ، حين أبلّ من مرضه الذى اعتقد أن فيه
.يه ، كان قد عمد من فوره إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من
. يبعث إلى ابنه داراشكوه يطلب إليه العدول عن قتال
خوته ؛ وقد كان يوقن إنه لابأس عليه من قدومهم إلى دار
.لطنة ؛ لتغير الموقف كله على وجه السلامة .

فقد كان حريا به أن يبرز إلى الميدان بنفسه فيقضى بظهوره
لى الشائعات التى راجت بموته والتى ساعد على انتشارها سدّ ابنه
لأكبر لكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والگجرات والبنغال
. قطعه البريد عنها .

هذا : كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذى يضم كبار القادة ،
كفيلا بدوره ، فى مثل هذه الظروف ، بالقضاء على الفتنة فى
.هدها ، فى الغالب .

وغنى عن البيان أن ما عُرف به أورنكزيب من مقدرة
. حزم مع انتصاره لعلماء السنة وتأييدهم له. قد أدى إلى التفاف

---

١ ـ منتخب اللباب ٢٤٦

القوم حوله . فلم يكن ما أظهره الأهلون من الأسى حين جيء بداراشكوه إلى دهلى أسيراً فطوّف به فى طرقاتها إلاّ لغدر مضيفه به فى الغالب .

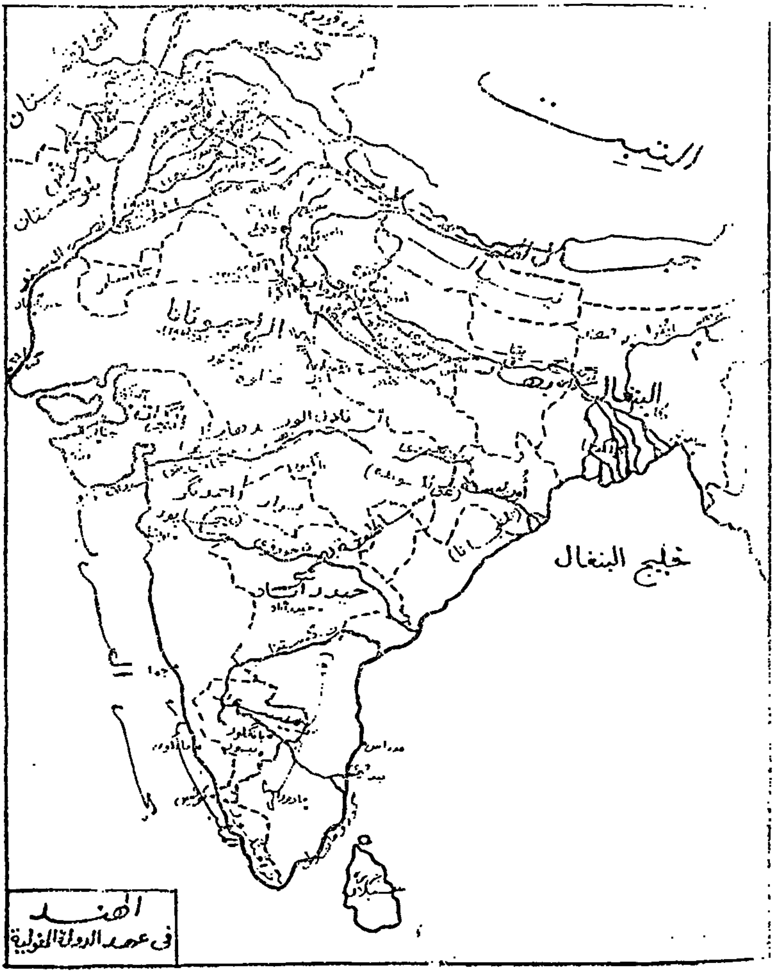
ولبث شاهجهان فى محبسه سنوات ثمانية ، حاول فى أثنائها عبثا العمل على استرداد ملكه . حتى قضى أسيفا حزينا عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م وهو فى الرابعة والسبعين من عمره ، وهو يرنو ببصره إلى تاج محل ، حيث ترقد زوجه الحبيبة ممتاز محل ، وإلى جواره جهان آرا ، ابنته منها ، التى وقفت حياتها على خدمته والعناية به .

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكما قديرا بلغت الدولة فى عهده أوجها وعلت مكانتها ، وقد نهج نهج أبيه وجده فى تنظيم شئون الحكومة ، وتميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته ، حتى كان لا يتردد فى إنزال العقاب الشديد بمن يراه يتراخى فى تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله فى الحاق الضرّ بهم(٢) .

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم التى كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنهم

---

١ — Muslim Rule ·541,43


التبت
البنغال
خليج البنغال
حيدر آباد
راجبوتانا
بلوجستان
الهند
في عهد الدولة المغولية

المقدسة ، فإنه كان : على حد قول الرحالة الفرنسى تافرنيه ، ينظر إلى رعاياه عموما نظرته إلى أبنائه (١) . وتجلت شفقته بهم وحدبه على رعايتهم فيما كان يبـذله من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات، حين كانت تنزل بهم ؛ فلم يكتف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانيـة كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمؤن والأموال ، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كان أهلوهم يعرضونهم للبيع من فرط الإملاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد (٢) .

وبلغ من بر هـذا السلطان ، الذى عرف بتمسكه الشديد بشعائر السنّـه ، أن داوم على إرسال هبات من الأموال فى كل عام إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضى المقدسة وأشرافها .

وأدى به ذوقه الفنى الرفيع : وما ورثه عن آبائه من أموال طائلة (٣) ، إلى تزيين الهند فى عهده بجملة من المنشآت المعمارية

---

١ — Lane-Poole 329

٢ — Muslim Rule 546

٣ — يقدر الرحالة الألمانى بمندلسلو ما كان بخزائن دار السلطنة حين زارها فى عهد شاهجهان ، بما يعادل ثلاثمائة مليون جنيه ، عـدا الدخل السنوى ، كما ذكر كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة واربعاً وأربعين ألفا من الفرسان ، ووصف مدينة آكرا وازدهار الحياة فيها ، فقال إن طرقها كانت ممهدة نظيفة وإن =

الفخمة التى ماتزال تُرى آثارها حتى اليوم بآ كرا ، وبدهلى الجديدة التى يعد بحق منشئها ومجددها ، والتى اتخذها مقاما له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها .

ومن هـــذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء . وأروعها جميعا ذلك المثوى الفخم الذى يعرف باسم تاج محل ، والذى أقامه لتخليد ذكرى زوجته ممتاز محل ، فعُد بكماله وبهائه من بين روائع المعمار فى الدنيا . وقد استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما ، واستخدم فيه عشرون ألفا من العمال ، وبلغت تكاليفه سبعة عشر وتسعمائه لكّا (١) . من الروبّيات .

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشه الفخم المعروف بعرش الطاووس الذى رُصّع بأكداس من الجواهر النادرة ، وكانت قوائمه من الذهب الخالص ، وكان سقفه المطلى بالميناء يُحمل

= حوانيت التجار كانت تزخر بمختلف أنواع السلع ، وقد خصص لتجار كل سلعة محلة موقوفة عليهم ، وكانت دور المسافرين فخمة نظيفة كذلك .

وأحصى هذا السائح بهذه المدينة سبعين من المساجد وثمانمائة من الحمامات ، هـذا عدا القصور الشامخة التى كان يسكنها المسلمون والهنادكة بظاهرها . وقال إن سكان آكرا كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يقدموا من بينهم فى الحرب مائتى ألف من الرجال . Lane-Poole 333-5

٤ ـ اللك مائة ألف ، وفى هذا البناء اختلط الطراز الفارسى بالهندى .

على أثنى عشر عمودا من الزمرد ، على كل واحد منها طاووسان تزينهما الجواهر وتتوسطهما شجيرة يغطيها الماس والياقوت والزمرد ، وتتدلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر واليواقيت . وقد استغرق صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفه أكثر من ستة ملايين من الجنيهات (١). وحين غزا نادر شاه الفرس ، الهند عام ١١٥١ هـ/ ١٧٣٩ م حمله معه، فأثرى حكام الفرس من جواهره ، وأفاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقاياه وحطامه فى إقامة عرش جديد له حمل الإسم نفسه .

---

(١) Muslim Rule. 533-6 _

أورنگزيب عالمگير

اعتلى أبو المظفر محمد محي الدين أورنگزيب عالمگير عرش الهند عام ١٠٦٩هـ/١٦٦٩م والبلاد يعمها الخراب الشامل الذى اكتسح حقولها ومروجها إبان حروب الوراثة الجامحة التى قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه. وحالف القحط هذا الخراب بسبب احتباس الأمطار الموسمية، فأتى على كل ما تبقى بالبلاد من أخضر ويابس. لذا رأى أورنگزيب أن يرفع عن كاهل الأهلين عددا من المكوس والضرائب تخفيفا عنهم ورحمة منه بهم، فأعفوا من ثمانين نوع، منها مكوس الطريق والمرور ومكوس الأرضية، التى كان يلزم بهـــا أصحاب المتاجر والحوانيت جميعا، ومكوس الأضرحة ورسوم الدواب، كما خفّض كذلك كثيرا من الرسوم التى كانت تفرض على المحاصيل الغذائية الزراعية تيسيراً على السكان جميعا من مسلمين وهنادكة (١).

وبرغم أوامره المشـــددة فى تنفيذ هـــذه الإعفاءات

---

١ — منتخب الالباب لخافى خان ٢٤٦ — ٤٩

وعنفه فى معاقبة المقصرين من عماله ؛ فإن سكان المدن كانوا هم وحدهم ، فى الغالب ، الذين أفادوا من ذلك كله ؛ إذ احتال حكام الأقاليم دواما على إبقاء الحال على ما كان عليه ، حتى لا يضارّوا فى أهم مواردهم ومصدر ثرائهم ، ولا سيما حين عدل أورنگزيب عن نظام التجنيد الذى رسمه جدّه جلال الدين أكبر ؛ وسار عليه أولاده من بعده ، إلى نظام الإقطاع القديم .

اشتهر أورنگزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السُّنة ، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه دارا شكوه على هذه المبادىء وأورده حتفه على ما أفتى به علماؤه . لذا أبطل الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظر دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السُّنية (٢) .

---

١ — كان الحكام وعمال الدولة ، فضلا عن حرصهم البالغ على الاحتفاظ بمظاهر الأبهة والعظمة ، يتنافسون فى تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان فى كل مناسبة ، وأعظم هذه المناسبات هي ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولى قديم . ويذكر الرحالة الفرنسى برنييه ، وكان قد حضر هذا الحفل فى أحد الأعوام ، أن ما قوم به السلطان من الجواهر يقدر بما يوازى المليونين من الجنيهات . Lane-Poole 375

٢ — عالمكير نامه ٣٨٩

وكان من أثر هذا الإجراء ، ومناصبته قبائل الأفغان العداء فيما بعد ، وما سبق إليه جده حين نادى بأن الهند للهنود ، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طالما أمدها بمحاربين أشداء ، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان وكابل ، كانوا بلا مراء كفيلين بشد أزر بنى جلدتهم ، الذين أثرت عزيمتهم على مر الزمن بحر الهند ، فى دفع خطر المرهتها والسك عن الدولة ، وهما العصبتان اللتان عجل تزايد نشاطهما فى نهايتهما .

وأدى حرص أورنگزيب عالمگير على أن يصبغ دولته بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد فى تحريم الخمر والميسر تحريماً تاما وأبطل البدع ، ثم أمر بتعمير المساجد وترميم الخرب منها وأمدها بطائفة مختارة من الأئمة والوعاظ والمدرسين ، وحض الناس على الإقبال على حلقات العلم بها وشجعهم على الدرس فيها ، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك ليراقبوا سلوك الناس ويحملوهم على التمسك بتعاليم الشرع والابتعاد عن نواهيه .

وطفق أورنگزيب من بعد ذلك يُبعد الهنادكة عن مناصب الدولة الكبرى ويقلل من عددهم فى الدواوين عامة ، فلم يُبق بها

منهم سوى نصفهم حرصاً على صالح العمـــل(١) ، ولم يكن ذلك بدْءاً منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه .

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم ، حتى هدم معبدى بنارس وسومنات ، وأقام على أنقاض معبـــد مَتْـهُـره مسجداً كبيراً ، بعد أن بدّل اسم هذه المدينة إلى إسلامپور ، ونقل أوثان هذا المعبد المكللة بالجواهر إلى آ گرا فردم بهـــا أساس مسجد نواب بيگيم صاحب حتى يطؤها المسلمون بأقدامهم فى صلاتهم تقربا إلى الله (٢) .

وأعاد أورنگزيب فرض جزية الرءوس على الهادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها . وقدأدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول فى الإسلام تخلصا من دفعها .

كذلك فرض أورنگزيب رسما جديداً على البضائع التى كان يستوردها التجار من الخارج، وكان أغلبها من أدوات الترف

---

١ — Dunbar 264

٢ — مآثر عالمگيرى ص ٩٥

ألزم الهنادكة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفا .

يمكن تقسيم مدة حكم أورنگزيب التى تجاوزت سبعة وربعين عاما إلى فترتين : الأولى ، وهى التى شغل فيها عامة قرار الأمور فى الهندستان . والثانية وهى التى قضاها فى حروب متواصله بالدكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عاماً واستنفدت أموالا طائلة ووهلك فيها ملايين عدة من الجند والأهلين . وقدهدف من ورائها فى الغالب إلى الجهاد فى سبيل نشر الإسلام بين الهنادكة والقضاء على مذهب الشيعة أكثر مما هدف إلى توسيع رقعة ملكه .

آسام والبنغال : أفاد أورنكزيب من كفاءة قائدة مير جمله فوجهه فى جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى آسام وكوش بهار اللتين تقعا عند الطرف الشمالى الشرقى الهندى وهى منطقة تغطيها الغابات والآجام. وكان أصحابهما يتخطفون أراضى الدولة . وبرغم فتك الأوبئة بجند الدولة وشدة ضغط العصابات عليهم ، وهم فى حصارهم لعاصمة آسام ، فقد مضى بهم قائدهم غداة انتهاء موسم الأمطار ، والحمى تركبه ، حتى أرغم الآساميين على

التسليم، فعاملهم برفق ومودة (١) . ومن أسف أن وافى الموت مير جمله وهو فى طريق عودته إلى دكا عام ١٠٧٣ هـ/ ١٦٦٣ م، وأن نوابه أضاعوا جميع جهوده بعد بضع سنين بسوء إدارتهم وعسفهم .

وخلف مير جمله على البنغال الأمير شايسته خان، خال السلطان. وكان ملوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا يتعاونون تعاونا وثيقا مع البرتغاليين لمناهضة الدولة. فرحبوا بقراصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين، حتى باتوا يسيطرون على خليج البنغال، فضلا عن مساحات واسعة ممتدة من من دلتا الگنج إلى دكا ؛ ثم انطلقوا يقطعون الطريق على التجار ويتخطفون الأهلين ويبيعونهم بيع الرقيق لتجار الهولنديين والإنجليز والفرنسيين فى الثغور الدكنية الشرقية وفى جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج .

وبرز شايسته خان لمقاتلة هؤلاء جميعا ومعه أسطول كبير عدته ثلاثمائة سفينة خاض ضدهم غمار معارك متصلة دامية ١٠٧٥، ١٠٧٦ هـ ، ١٦٦٥، ١٦٦٦ م حتى كسر شوكتهم وحرر كثيراً من السكان من أيديهم واستعاد للدولة مساحات

---

١ — Gai. Hist of Assam 141-51

كبـــيرة من الأراضى التى كانت فى حوزتهم . وقد تحالف شايسته خان فى حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوقون للقضاء على منافسيهم من البرتغاليين ولم يكن يدرى أنه بقضائه على البرتغاليين إنما يمهـــد السبيل للبريطانيين الذين بدأوا وقتذاك بداية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم فى منطقة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية (١) .

البطهان والأفغان : أخـــذت أطراف الهند الشمالية الغربية تتعرض ابتداء من عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م . لغارات قبائل البطهان الأفغانية ، وعلى رأسها يوسفزى والأفريدى (٢) ولما ينقض عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية .

ولقد جهد السلطان أكبر من قبل فى الحد من نشاط هذه القبائل ؛ وحذا حذوه جهانگير ثم شاهجهان فسيّرا جيوشهما القوية إلى قندهار وبدخشان مرات عدة . وحين تجددت حركات هذه القبائل أواخر عهد شاهجهان ، بسبب حرب الوراثة الجامحة التى نشبت بين أبنائه ، فانحدرت جموع يوسفزى إلى مناطق الهزرا

١ — Lane-Pool 382.3 — المصانع هنا هى المخازن .

٢ — تشتهر من هذه القبائل الأفريدى والوزيرى على الخصوص بشدة المراس حتى صدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها في القرنين : الحالى والماضى . وأنزلت بها خسائر جسيمة .

فبلغت شواطئ نهر كابل ، لم يكتف حاكم آتوك بردها فى عنف حتى خرّب منازلها وأراضيها .

وركنت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك ، كان راجا جسوانت، نائب السلطان عند جامرود، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة . ثم برزت قبائل الأفريدى، وعليها زعيمها أكمل خان تستنهض همم القبائل الأخرى وتستعين بها فى السيطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور . حتى أتيح لها آخر الأمر أن تنزل هزيمة قاصمة بقوات الدولة ، عند ممر خيبر، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم .

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التى كانت تضرب بين أتوك وقندهار ، فركنت بدورها إلى العصيان . وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغانى خوشحال إلى صفوفها ؛ وكان هذا الزعيم قد استُدرج من قبل ، بالخيانة والغدر ، إلى بشاور ثم أُلقى به فى السجن بدهلى ، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزى ؛ ولكن ما أحرزه بنو جلدته من الانتصارات على الدولة أنساه عداءه معهم فانضم إليهم .

هنالك بعث أورنگزيب بفداى خان حاكم لاهور إلى بشاور ، وسير قائده الآخر مهابت خان إلى كابل . حتى إذا ما تكشف له

تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان .

وأدى ظهور قوات الدولة القوية عندمنطقة الحدود إلى قدوم فريق من شيوخ العشائر الثـــائرة مستسلمين . حتى إذا ما أصم شجاعت خان أذنيه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جسوانت فلم يصطنع التريث والصبر حتى يأتيه بقية الشيوخ فيبرم الصلح معهم على خضوعهم للدولة ، فاندفع بقواته إلى منازلهم فى مناطق التلال المجاورة لكابل ؛ انحدر البطهان إليه فى ليـــل شتاء عاصف عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٤ م فأنزلوابقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه .

هنالك لم ير السلطان بُدا من المسير إلى هـذه المنطقة آخر الأمر بنفسه ، فأفلح وقائدُه أغار خان ، بقوة السلاح تارة وببذل المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل تارة أخرى ، فى أن يـؤمِّـن منطقة ممر خيبر ، أخطر أبواب الهنـد وأهم طرق الغزاة إلى سهولها وأراضيها .

ولم تستنزف قلاقل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من أموال الدولة فحسب . بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها ، مما أتاح الفرصة لإمارات الدكن والمرهتها على الخصوص، ليقووا من نفوذهم هناك ويثيروا المتاعب فى وجه الدولة من بعد ذلك .

ولو أن أورنگزيب كان قد اصطنع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادىء الأمر وأخذهم بالسياسة والدهاء الذى اشتهر به، لأفاد من شدة مراسهم فى القتال فى حروبه الطويلة، مع الراجپوتيين والسك والمرهتها وشيعة الدكن، وقد كانوا على هواه فى تعصبهم الشديد لتعاليم السنة.

الجات والستناميون: أدت السياسة التى انتهجها أورنگزيب عالمگير فى تدمير معابد الهنادكة وإقامة مساجد للمسلمين على أنقاضها، إلى شيوع روح التذمر بينهم حتى ثار الجات منهم [1] ثورة عارمة عند ماتهورا فتمكن زعيمهم جُكال من قتل نائب السلطان هناك وانتهاب أراضى سعد آباد. ولم يفتّ سقوط هذا الزعيم فى يد الدولة ومقتله، فى عضد بنى قومه: فطفقوا ينزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب إلى بناء الدولة بعد عهد أورنگزيب.

---

١ — الجات أو الزط، منهم المسلمون ويسكنون السند الأعلى والملتان، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مهارة في التجارة والصيرفة والصيدلة، ومنهم فريق من الهنادكة في الراجپوتانا، ومنهم السك في البنجاب أتباع نانك، وجمهم من الويشية، وأغلب الصيارفة والمرابين في الهند اليوم منهم.

وجاءت ثورة الستناميين فى أعقاب سابقتها . وهم طائفة من . داد ينتسبون إلى الإمام الحسن (لله : ستنام) ، ويحرصون نى كبريائهم وأنفتهم حرصا شديداً . حتى لا يترددون فى سبيل لك عن بيع أنفسهم بيع السماح . ولم يكن مرد ثورتهم إلا عتداء بعض الجند على فريق منهم[1] دون أى سبب دينى خر ، فزحفت جموعهم من نارنول عنـــد موات تخرب ما يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب فى المدن والقرى ، حتى بلغت مشارف دهلى ، وفى ركابها شائعات قوية عن نفاذ حرها وطلاسمها ، حتى فزع الناس والجند من لقائهم فلم يتأتى للسلطان نقضاء عليهم إلا بمشقة

السك : لم يقعـد السك بدورهم عن المشاركة فى حركة لسخط التى عمت الهنادكة جميعـــا بسبب موقف السلطان غير الودى معهم ، وكانوا قد غدوا يناصبون الدولة العداء من قبل منـذ أن قتل جها نگير زعيمهـم أرغون حين ظاهر ابنه خسرو فى خروجه عليـــه .

وهذه الطائفة . وهى من الجات البنجابيين ، إمامـها مصلح دينى يُدعى غورو نانك ، ظهر فى القرن التاسع الهجرى ، وحاول

---

١ — منتخب الالباب ٢٩٤ / ٩٦

أن يصهر ديانات الهند فى مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعا ، ويقضى على فروق الطوائف ، ويعلن المساواة التامة بين الناس .

وبلغ رابع خلفائه رام داس مكانة مرموقة عند السلطان أكبر، حتى أقطعه أرضا أقام عليها محلة لأتباعه ومريديه، فما زالت تنمو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمرتسهر كعبتهم الدينية اليوم بالپنجاب .

حتى إذا ما تفشت الكراهية المسلمين بينهم بسبب مقتل جهانگير لخليفته أورغون ، شرع زعيمهم الجديد هار غوروند يُعِدُّهم إعداداً عسكريا للدفاع عن كيانهم .

وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة فى اضطهادها للهنادكة وتخريبها لمعابدهم ، فقبض عليه أورنگزيب عام ١٠٨٦ هـ . ١٦٧٥ م وأورده مورد الردى ، انطلق ابنه غوروند سنغ يشعل روح الحماس فى قومه ، ليثأروا لقتلاهم ، وهو يواصل تدريبه الحربى لهم ويعمدهم بنقيع السيوف والخناجر . فصمدوا لكل الضربات التى وجهتها إليهم الدولة فى عزم وإصرار حتى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين ستلج ، رافد السند ، وجمنه .

وأحاطت قوات الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت

و'ديه ، فالتحق بخدمة بهادر خان خليفة أورنگزيب ، (١)
.قاب قومه ، حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة ، إلى جيش
. ور غدا والمرهتها نذير سوء عليها .

الراجپوتيون : أدى فرض أورنگزيب جزية الرءوس
. المنادكة من جديد ، بعـد أن ظلوا يعفون من دفعها
. ابة قرن ونصف القرن ، إلى تفاقم الإضطرابات بينهم واشتداد
أو'ر غضبهم .

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول
. المال الذى أعوزه فى حروبه الكثيرة ، فلم يلتفت إلى توسلات
. وعهم الكثيرة التى وفدت إليه وزحمت طريقه إلى المسجد ، حتى
. ستخدمت الفيلة لتفريقها فهلك كثير منهم تحت أقدامها .

ولم يقبل الأمراء الراجپوتيون جزية الرءوس هذه عن طيب
. اطر ، وقد انقلب السلطان ينظر إليهم بعين الإمتهان ، فى حين
. ن أسلافه ، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم فى چتور ،
. انوا يعدونهم فى الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم
. لأبهة والإمارة .

حتى إذا ما احتجز أورنگزيب ببلاطه أحد أبناء راجاجسوانت

---

١ — Hist. of the Sikhs pp 66-81

بعد موته . وكان هذا الأمير قد شارك فى إقرار الأحوال عند الأطراف الشمالية الغربية للهند . فرامى إلى قومه أنه إنما يبغى بفعلته هـــذه إلى حمل الأمير الراجبوتى الصغير على اعتناق الإسلام . أتفقوا حول درغا داس راتهاى مروار (جدهپور) الذى توصل بالحيلة إلى تخليص الأمير من أسره وتسليمه وأمه إلى إمارته [1] . فأنفذ السلطان عندئذ قائده تيمور خان وابنه أكبر لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة

كذلك انبرى أميرأدابور (موار) [2] بدوره يعارض ما فُرض عليه وعلى قومه من جزية الرءوس فاجتاحت قوات الدولة بلاده بدوره وخربت ما بها من معابد هى الأمير التى لم يشفع لها ما كان بين أميرها وأورنكزيب من صلات مودة وسلام .

استعصم الأمراء الراجبوتيون الثائرون من بعد ذلك بحصونهم فى الجبال ، وأنطلقوا من هناك نشطين لإيقاع بقوات الدولة . وقد شمل أكبر رابع أبناء أورنكزيب فى كبح جماح هؤلاء الثائرين

---

١ — منتخب اللباب ٢٩٨ .

٢ — رفض أمراء أدايبور دائماً مصاهرة سلاطين المسلمين ، كما رفضوا فيما بعد أن يشاركوا فى حفل تتويج فكتوريا ملكة بريطانيا امبراطورة على الهند ، ورد أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب الهند محتجا بأن أحداً من أجداده لم يحمل شعار العبودية من قبل .

الذين كادوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنكزيب نفسه وهو فى موار .

وأدى حرج الموقف بأورنكزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين ، أعظم ومعظم ، بقواتهما من الدكن والبنغال ليشاركاه الحرب عند موار ، فى حين وجه ابنه أكبر إلى مروار بعد أن أنبه تأنيباً شديداً لتهاونه السابق مع العدو . فإذا بالأمراء الراجپوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب ، وكان إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره طموحا فتيا ، فما زالوا يزينون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطانا عليهم .

هنالك قرر القوم على الزحف ، بجموعهم التى تجاوزت السبعين ألفاً ، إلى آجمير مقر السلطان ، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس ، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر وانشغاله بمتعه الفرصة لأورنكزيب ، فبلغ بدهائه وحسن تدبيره إلى صرف الأمراء الهنادكة وجموعهم عن ابنه وجذب مامعه من قوات الدولة إلى صفوفه ، إذ اصطنع خطابا بعث به إلى أكبر ، تعمد أن يقع بأيدى الراجپوتيين ، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على مارسمه له من قبل ، وأمره باستدراجهم وقواتهم حتى

يُحَصَرون بين قُوَّتَى المسلمين ليبادوا عن آخرهم [1] . فإذا بالراجپوتيين ينفرط عقدهم حين أطلعوا على الرسالة ؛ وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيدا فى الميدان ، فيمعن فى الهرب حتى ينزل بعد مطاف طويل عند شمبهوجى بن شيواجى زعيم المرهتها بالدكن . وقد أبحر من أحد موانيه من بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته .

وانتهت الحرب مع مِوار عام ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م بعد أن قبل أميرها التنازل عن بعض حصونه للدولة نظير إعفائه وقومه من جزية الرءوس . أما مروار فقد بقيت على عصيانها حتى أقر بهادرشاه ، خليفة أورنگزيب ، لأصحابها بحقوقهم فيها .

الشيعة والمرهتها : قضى أورنگزيب بطريق العنف الذى سلكه مع الأمراء الراجپوتيين، على مورد قوى من الجند الذين طالما ساندوا الدولة فى حروبها أيام السلطان جلال الدين أكبر وخلفائه . كما شارك أمراؤهم ، فى الوظائف الكبرى وفى الجيش ، فى تحقيق المنعة للدولة وتوفير المهابة لها. وكان هؤلاء المحاربون الأشداء كفيلين بشد أزر أورنگزيب فى حروبه الطويلة التى قضاها بالدكن فابتلعت الأموال الطائلة وفنى فيها ألوف كثيرة من أبنائها . وبدأ بناء الدولة من

---

(1) Muslim Rule. 427 .

..رائهـا يتزعزع ويتصدع .

فقـــد عقد العزم ، بعـد أن تم له إخضاع مِوار عام ١٠٩٠ هـ/١٦٨١م ، على السير إلى الدكن . فهاهم سلاطين المسلمين فى بيجاپور وغولكوندة لايزالون يحملون هناك لواء التشيُّع ويروِّجون هذا المذهب الذى يرى أورنگزيب أنه من أقدس الفروض عليه ، بوصفه سلطان السنيّين وحامى حمى المذهب ، أن يقضى على ملكهم أو يعودوا إلى ملّته . ولقد أرغم فى عهد أبيه على وقف القتال معهم ومهادنتهم ، ليهتبلوا الفرصة التى أتيحت لهم من بعد ذلك بمرض شاهجهان وقيام حرب الوراثة بين أبنـائه فيعودوا إلى سيرتهم الأولى فى العصيان ونبـذ طاعة الدولة . وها هم المرهتها قد تفاقم خطرهم ، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية الغربية وفى راجپوتانا ، فانتشرت عصاباتهم تخرّب المدن والقرى وتنتهبها وتغتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتأوى عندها الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنگزيب آخر مطافه بكنفهم .

ولم تكن الدكن ، على كل حال ، بغريبة عن هذا السلطان ، فقـــد ولّى حكمها فى عهد أبيه ما ينوف على اثنى عشر عاماً يعرف مالأرضها من خصب عميم وما لأمرائها من ثراء عريض .

وكان المرهتا الدكنيون هم أول من اجترأ من سكان الجنوب في الغالب على الزحف إلى الهندستان . وقد قضى أورنگزيب عالمگير أكثر من ستة وعشرين عاما يحاربهم هناك . وقد أنزلت عصاباتهم بالدكن كله في أيامه خسائر بالغة بما خربته من مدنه وقراه وما أحرقته من زرعه وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة فعّالة في انهيار الدولة .

ويُشتق اسمهم من مهاراشترا ، أي المملكة الكبرى ، وهي التي لم يبلغ الباحثون تحديد موقعها في القديم بعد . ويعدّهم البراهمة من زمرة الشودر أدنى طبقات الهند وطوائفها ، وإن كانت سماتهم فيها كثير من سمات التورانيين . وقد ذاع اسمهم في القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثاني في حروبه مع هرشا .

وامتدت إلى منازلهم بالدكن بدورها موجة الإصلاح الديني التي ظهرت في أماكن متفرقة بالهند في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي ، فظهر من هداة المراهتها اكناته وتكارام ورام داس ، ينكرون نظام الطبقات ويجهرون بأن الشودري قادر بعقيدة بهاكتي (أي الإخلاص لله) أن يبلغ عند الله منزلة ليست

دون منزلة البرهمي الورع [1] .

وقد أفاد منهم ملك عنبر الحبشي الوزير الدكني فى حربة مع جهانگير ، على ماذكرناه من قبل . وظهر من بين صفوفهم من بعد ذاك شاهجي بهونسلا الذى حارب الدولة ثم عمل تحت لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف البيجاپوريين من بعد ذلك .

وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نگر ، تمكن ذلك القائد المرهتي بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة ويُجلِس على عرشها أميراً من أسرة نظام شاهي . حتى اجتاح جند الدولة هذه الإمارة من جديد ، فلجأ شاهجي ثانية إلى بيجاپور ثم اعتكف آخر الأمر فى إقطاعه ببونا وشمارغوندا على مقربة من بمباى .

شيواجى : نشَّأ شاهجي ابنه شيواجى تنشئة عسكرية منذ صغره . وأتاح له لزومه بلاط بيجاپور بعض الوقت التمرُّسَ بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها بسلاطين الدكن ، كما بث فى نفسه حكيم المرهتها ، رام داس ، حبَّ الهنادكة ، وحرّضه على وقف حياته للدفاع عن

---

١ — Muslim Rule . 582,3

بنى جلدته ومقدساتهم .

حتى إذا ما اضطربت الأحوال فى بيجاپور بسبب مرض سلطانها عام ١٠٥٦ هـ / ١٦٤٦ م ، انتهز شيواجى هذه الفرصة ليستولى على جملة حصون حول بونا(١) إقطاع أبيه . ولينفذ من بعد ذلك إلى إقليم كُنْكان .

هنالك بادر سلطان بيجاپور إلى اعتقال شاهجى فلم يطلق سراحه حتى تعهد ابنه شيواجى بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضى الإمارة وتخطفها .

ولكن المرهتى مالبث أن عاد إلى كنكان من جديد ، وأورنكزيب نائب شاهجهان إذ ذاك بالدكن مشتبك فى الحرب مع بيجاپور ، فوضع يده على أغلب أراضيه ، وتحكم فى موانيه حتى رد البيجاپوريين عنه حين ساروا إليه من بعد ذلك ، وطفق يتعقبهم فى تقهقرهم عنه حتى دخل بلادهم . فلم يرتد عنها إلا حين بلغه زحف شايسته خان قائد أورنكزيب على الدكن .

وأتيح لشايسته خان أن يقتحم بونا وحصن شكن ويثبت أقدامه فى القسم الشمالى من كُنْكان ، ليفاجأه عندئذ شيواجى بمقره فى

---

١ — منتخب اللباب ٢٥٦ ، ٥٧

مائتين من رجال عصاباته قدموا فى هيئة من يحتفلون بزفاف صبى ، فانقضُّوا على قصره فى غارة ليلية قُتل فيها أغلب حراسه وحريمه وأصيب هو نفسه بجراح شديدة (١) .

واستشرى خطر هذا الزعيم المرهتى حتى سقط فى أربعمائة من رجاله على ميناء سورات الغنى فانتهب سكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من سفن الحجاج المسلمين . ولم يقف فى وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز الذين لم يأبهوا لتهديده وأغلظوا القول لرسله ، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يجرء على التعرض لهم بسوء .

وثار أورنگزيب لفرط جرأة هذا الثائر ، فبعث إليه بجيش كبير، عليه ابنه معظّم ، اكتسح بلاده حتى هدّد مقر حكومته فى رايگره ، ليهادن الدولة من بعد ذلك فيتنازل لها عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها .

ومازال السلطان بعدوّه حتى حمله، بحسن تدبير قائده راى سنغ، على القدوم إلى آگرا ومعه ابنه شمبوجى ليقدّم فروض الولاء إليه بنفسه .

---

١ — Sarkar, Hist. of Aurengzib Vol iv pp 47-51

وحين أحس هذا الزعيم المغامر بأنه وابنه معتقلان في دارهما ، احتالا على الحراس فهربا من محبسهما في سلتين من سلال الفاكهة بتدبير محكم ، لينطلقا من بعد ذلك إلى مناوأة أورنجزيب من جديد . وقد كان في إمكانه أن يكسبهما إلى صفه باصطناع المودة معهما فيبلغ بمعونتهما إلى إخضاع الجنوب كله لسلطانه دون كبير عناء [1] .

ومن عجب أن شيواجي ، حين عاد إلى مقره ، وجد وزراءه منصرفين إلى تدبير شئون الدولة وكأن شيئا لم يقع لأميرهم .

وهادن شيواجي الدولة عامين انصرف فيهما إلى تنظيم حكومته ، وكان يدير شئونها إذ ذاك مجلس برئاسته قوامه ثمانية من الوزراء لشئون المال والشئون الداخلية والخارجية والدينية والبلاط وشئون الحرب والقضاء ، وجميعهم ، فيما عدا وزيري العدل والشئون الدينية . كانوا من أصحاب الرتب في الجيش .

وعدل شيواجي عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله قضاء ستة أشهر من كل سنة في المعسكرات لينصرفوا من بعدها

---

١ - Mughal Rule in india pp 137,38 عالمكير نامه ٩٦٧ - ٧١

إلى حقولهم ، فأقام له جيشا ثابتا التزمت حكومته بنفقاته . وكان قوامه أول الأمر المشاة حتى يسهل تشكيل العصابات منهم . ثم ضم إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدراً للفزع والرعب أينما حلوا وساروا . (١)

ولم يهتم المرهتها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها ، فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهالين إلى صفوفهم (٢) .

وطفقت عصاباتهم تعاود نشاطها من جديد ابتداء من عام ١٠٨١ هـ ١٦٧٠ م حتى طردت نائب السلطان من كنكان ، وسقطت مرة ثانية على سورات ، فبلغ ما انتهبته منها ما يزيد قيمته على سبع ملايين من الروبيات . وكان من أثر غاراتهم المتكررة على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى كساد التجارة فيه .

ونادى شيواجى بنفسه آخر الأمر أميراً على قومه عام ١٠٨٥ هـ ؛ ١٦٧٤ م ؛ والدولة منشغلة عنه إذ ذاك بفتن الشمال ، وقد ضم إليه كثيراً من الأراضى والحصون فى نطاق مملكة

---

١ — Hist. of the Mahrattas. Vol 1 175.

٢ — Shivaji and his times 485,6

فيا يانكر القديمة التى بات الهنادكة فيها يحلمون باستعادتهم لمجدها الغابر عـــلى يديه .

ثم انطلق من بعد ذلك ينتهب أملاك الدولة نفسها ، بعد أن اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجاپور . فلم يستطع دِلِيرخان قائد أورنگزيب أن يصمد فى وجهه كثيراً ، حتى طواه الردى عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ولمّا يُكمل الثالثة والخمسين من عمره (١) .

وزعزع من بناء الدولة التى أقامها شيواجى ، انصراف رجاله من بعده إلى تحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة ، فانقلبت القوة التى أقام صرحها إلى سلاح هدّام استخدمه رجاله فى منازعاتهم فيما بينهم ، ليجىء من بعد ذلك أورنگزيب ، بعد فراغه من حروبه فى الشمال ، فيلتحم معهم فى معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة فى الأموال والأنفس .

بيجاپور وغولكونده : قـــدم أورنگزيب عالمگير إلى

١ — يذكر خافى خان فى منتخب اللباب « ٣٠٥ » لشيواجي أنه كان يحرص فى غزواته على ألا يتعرض أحد من رجاله لمساجد المسلمين أونسائهم وأطفالهم بالسوء برغم عدائه الشديد لهم .

برهانپور عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م ليقود بنفسه معارك الدكن ، فبعث بابنه الأمير مُعظّم لغزو أراضى المرهتها ، فتوغل فى كُنكان ليجد العدو قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرّب قراها. حتى إذا ما حاول الجيش الغازى أن يمون جنده بالمؤن عن طريق البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب وأغرقوها .

وحين وجه السلطان ابنه الثانى أعظم إلى بيجاپور وسارهو إلى أحمد نگر ، انطلق شمبهوجى بن شيواجى وخليفته إلى خاندش نخرب بعصاباته قراها ، حتى اذا ماقدمت إليهم قوات الدولة تفرقوا سراعا . على عادتهم ليتصيدوا أفرادها وينزلوا بها خسائر كثيرة .

هنالك رأى أورنگزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء أولا على إمارتى بيجاپور وغولكونده فيحرم بذلك المرهتها من أموال كثيرة كانت تلتزم هاتان الإماراتان بدفعها لهم اتقاء لشرهم ، ويبالغ فى الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب ينكره أشد الإنكار ، وهو مذهب الشيعة الذى كان يدين به سلاطين هاتين الإمارتين ويروّجون له بالهند .

وفى هاتين الإمارتين اللتين كان الضعف قد تسرب إلى حكومتيهما فى قوة بسبب تنازع حكامهما ووزائهما فيما بينهم ،

كانت نواة عصابات المرهتها الحديثة ، وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجى وابنه شيواجى وحفيده شمبهوجى ، وكانوا جميعا على تحالف وثيق فى بعض الأوقات مع حكامهما، ويجمعهم معا فى صعيد واحد ، آخر الأمر، عداؤهم المشترك للدولة وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم لها .

وأشرف أورنگزيب بنفسه على حصار حصن بيجاپور ، فلم يغن صاحبه فتيلا استنجاده بأبى الحسن قطب شاه سلطان غولكونده أو بشمبهوجى أمير المرهتها ، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد ، دام عاماً وبعض العام . استطاع إبّانه البيجاپوريون بمعاونة المرهتها أن يخربوا كافة الأراضى الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شحّا شديداً فى الأقوات كاد يصرفهم غير مرة عن غايتهم ، لولا عناد قائدهم أعظم بن السلطان وشدّة مراسه .

ودخل السلطان بنفسه المدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧ هـ / ١٦٨٦م فهدم كل النقوش الهندية التى كانت تزين قصر سلطانها سكندر شاه ، كما خرّب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الفخمة الأخرى بها .

وقضى سلطان بيجاپور وهو فى الثانية والثلاثين من عمره

بد أن أنفق بضع سنين فى حصن دولت آباد بالدكن وشاركه حبسه هذا بعد قليل أبو الحسن قطب شاه سلطان غولكونده بعد ن سقطت بلاده بدورها فى أيدى الدولة"(١)

ذلك أن أورنگزيب كان قد انتقد حنقه على صاحب جولكونده أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التى تعهد بها للدولة من قبل ، ونقض اتفاقه معها بالابتعاد عن محالفة عدائها ، حتى اتخذ له وزيرين من الهنادكة هما مادنا وآلنا فكانا على اتصال وثيق بشمبهوجى ، زعيم المرهتا فى الخفاء ، ها هو آخر الأمر يعاون أصحاب بيجاپور فى حربهم مع الدولة.

هنالك زحف أورنگزيب على غولكونده ، وإنه أعظم فى حصاره لبيجاپور . حتى إذا ما بلغه تقتل الأهلين بها للوزيرين الهندوكيين عدل عن المضى فى زحفه ، إلى حين . ليعاون ابنه ولا فى حربه .

وعاد السلطان ، بعد سقوط بيجاپور ، إلى غولكونده من جديد ، ليواجه بها مقاومة عنيفة عاون أصحابها عليها المرهتها ، فأحرقوا الزرع على عادتهم . وأخذ الجوع والوباء يفتك بجند الدولة حتى تمكن أورنگزيب ، بالرشوة والخديعة ، من التسرب

---

١ — عالمگيرنامه ٩٤٦ .

آخر الأمر إلى داخل الحصن .

ولم يفتّ تدفق الغزاة فى عضد الوزير عبد الرازق الذى انطلق فى حفنة قليلة من رجاله لاتزيد على أثنى عشر نفراً يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن فى تهور وشجاعة مذهلة حتى أعاقته جراحه التى زادت على السبعين عن مواصلة النضال .

وندب أورنگزيب لعلاج هذا الوزير طبيبا هنديا وآخر أوروبياً . وحين شفى من جراحه أراد السلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب ، فاعتذر له معتذا بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطانا بعد مليكه أبى الحسن ، أكبر أورنگزيب فيه وفاءه وشمله بالكثير من الرعاية والإحسان [1] .

وفى حصن غولكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استحوذ أورنگزيب على كنوز كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البلاد أراضيها الخصبة وموانيها التى كانت تزدحم بالتجار الأوروبيين ومصانعهم التى كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوما باهظة سنوية .

شمبوجى : انتهى أورنگزيب من أمر هاتين الإمارتين ليفرغ من بعد ذلك لحرب المرهتها . وكان أميرهم شمبوجى بن شيواجى قد آثر أن

---

١ — منتخب اللباب ٣٣١ — ٣٣٥

يلزم حصن سنجمشوار طالبا للسلامة . والسلطان منهمك فى حربه مع جيرانه ، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنگزيب ، وهو فى تقاعسه منصرف إلى لهوه ، فأسره مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله ؛ ثم قتله وأعيانه وأمر فطوِّف برءوسهم فى أغلب مدن الدكن عام ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م عظة وعبرة(١) .

وسقطت راجگره عاصمة المرهتها بأيدى الدولة بعد أشهر قلائل من أسر أميرهم ،وأحيط بأفراد أسرته جميعا إلاّ رامداس ، ليجتاح أورنگزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تنجوره بأقصاه .

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها فى حوزة أورنگزيب إلا أماكن قليلة عند الساحلين الشرقى والغربى كانت بأيدى المستعمرين الأوربيين ، وإن لم يمكنه ترامى أطرافها ، وما يحمله له أغلب أهليها الهنادكة من كراهية وعداء ، من إحكام قبضته فى الواقع عليها وتثبيت أقدامه بها . هــذا فضلا عما استنزفته حروبه بها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة أواخر أيامه عن الوفاء بمقرارات الجند (٢) .

---

١ — Sarkar. Hist. of Aurengzib IV p 403

٢ — Dunbar 279

لقد أراد أورنگزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب ، فقضى هذه السنين الطويلة مقيما ، فى الغالب ، هناك حتى نهاية عمره ، فلم يبلغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه . ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء ذوى الجلد الذين ساروا مع جده الأكبر بابر ففتح بهم الهندستان وكسر بهم شوكة الراجپوتيين ، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو فى حملات الدكن على توفير أسباب الرفاهية والأبهة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة فى قصره ومن حوله نسائه وجواريه . هذا كما كان الراجپوتيون بدورهم قد تخلوا عنه ، وهم الذين طالما عاونوا آبائه فى حروبهم من قبل . فلو كان قد أتيح لأورنگزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع أغلب الظن القضاء التام على المرهتها فى يسر ، ولثبت أقدامه فى الهند كلها ، ولجنب الدولة بالتالى الأخطار القاتلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدى المرهتها والسك [1] .

هذا وقد حاول راجا رام داس أن يلم شعث المرهتها من جديد، بعد أن كتبت له السلامة من الأسر ، فلم يحالفه التوفيق ،

---

١ — Lane-Poole. 401,2

حتى حاصرته قوات الدولة آخر الأمر فى حصن ستّارا إلى الجنوب من بونا. واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت أميرهم، وقد تزعمتهم من بعد ذلك تارى أرملة هذا الراجا فقادت عصاباتهم فى عزم أسلافها وحنكتهم. وحين سار أورنگزيب إلى أحمد آباد عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م مضوا فى أثره يخربون أراضى الدكن حتى مشارف مالوه، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك، وما قضى عليهم القحط، بسبب انحباس الأمطار قبل ذلك بسنوات قليلة، بضعة ملايين.

لم ينقض عام على أورنگزيب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغه فأيقن بدنو أجله. هنالك فرّق أبناءه فى أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطاحن وفتن، فبعث بأعظم إلى بيجاپور، وبكام بخش، أحب أبنائه إليه، إلى مالوه.

وكان أورنگزيب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد فى إلقاء ابنه الأكبر سلطان فى الحبس حتى مماته، كما سجن ابنه معظّم سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بيجاپور، أثناء حرب الدكن، دون تصريح منه. وفعل مثل

ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه . بل إنه لم يتردد كذلك فى عقاب ابنته زيب النساء وكانت شاعرة موهوبة ، لعطفها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها فى الحبس [1] .

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته ، ويسرعوا بدفنه فى أقرب مقابر للمسلمين ، ولا يزويدوا فى ثمن كفنه على خمس روبيات كان قد كسبها من صنع الطواقى وبيعها ، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الروبيات كانت هى كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخه للقرآن الكريم وبيعه .

وفاضت روحه يوم جمعة ، على مُناه ، فى الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة عام ١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م وهو فى التسعين من عمره فوورى التراب فى مقبرة دولت آباد(٢)

شخصية أورنگزيب : وقف أورنگزيب عالمگير حياته كلها على إعلاء شأن السُّنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا ، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة

---

١ — Muslim Rule 662

٢ — Eb. 646

من أصحاب المذهب الشيعى وغـــيرهم . وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقى يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه ، حتى كان لا يتردد ، وأعنف المعارك تدور من حوله ، فى أن ينزل عن دابته فيؤدى الصلاة فى وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها بالمسجد الجامع أو فى داره (١) .

وبلغ من ورعه وتجنبـــه للترف والمتع ، إلى جانب تحريمه التام للخمر والميسر ، أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه برغم براعته فى العزف (٢) ، وخـــيرّ الراقصات بين الزواج أو النفى فى الأرض . كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بَعُدَ كل البعد عن القسوة والقتل ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب فى محاكمة المجرمين إلاّ قطاع الطرق منهم (٣)

هذا فضلا عما شُهر به من تجمّل بالصبر وهدوء النفس فى المحن ، والتواضع الشديد الذى أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين

---

١ — مرآة عالم ١٦١ .

٢ — يروى أن الموسيقيين حملوا عندئذ النعوش مولولين والسلطان في طريقه إلى المسجد ، فحين إستفسر عن أمرهم أجابوه بأنهم في طريقهم لدفن الموسيقى ، طلب إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياه ثانية .

٣ — Lane-Poole. 353

بلغه أنه يتعالى عن الناس فى مجلسه حتى اتخذ له مايشبه العرش ليتربع عليه (١) .

ولقد نشأ منذ شبابه على التمرس بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها ، فأصاب نجاحا كبيراً فى حكم الدكن وحروبه ، كما ذاع صيته كذلك فى معارك بلخ وبدخشان مع الأوزبك وغيرهم .

وأدت به رقابته لضميره فى كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينام إلاّ ساعات قليلة ، لينفق وقته كله فى الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة بنفسه . ويسهر فى دأب متواصـــل على مصالح رعاياه . ويبت فى كل مسائلهم برأيه الخاص ، حتى كان وزراؤه فى الغالب مجرّد كُتّاب لتنفيذ أوامره .

وبلغ من حرصه على تحقيق العدل لرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقُضاته فى كافة أنحاء البلاد بأن يتوافروا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم . مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمســـة أيام فى كل أسبوع بدلا من يومين على الرسم السابق .

---

١ — Muslim Rule. 653

على أن غيابه الطويل بالجنوب وهو يدير دفة المعارك هناك ، قد أدى إلى تسرب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال طريق العنف مع الأهلين .

ولم يلبس أورنگزيب إلا بسيط الثياب ، ولم يكن يسمح لأحد أبداً أن يغتاب غيره فى حضرته . وأدى به ورعه وزهده إلى أن كف يده عن بيت المال ، فى الغالب ، فعاش على ما كان يكتسبه من صنع الطواقى بنفسه ونَسخه للقرآن الكريم بخطَّى الشِكست [الرِقعة] والنستعليق ، وكان له فى كتابته ذوق فنى رفيع ، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين الشريفين . وقد كان من أمانيه أن يحج إلى البيت الحرام لولا ماخافه من اضطراب أمور الهند فى غيبته ، فأخذ على عاتقه تيسير سبل الحج لرعاياه .

ولم يشتغل أورنگزيب فى حياته بغير علوم القرآن والسنة فى الغالب ، على تمكنه من الآداب الفارسية وبراعته فى النظم الذى عدل عنه حذر الغواية .

وأُلِّف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة الفقه الحنفى فى المذهب ، وهى المعروفة بالفتاوى الهندية

أو العالمكيرية [١] .

على أن أورنكزيب كان يرى اصطناع الخداع فى السياسة أمراً واجباً . وأنه لا ضير على الحاكم من نشر شبكة من العيون بين الناس لتأتية بأخبارهم وتنبئه بأحوالهم . كذلك لم يكن يَرَ بدأ من أن يصطنع السلطان الرحمة والشفقة مع أعداء عقيدته الذين يناوئونه ، فعصف لذلك بالمرهتها والراجپوتيين والشيعة والسك عصفاً شديداً حين وقعوا فى قبضته .

البريطانيون عند أورنكزيب : كان من أثر وقوف البريطانيين فى وجه شيواجى زعيم المرهتها ، حين أقدم على نهب سوارت ، أن توثقت علاقاتهم بأورنكزيب الذى قابل موقفهم من عدوه بتخفيض الرسوم التى كانت تفرض على وارداتهم .

وكان البريطانيون قد أفادوا ، من قبل ، من سخط شاهجهان على البرتغاليين وتدميره لمراكزهم عند هوجلى . فحصلوا على إذن لهم منه بإقامة وكالة لهم هناك ، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم الهندية لإشراف موحد مركزه فى سورات .

---

١ — طبعت هذه الفتاوى بمصر عام ١١٨٢ هـ أى بعد مضى قرن ونصف القرن على وفاة أورنكزيب. وهي من المراجع الشرعية المهمة في الأحوال الشخصية .

وامتد نفوذهم التجاري من بعد ذلك إلى بمباي بالساحل الغربي ، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حاكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة ، على خلاف اتفاقهم السابق مع شاهجهان فعمدوا إلى مناهضة الدولة ، دحرتهم قوات أورنگزيب عند كل مراكزهم،فضاعت منهم مصانعهم عند هوجلي وسوليباتام.وحرموا حرماناً تاماً من ممارستهم لنشاطهم التجاري في أراضي الدولة من بعد ذلك على أن ما كانت تجبيه الدولة منهم من رسوم كثيرة ، أغرت أورنگزيب بالعفو عنهم ، فجاءوا من جديد ليقيموا لهم بأدنى هوجلي محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى كلكتا . وماغدت هذه القرية تتسع في تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلي الجديدة .

ووحد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجاري عند الساحلين الشرقي والغربي ، في شركة الهند الشرقية ، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر : في حرص تام ، بالتباعد عن التدخل في شئون الدولة .

ولم يكن يجول بخاطر أورنگزيب عالمگير أنه بتسامحه مع هذه العصبة إنما يمهد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أحط السبل وأدنئها، حتى تم لهم استعمار شبه القارة الهندية كلها.

خلفاء أورنگزيب

يتهم بعض المؤرخين أورنگزيب عالمگير بأن عدوله عن سياسة سلفه العظيم جلال الدين أكبر فى تقريب الهنادكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتنة بينهم وجنوحهم إلى الثورات فى مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية ، فى حين يرى مؤرخون آخرون أن تقريب السلاطين السالفين للهنادكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العامل الأول فى زلزلة بناء هذه الدولة .

وفى هذين القولين متسع للبحث ، فأورنگزيب فى تمسكه بتعاليم السُّنة وقَصْره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلاّ ضريبا لمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى بالهند . وسلاطين المغول ، وغيرهم من حكام المسلمين بالهند ؛ حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنادكة ومخالطتهم . إنما كانوا يبغون من وراء ذلك إلى تآلف أفراد شعوبهم ،

وهو أمر عاون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند . حتى إن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم فى شبه القارة الهندية اليوم هى من أصول هندوكية .

والحجة الدالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنادكة وإصهارهم اليهم أدى إلى ضياع دولتهم بالهند ، هى أن أورنكزيب نفسه أمه هندوكية خالصة . وهو الذى خضعت لراية المسلمين فى عهده شبه القارة الهندية ، والذى عرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسننه . وقد شهد ثقاة المؤرخين ، وفيهم من الهنادكة ، بحزمة وشجاعته وعلو همته وأصالة رأيه . وقالوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندر لودهى ، سميا له فى حب العدل والسهر على مصالح الناس . ولئن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمنا فهو يعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال .

وغاية القول أن انهيار الدولة المغولية لايرجع إلى سياسة أورنكزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنادكة ، وإنما يرد إلى ما كان عليه خلفاء أورنكزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم فى بلادهم التى بلغ أبوهم برقعتها إلى مالم تبلغه ، حتى أيام أكبر ، من السعة وترامى الأطراف ، وتمكن بما أوتى من حزم

١ — منتخب اللباب ٨٧/٣٨٦ — Lane-Poole 410

وقوة شكيمة ، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة، اللهم إلا في أخريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض . هذا : كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة فحسب ، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديه من ولايات غير آبه بالأخطار التي طفقت تهدد كيان الدولة في الداخل على أيدي المرهتها والسك والراجپوتيين ، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابعة من بعد ذلك ، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالا شديدا مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوربيين الذين بلغوا ، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك نواياهم ، إلى تثبيت أقدامهم في أماكن عديدة بالشواطىء الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص ، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التي لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير ، حتى أفلح البريطانيون منهم ، بالقوة حينا ، وبالدس والوقيعة والغدر أغلب الأحيان ، في أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها .

بهادر شاه :

لم يُجْدِ فتيلا حرص أورنگزيب على أن لا تتكرر بين بنيه مأساته مع إخوته في تنازعهم على الملك . فهو حين فرّق

أبناءه فى الأرض قبل وفاته ، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده حتى لا يتآمروا عليه فى حياته فينتهى به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه شاهجهان من مصير أليم على يديه ، إنما أدى بإجرائه هذا إلى تأجيل الفتنة إلى ما بعد انقضاء أجله فحسب ، دون اقتلاع أصولها .

فلم يكد يوسد الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه ، وقد هدف كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه ، فنادى أعظم بنفسه سلطانا بمالوه وكذلك فعل أخوه كام بخش ببيجاپور ، فى حين زحف شاه علم بهادر ، أكبر أبناء أورنگزيب من بشاور إلى الپنجاب حتى بلغ دهلى ، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقضى على أعظم بعد أن بلغت قواته مشارف آگرا ، ويوقع كام بخش فى أسره على مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين ، وقد رفض الأسير فى عناد أن يُعالج من جروحه حتى قضى بدوره(١) .

هنالك عهد بهادر شاه بالوزارة إلى بدخشى منعم خان الذى كان له خير معين لبلوغه العرش ، ليواجه من بعد ذلك ثورات المرهتها فى الدكن والراجپوتيين فى منازلهم ثم السك فى الپنجاب والجات عند مشارف آكرا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كان البريطانيون قد أخذ خطرهم يتفاقم فى أغلب مراكزهم وعند الشواطىء الشرقية

---

١ ــ منتخب اللباب ٣٩٩ ، ٤٠٠

بخاصة ، وكان أغلب القادة قد بعث السأم والضجر فى نفوسهم ، حروب أورنگزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها فى حالة من الإنهاك الشديد الذى أدى إلى سريان الفوضى فى صفوفهم ، كما نتج عن اتساع رقعـــة الدولة ، وضعف رقابتها على عمالها منذ أواخر عهـــد السلطان السابق ، أن شرع فريق من الولاة بدوره يتقاعس عن شـــد أزر الدولة ومدّها بقواته فى انتظار الفرصة الموانية للاستقلال بما بيده من أرضين .

الراجپوتيون والسك : لم يمهل الراجپوتيون السلطان الجديد وهو فى حربه مع أخوته حتى انحدر أجيت سنغ بن جسوانت من مكمنه بالجبال فائتلف وأمر سنغ صاحب اُدايپور لينطلقا من بعد ذلك إلى جدهپور فيطردا عمال الدولة منها ثم يعملا التخريب فى مساجدها ويتخذا منها معابد لأوثانهم، ويذيقا المسلمين الخسف والذل بأرضها .

واُتيح لبهادرشاه ، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم ، أن يُلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد ، ليعـــودا إلى سيرتهما الأولى من البغى بعد قليل وهو فى شغل عنهم بحربه مع ثانى إخوته كام بخش بالدكن . حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على فتنة

الوراثة ، دفعه حسن تدبيره إلى مهادنة الراجپوتيين جميعا فى أُدايبور وجدهپور وجايپور ، فاعترف لهم بالرسم الذى كان لآبائهم أيام جدّه أكبر ، كسبا المودتهم ، حتى ينصرف مطمئنا إلى حرب السك الذين جنحوا إلى الثورة فى الپنجاب من جديد [1] .

ذلك أن أحد البطهانيين الأفغان اغتال بالدكن كوفند سنغ ، عاشر زعماء هذه الطائفة . الذى كان قد وقع فى أسر أورنكزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه فى حرب كام بخش بالدكن . وحين بلغ خبر مقتله الپنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا يشعل الحماس بين بنى جلدته ويحرضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول ، فسقط بهم على سرهند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك فى الپنجاب الشرقى فيشيعون فيه الخراب والدمار والقتل ، فلم ينج من سيوفهم الأطفال أو النساء والشيوخ . ولم يقنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يبلغون بفتنتهم مشارف دهلى . لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو ولم يمنع جند الدولة عن مطاردتهم وتشتيت شملهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م

---

(١) Lane - Poole 413. 41

وهو فى السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساءت فيهـا أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورها إلى اقتراض الأموال من بعض أمرائها لسد العجز فى الخزانة .

وكان من حسن تدبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو ، حفيد شيواجى ، أن ركن المرهتها فى عهده إلى الهدوء حتى صحبه فى حربه مع أخيه بالدكن ، نيا سندهيا ، أحد كبار صدورهم .

ولئن كان المرهتها قد تفرقوا ، عقب موت أورنگزيب ، شيعـا وأحزابا حتى ابتعدوا عن تحقيق أهداف شيواجى وشمبوجى فى إقامة دولة موحدة كبيرة لهم . فإنهم لم يعدلوا أبداً عما عرفوا به من الميل إلى التخريب والتدمير ما أتيحت لهم الفرصة بذلك.

جهـاندار :

تقاتل أبنـاء بهادر شاه الأربعة على العرش ، بعـد موت أبيهم ، على العادة الغالبة عند الأمراء التيموريين بالهند . ولقد كاد الحـال يستقر بينهم ، بادىء الأمر ، على أن يقتسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفيع الشأن الملتـان ، وتتا، وكشمير ، على أن يقتسم جهاندار وعظيم الشأن بقية الأرض فيما بينهما . لولا أن تنازعوا من جديد على الأموال

ليبلغ ذو الفقار خان بدهائه إلى إثارة جهاندار ورفيع الشان وجهانشاه مجتمعين، على أخيهم عظيم الشان .

واتسع نطاق الفتنة بين الإخوة جميعا حتى سقط فيها ثلاثة منهم ، ليرقى العرش من بعـــد ذلك جهاندار فينصرف إلى اللهو والمتعة، ويُبعد عن بلاطه الرجال المجرّبين والعلماء ، حتى زحف إليه محمد فَرُّخ سير ، ابن أخيه عظيم الشان ، من پتنا ، وكان قد استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال ، فالتف حوله عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته ، فأنزل بقوات الدولة ، على كثرتها ، ضربات متلاحقة حتى دخل آ گرا فانطلق منها إلى دهلى فوجد عمّه بقلعتها ، فأورده مورد الردى ولمّا يمض عليه فى الحكم أحد عشر شهراً (١)

فَرُّخ سِير :

جلس فرُّخ سِـــير على عرش دهلى فى المحـــرم من عام ١١٢٤ هـ / ١٧١٢ م بعد أن طاف موكبه المدينة ، والفيلة تتقدمه وعليها جُثتا عمه جهاندار ووزيره ذى الفقار ، فاتخذ له وزيرين أخوين ينتميان إلى أشراف العرب هما السيّد عبد الله خان والسيد على خان ، لينفسا من بعـــد ذلك على عبد الله مير جمله

١ — منتخب اللباب ٤٣٨

معتمد الملك ما حباه به السلطان من نفوذ واسع حتى اتخذه مشيراً له وأطلق يده فى تصريف شئون الدولة كلها ، فما زالا يوقعان به عند السلطان حتى أبعده آخر الأمر إلى پتنا وانفردا بالأمر كله . وقد نجم عن تنافس الخصمين وما كانا يحيكانه من التآمر والدس إلى هلاك كثير من الأنفس ظلما [1] .

السِّك والمرهتها : ونزع السِّـك عام ١١٢٦ هـ ١٧١٤ م إلى الفتنة من جديد ، وكان زعيمهم بندا قد وحّد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلا قويا بجودا سپور بالپنجاب ، ثم انطلق بهم إلى أراضى هـذا الإقليم الشمالية فانتهبوها وسيطروا على كافة الأراضى الواقعة بين لاهور وسر هند . حتى بعث السلطان إليهم بقائده عبد الصمد دلِر جنگ فخاض معهم وقائع عنيفة ، فلم يفلح فى إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلاّ حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذى ضربه عليهم .

وسيق غورو بندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى ، ليقتل منهم فى كل يوم بضع مئات حتى فنوا عن آخرهم . وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه، أمام عينيه ، انتقاما لمن

---

١ — منتخب اللباب ٤٣٨

ذبحهم ورجاله من أبناء المسلمين فى البنجاب (١) .

وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السك إلى السلم بضع سنين .

هذا وكان قليج خان نظام الملك بهادر فتح جنگ ، مؤسس بيت النظام فى حيدر آباد ، حين ولاه السلطان شئون الدكن قد جد فى كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار والسكان ربع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم لهم . حتى إذا ما استُدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله هناك الوزير حسين على خان بعد أن غضب السلطان عليه ، أدى بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلافه مع السلطان إلى مهادنة المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج الدكن كله .

وضاق فَرُّخ سير آخر الأمر ذرعا بنفوذ وزيره الآخر عبدالله خان ، فدبر هو وبعضُ رجاله خطتهم على الخلاص منه، لكن عبدالله أفسد تدبيرهم بحذره ، حتى قدم أخوه العاصمة فى قوة من المرهتها فأطبقوا جميعا على السلطان فى قصره وأوقعوه فى أسرهم ثم سملوا عينيه، وقضوا عليه شنقا بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر

---

١ — منتخب اللباب ٤٥٨

رفيع الدرجات :

هنـــالك أجلس الوزيران على عرش دهلى أبا البركات، رفيع الدرجات فى حين نادى خصومهم بنيكو سِيَر ، أحد أحفاد أورنگزيب ، أميراً عليهم بآگرا .

ووافى رفيعَ الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاها على فراش المرض ، ليخلفه رفيع الدولة شاهجهان الثانى فيسير سيرته فى الاستسلام فى كل شىء إلى وزيريه والخضوع التام لرأيهما . وقد قوّى من نفوذهما استعادتهمـــا لآگرا ووقوع أميرها نيكو سِير فى أسرهما .

محمد شاه : قضى شاهجهان الثانى بدوره بعد حكم لم يبلغ شهوراً ثلاثة ، فأتى الوزير عبدالله خان بابنه محمد روشن أختر وأجلسه على العرش فى ذى القعـــدة من عام ١١٣١ هـ / ١٧١٩ م باسم محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعاً وعشرين عاما ويشهد تفككك الدولة وانهيارهـا على يديه .

احتال السلطان الجديد بدوره على التخلص من استبداد وزيريه الأخوين به ، حتى إذا ما تم له القضاء عليهما ، استدعى إليه آصاف جاه نظام الملك فاتخذه وزيراً له . لكن سلوك العصبة العابثة التى غدا السلطان ينقاد بالبلاط لمشورتها ، ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة

بعد قليل إلى الدكن حيث أمكن له أن يثبّت أقدامه بإمارة حيدر آباد الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التى وفدت لقتاله ، حتى أقرّه محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده فى شئون الدكن (١) .

ولم يكن نظام حيدر آباد هو أول أمير استقل بإمارته استقلالا فعليا لا ينال منه اعترافه الاسمى بسيادة السلطان . إذ الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان قد غدا ، بعد وفاة أورنگزيب ببضع سنين ، يأخذ طريقه إلى التلاشى . فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشد قُلى خان نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار ، أغنى أقاليم الهند ، فتوارث أولاده ملكه من بعده ، وحذا حذوه كذلك سعادت خان وأبناؤه بإقليم أوده .

ولئن عمد نظام الملك فى إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة وضرب السكة باسمه ، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة فساندها فى كثير من المواقف بإخلاص .

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضى التى تقع إلى الجنوب من نهر نربدا بقيام إمارة حيدر آباد الدكنية، ومن حولها المرهتها الذين توصلوا التمكين نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من

---

١ — تاريخ هندى ٤٤ ، ٤٥

نصيب فى خراج الدكن ، ضمنوا به مورداً كبيراً لهم .

المرهتها : أدى فتور همة شاهو أمير المرهتها إلى انفراط عقد دولتهم ، فراح كل زعيم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص ، وقد نبذوا جميعا الحرص على وحدة الدولة التى عمل لها شيواجى وشيواجى من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب : وسيلتهم السابقة لهدفهم وغايتهم من قبل .

وامتد نفوذ عصاباتهم إلى البحر ، فقاد قبطانهم تولاجى قراصنتهم عند الشواطىء الشرقية والملبار ، فظل البريطانيون يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضاء على كل نشاط بحرى لهم فى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى [١] .

لقد كان على المرهتها أن يمسكوا بعصاباتهم عن إثارة الاضطرابات بجنوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب فى خراج الدكن . حتى إذا ما عادوا إلى سيرتهم الأولى من البغى والعدوان ، فحاول نظام حيدر آباد أن يقتحم قصبتهم القديمة بونا بقواته ، رُدّ عنها رداً عنيفا . وشرع أصحابها يطاردونه حتى تعرضت حاضرته نفسها لخطر هجومهم عليها ، فلم يجد آخر الأمر مندوحة

---

١ — Dunbar. 297

من خطب ودّ البيشواى [1] وزرائهم الأقوياء الذين كان بيدهم المقاليد الفعلية لإدارة الدولة ، فهادنهم على ألاّ يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضى الدولة فى الشمال بعيداً عن أملاكه ، وفى خاطره أنه بخطته هذه سيدفعهم إلى مناهضة الراجپوتيين أعدائه وأعداء الدولة على السواء .

ولو كان المرهتهـــا قد ائتلفوا مع هؤلاء الراجپوتيين على الدولة بدلا من اجتياح أراضيهم ، مغيرين ، طلبا للغنم الذى صار كل غايتهم فى حروبهم فى الغالب ، لكفلوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدىً ، ومغانم أضخم قدراً بالهند دون شبهة .

على أنهم لم يكادو يبلغون مالوه ثم يظهرون من بعد ذلك عند مشارف دهلى ، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك ، الذى طمع بخروجه إلى حربهم فى أن يقضى على خطرهم المتزايد ؛ حتى إذا ما دُحرت قوات السلطان وأمير حيدر آباد مجتمعة عند بهوبال ، نشر باجى راو الزعيم المرهتهى نفوذه وسلطانه على كافة الأراضى التى تمتد فيما بين نربدا وسنبهل بما فيها مالوه .

---

١ ـ البيشوا هو الزعيم .

الغَزْو الفارسى :

أقبلت على الهند كارثة مروّعة فى ركاب نادرشاه ، صاحب فارس ، كانت أشــد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزو التيمورى الذى تعرضت له البلاد قبــل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن .

ذلك أن هذا العاهل القدير ، وكان من أسرة تركمانية رقيقة الحال فى خراسان ، توصل بجده وطموحه ودهائه إلى الجلوس على عرش الصفويين بإيران ، ليتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دانت له كافة الأراضى الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار . وما لبث بعــد ذلك أن استحوذ على إقليم كابل ، وكان لا يزال بأيدى أصحاب دهلى ، ثم انحدر إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله ، بعد أن دخل لاهور فى شوال من عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م .

ولقد أصمت حكومة دهلى أذنيها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيه (١) ، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا فى البنجاب واقتحموا قصبته . ومع هذا فقد

---

١ — تذكرة آنندرام مخلص ٧٧

أضاع السلطان المغولى ورجاله كثيراً من الوقت فى نقاش عقيم غلَّبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة، حتى انتهوا إلى استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدر آباد الذى كان قد قدم لنجدة السلطان ببعض قواته، حذَر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه الفرس (١) .

واستنجد السلطان كذلك بالراجپوتيين والمرهتها ؛ فأما الأولون فلم يعيروا دعوته التفاتا ، وأما الآخرون فقد آثروا أن ينصرفوا إلى تأمين حدودهم ، فأقاموا لهم خطوطا دفاعية حصينة على طول نهر نربدا وكمنوا من ورائها .

والتقى الغزاة بالمدافعين عند كرنال على حدود البنجاب فى معركة لم تستغرق سوى ساعات ثلاثة مُنى فيها السلطان المغولى بهزيمة منكرة استسلم على أثرها لنادرشاه ، ليدخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيعملون فيها السلب والنهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة .

ولم يرجع نادرشاه عن الهند إلا بعـــد أن اغتصب عرش الطاووس لنفسه ، وأرغم محمد شاه ، نظير إعادته إلى عرشه ، على التنـــازل له عن أرض كثيرة بالپنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند ؛ مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر

١ — تاريخ هندى ٦٠

والأحجار الكريمة ، جعلته يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاثة [١] . ولم ينس نادرشاه بدوره أن يسلك فى ركابه قسراً فريقا من مهرة النقاشين ورجال المعمار [٢] على غرار ما فعل محمود الغزنوى وتيمور من قبل .

وبضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسماً كبيراً من البنجاب إلى بلاده حُرمت سلطنة دهلى من حدودها الطبيعية التى كانت تحمى سهولها ، ومُنع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية ، وانكمشت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم يعد لها قِبَل بمواجهة المرهتها والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا .

والواقع أن غزو نادر شاه كان أخطر على الدولة الإسلامية بالهند من الغزو التيمورى وأبعد أثرا وأوخم عاقبة . ذلك أن الدولة الإسلامية ، برغم تفككها عقب تخريبات تيمور ، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة فى أغلب إماراتها وأقاليمها الكبرى ، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتها والسك على الخصوص ، الذين

---

١ — Dunbar 301

٢ — سير المتأخرين ٧١٦ — ٧٢٠

كانوا للدولة المغولية بالمرصاد ، ومن ورائهم المستعمرون الأوربيون ، وعلى رأسهم البريطانيون ، عند شواطئها يعدون العدة لابتلاع أراضيها كلها .

الغزو الأفغانى :

ظل البنجاب بأيدى الفرس اثنى عشر عاما حتى دخله عليهم أحمد أبدالى الدرّانى ، شاه الأفغان ، الذى نجح بعد قتله لنادرشاه فى أن يوحد قبائل الأفغان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطىء قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهول الهند.

وأفلح محمد شاه سلطان الهند فى رد الأفغان وأميرهم عن بلاده أول مرة عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م ، حتى إذا ما وافاه أجله فى مستهل العام التالى ، خلفه ابنه أحمد شاه ليواجه ثورة قبائل أفغانية أخرى ، هى الروهيلا إحدى بطون يوسفزى ، عند قنوج والدوآب ، فلم يتح لوزيره صفدار جنگ نائب أوده القضاء على فتنتهم إلا بعد أن استعان بالقائد المرهتى هولكر وكان إذ ذاك بمالوه[1] . وقد مهد السلطان المغولى باستعانته بالمرهتا إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغال بعد أن شمل مالوه والگجرات .

---

١ — تاريخ أحمد شاهي ١١٧ ، ١١٨

وانتهت غزوات أحمد أبدالى المتكررة على الهند مع اشتغال الدولة ، فى ضعفها ، بفتن الروهيلا المتعاقبة ، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه .

عالمكير الثانى :

ما غدا الوزير غازى الدين نظام الملك أن ائتمر بالسلطان أحمد شاه لما كان من عدائه هو وأمه له، فعزله وأجلس مكانه محمد بن جهاندار باسم عالمكير الثانى (١) .

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهيلا نجيب الدولة ، أن بعث هذا الأخير إلى أحمد أبدالى شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلى نفسها ، فاقتحمها برجاله عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م وأنزل بها وبأهلها أضراراً فادحة، ثم عاد إلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليد الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائباً له بالبنجاب .

ولم يكن نظام الملك ليرضى بغلّ يده عن تصريف الأمور فى دهلى ، فما إن فشل فى اقتحام أوده والله آباد ، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة ، حتى راح يستعين بالمرهتها، فحرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغانى فى البنجاب ونجيب الدولة

---

١ — تاريخ عالمكيرثانى ١٤٠ — ١٤٢

فى العاصمة وما حولها .

وأفلح القائد آدينه بك خان فى أن يطرد قوات أحمد أبدالى من البنجاب بمعونة المرهتها ويستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور وتتا والملتان التى خلفه السك عليها فيما بعد . ولم يكتف غازى الدين نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التى باتت تحت رحمة المرهتها وقادتهم ، حتى أوفد رجاله فقتلوا عالمگير الثانى وهو بحصن شاهجهان[1] .

على أن نجيب الدولة مالبث بمعاونة حليفه شجاع الدولة بن صفدارجنگ أمير أوده ، أن دفع المرهتها عن منازل الروهيلا ، ثم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانى لتخلصه من نظام الملك وحلفائه الذين لم يكن له قبل بالقضاء التام عليه ، حتى لبى أحمد أبدالى نداءه ونجح فى طرد المرهتها من البنجاب والشمال الهندى كله .

دحر المرهتها عند پانى پت : على أن عصابات الدكن هذه مالبثت أن جمعت جموعها عقب انصرام فصل الأمطار فصار لها ثلاثمائة ألف من الجند ومعها ثلاثمائة من مدافع الميدان[2] الثقيلة

١ — عبرتنامه ٢٤١ — ٢٤٣

٢ — فرحة الناظرين ج ١٧٠

زحف بها أمراؤها، وسواس راو وسداشيوبهاو وسنديا، إلى دهلى ثم جاوزوها ليلتقوا من بعد ذلك بقوات الشاه الدّرانى عند پانى پت.

ولم يكن شاه الأفغان بدوره فى قوة تزيد على الثمانين ألف مقاتل، ومدافعها لا تبلغ العشرين، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق الحرب الحديثة التى أتيح لفريق من جند المرهتها التدريب عليها بأيدى الفرنسيين بمستعمراتهم الدكنية: فأفادوا منها كثيراً فى حروبهم.

ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤ هـ / ١٧٦١ م فى قطع المؤن عن أعدائهم ليخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة هدّت من كيانهم وضعضعت من نفوذهم بالهند. وبلغ من وقع فى الأسر من رجالهم مائتى ألف وفيهم قائدهم سنديا الذى قُتل لوقته. ولم يقو زعيمهم البيشوا بلاجى راو على تحمل هذه الصدمة حين بلغته أنباؤها، وهو فى طريقه بالإمدادات عبر نربدا: فارتد إلى بونا حيث قضى نحبه هناك بعد شهور ستة [1].

البريطانيون فى البنغال وبهار: لم يكن المنتصر فى پانى پُت هذه المرة هو الذى قُدّر له أن يمسك بزمام الأمور فى الهند كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضى على السلطان إبراهيم اللودهى ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوكى هيمون

Duff. Hist of the Mahrattas VI pp 524-9 — ١

وجنوده من قبل ، فقد اضطر أحمد أبدالى شاه الأفغان ، بعد انتصاره الحاسم هناك ، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم وانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند ، ثميل ثقل الحدثان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توطد أقدامها فى البنغال وتحكم من خططها فى الجنوب الهندى حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك ولمّا يكن قد مضى بعدُ أسبوع واحد على انتهاء معركة پانى پت، لتبلغ من بعد ذلك بالتدريج إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها فى قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطانى .

ولقد وقعت أحداث پانى پت هذه وعرش دهلى خالٍ بعد مقتل صاحبه عالمكير الثانى وفرار ابنه على جوهر من وجه غازى الدين نظام الملك ، حيث لاذ بجلال الدين حيدر شجاع الملك نوّاب (١) أوده فى جلال آباد .

موقعة پلاسى : عنّ لعلى جوهر بن عالمكير الثانى وهو فى أوده أن يغزو البنغال ، وكان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد

---

١ — كلمة نواب هذه تقابل لفظ راجا أو أمير ، فهي من ألقاب التشريف ، ولا يستلزم أن يكون صاحبها من أرباب المناصب .

أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منه . وكان هذا الأمير قد انتزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعد أن استمال كلايف مدير شركتهم القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين من الروبيات (١) ضمنوا بها النصر على الأمير المغولى ومعه سراج الدولة فى معركة پلاسى ، فى شوال من عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ، تلك المعركة التى تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة فى الهند (٢)

وكوفىء جعفر خان على خيانته هذه بتنصيبه حاكما على البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية .

وما غدا الأمير المغولى أن بلغ پتنا فى مائة ألف من الجند ومعه محمد قولى خان نائب ولاية الله آباد فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر وأحلافه البريطانيين فى حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة لولا ما نجم عن نقص مؤنه من انسحاب جملة من الأمراء من صفوفه ، فمنهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغراء الأعداء فانضم إلى قواتهم ، حتى اضطر الأمير إلى مهادنة خصمه

Dunbar 341 — ١

٢ — تاريخ مظفرى ٣٢٥ — ٣٣٠

بعد ما نزلت به الهزيمة [١] .

شاه علم :

فى پتنا بلغ الأمير على جوهر خبر وفاة أبيه فنادى بنفسه سلطانا على الهند باسم شاه علم واتخذ شجاع الدولة وزيراً له ثم آب إلى الله آباد فأقام بها .

وضاق البريطانيون ذرعاآخر الأمر بجعفر خان وخداعه ، حتى إذاما كشفوا عن تواطئه مع الهولنديين حين حاولوا إنزال بعض قواتهم إلى البر ليحموا بها مصالحهم التجارية فى شرق الهند ، خلعوه بحجة تقدمه فى السن وربطوا له معاشا ثم أقاموا مكانه زوج ابنته الأمير على قاسم .

وما لبث حاكم البنغال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على هوى المستعمرين ، حتى عارضهم فى رفع المكوس جملة عن بضائعهم ، وكان الإعفاء فى الأصل وقفا على ما يصل منها برسم

---

١ — كان الأمير المغولى قد جعل من كلايف، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها. بعد معركة بلاسى ، قائداً لخمسة آلاف من الفرسان ، فحين طلب إليه الانضمام إلى قواته فى محاربة ميرجعفر بالبنغال ، بوصفه من قواده ، اعتذرله بتحالفه مع أمير البنغال على رسم البريطانيين فى الدهاء والخداع الاستعمارى . Dunbar 345. .

ولم تزد قوات البريطانيين في هذه الموقعة على أربعمائة وخمسين رجلا مع ألفين وخمسمائة من أهل الهند ، لكن أسلحتها الحديثة وحسن تدريبها ودهائها كفل لها النصر بطبيعة الحال .

أعضاء جاليتهم الخاص ، حتى وضع يده عنوة على پتنا وما بها من مصانع لهم.

موقعة بَكْسر : حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا فأطبقت على پتنا ، اتخذ على قاسم ، بعد هزيمته ، سبيله إلى نواب أوده فلاذ به . وقد أوقع بهما البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧هـ ١٧٦٤م ثم دخلوا الله آباد ولكنو وچُنار (١) .

وفى هذه الوقعة استسلم للبريطانيين شاه علم فتنازلوا له عن الله آباد وما حولها وضمنوا له معاشا سنويا قدره مليونان وستمائة ألف من الروبيّات على أن يطلق أيديهم فى جمع الخراج بالبنغال وبهار وأوريسه (٢) ، وبعبارة أصح : على أن يعترف لهم فى الواقع بسلطانهم على هـــذه الأقاليم . كذلك ردوا لشجاع الدولة أغلب أراضيه على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم .

المرهتها فى دهلى : لبث شاه علم يقيم فى الله آباد على وعود متكررة من البريطانيين بتيسير عودته إلى دهلى ، ولكنهم لم يوفوا له بشىء منها أبداً .

هـــذا ؛ وكان أحمد شاه أبدالى قبل أن يعود إلى بلاده بعد انتصاره فى پانى پت قد اعترف بعلم شاه سلطانا على الهند ، على أن يعهد بالوزارة إلى نظام الملك وبشئون المال والخراج إلى نجيب الدولة ،

---

١ — حديقة الأقاليم ؟ .

٢ — Dunbar 354

وفى خاطره أن هذا الوضع سيكفل إقرار أمور الدولة هناك .

على أن نجيب الدولة تأتّى له إبعاد خطر المرهتها ونظام الملك عنه، لينفرد من بعد ذلك سنوات تسعاً بشئون الحكم فى دهلى والسلطان فى منفاه بالشرق. وتمكن هذا الزعيم الأفغانى خلال ذلك من القضاء على فتنة السِّك، على كثرة عددهم بالپنجاب، لكن تهديد الجات له وزعيمهم سورج مل ثم ابنه جواهر سنغ من بعده أدى به إلى التفكير فى الاستعانة بالمرهتها لدفع خطرهم عنه .

ونجم عن وفاة نجيب الدولة تحرج الحال فى العاصمة ، حتى بات الناس يتوقعون سقوطها فى أيدى المرهتها أو السِّك بين يوم وآخر . هنالك حزم شاه علم أمره فاتفق مع المرهتها على أن يبادروا بدخول المدينة باسمه فيسلموها له من بعد ذلك على أربعة ملايين من الروبيّات يدفعها لهم فى أوقات مرسومة . وبهذه الخطة انقذ السلطان على الأقل سكان المدينة من تعرضهم لمذابح السِّك لو كانوا قد أتيح لهم الاستيلاء عليها . (١)

وصادفت خطة شاه علم هذه قدراً كبيراً من التوفيق والنجاح ليكتشف ـ من بعد ذلك ببضع سنين ـ أنه لم يتخلص من أيدى

---

١ ـــ حافظ المرهتها دواما على تقاليدهم حتى في أيام تفككهم فلم يقترفوا قتل السكان الآمنين على ما أشرنا إليه من قبل .

البريطانيين ويفر منهم إلا ليقع فى براثن المرهتها .

فقد قدر أن يفيد من عون المرهتها له ، دون خطر كبير عليه منهم . بعد أن كُسرت شوكتهم فى پانى پت ، فيحقق لنفسه بذلك الاستقلال الذى ينشده بعيداً عن البريطانيين ونفوذهم . وهو بعدُ فى مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له ، ثم منعوه عنه فيما بعد .

وهكذا سار شاه علم إلى دهلى فدخلها فى مستهل عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧٢ م برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء بإقليم الله آباد أرغد عيشا وآمن مقاما . وقد وجد فى وزيره الفارسى ميرزا نجف خان ذو الفقار الدولة خير معين، حازم وناصح أمين طوال الإثنى عشر عاما التى قضاها فى منصبه حتى وفاته . فقد دفع هذا الوزير عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم آگرا ، كما كسر شوكة الروهيلا الأفغان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة نواب أوده عليهم ، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما بين ستلج وسنبهل . كما استردت قدراً من مهابتها السابقة التى غابت عنها سنين طويلة من قبل .

وقضى نجف خان ليؤدى القحط الشديد الذى نزل بمنطقة دهلى من بعد ذلك عام ١٧٨٢ م فأهلك ما يقرب من نصف السكان ، إلى

اضطراب اقتصاديات الدولة ، حتى عجزت عن الانفاق على الجيش القوى الذى أنشأه ذلك الوزير الحازم ، فذاد به عن أراضيها طويلا ، فانصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم .

وأدى تنافس رجال الدولة فيما بينهم إلى استنجاد خلفه الوزير أفراسياب بمادهوجى سندهيا زعيم المرهتها ، بعد أن أخفق السلطان فى الاتفاق مع البريطانيين على مساعدتهم له وفق شروطه ، ليجمع هذا الزعيم المرهتى من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها فى يده بوصفه نائبا للسلطان ، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلا مطلقا بالدولة .

وتعرض سندهيا لعدة ضربات فى الراجپوتانا والدوآب ، كما اقتحم دهلى فى غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهيلا منتصف عام ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م وقبض على شاه علم وسمل عينيه ثم نادى بابنه بدار بخت مكانه [١] .

وتم للزعيم المرهتى آخر الأمر على كل حال تثبيت أقدامه فى المنطقة كلها من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين آزروا ابنه دولت راو من بعده كذلك حتى دفع البريطانيين عن بلاده ، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣ م يقودهم قائدهم ولسلى فيجتاحوا أراضى المرهتا كلها ويقوضوا سلطانهم ويدخلوا دهلى .

---

١ — عبرتنامه ٣٤٧ ، ٤٨

الاحتلال البريطانى

طرْد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تفد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يثبط من عزيمة رجالهـا ما بذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهـذه البلاد . وما لبث هؤلاء البريطانيون ، بما اشتهر عنهم من الدهاء وسعة الحيلة ، أن صرحت الدولة لهم بإقامة وكالات تجارية [1] عنـد سورات، فى الغرب وهوجلى فى الشرق ، ثم ما زالوا يتقربون من بعـد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاونوهم فى حربهم للبرتغاليين عند الشواطىء الشرقية ، كما دفعوا المرهتها كذلك عن بعض الموانىء الهندية

١ — كان التجار الانجليز يعانون كثيراً من المشقة فى إخراج العملة الفضية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التى كانوا يشترونها من جزر الهند ، حتى اهتدوا إلى إقبال تجار البهار على منسوجات الهند ، فسعوا بدورهم إلى إقامة وكالات نسيج لهم بالهند . هـذا، كما كانوا يجلبون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات الترف فيحصلوا نظيرها على ما يبتغون من منتجات هذه البلاد بتقديرهم .

الغربية ؛ ونال البريطانيون، إثر كل عون قدموه للسلاطين، مزيداً من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ما مكنهم من شراء عباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كلكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوبا .

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند

وكان الفرنسيون قد بلغوا، بتدبير دوبليكس ، مدير الشركة الفرنسية الهندية، ودهائه ، إلى مزيد من النفوذ فى الدكن وجنوب الهند . فقد استطاع هذا الداهية الفرنسى أن يدرّب بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقا من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم الفعلى لكافة الأراضى الواقعة إلى الجنوب من نهر كرشنا والموجّه لدفة الحكم فيها من وراء ستار .

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوروبا . بادر دوبليكس بالهند إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية ؛ وما لبث البريطانيون أن استردوا

مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب ، إذ أفلحوا ، بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية، في حمـــل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس، وبذا خلا لهم الجو ، حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء پُندشيرى وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند

واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة ، فانطلقوا يخضعون هذه البلاد الواسعة بجند من أبنائها وأموالٍ من أموال أهلها .

وما لبث هؤلاء المستعمرون أن ثبتـــوا أقدامهم بالبنغال وأوده على أثر انتصارهم الحـــاسم في معركتي بلاسى وبكسر ، وأبرموا عام ١٧٦٦ م معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان .

سلطان مَيْسور : هدف اتفاق البريطانيين مع نظام حيدرآباد في الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عنـــد الجنوب الغربي من الهند . واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨ م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام. غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م على كرناتيا كلها عند شاطىء

كورومانديل . وخلفه ابنه تيپو فاشتبك فى حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات . وما إن هادنوه عام ١٧٨٤ م ، حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرهتها ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله ، وفى حسابه أن فرنسا سوف تستجيب لاستنجاده بها . غير أن رُسله عادوا من باريس وليس فى جعبتهم سوى عبارات التشجيع والإغـــراء (١) .

على أن أعداءه ما لبثوا أن أجتمعوا عليه آخر الأمر فحاصروه فى حاضرته سرنغاپتم عام ١٧٩٢ م، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبوله التنازل لهـــم عن نصف أراضيه .

وقوّت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبامن عزيمة تيپو ، وأصاب الفرنسيون بدورهم قدرا جديدا من التوفيق بالهند كذلك ، فاسترجعوا بعض نفوذهم فى حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش هاتين الإمارتين وتدريبها .

على أن القائد البريطانى ولزلى توصل بدهائه إلى القضاء على النفوذ الفرنسى من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة .

---

١ — Morelanp 319

حتى إذا ماوجد من تيپو الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين في جيشه وتحالفه مع فرنسا ، سار إليه من مدراس فاقتحم عليه حاضرته فى قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسورى وهو يقاتل . وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوى وقف فى وجههم بالهند فى إصرار وإيمان وعناد .

وأُتيح للبريطانيين بالتدريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب ، وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان عام ١٧٩٧ م بعد أن كان الهولنديون يرابطون فى بعض شواطئها ، كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، تلك الحملة التى كان نابليون يبغى بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها ، وأحبطوا فى الغالب كل خطط للفرنسيين والروس بغوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من أيديهم .

حرب المرهتها : أفاد البريطانيون من شيوع الانقسام بين المرهتها فاشتروا زعماءهم فى ناجپور والگجرات بالرشاوى، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى بَيتى سندهيا وهُو لكر ، أقوى طوائفهم ، فاجتاح هستنج أقوى حصون سندهيا فى گواليار

عام ١٧٨٠ م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرهتها عموما إلى السلام وهادنوا أعداءهم .

هذا : وكان قد تم لمدهوجى سندهيا بسط نفوذه على دهلى، على ما بيناه من قبل ، وهزم الراجپوتيين، كما مد نفوذه على كافة أراضى المرهتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة ، ليخلفه من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ١٧٩٤ م على هذه الأراضى كلها .

وكان أن دعى الپيشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أزره بإزاء خصومه فى بونا، فقدموا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليعقدوا معه عام ١٨٠٢ م معاهدة بَسين التى أعترف لهم فيها بسيادتهم .

وحين ثار زعماء سندهيا وبهونسلا على هذا الدخل الأجنبى ، خاضوا مع البريطانيين غمار معارك عنيفة عند آساى انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانية ودخول البريطانيين دهلى وضياع أملاك سندهيا عند الشمال والشرق من جمنه ، وانتقالها وكافة الأراضى الواقعة بين الگنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدى المستعمرين .

وكان أن ترك البريطانيون بعض الأراضى بأيدى المرهتها فعانى الراجپوتيون على الخصوص كثيراً من الأذى على أيديهم وكان فى حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم .

وحين استشرى خطر عصابات البنـــدارى المرهتية فى إقليم بهار بصفة خاصة ، جرّدت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعا ، حتى استسلم لها كل زعمائها عام ١٨١٧ م فسمحت لفريق من صغارهم بلزوم بعض إمارات فى مالوه والگجرات . وقد سارع الراجپوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حربا جماعية أبدا(١) .

حرب الأفغان : كان من أثر هزيمة الروسيا لفارس عام ١٨٢٨ م أن عظم نفوذها فى تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمد نفوذها كذلك إلى أفغانستان (٢) باب الهند إلى سهول البنجاب والگنج .

وحين تبين لبيرنز مبعوث الهند البريطانى بكابل حرج موقف دوست محمـــد شاه الأفغان بإزاء نشاط مبعوث الروس الداهية فينكوفتش حتى اضطر إلى مصانعته برغم ميله للزوم الحياد التام،

---

١ — Dunbar 438

٢ — اطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذى يعرف بهذه التسمية اليوم ، هو من اصطلاح العصور الحديثة ، ومن باب تعميم الجزء على الكل ، فمنازل الأفغان هى إلى الجنوب من طريق كابل — بشاور. أما سكان كابل وغزنه ولمغان فهم خليط من عناصر العرب والفرس والترك. Ikbal Ali Shah. Afghanistan Pp 22 - 20

تعقد أوكلاند مدير الشركة الهندية العزم على الزحف إلى أفغانستان وفي صحبته أميرها السابق الشاه شجاع الملك الذى كان قد طرده دوست محمد فلجأ إلى رنجيت سنغ أمير البنجاب.

وكان هذا الأخير قد بلغ بقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم من الأفغان، ثم آثر أن يهادن البريطانيين حين دخلوا دهلى ومدوا نفوذهم إلى مشارف ستلج.

وتم للبريطانيين إجلاس شجاع الملك على عرش كابل من جديد حتى يضمنوا بذلك القضاء على دسائس الروس وإبعاد نفوذهم عن حدود الهند.

على أن الأهلين ما لبثوا أن ثاروا عليهم فى العاصمة ثورة عارمة أرغمتهم على التسليم بعودة دوست محمد إلى مقامه القديم وإخلاء المدينة من قواتهم، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم يتراجعون بين ثلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبين، فلم ينج من حملتهم التى كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص واحد هو الطبيب العسكرى بريدون (١) الذى كتب له أن يبلغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها.

ورجع البريطانيون من جديد إلى أفغانستان فى حملة انتقامية

---

١ - Moreland 346

قدمت من قندهار وجلال آباد فوجدت الأهلين فى كابل قد قتلوا شجاع الملك، ونادوا بابنه فتح جنگ مكانه .

على أن إرادة الأهلين كانت أقوى من عنف الغزاة وأسلحتهم، فما لبث البريطانيون أن ارغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣ م على احترام حدوده.

وبقى شاه الأفغان محافظا على عهوده مع البريطانيين محافظة تامة حتى بَعُدَ كل البعد عن المشاركة فى ثورة التحرير التى نشبت بالهند عام ١٨٥٧ م بزعامة فريق من المسلمين وكادت تنتهى إلى طرد المستعمرين منها .

وقد باءت بالفشل كل المحاولات التى بذلها البريطانيون لطىّ بلاد الأفغان تحت نفوذهم . ولم يكن مصير الحملات التى قادها اللورد روبرتس عامى ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ م فدخل بها كابل بأحسن حظا من حملات أوكلاند سالفة الذكر . فعلّم أبناء القبائل الأفغانية، من الأفريدى والمحسودى والوزيرى ، ببسالتهم وضراوتهم فى القتال ، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول المستعمرين ببلادهم (١) .

---

١ — حاضر العالم الإسلامى ثان ٢٩٩ ـ ٣٠٠

إخضاع السك والبلوخ : تذرع البريطانيون بحروبهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البلوخ لسلطانهم ، كما انتهزوا كذلك فرصة إعتداء السك على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم رنجيت سنغ ، فما زالوا يطاردونهم حتى أنزلوا بهم هزيمة قاصمة بالگجرات عام ١٨٤٩ م (١) ضموا من بعدها كشمير والپنجاب كله إليهم ، وجردوا قوات هذه الطائفة من أسلحتها وصرفوا رجالها للعمل فى المزارع .

وكان السك والغوركها أبناء نيپال ، التى لم يخضع المستعمرون إلا بعضها ، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون فى كل الحروب التى خاضوها دفاعا عن امبراطوريتهم أو لالتهام أراضٍ جديدة .

وبتدخل البريطانيين على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات ، بالدس والوقيعـــة ، أفلحوا آخر الأمر فى أن يضموا إليهم الإمارات الهنـــدية التى لم يستولوا عليها بقوة السلاح .

وبات الأمراء الذين بادروا إلى محالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر ، حُفظت عليهم إماراتهم ؛ معدودين من أتباع

---

(١) Dunbar 502

بريطانيا ، ومُنعوا من ممارسة أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأراضى .

وفُرض على أمثال هؤلاء الأمراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم ، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفع أو يتوقف ، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ما تُلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الأرض الباهظة ؛ حتى اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لسداد ما كانو يُلزمون به ، فعانى الملايين من أهل الهند أفظع ضروب القسوة والطغيان وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أحلك عصورها (١) .

خاتمـــة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادرشاه الفرس ولا غزوات أحمد أبدالى ، شاه الأفغان المتكررة للهند مصير الدولة المغولية بقدر ما قررته معركة بَكْسَر عام ١٧٦٥م ببهار . فطُويت بانتصار البريطانيين فيها على شاه علم السلطان التيمورى صفحة الحكم الإسلامى فى الهند .

---

١ — الهند وجيرانها ٣٠٤

ولم يكن البريطانيون ليتركوا شاه علم ينزح من مقامه بالله آباد ، حيث كان يعيش على المال الذى ربطوه له ، إلى كنف المرهتها بدهلى إلاّ ليضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه من بعد ذلك ، وقد باتوا على يقين ، تام من قرب وقوع شبه القارة الهندية كلها بأيديهم وخلاصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وأقواهم ، وما تكشّف لهم عن عجز قوات الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم ، على قلة عددها ، لحسن تدريب رجالها وما بأيديها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيرا . حتى واجهوا . وعددهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل ، عشرةَ أضعافهم فى معركة بَكْسَر سالفة الذكر ، فانتصروا عليهم انتصاراً حاسما لم يكلفهم أكثر من عشرين قتيلا وبعض الجرحى .

ولئن كان شاه علم يذكر للمرهتها أنهم أعانوه على العودة إلى دهلى ونظروا إليه فى الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين براثن الثائر الروهيلى غلام قادر ، فى حين أعرض كورنوالث مدير الشركة البريطانية عن نجدته فى محنته مع هذا الزعيم الأفغانى ، وضيق عليه البريطانيون ، من قبل ، فى الله آباد بعد أن هزموه فى بَكْسَر ، فإنه على كل

حال كان يداعبه الأمل فى أن تنتهى الحرب بين المرهتها والبريطانيين ، إلى إنهاك قواهما معا ، حتى يخرج المنتصر منهما وهو أميل إلى سلوك طريق المودة معه . وعلى هذا الرأى حرص كل الحرص على دوام اتصاله بالفريقين المتحاربين وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة فى نفس الوقت .

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قائدهم ولسلى مدينة دهلى عام ١٨٠٣ م أن انفردوا بالأمر كله فيها ، فلم يلتفتوا إلى السلطان إلا ليرتبوا له معاشا لم يزد على ما كانوا قد أجرَوه عليه فى الله آباد من قبل .

أكبر شاه الثانى :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يقلقهم فى ظل الحكم البريطانى إلا ضآلة ما رتب لهم من مال أصبح لا يفى بنفقاتهم (١) ، وإن وجد بخزائن شاه علم بعد وفاته ما يزيد على المليون من الروبيات كان قد أدخرها .

وحين قضى شاه علم قبيل أواخر عام ١٨٠٦م بعد أن جلس على العرش خمسة وأربعين عاما ، خلفه ثانى أبنائه أكبر شاه الثانى ، ليقضى حياة يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هستنجز ،

---

١ — Spear, Twilight of the Mughuls pp 36-9

حين خلف والسلى على إدارة الشركة الهندية ، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان ، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدى الذى يصفه بأنه خادم السلطان المخلص ؛ بل لقد رفض فى لقائه له أن يخضع للمراسم التى لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجدون غضاضة فى ممارستها . ولم يكتف بذلك حتى حرّض نواب أوده على أن ينادى بنفسه سلطاناً(١) ، واحتضن رام موهان رو صاحب جمعية براهما سماج الذى راح يدعو مُجدِّداً إلى القضاء على بيت التيموريين فى الهند (٢) .

بهادرشاه الثانى:

وخلف أكبر الثانى ابنه بهادرشاه الثانى عام ١٨٣٧ م ليعيش بدوره على الرزق الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه ، من قبل ، بعيداً عن كل نشاط سياسى أو مشاركة فى الحكم ، فلم يكن تعلق باله إلاّ معارضة المستعمرين له فى اختياره لولى عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضآلة معاشه الذى كان يراه لا يكفى

١ — Dunbar. 431

٢ — راح هذا الزعيم ، بتأثير حركات الإصلاح الدينى السابقة فى الغالب ، يدعو إلى توحيد ديانات الهند فى دين واحد يعبد إلهاً واحداً هو براهما ، دون تعدد فى الآلهة أو الطبقات أو الزوجات ، وينكر كل العادات الهندية القبيحة كالساتي وزواج الأطفال وغيرها .

لحفظ مظاهر الأبهة اللائقة بأمير تيمورى .

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى ، التى يعرفها البريطانيون بثورة السپاهى أو العصيان ، عام ١٨٥٧ م انتهت أيام بهادرشاه على عرش الهند ، وطُويت صفحة السلاطين البابريين أبناء تيمورلنگ بالهند كلها .

الثورة الوطنية :

هذه الثورة العارمة التى كادت تقضى على كل نفوذ للبريطانيين فى الهند كلها ، والتى كان مبعثها عسف الشركة البريطانية واستنزافها لثروات البلاد وإقفار أراضيها الخصبة . لاسيَّما فى الشمال ، نشبت فى وقت واحد بالبنغال ودهلى وجونپور والپنجاب .

أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون فى حفظ النظام بالهند ، وكان قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفا من البريطانيين . وقد بنى الثائرون خطتهم على أن يسارع البريطانيون عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة فى الهند إلى البنغال فيخلو لهم الجو بذلك ويثبتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد . فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبدا .

وعرف المتزعمون للثورة كيف يثيرون ثائرة جند البنغال ،

وكان أغلبهم من الراجپوتيين والبراهمة ، حين انطلقوا يلقون فى روعهم أن الشركة تعتزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما، الأمر الذى يتنافى وعقائدهم التى تعد كل من يغادر موطنه خارجا على طبقته منبوذاً . كما نبهوهم كذلك إلى معالجة البريطانيين لأسلحتهم وعجلاتهم بشحم الخنزير ودهن البقر المقدّس ، ودسهم هذه الدهون فيما يقدمونه لهم من الطعام، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم على حملهم قسرا على أعتناق النصرانيــة بأيدى مبشريهم الذين جلبوهم لتحقيق هـذا الغرض ، وهاهم يقفلون فى وجوههم باب الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة فى الجيش ، وهو ما لم يمنعه عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل .

وانطلق المسلمون فى دهلى يقودون الثورة،بزعامة بعض أبناء السلطان وفريق من الزعماء الأفغان المحليين ومعهم حامية ميروت الشمالية التى أنضمت إلى صفوفهم ، وفى خطتهـم أن يُخرجوا المستعمرين من بلادهم ويُعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند .

وما غـدا المرهتها فى جونپور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان يتزعمهم أميرهم نانا صاحب الذى كان وفريق من رجاله قد حُددت إقامتهـم هناك ، كما انطلقت الشائعـات فى الوقت نفسه بزحف الروس والفرس والأفغان لشد أزر الثـــوار ، حتى اُصيب

البريطانيون فى بدء الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة فى أماكن عديدة (١) .

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقروا الأمور فى البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تدبيره ، لينطلقوا من بعد ذلك ومعهم حلفاء من السك ، والغوركها وقوات نظام حيدر آباد فيقضوا على الثوار بكل مكان فى قسوة بالغة وعنف ، ويقصفوا بمدافعهم دهلى ؛ ثم يدفعوا بالسلطان المغولى الشيخ ، وهو فى الثانية والثمانين من عمره ، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء والده محمد بخت خان وميرزا مغول فى تزعمها للثوار ، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلى ، وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها ، وإعلانه الحرب عليها ومناداته بنفسه سلطانا على الهند .

هذا ؛ والثابت المعروف أن أحدا من السلاطين المغول ، منذ أن صار شاه علم فى قبضة الشركة الهندية ، لم يقبل الإعتراف بالحماية البريطانية أبداً ، كما أن بهادرشاه نفسه لم يكن له أى مشاركة فى هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال ، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم ، ولم يكن له بالتالى علاقة بملصقة

١ — Moreland pp 367-375

صغيرة وُجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسى خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يُقبل لنجدتهم (١)

قضى البريطانيون فى هذه المحاكمة عام ١٨٥٨ م على السلطان المسنّ بهادرشاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانچون ، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلهـــا إلى امبراطوريتهم تمـارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكما مباشرا . وعُوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جُعلت دينا على الهند ، هى وكل النفقات التى أنفقتها بريطانيا فى حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها .

وراح الحكام البريطانيون فى الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للنهوض بهذه البلاد وترقيتها ، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوربية . ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كلّه فى الغالب

---

١ — Spear pp 200, 222, 28

هذا وقد انبرى بعض الباحثين البريطانيين بعد مضى ستين عاما على هـذه الثورة يبرىء السلطان الشيخ من كل ما نسب إليه ، ويدلل على أن الشركة هى التى ثارت قانونا على السلطان وليس هو عليها .

الإ تنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنيـــة ، حتى كانت منتجـــاتها تنقلهـــا فى كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة ، معظمها بريطانية ، لتبيعها بريطانيا فى أسواقها بخمسة أضعاف أثمانها أو يزيد ، فلا يعود من هـــذا الربح الوفير على أصحابه الأصليين ، سوى القليل ، وهم الذين دُفع بجماهيرهم ليزرعوا الأرض لسادتهم على كفاف من العيش .

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعا ، حتى حرّموا على أهلها دهرا طويلا مجالستهم أو مطاعمتهم أو مزاملتهم فى سفر أو سمر .

قيام دولة پاكستان :

نفى البريطانيون بهادرشاه الثانى ، آخر السلاطين البابريين ، من الهند بوصفه الزعيم الروحى لأهلها من المسلمين الذين رفضوا فى الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصر زعماؤهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى أعلن اللورد ألنبرو حاكم الهند البريطانى ، فى صراحة تامة ، أن العنصر الإسلامى فى الهند هو عدو بريطانيا الأصيل وأن السياسة البريطانية فى الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليهـا لتستعين بهم فى القضاء على الخطر الذى يتهدد

بريطانيا فى هذه البلاد (١) .

وعلى هـذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من أبنـاء الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها ، فأقصوهم إقصاءاً شاملا عن كل وظائف الدولة التى كانوا يشغلون عدداً كبيراً منهـا ، وجهدوا فى تقويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية . ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة فى الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبداً إلى المناصب الكبرى التى كانت جميعها ، فى السلكين المدنى والعسكرى ، وقفا على المستعمرين .

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعى ، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند ، صارت أغلب الأراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكا لجباة الضرائب من الهنادكة .

١ — بلغ من عداء هذا الحاكم البريطانى للمسلمين أنه أمر بنزع بعض بوابات رآها بغزنه حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنها أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب مصلى الهنادكة ، هذا أوائل القرن الخامس الهجرى . وحين حمل أنبرو هذه البوابات إلى الهند ، تقربا منه إلى الهنادكة وتذكيرا لهم بعدوة المسلمين ، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هى من صنع سبكتكين أبى محمود الذى لم يتخط حدود الهند فى غزواته . Dunbar 489. 90

وانقلاب زراعها الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى أُجَراء عندهم

ولم يكتف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامى بالهند ويُظهرون سلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة . ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين : لينجلى ذلك ، كله فيما بعد ، عن مذابح رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حينا طويلا من الدهر عن مناوءة الحكم البريطانى بالهند .

بعث اضطهاد البريطانيين المسلمين فى الهند شعوراً قويا فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم ، حتى نهض السيد أحمد خان ، فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، يفصح عن هذا الشعور إفصاحا عمليا ، فرسم لقومه المنهج الذى يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم : فنبههم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعنى التزام العزلة والتخلف عن المشاركة فى ركب الحياة الهندية ، وأن الاطلاع على المدنية الحديثة وعلومها واقتباس الصالح منها واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التفقه فى أمور دينهم

والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده (١) . ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بتبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم ، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم . إذ كانوا قد أبعدوهم إبعاداً شاملا عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلقون أبواب الرزق فى وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا — ويقيم لهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧ م

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بموالاة المستعمرين والمروق من الدين ، فشمر عن ساعد الجد فى حزم وعزم وانطلق يعمم إصلاحاته فى أغلب نواحى الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاغتراف من علوم الغرب . وراح فى مجلته « تهذيب الأخلاق » ينقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التى أدت إلى زوال مجدهم القديم ، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها . ودال من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة

---

١ — كان مما احتج به فى هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا فى دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة ، فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعلومه بل هو واجب عليهم : حاضر العالم الإسلامى إول ٢٧١ — ٢٧٢ .

الأوردوية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند؛ وصلاحيتها التامة لمسايرة المدنية الحديثة. وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليكر، بشمال الهند، التي تحولت من بعد ذلك إلى جامعة عقب عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥ م، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنبا إلى جنب على أرقى منهج جامعي إذ ذاك(١)

بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من نبغاء المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده (٢)، واتسع المجال لنقل فيض من المؤلفات الأوروبية النافعة إلى الأوردوية، فضلا عن إحياء التراث الإسلامي الهندي.

ولئن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامي وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين فى المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم؛ حتى لا تطغى طائفة الاغلبية على طائفة الأقلية فى هذه البلاد التى تعد فيها العقائد أساس حياتها السياسية والإجتماعية: وجهر بأن المسلمين والهنادكه أمتان مختلفتان تمام الإختلاف فى العقيدة

---

١ — Dunbar 556-90

٢ — من أمثال هؤلاء السيد أمير على وخدابخش ومحمد إقبال ومحمد على وأخوه شوكت على. وفيهم من أخرج للناس باللغات الاوربية كتبا قيمة عرفهم فيها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفا بينا.

والتقاليد وكل شيء ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعده ما غدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين ، التى فرضها رائدهم من قبل . قد استوفت أجلها ، وأن واجب المسلمين غدا يفرض عليهم أن ينتزعوا حقوقهم من أيدى المستعمرين وكل من يقف فى سبيلهم ، حتى أفصح المفكر الملهم محمد إقبال ؛ وهو من أبناء جامعة عليگر ، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند ؛ ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذى تقوم عليه دولة پاكستان اليوم فى الغالب .

ولم تكن معارضة الهنادكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين فى الهند إلا لخوفهم ، فيما ظنوا فى الغالب ، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة ، فى حين كان البريطانيون يرون مبدئيا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الإستعمار المعروفة « فرِّق تَسُد » .

وما لبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد على جنه ؛ ومن ورائه الرابطة الإسلامية ، إلى تحقيق قيام دولة لهم ، بعد أن أصروا على رفض جميع عروض المؤتمر الهندى ، الذى كان يتزعمه غاندى ، ودستور ١٩٣٥ ، حتى لا تضيع حقوق

أقليتهم الكبيرة فى تيار الغالبية الهندوكية ، وحتى لا يكون لأحد وصاية عليهم(١) . فأعلنوا مولد پاكستان فى ٤ أغسطس ١٩٤٧ على حدود لا ترضيهم فى الغالب ، قبلوها ليضعوا بذلك حداً المذابح الكثيرة التى سقط فيهـا من المسلمين أكثر مما سقط من الهنادكة . وهى تضم كراچى ، مركز حكومتها ، وإقليم بشاور والحـدود ، والسند والپنجاب فى الغرب ، وأغاب البنغال فى الشرق .

وبپاكستان (٢) اليوم قرابة ستين مليونا من المسلمين يعيش إلى جانبهم عشرون مليونا من أصحاب المذاهب الهندية الأخرى . ولا يزال ما ينوف على أربعين مليونا من المسلمين يعيشون فى الجمهورية الهندية .

---

١ — Mo:e'and 493 - 501

٢ — پاكستان هى الأرض الطهور . واسمها جاع الحروف الأولى من أسماء المقاطعات التى تتكون منها هذه الدولة .

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون ، منذ فجر الاسلام ، على الإفادة من حضارة الفرس واليونان بعد أن اطّلعوا عليها ، فلما دخلوا الهند وتوغلوا فى أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزدهرة ، اشتاقوا كذلك إلى التعرّف على ما عند الهنود من ثقافة ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها فى بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين القديمة ومدنيتهم حضارة ثالثة ، اشتملت على عناصر هاتين الحضارتين ، هى ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التى بدت فى أكمل صورها فى عهد الدولة المغولية التى أقامها السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه ، فظلت تحكم هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون فى أشخاصهم كثيراً من الصفات المتناقضة التى ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمور لنك ، فكان فيهم وحشية وتسامح ، وجبروت وحِلْم . كانوا يقيمون

من هامات المقهورين على هيئة الأهرامات والمنائر ،ولا يجدون في ذلك حرجاً ، ثم يشيـــدون ، إلى جانب أكداس القتلى ، منشآت الحضارة والمدنية ويبالغون فى حبهم وبذلهم للآداب والعلوم والفنون والمشتغلين بها ؛ بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم . وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم فى بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك .

وأدى التسامح الذى اشتهر به سلاطين الدولة المغولية (١) ، إلى العمل على تقريب سكان الهنـــد إليهم فى الغالب ، حتى أصهروا إليهم ، وتبعهم رجالهم فى ذلك ، وفتحوا لهم أبواب المناصب فى الدولة . فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند حتى كانت غالبية المائة مليون مسلم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة .

وإذا كان بابر مؤسس هـــذه الدولة لم يطل به الأجل بعد

---

١ — يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الدينى، فمارس الأهلون فى عهدهم طقوسهم الدينية بحرية تامة فى الغالب .
Havell 426 – Prasad 286,7

إقراره للأمور فى الهندستان ، وإذا كان ابنه هما يون قد امضى عمره فى صراع متواصل من أجل عرشه ، فإن جلال الدين أكبر ثالث السلاطين - هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنادى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة - وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة ، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لا تزال تنمت شعبه وأذاعت شهرته، وقلده فيها الذين حكموا من بعده .

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها فى الدولة ، من عسكرية ومدنية ودينية، فى قبضة السلطان، على الرسم الغالب فى تلك العصور ، وفى البلاد الاسلامية على الخصوص ، وكان هواه هو دستوره وتشريعه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة ، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها فى الهند، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان إستقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما أتيحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار ، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب ، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء، ويهبهم من أراضي الدولة التي هي جميعها بداهة ملكه ، حين يشاء وبقدر ما يشاء، ويستردها كذلك على مشيئته .

هذا ؛ وكانت أراضي الدولة على ضربين ، منها ما يُقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم في حروب الدولة ، ويدفعوا نصيبا آخر معلوما من المال كذلك إلى بيت المال في كل عام ، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوي يؤدونه . وكان هؤلاء جميعا ذوي سلطان مطلق على الأهلين بمناطقهم في الغالب .

وعدّل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له ،على النظام الذي بيّناه في موضعه سالفاً ، وأنشأ جيشا قويا مدربا يتبعه رأسا وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزانتها (١) . ونهج خلفاؤه نهجه في الغالب حتى جاء أورنگزيب عالمگير فرجع إلى النظام الأول .

---

١ — انظر ذلك كله بالتفصيل في الفصل الخاص بأكبر

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين (١) بالوقوف السريع على كل ما يجرى فى مختلف أنحاء بلادهم الواسعة ، إلى تنظيم شئون البريد تنظيما محكما ، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون . وأقاموا على هذه الطرق منازل كثيرة لنزول الناس والدواب ، وأباحوها جميعا للمسلمين والهنادكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنييه ، الذى ساح بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى ، وصرح بأنها كانت خيراً من طرق فرنسا وإيطاليا إذ ذاك وأكثر أمنا (٢).

وعنى هؤلاء السلاطين جميعا كذلك بإقامة العدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم، وألزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة ، وراقبوا سلوك عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب ، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو أموالهم .

---

١ — السوريون هم آل شير شاه وأولاده .

٢ — حضارات الهند ٤٢٨

المجتمع : إن مؤرّخى الهند عامة لم يعنوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم ، وما يتصل بذلك من حياة الولاة والقواد وأعمالهم ، فلم يلتفتوا ، إلا ّفى النادر ، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية فى شيء من التفصيل يُذكر ، أللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك ، مؤرخ أكبر ووزيره، الذى تعد تدويناته من المصادر المهمة التى وصلتنا فى هذا الباب ، هى وما كتبه فريق من الأوربيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد فى العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولى فى الهند كان، كما قلنا من قبل ، مجتمعا إقطاعيا خالصا رأسه السلطان الذى كان يضفى فى العادة على بلاطه من ضروب الأبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها ، ففى بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها ، ومنه تشع علامات المدنية وتنبثق آلاء الثقافة ، وفيه تروج أنواع المعارف ، وعنده وفى كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

ـ ومن بعده يأتى الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم فى الغالب فى البذخ والترف والإسراف ، حتى كانت

قصورهم تزدحم بالجوارى والغلمان وتتخم بشكل طريف أو فريد من الأثاث والمتاع ، وتفيض موائدهم بأطايب الطعام ، وإلى جانبها أكداس من الفاكهة المنوعة النادرة المستوردة من بخارى وسمرقند ، والأنبذة والأشربة الفاخرة التى لم يلتفت إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريماً جديا بالهند إلا أورنگزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم وأملاكهم بعد موتهم ، على العادة الغالبة إذ ذاك ، أو حتى وهم على قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاة إلى الإيقاع بهم عنده ، كان ذلك يدفعهم فى الغالب إلى إنفاق أموالهم فى مثل هذه الوجوه فى إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون ، ولا سيما فى المناطق البعيدة عن العاصمة ، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكامهم حين تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون فى الغالب عيشة تتراوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات الدنيا وأصحاب الحرف الدنيئة ، ومعهم خدم الأمراء والحكام وأجراؤهم ، فكانوا فى شظف من العيش والذل مقيم ، لا ينالون

إلاّ وجبات إغذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة، حتى كادت الأمانة تنعـــدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمَـقِـهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين المحدثين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها فى العصور الحديثة (١) .

وكانت طبقات الشعب هذه ، ومعها الزراع وأُجراء الأرض، هم أتعس الناس حظا وأشدهم بؤساً حين تجتاح الهندَ المجاعاتُ بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأقوات وانتشار الأوبئة الفتاكة .

وقد التفت أكبر ، وأولاده من بعـده فى الغالب ، إلتفاتا جديا إلى العناية بأمر هـذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند حدوث المجاعات والقحط (٢) .

الصناعات : كذلك كان أكبر هـــو أول من عنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بهـا ، فكان عنده ،كما يروى مؤرخه أبو الفضل ، مائة مصنع للنسيج والأسلحة والصباغة ،كل واحد منها كالمدينة فى اتساعه(٣) . ومنها ما كان يُعـدّ للسلطان فى كل عام

١ — Muslim Rule. 673

٢ — Eb. 546

٣ — آيين أكبرى ـ آيين ٩

ألف حُلّة ليخلع أغلبها على رجاله .

وكانت أهم مراكز الصناعة المغولية هى فى لاهور وآگرا وفتحپور وأحمدآباد ودكا . وكثير منها كان من المنسوجات الفاخرة والسجاد يصدر إلى الخارج .

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل، وتقايض عليه فى موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التى اقتضتها حياة البذخ والإسراف التى كان يحياها حكامها ، والتى كان من مساوئها دخول الطباق إلى هذه البلاد فى مستهل القرن السابع عشر الميلادى لتزرعه فى أرضها من بعد ذلك .

العمارة : أدى كلف البابريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن التفتوا إلى تعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفا بالغا ، حتى ظهر فى عهدهم طراز معمارى، هو مزيج من فنون المسلمين فى الغالب وبعض الفنون الهندوكية ، فشاع فى العالم باسم الطراز المغولى ، ويتميز بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والميناء والخزف، والأقواس الحادة ، والأبواب الفخمة التى تعلوها نصف قبة .

لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً وأظهر امتعاضة من عمارتها . ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة

فى هـــذه البلاد من إقامته لكثير من المنشآت على الطراز التيمورى الذى عرفه فى موطنه الأول ببلاد ماوراء النهر وصادفه فى مواضع كثيرة بخراسان وكابل ، حتى ليذكر فى سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين فى بناء قصوره ، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعمـــلون فى منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بآگرا وبيانه ودهولپور وگواليار [1] . ولم يبق من منشآته الكثيرة هـــذه إلا مسجد كابل باغ فى پانى پت والمسجد الجامع فى سنبهل ، ليجىء من بعده حفيده أكبر فيزين الهندستان بعدة منشآت فخمة جاءت عمارتها آية فى الإعجاز الفنى . وقد بقى منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره فى فتحپور سِيكَرِى ثم بُلند دروازه (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكارا لفتوحاته الدكنية والتى تعد بارتفاعها الذى يبلغ ١٧٦ قدما وحنيّتها مثالا لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع ، الذى حاكى به فى تصميمه البيت الحرام ، ثم حصن آگرا الذى استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

ومما يذكر فى هـــذا الصدد أن أكبر لم يغفل فى عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصا منه على تيسير الحياة لشعبه .

---

١ — بابر نامه ٢٩١ ب

وما أذاع صيت العمارة المغولية فى الخافقين هو « تاج محل » ذلك المثوى البديع الذى شيدّه شاهجهان لزوجته ، أرجُمند بانو ممتاز محل ، فقام مثالاً على الروعة فى البناء وفى الوفاء ، حتى رجّح بعض المؤرخين ، خطأ ، استعانة شاهجهان فى إقامته بالفنانين الإيطاليين ، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان معمارى العثمانيين ، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء ، الذى يُعد بحق من روائع الفن المعمارى المعدودة ، هو فى تصميمه وتنفيذه إسلامى خالص .

ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلى الجديدة ، التى عُرفت فى عهده باسم شاهجهانآباد ، والتى خططها على أحسن نمط فى عصره وأقام بها عدة قصور فخمة له ولأمرائه ، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقّاشين وغيرهم ، كلّ فريق منهم بمحلته ، ليبهروا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورُواء مدينتهم أنظار الأوربيين الذين زاروها إذ ذاك (١) .

ونالت آ گرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى أشاد الرحالة الألمانى مندلسلو بنظافة طرقها الممهدة وجمال

---

١ — Lane-Poole 367-72

أبنيتها وإتساع رقعتها ، وأحصى بهـــا إذ ذاك سبعين مسجداً وثمانمائة حماما (١) .

وبموت شاهجهان ، وارتقاء ابنـــه الصوفى أورنكزيب عالمكير العرش من بعده وضعف خلفائه ، فتر اهتمام الدولة بالتعمير والبنـاء .

وقلد الأمراء المسلمون ، فى مختلف الإمارات الهندية ، طراز العمارة المغولية ، فظهرت أمثلة منهـا رائعة فى بيجاپور وغولكونده وأحمدنكر وبرار وبيدار وتخطتها إلى نيپال، بسفوح الهمـــلايا ، التى لم يدخلها المسلمون ، فضلا عن إمارة ڤيايا نـكر بأقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعيا أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به ، وأخذت مدرسته عندهم طابعها المغولى الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون باباً خاصا بها وتحدثوا فى أسفار كاملة عنها (٢) .

---

١ — Lane-Poole 333. 5

٢ — L. Binyon. The Court Painters of the Grand Moghul. Exford 1921.

فهذا جدّهم أكبر قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التى كانت فى حوزة الاسرة التيمورية ، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقرا ، الذى يصفه عمداء الفنانين بأنه رفائيل الشرق (٢) ، كما استصحب همايون معه فى عودته من المنفى إلى الهند النقاشيْن المشهوريْن سيد على تبريزى وخواجه عبد الصمد ، ليجىء ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبدو له ، طريقته الخاصة للإقرار بوحدانية الخالق المبدع ، فهو حين يصوّر الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لا بُد وأن ينصرف بذهنه إلى التفكر فى إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضاً للنقوش فى كل أسبوع ويجيز المجيدين من أصحابها تشجيعا لهم ، بل إنه ليستهوى نوابغ النقّاشين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا إليه ، كما يمد تشجيعه وعنايته إلى فنانى الهنادكة ويحضهم على التعمق فى تفهم

---

١ — لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتأثر فى نقوشه بمذهب الصوفية الفارسية ، فهو بذلك من مدرسة الرمزية .

فنونهم القديمة ودراستها ، فكان من نوابغهم بيلاطه د سوَنت وبساوت وسنوَل وتراشندُو حكنات ، إلى جانب عبد الصمد ومير سيد على وفرُّخ بگ ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع چنگيز نامه. وظفر نامه ، وراز نامه ، وهى جميعاً من مؤلفات المسلمين ؛ ثم المهابهارتا والراماينا .ملحمتى الهنادكة اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب هندوكيـــة أخرى إلى الفارسية ، فزُينت كلها بنقوش تصور حوادثها (١) . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوربية التى كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض نماذج منهـــا .

وورث جهانگير عن أبيه كثيراً من أحاسيسه الفنية حتى كان فى مقدوره أن يتعرف فى يسر على مقومات كل فنان وخصائصه حتى حين شارك غيره ، فى نقش واحد (٢) .

وبلغ الفنانون والنقاشون فى عهد أورنگزيب بفن الخط وزخارف الكتب مرتبة الأعجـــاز الفنى الرائع ، وساهم السلطان نفسه معهم بنصيب ملحوظ فى نسخه للقرآن الكريم فى

---

١ — بداونى ثان ٣٢٠ ، ٣٣٦

٢ — واقعات جهانگيرى ٣٥٩ ، ٣٠

إبداع مشهـــور .

وتخلـّف عن فنانى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيراً من مظاهر الحياة فى البلاط وفى المجتمع الهندى، بل وفى البيئة الهندية كلها بأشجارها وأزهارها وطيورها وفيولها ، تجدها اليوم هى وزخارفهم قد ازدانت بها متاحف العالم الـكبرى :

حدائق المغول : يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال ، وحبهم للطبيعة ومباهجها ، فى حدائقهم التى أقاموها فى مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوروبيون فى إيطاليا وبلاد الإنجليز، على الخصوص، يحتذون نمطها ويزينوا بها كثيراً من مدنهم.

فهذا بابر نراه فى مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها . حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة ، انتقدها انتقاداً شديداً لسوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى فى جداولها بين الخمائل « فأين هى من مغانى فرغانه وكابل » . وما غدا أن أنشأ بالهندستان عـــدداً من البساتين والمنتزهات ما حاكى بها رياض مواطنه ، فـكان من بينها جارباغ الـكابلى بظاهر آگرا الذى جعله على نمط نظيره بـكابل وجلب إليه كثيراً من النباتات والأشجـــار التى لم تـكن

الهند تعرفهامن قبل (١) .

وورث عنه حفيده شاهجهان شغفة بالنباتات والحـــدائق والأشجار وكلفه بدراستها تفصيلا (٢) . كما استهوت مغانى كشمير ، بفتنتها، الأمراء البابريين جميعا فكانوا يسارعون إليها فى كل صيف طلبا للانتجاع والمتعة، حتى أقاموا على غرارها بلاهور : قصبة البنغال، شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها فى التبت بأشجارها وجداولها وشلا ّلاتها ومدرجاتها .

ومازال الشعراء حتى اليوم يتغنون فى الفارسية والأوردوية بمفاتن هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى . هذا ؛ والمطلع على موسيقى الهنداليوم لا يستطيع أن يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التى عملت فيها ، سواء فى ناحية الأصوات أو ناحية الآلات

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد بالعزف والغناء ، باستثناء أورنگزيب عالمگير الذى سرح الموسيقيين والشعراء من بلاطه . فهذا بابر قد روى عنه تأليفه لبعض الأصوات ، فى حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية

١ ــ بابرنامه ٣٨٠ ب

٢ ــ واقعات جهانگيرى ٣٠٤ ، ٣٣٨ ؛ ٣٤٨ ، ٣٧٠

بلاطه فى يومَى الإثنين والأربعاء من كل أسبوع : أما أكبر فقد استقدم إلى بلاطه مشاهير الموسيقيين رجالا ونساء . من كشمير وإيران . ولا يزال مثوى مطربه ميان تانس بگواليار مزاراً يقصده موسيقيوا الهند حتى اليوم .

وفى إقبالنامه جهانگيرى ، لمعتمد خان ، تفصيل لنشاط الموسيقيين ببلاط جهانگير ، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألّف فيها أصواتا كثيرة .

وفى عهد الدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية، مثل الرباب والسرود والدلرُبى والطاووس ، وجميعها فارسية الأصل (١) ، كما أُلّف ، كثير من الأسفار فى هذا الفن تزخر بها مكتبة فيضى بآگرا اليوم ، ولايزال إلى وقتنا هـــذا الألحان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية لم يبدُ سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب ، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيمة . فمن ذلك السيرة الفذة التى أنشأها

---

١ ـــ Legacy of India p 299

بابر عن نفسه فافصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية . وتمكنه التام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته گُلْبَدَنْ بيگم ، همايونامه التى تعد مرجعا وثيقا فى تاريخ ثانى سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولى ، أشهرهن زيب النسا ابنة عالمگير التى كانت تقرض الشعر باللسانين العربى والفارسى فى رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفى » .

هذا؛ وكان همايون يحرص فى أسفاره على إلاّ تفارقه مكتبته الخاصة ، وكان يميل بخاصة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية . ولم يكن جوهر صاحب تذكرة الواقعات إلاّ تابعاً من أتباعه ومقدم شرابه [1] .

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجا منقطع النظير عند أكبر ، أعظم ملك عرفته الهند ، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بداونى المجلد الثالث من كتابه، منتخب التواريخ ، على ذكر رجالها والمشتغلين بها فى عهده . فكان من أعلامهم ملا داود صاحب تاريخ ألفى وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبرنامه

---

١ — كان لبابر كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعى عبد الله كتابدار .

آيينِ أكبرى — والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها ، فى حين يتحدث فى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها — ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقاتِ أكبرى ، ومحمد عبد الباقى صاحب مآثِرِ رحيمى ، ومحمدقاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته. وأغلب هذه الكتب قد نشرتها المطابع ونُقل بعضها إلى لغات كثيرة ، وجميعها قد صُنف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ومركزٌ ممتازٌ بالهند أيام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة، حتى أقبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير بإجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل، حتى ودّ لو كان هو المقتول مكانه، فنوابغ العلماء — على حدقوله — لايجود بهم الزمان إلاّ فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

ولأكبر يدين الهنادكة ببعث آدابهم السنسكريتية وإحيائها من جديد ، وظهور طبقة ممتازة من كتَّابهم وشعرائهم . وبفضل نظرته المتسامحة وتشجيعه أقبل فريق من المسلمين أنفسهم على

الاشتغال بتلك الآداب ، حتى نظم الشعر بالسنسكريتية الوزيرُ عبد الرحيم خانخانان الذى نقل بابرنامه من الجغتائية إلى الفارسية على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفى عهد جهانگير كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه جهانگيرى ، وكامگرخان مآثر جهانگيرى ، والشيخ نور الحق زبدة التواريخ ، كما أُلف فى عهـــد شاهجهان ، بادشاهنامه ، لعبد الحميد لاهورى ثم لأمين قزوينى ، وشاهجهاننامه لعنايت خان وعملِ صالح لمحمد صالح .

هذا ؛ كما كتب داراشكوه بن شاهجهان بعض كتب فى التصوف المقارن مثل « مجمع البحرين » ، وترجم لجمهور من أهل التصوف فى كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالاطلاع على فلسفة الهند القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى الفارسية قدراً من كتبها مثل اليوپانيشاد وبهجقادجيـــتا ويوجا ما شيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنگزيب وجدنا عنده من المؤرخين محمد هاشم المعروف بخافى خان صاحب منتخب اللباب وسخن راى ختري صاحب خلاصة التواريخ ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمگير ومحمد كاظم صاحب عالمگير نامه . وأشهر ما كُتب فى عهد

عهد السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية التي عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه، وبذل لهم فى سخاء، فأجملوا فيها الفقه الحنفى كله إجمالا شاملا. ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طُبعت فى القاهرة ونُشرت، وذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها، وما أصابها من انحلال وضعف فى ذلك القرن. ويُعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى اعتمد عليها المصلحون فى السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر.

اللغة الأوردوية: كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابهما، تطور اللغة الأوردوية، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً، والتى تُعد مزيجا من لغات الحاكمين والمحكومين، أى من الفارسية أساسا، وماتسرب إليها من ألفاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات المحلية الهندية(١).

١ — اللهجات الهندية هى فى الغالب خليط من اللغات الدراورية والآرية بما فيها السنسكريتية. وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وقفا على أبناء الطبقات الهندية العليا منذ أن وضع «منو» المتم نظام الطبقات فعزلت نفسها بذلك فى الغالب عن عامة الناس.

فلقد بدأت ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها ، كما غدت ألفاظ وعبارات هندية بدورها تجرى على لسان المسلمين فى الهند ، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكنا بيِّناً ظهرت أمثلته عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشعر بالفارسية والبهاشا ، لهجة دهلى ، على الأوزان السنسكريتية ، فى القرن الرابع عشر الميلادى .

حتى إذا ما أخذ الهنادكة يُقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللودهيين طمعا فى الالتحاق بالدواوين ، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى المناصب ويعنون بالنهضة بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء ، ازداد تقرب اللغتين من بعضهما واختلاطهما ، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة فى عهد شاهجهان فى القرن السابع عشر الميلادى ، وقد بدا عليها معالم النضج والاستقلال واضحة ، وقد عُرفت باسم « زبان أردو » أى لغة سوق المعسكر ، بدهلى ، حيث كان لها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية ، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه

البلاد — بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جـــروا على مناهضتهم - حتى تزعموا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدهم فى منتصف القرن التاسع عشر — فبذلوا جهوداً كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها.وطبعوا اكتبها ، حتى عمت الهند على حداثة عهدها وازدهرت آدابها . ولاتزال للمطارحات الشعريةالأوردوية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم .

وكانت الأوردوية هى لسان الزعماء المسلمين من أمثـــال السيد أحمدخان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للنهضة بالمسلمين فى الهند والدفاع عن حقوقهم بازاء عـــداء البريطانيين المرير لهم .

وعالج بها نفر من كتاب المسلمين والهنادكة كثيراً من الموضوعات الحديثةوالقديمةفبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحيتها كل الصلاحية فى العصور الحديثة (١) . وهى اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولا بجمهورية الهند .

كان من أثر الإســـلام البالغ بالهند ، فضلا ، عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعا ، أن برز طائفة من المصلحين الهنادكة ينادون بإنكار عبادة الأوثان

---

١ — Legacy of India pp 293-5

من دون الله الواحد القهار [1]، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى، وأباحوا زواج الأرامل وسمحوا لغير الهنود باعتناق دينهم.

ولم تكن دعوات نانك صاحب ديانة السّك، وكبير صاحب مذهب بهكتى، ورام موهن صاحب « برهما سماج » وتعظيمهم جميعا للأنبياء والمرسلين إلا صدى لتعاليم الإسلام الذى كان بالهند ديناً وحكما ومدنية.

---

١ — ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلا بالتوحيد فى الغالب (البيرونى : ذكر ما للهند من مقولة . . . ص ١٣) وإن لم يبدو عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند المسلمين، حتى انحرف بها سدنتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى.

ملحق بالكتاب عن :

الترك والمغول

سلاطين الدولة المغولية. الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة. فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها فى تاريخها ، تمتزج فى عروقهم دماء الترك والمغول . فأبوهم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتهى نسبُه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركى تيمورلنك ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم چنگيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية ، وكان لهما شأن خطير ودور هام فى تاريخ آسيا الوسطى بعامة ، وبلاد الشرق الإسلامى بخاصة ، مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم فى قدر من الإجمال .

فكم من مُدن إسلامية زاهرة انتهبها برابرة الترك والمغول ثم دمروها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها ذبحاً ؛ ثم لم يتركوها حتى سوّوا أبنيتها بالأرض ، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم فى الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الحِرَف الذين

كانوا يسوقونهم معهم من بعد ذلك للعمل عندهم .

على أن هؤلاء المخربين، حين دخلوا فى دين الله أفواجاً وتمكن اتصالهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا فى الغالب إلى حماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب . فكنت تراهم فى الغالب يكدسون هامات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة . ويبذلون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التى خربها أجدادهم من قبل، نهضة ثقافية وحضارية فذة [١] .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التى تمتد من الصين شرقاً إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط غربا ، والتى تبلغ غايتها من الإرتفاع فى منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التى تعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هى فى تشعبها وتفريعاتها : كانت تعد بحق ، فى القديم ، حاجزاً بين الشعوب

---

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٥ — ٩٨

المتحضرة والقبائل التى لا تزال بآسيا على البداوة فى الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلاّ وكان له فى التاريخ دور هام وفى الحضارة والثقافة نتاج قوى وسهم كبير . ولدينا فى الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيد وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلاً عليها .

وفى حين كانت الأراضى الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما ورائها شمالا - باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وماحول نهرى سيحون وجيحون - ما تزال تتجول فى أغلب مناطقها مجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطعان الأنعام ، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، ودستورها العرف القَبَلى البُدائى المتوارث .

وعَرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء بإسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم بلاد التتار .

وظل لفظ التتار يُطلق على كافة القبائل التى تجاور الصين وتقطن الأقاليم الممتدة فى أواسط آسيا إلى الجنوب الشرقى من أوربا حتى ظهور چنگيز خان فى القرن الثانى عشر

الميلادى (١) . وبرغم اشتهار أمر المغول من بعد چنكيز خان ، فقد ظل صيت التتار القديم غالبا ، وصـــار اسمهم ساريا على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر (٢) .

هذا ؛ وقد سلك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشماليـــة فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى أو المنشوى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى (٣) ، ثم العرق التركى .

أما المنشور يوّن فهم أغاب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ، ثم مواطن الأتراك الذين يجـــاورون الصينيين فى بعض المناطق .

---

١ — التتار عند الصينيين هم الغرباء والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدينة واللصوص . أنظر : هارولد لامب : جنـكيز خان ص ٢٤ .
ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ رشيدى لـكاتبها H . Elias p 83

٢ — تاريخ الـكامل لابن الأثير مجـلد ١٢ — المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء . م ٣ ، ٤

هذا ولعل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدىء أمرهم على بداوة وتأخر تام ، إنما هو من إطلاق التجار المسلمين نقلا عن جيرانهم من الصينيين والاتراك .

٣ — نقصد بالعرق هنا الجنس . هذا ؛ والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول ، واللفظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

وإلى الجنسين الأخيرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل الترك :

جاء إسم الترك صراحة ، أول مرة ، فى نقوش أورخون التى إكتشفها الأثريون فى منتصف القرن الماضى،والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن الميلادى . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك كان فى القرن السادس الميلادى يمتد بين حدود الصين وحدود إيران وبيزنطة ، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة كلها [1] .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم العريقة فى المدنية إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم إليهم ، وناهيك بما أتاحه هـذا الجوار من تسجيل للكثير من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم الأولى ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو » كانت تجاور بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا

---

١ — ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك أن هؤلاء الأتراك هم أحفاد الهون.

Barthold-Donskies : Hist. des Turcs d'Asie centrale. pp 6,16

ما أشتد خطرها وتفاقم عداؤها ، عمدت أسرة تِسن الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فولوا وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا فى ولاية كانسوه إلى جوارتل على هيئة الخوذة ، وهى « دوركاى » بالصينية ، نسبوا إليها (١) .

وتم لهذه القبائل التركية فى القرن الثانى قبل الميلاد، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء فى أواسط آسيا (٢) ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهر تانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما كانت مضارب القرغيز فى منطقة ينى سى، ومنازل القُرلق والتوكوى فى الـتاى ؛ والياقوت عند الجنوب من سيبريا ؛ فى حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاش وعند سيحون وجيحون حتى بحر الخزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلا عن ترامى رقعتها ، كان يتخللها

---

١ — هذه التسمية التى أوردها باركر (Engl. Hist Rev. 1898 p 431-45) يجب أن تقابل بالحذر هى وما جاء من أشارات للترك عند هيرودوت ، وما ذكره الأستاذ باوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة توره الواردة فى الأبستاق القديمة JRAS 1915 p 305-8

٢ — Czaplicka, M. The Turks of Central Asia p 61 .

صحراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبه بالواحات فى مواقعها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها فى نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التى ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تُزرع أومدن تقوم فى هذه النواحى .

ويُستثنى من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التى تُعرف أيضا باسم بخارى الكبرى . فهى برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد يسّرت لها طبيعة أرضها ، وما بها من بحار المياه عديدة ، مقوماتِ الحضر ، فازدهرت فى الغالب ما أفلح حكامُها فى ضبط أمورها ورد غائلة كل عدوان خارجى عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التى تُعد باب آسيا الوسطى والجنوبية . نفذ الأتراك والمغول إلى العالم المتحضّر وأفلحوا فى إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

وقبائل « هونج نو » هذه التى تشتهر أيضا باسم الهون ، تدفقت موجاتها مرات عدة على بلاد ماوراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب ، واكتسحت ولايات الأمبراطورية الرومانية ، وأنزلت ، بقيادة أتيلا ، هزات

عنيفة بأوروبا كما هو معروف مشهور [1] .

ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم ، وهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها فى العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك فى القرن الثامن الميلادى ، فحكموا فى أواسط آسيا ومنغوليا الحالية مكان الترك أوغوز ، الغز ، الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غربا ، ليتألق نجمهم فى القرن الرابع الهجرى الموافق للحادى عشر الميلادى ، فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً من مُلك السامانيين ببلاد ماوراء النهر ، ويُعرفون فى التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أزقند إلى الشرق من فرغانه .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبچاق الترك تمتد حتى الفولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية .

وغزا القرغيز عام ٨٤٠م منازل الأويغور الذى آثروا

١ — يرجح بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا فى زحفهم أتراكا خلصاً إذ كان معهم كثير من المغول Degiugnes. Hist. Gen. des Huns Vol 1 p 212 ولعل المؤلف يقيس فى هذا على ما كان فى جيوش جنكيز وأبنائه من الأتراك .

الهجرة إلى حوض التاريم والواحات القريبة منه على معاشرة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة (١) .

واتجه القره ختاى ، وهم مغول فى الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى من منازلهم بالصين الشمالية وصحراء جوبى ، فأقتحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم ختان وهزموا خان قشغر القره خانى والسلطان سنجر السلجوقى ، وصالحوا أتسز شاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها اليهم فى كل عام (٢) ، وبلغوا بلخ بعد أن بسطوا سلطانهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

والئن أدى زحف القره ختاى إلى فتح أبواب منغوليا للهجرات من المغول ، فقد لبثت القبائل التركية . وغالبيتها من الأويغور والغز وبطونهما ، هى صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر .

والأويغور هم أغلب الأتراك الذين وجدهم الغزاة

---

١ — Gnousset, R. L'Empire Mongol. p 11

٢ — جرى القره ختاى أو الكورخانيون فى تقدير الجزية وفق النظم الصينية . فرضوا على كل بناء دينارا واحدا . Barthold-Donskies p 98

المسلمون من العرب ببلاد ماوراء النهر حين دخلوها أواخر القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الاويغـور كانو أرقى قبائل الترك قاطبة . وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ؛ واستقرت حياتهم فى كثير من المدن التى أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقـــدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتقـــاء الوعى القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم فى تقليد الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور فى الغالب حضارة الصُغد على حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسى ، وأستخدموا أبجدية تُرَد إلى أصول صُغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية فى النسب ، وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمن طويل (١) .

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى

---

١ — Czaplicka p 24

انتشاراً واسعاً(١) بعـــد سقوط دولتهم (٢) ؛ إذ لبثوا ، برغم أفول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد ، دورا سياسيا وثقافيا كبيراً عند دول الترك والمغول . فقاموا على تنشئة أولاد جنكيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم ، وأرّخوا لهم كما أرّخوا لتيمور لنـك من بعد .

واستخدم خوانين فارس من المغول ، الأويغورية فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها إلى بابا روما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لغرض قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين (٣) .

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينـــة ڤينّا نماذج من هذه الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تُعد الأساس الذى قامت عليه

---

١ — فى بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطلعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكان الصينيون كذلك يستخدمونه منذ زمن طويل .

٢ — Grousset. R. Hist de l'extreme Orient. T11 p 407

٣ — Czapiicka p z7

الجغتائية لغة الترك التقليدية (١) .

هذا ؛وكانت الديانات السائدة فى الأوساط التركية ، قبـــل اعتناقهم الإسلام ، هى الشامانية التى تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإلـه العظيم ، ولـكنهالا تؤدى له الصلوات، وإنما تقوم بهاالآلهة الشـرّ اتقاءً لخطرها، ثم البوذية الهندية والزرادشتية الفارسية التى كان لها نفوذ راجح ببلاد الصّغد فى الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجرى ، وكان الاسلام قد اكتسح مراكز الزرادشتية ببلاد فارس

وطفقت قوافل التجارّ المسلمين تتوغل فى مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقا وحوض الفولجا غربا ، فكان هؤلاء التجـــار من أنشط الوسطاء فى نشر تعاليم الدين الإسلامى.

وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلجأوا عموما إلى العنف لحمل الناس على الدخول فى ملـتّهم ، كما كانوا يـكفلون لغيرهم فى الغالب ممارسة عقائدهم فى حرية تامة كذلك ، حتى رأينـــا

---

١ ـــ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ١٠٠ ، ١٠١ ـــ ولا تزال هذه اللغة قائمة كذلك فى التركستان الروسية .

المعتصم العباسى يتشدد فى عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معابد للفرس ببلاد الصُّغد (١) .

ولئن غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منذ أيام قُتَيْبة ابن مُسلم أواخر القرن الأول الهجرى ، فإن إسلام الترك الجماعى لم يبدأ فى صورة واضحة إلا أيام السامانيين فى القرن الرابع الهجرى ؛ فأسلم خان قشغر ، ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هٰرون بن سليمان ، ودخل معه فى دين الله أهل بلاده (٢) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خُطان .

كذلك اعتنق السلاجقة - وهم من غُز الخزر - الإسلام فى القرن الرابع الهجرى . وكانوا يُشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمه وحدبهم على نصرة أهل السنّة . وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز ، ونفــذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقضوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها (٣) .

---

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٨٦

٢ — تاريخ رشيدى ص ٢٨٦

٣ — الأتراك العثمانيون هم كذلك من الغز « الأوغوز » ، والتغزغز هم أيضا من الغز « توقوز أوغوز = قبائل الغز التسع » . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الاويغور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعا من الترك .

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جموع الأتراك عند بحر آرال وما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التى صار لها شأن كبير فى القرنين الخامس والسادس الهجرى . وروّج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة المهمة التى تصل مابين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة . وكان الخوارزميون يعقدون آمالا كثيرة لمد نفوذهم حتى حـــدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبچاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم فى القرن الخامس الهجرى ، لولا ظهور چنگيزخان

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدى شيوخ الفرس المسلمين فى الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وماغدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحمت قصور حكامهم بشعرائها وكتّابها ، وكادت العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلاّ عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسُّنّة .

المغـــول فى مواطنهم :

فيما كانت العنـــاصر التركية توثق من علاقاتهـــا

وصلاتهـــا بالعالم الإسلامى لتبلغ من بعـــد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها متسعة الرقعة عظيمة الثراء ، كانت قبائل المغول ، عند كريولين وخنجان وفى مناطق الأنون وتولا عما يلى أطراف الصين غربا ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، فى مجموعات من الخيام الحقيرة المتناثرة بين السهول والغابات ، لا يدرى العالم المتحضر من أمرها شيئا مذكوراً حتى ظهور چنگيز خان فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التى كانت تعرفها باسم منغ وا / ومنغكوتاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين ، التى كانت تحكم بالصين الشماليـــة فى القرن الثانى عشر الميلادى ، أن يستعين بهم وبالقره ختاى فى القضاء على بعض أعدائه من القبائل التى كانت تنزل حول بحيرة بُوير نور .

وعلا شأن فتى من المغول يدعى تيموجين فى هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عليها ، فلُقب بچنگيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفـــة للبطل المغولى الأسطورى قُتلُق خان الذى كان يُمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يُكسر عودٌ من قصب ، والذى كان يبيت فى العراء

صيف شتاء، لا يأبه بالزمهرير ولا يخشى الثلوج، حتى كانت لفحات اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضة(١) .

واعتز خلفاء جنكيز ورهطه بهذه التسمية ، التى كانت فى أول أمرها من صنع جيرانهم (٢) حتى رأينا رجال البلاط ، المغولى يحذرون الرحالة الأوروبى جون ربرك ، حين زار بلادهم فى منتصف القرن الثالث عشر، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان الأكبر بأنه تترى؛ بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول .

ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادى

---

١ — Howorth, H. History of the Mongols 1 p 44

٢ — Barthold, W. Turkestau p 382.

٣ — برغم التفات فريق من كتاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأتراك — حتى قبل ظهور دراسات الأجناس — فوصفوا الأولين بالقبح وتغنوا بجمال الآخرين ، فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار فى البيئة فعدوهم عرقا واحداً . وساعد على هذا الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد الترك على كافة المناطق التى تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء النهر ، والصين .

وبرغم تقرير مؤرخي الأتراك المحدثين بالتفرقة بين العنصرين ، فان دعاة التورانية من العثمانيين فى القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأتراك والمغول جنس واحد ينتهي إلى الأصل التورانى ، فيتغنون بمدائح جنكيز ولا ينكرون من أعماله شيئا ، فما خربه ودمره هو عندهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير : «تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامى م ١ ص ١٥٩»

حتى انطوت قبائل المغول ، والأتراك ، فى صحراء جوبى ، تحت راية الخان الجديد ليتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سى هاى ، فى إقليم كانسو ، وأسرة كين ، فى الصين الشمالية ويدخل بكين ، ثم يستدير من هناك ليبلغ منغوليا ، فكان أرسلان خان ، أمير القرلق هناك أولَ حاكم مسلم يستسلم له .

وما غدا أن أقبل عليه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا يخطبون ودّه ، وفيهم نفر من القبچاق ، حلفاء شاه خوارزم وأصهاره ، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغولى ، فيما بعد ، على فتح كثير من البلاد الاسلامية وتنظيم شئونها .

وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على اترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها ، وكانوا جميعا من المسلمين ، ظنا منه أنهم من عيون الخان المغولى ، لتنطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول [1] بلاد ما وراء النهر كلها ويخربوا جُرجان وبخارى وسمرقند أعظم مدنها تخريباً تاماً ويفنون

---

١ — كانت قوات المغول تضم جنداً كثيراً من الترك . بل إن كثيرا من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغول واختلط بهم ، كانوا يدعون نسبتهم للمغول جرياً للمغانم .

D'Ohsson. Hist des Mongols T, 1 pp 428,9

حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداعهم ، ثم يسوقوا الأهلين أمامهم قسراً ليكونوا لهم من سهام أعدائهم دِرءا .

ولم يوافِ چنكيز خان أجله عام ١٢٢٧م حتى كان له إلى جانب خوارزم وبلاد ما وراء النهر ، خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة فى الجنوب الروسى ، لينطلق أبناؤه من بعده فيتوغلوا فى كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القارة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الأدرياتى وأبواب ڤينا ، ويفر من أمامهم ملوك بولنده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسيا ودوق سيليزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاى بن چنكيز خان المغول الأعظم فى قراقورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الاسلامى التى صادفتهم ، إذ قضوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفكرى كله . الذى قام على رعايته الخلفاء وزاد فى كنوزه الصفوة من العلماء جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما

بعد ، فأنزلوا بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم [1] .

وإذ كان توچى خان ، الإبن الأكبر لچنكيز ، قد مات فى حياة أبيه ، فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التى كان يتولاها عند سهول القبچاق والأقاليم الواقعة فيما بين بحرى آرال والخزر ، وعند وادى الدون والبحر الأسود ، هذا فى حين عقد لأوكتاى ، أصغر أبناء چنكيز ، زعامة المغول فى قراقورم .

أما چغتاى ، ثانى الأبناء ، فقد صار له بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهى مناطق يتباين سكانها فى أجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ، كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء وبجوارها مراعٍ وسهولٌ فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة وقامت بها حضارات .

وكان چغتاى يُعد فى حياة أبيه أقدر فقيه فى الياصا [2] ، حتى منعه

---

١ — عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — كان يقود المصريين سلطانهم المظفر قطز . ويعلق المؤرخ أبو الفدا على هذا الوقعة « م ٣ ص ٢٠٥ » فيقول « . . . وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه » .

٢ — أصلها دزا صاق ، فذكرها الفرس والعرب « ياصا » ترخيما . وهى =

قومه من المشاركة فى الحروب بعد وفاة خانهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم ؛ عهدوا إليه كذلك برآسه مجلس الأمراء المغولى لتثبيت أوكتاى أصغر أبناء چنكيز على مقام أبيه وزعامته فى قراقورم .

واتخذ الأمير چغتاى من المالِق فى الوادى الأعلى لنهر إللى قصبة لملكه دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلاده ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ؛ وكان رجالها بدورهم يفضلون حياة السهول والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناسا منحلّة وعبيداً للأرض .

واُطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعا ، على بلاده وعلى أهلها ، فعُرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد چغتاى ، وعُرف الأتراك فيها بخاصة ، وكانوا غالبية كبيرة بها ، باسم الأتراك الچغتائيين .

= دستور المغول الذى دونه له الايغور أصحاب ديوانه . وهى مزيج من القوانين الموضوعة على إرادة جنكيز وأنفع العادات القبلية ؛ ومما تدعو إليه : الاعتقاد بالله واحد والطاعة التامة للخان الأعظم :

تاريخ جهان كشا لعطا ملك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

وبرغم بقاء جغتاى على دين آبائه وكراهية قومه عموما المسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبُنيت فى عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ماوراء النهر وغيرها كذلك (١) .

ووافت جغتاى وأخاه أوغتاى المنيـّة عام ١٢٤١ م وابن أخيهما ، باتوخان ، يتوغل إذ ذاك فى أوربا مع نفر من أبنائهم ، ليتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلا حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامى وأوروبا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاكو بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخريب المغولية من جديد . فعبر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمّر بغداد حاضرة الخلافة العباسـية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسى نفسه شر قتلة ، ولولا

---

١ — كان المغول فى الغالب على الشامانيه والبوذية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم من المسلمين فى فتوحاتهم فأسلم فريق كبير منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو بركه خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك فى القرن السابع الهجرى ، وتبعه أحمد تكودرى الإيلخانى حفيد هولاكو بفارس ، حتى جاء غازان خان وأخوه أجايتو محمد خدابنده فاتخذا الإسلام دينا رسميا لدولتهما . أما الجغتائيون فلم يبدأ إسلامهم الجماعي إلا فى القرن الثامن الهجرى .

توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٩ وما بعدها : بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٨٩ وما بعدها

عند المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور، لقُضى على تراث المسلمين كله وخُرّبت ديارهم جميعا فى الغالب .

وبموت هولاگو بدأ نجم المغول فى الأفول التام . وأتاحت الاضطرابات ، التى غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من الأقاليم لتنسلخ عن سلطانهم .

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر ، وكانوا غالبية كبيرة ، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمرائهم من الچغتائيين يجرى على هواهم .

ولم يعد للأمراء المغول، من بيت چغتاى،من النفوذ والسلطان إلاّ فى قشغر ويرقند وآلا طاغ ومغولستان،وبقى خوانينهم يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبگ أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمورلنگ وخلفاؤه :

كان ظهور تيمور لنگ ببلاد ما وراء النهر فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى بداية تحوّل جديد فى تاريخ آسيا الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدى المغول الچنگيزيين إلى أيدى الأتراك الچغتائيين ، حتى انتهى الحال بحفيد هذا الخان التركى،ظهير الدين محمد بابر،إلى بسط سلطانه على الهندستان .

وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك، على ما بيّناه، حتى أظلّت رايتهم شبه القارة الهندية كلّها.

ولقد وصل تيمور فى شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن استوزره الأمير الچغتائى إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمر قند إذ ذاك، فما غدا الوزير أن انقلب على أميره؛ حتى اتخذ مكانه على عرش سمرقند عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م، بعد أن استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربى من بلاد چغتاى، وإن ترك لأمراء المغول به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمارة (١).

وتملكته شهـــوة الفتوح، فضم إلى مملكته مغولستان وخوارزم، كما أقتحم حدود الهند فبلغ دهلى التى أستعصت على المغول من قبل، فلم يرجع عنها حتى دمّرها وساق معه كثيراً من أهلها أسارى؛ وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقيموا له منشآته ببـــلاده.

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد الكرج والشام؛ ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع فى أسره بايزيد

١ — ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المغول هو من وضـــع بعض كتاب الايغور الذين ذهبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين، أرادوا بذلك أن يضفوا على تيمور عراقة النسب تقربا منه وتملقا.

D'Ohsson : Hist. d. Mongol. T. 11 108,9

سلطان العثمانيين (١) . وإن هى الا بضع سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والگنج .

هذا ؛ وكان تيمور، على جهله بالقراءة والكتابة، حفيّا وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

وما غدت هـــذه المدينة ، التى تأنّق الخاقان التركى فى تجميلها بمنشآته الكثيرة الفخمة ، والتى شق إليها طرقا برية جديدة تصلها بفارس والهند ، أن انقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الإتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى ، تُعرض بها صنوف السلع وتعج بمختلف الأجناس .

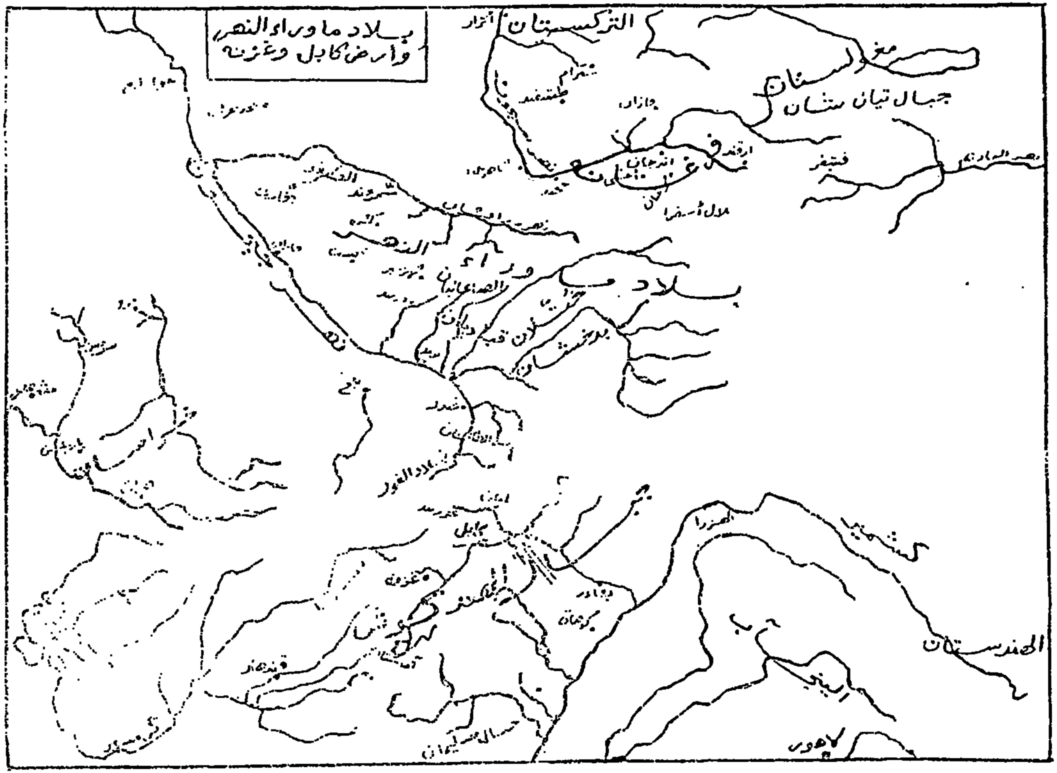
ومات تيمور عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م فى إحدى حروبه مع جيوش الصين عند اترار ؛ فاقتسم ملكه من بعده ولداه جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه . حتى إذا ما قتل الأوزبگ (٢) ثانى الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بلاده ؛ طفق

---

١ ـــ تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حمل غريمه فى قفص ، وهو خطأ تاريخى نتج عن سوء فهم بعض الكتاب لمدلول هـذا اللفظ فى التركية ، فهو يطلق أيضا على الهوادج والأكشاك التى لها نوافذ تتخللها أسياخ من حديد .

Hammer : Hist de l'Empire Ottoman T. 11 p 96-121

٢ ـــ الأوزبگ نسبة إلى أوزبگ خان حفيد جنكيز من فرع توشى خان .


بلاد ما وراء النهر
وأرض كابل وغزنة
التركستان
مغولستان
جبال تيان شان
بلاد ما وراء النهر
فرغانة
كابل
غزنة
كشمير
الهندستان
لاهور
جبال سليمان
الهندمند
بلاد الغور

الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعد خطرهم عنه ، ليعيد أغلب بلاد أبيه إلى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس(١).

وخلف اُلغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠ هـ/١٤٤٦ م ، فدخل فى منازعات وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليُقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عند ألغ بك ملكته الحربية فقد تلألأ عنده نور المعرفة ، حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرستيه الجامعتين فى سمرقند و بخارى ، التى كتب على أبوابهما « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة (٢) » .

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلبتها ، فكان يشاركهم فى الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب فى مرصده الكبير الذى أقامه بسمرقند . وقد نُظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لهذا العلم فى وقته .

---

١ — تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال ص ٢٣٢ — ٢٤١ .

٢ — ا — تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٨ — ١٠٩

ب — Barthold-Donskies . p 181 - 3 .

وبرغم اعتزاز هـذا الأمير بتركيته فقد كان شديد التعلق بكل مايُرجى فيه رقىّ الإنسانية والفكر البشرى عامة .

وجلس على عرش سمرقند من بعده الأمير التيمورى أبو سعيد ميرزا ، بعون من الأوزبك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكا واسعا ضم أجزاء من السند وخراسان وسيستان وامتدّ إلى العراق . حتى إذا ماهزم التركمان فاقتحم أذربيجان . لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركمان أن يتسلل إلى جبال آذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتتفشى المجاعة فى الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد الجند وينتهى الأمر بالسلطان أبى سعيد نفسه إلى الوقوع فى الأسر ، ثم القتل .

وترك أبو سعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه فى ملكه الواسع ، الذى كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولى أحمد ميرزا إقليم سمرقند وبخارى ، وولى اُلغ بك إقليم كابل وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد وهرات ، ليغتصبهما منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا . فيستقر من بعـــد ذلك فى الصاغانيان وبدخشان(١) .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى وُلى إمارة

....

١ — تاريخ فرشته أول ١٩١

فرغانه ، فأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول أصهارِه والأتراك إخوتِه ،في حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة ملكه ، ليمضى عام ٨٩٩ ﻫ ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ، فيحمل عبء خصوماته من بعــده ابنه الصبى ظهير الدين محمد بابر الذى قُيض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية فى تاريخها .

البيئة فى بلاد ما وراء النهر .

فى بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن آبائه صبيا وقضى بها سنين غير قصيرة فى كفـاح متواصل قبل أن يولى وجهه قِبَل المشرق : لينتهى به المطاف والسعى من بعـد ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية فى الهند .

وعن طريق هـذا الاقليم ، أعنى أرض سيحون وجيحون ، نفــذ الأتراك والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيّروا وجه التاريخ بها فى الغالب .

تتوسط جبـــال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية العظمى ، هذا الإقليم فيقع إلى الجنوب منها وادى جيحون وإلى الشمال منها وادى سيحون

وأهم أقاليم جيحون الجنوبية هي بدخشان وبلخ وخوارزم .

وتعد بلخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتعرف عاصمتها ، التي تحمل اسم الاقليم كذلك ، عند مؤرخي العرب باسم « أمّ البلاد » ، وبظاهرها كان يقوم معبد النوبهار الذي اضطلع آل برمك بالخدمة فيه (١) .

هذا ؛ كما تشتهر خوارزم بقيام أسرة حاكمة قوية لعبت دوراً مهما فى تاريخ هذه المنطقة فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، وهى الأسرة الخوارزمية .

أما بدخشان فهى مفتاح الطريق إلى الهند .

والقسم الشمالى من وادى جيحون جبلى فى الغالب تكسو قمته الثلوج شهوراً عدّة فى السنة . وبه أقاليم خُتّلان وحصار ، الذى يعرف أيضا باسم چغانيان أو الصاغانيان . ثم ولاية كش مسقط رأس تيمور .

وإلى الشمال من كِش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقع وادى الصغد المعروف بخصب أراضيه ووفرة مغانيه . وتقوم به المدينتان المشهورتان سمرقند وبخارى .

وسمرقند هى التى اتخذ منها تيمور وأولاده حاضرة

---

١ — فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٨/٤٩

لملكهم ، وبها عرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لهم ، وبنى بها مُسلم بن قُتَيْبة، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

وتُعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية فى القديم على كل حال .

والأقاليم التى تقع فى حوض سيحون هى فى أهميتها دون سابقتها بكثير .

وأهم هـــذه الأقاليم ولاية فرغانة التى تعرف أيضا باسم خُجَند ، وإلى الشرق منها تقع قشغر ، كما تقع طشقند عنـــد حدودها الشمالية الغربية ، فى حين ينحصر إقليم أشروسنة بين فرغانة والصاغانيان .

هـذا ؛ وكانت أرض التركستان تمتـد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بين سيرام رافد سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبگ ، أيام زعيمهم شيبانى خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم .

وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجـــدنا الخصب يتوفر فى أغلب فرغانة وخوارزم وبلخ

وبدخشان وكش والصاغانيان (١) . وفيما عدا ذلك فقد كان الجدب يغلب على أرضه .

لذلك كانت الحياة هناك فى الغالب متنقلة منحطة حيث الجدب والصحراء ، مستقرة راقية حيث الخصب والنماء الذى يمهد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هذا الإقليم ، فيما يرجح كثير من المؤرخين ، عناصر تركية من السيث والتورانيين الذين كانوا مصدر تهديد دائم لبلاد فارس (٢) . وظلت موجاتهم لا تنحسر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آسيا فى القرون السابقة للميلاد حتى الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى

ولم يمنع وفود السيث والهون بلاد فارس من مدّ نفوذها فى هذا الإقليم حتى اتخذ بعض ملوكها من مدينة بلخ قصبة لهم ، ونزح إليه كثير من الفرس فمارسوا الزراعة بوديانه الخصبة ، كما لاذ به جمهرة من سراتهم حين اقتحم العرب المسلمون بلادهم عليهم

---

١ — معجم البلدان لياقوت الحموى سابع ص ٣٧٠ — ٣٧٢

٢ — مما يحتج به بعض الباحثين فى ذلك هو شيوع لفظ « قند » فى أسماء المدن هناك كسمرقند وأزقند وطشقند الخ ، وهو تركى قديم بمعنى مدينة .

Barthold. Turkestan pp 96,97.

فى القرن الأول الهجرى .

وما غدا العرب أن طووا أغلب هذه البلاد تحت رايتهم بعد قليل ، فإذا بفريق من أبنائهـــا من فرس وترك يصيبوا بالدولة الإسلامية حظا وافراً فيبلغوا أرقى المناصب بها (١) .

ولم تكتف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظم نفوذهم فى الدولة الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة فى أجزاء من هـــذا الإقليم ، حتى راحت تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالآداب الفارسية من جديد .

وكان السامانيون ، الذين عمرت دولتهم فى القرنين الثالث والرابع الهجرى ، هم أصحاب اليد الطولى فى هذا الميدان ، ليأتى سلاطين الترك ، من بعدهم ، من الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فيسيرون على نهجهم فى العناية بالثقافة الفارسية ويزيدون عليه(٢)، فلم يمض إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ماوراء النهر ، لتتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهندستان كذلك

---

١ — كانت بلخ من أكثر الأقاليم القديمة مساهمة فى بناء الحضارة الإسلامية ، ومنها خرج البرامكة ، ووزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الكبار . تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٣.

٢ — المصدر السابق ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٥

وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثانى لغات العالم الإسلامى انتشاراً بعد العربية .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية ببلاد ما وراء النهر ، تصدى شيوخ الفرس فى الغالب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامى ومبادئه ؛ فكانوا يلقنونهم إياها بالعربية ويحببون إليهم آدابهم الفارسية معها .

وطغى نفوذ الترك على سلطان الفرس بأغلب بلاد ما وراء النهر؛ حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبيل مجىء المغول فى الغالب .

واستقر قسم من القبائل المغولية الوافدة مع چنكيز خان ببلاد ماوراء النهر جنبا إلى جنب مع القبائل التركية التى كانت ـ خصوصاً فى الشمال وأكثر الوسط ـ تمثل الغالبية الفعلية للسكان .

وكان من الطبيعى أن تتأثر القلة المغولية الحاكمة ، لبداوتها ، بالكثرة التركية المحكومة ، التى كانت تعيش فى محيط الحضارة والمدنية الاسلامية وتتجاوب معها (١) ، فأخذت عنها لغتها وامتزجت بها ، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويُدَعَّم كيانهم السياسى .

---

١ — Ameer Ali : The Spirit of Islam pp 382,3

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية فى نظر الترك مما هو فى نظر المغول أنفسهم ؛ فلم يقف الأمر عند حد تفوق الترك الثقافى حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد الحكم فى هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم .

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التى كانت تسكن بلاد چغتاى ، خضوعها جميعا لحكومة واحدة .

وتسرب إلى هذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية ودرجت فى مدراج الرقى ، حتى إذا ما جاء القرن السابع الهجرى رأينا التركية الچغتائية تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بأواسط آسيا . وما تزال هذه اللغة تُسمع إلى اليوم فى المدن التى تقع فى نطاق چغتاى القديمة .

هذا ؛ وتعد أيام الأمراء التيموريين ببلاد ماوراء النهر بمثابة العصر الذهبى للأدب الچغتائى الذى تتمثل أحسن نماذجه فى أشعار على شيرنوائى ومنثورات ظهير الدين بابر حتى اتُعد الكتابة التقليدية الأدبية للترك جميعا (١) .

---

١ — تاريخ الحضارة ص ١٠٢ — ١٠٦ ، ١١١

كانت الحياة بهذه البلاد تميل فى الغالب إلى الاستقرار وتنعم بمظاهر الحضارة والمدنية ما خضع الاقليم كله لحاكم واحد قوى يُقَرِّرُ الأمور فيه ويدفع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنگ ، آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم يكد يمضى حتى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض كلها ، لينتهى بها الأمر إلى تمزيقها إلى ولايات عديدة ، أصحابها متقاتلون متعادون على الدوام ، برغم ما كان يربط بينهم من وشائج القربى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبك والمغول والتركمان يتربصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف أراضيهم .

ونتج عن تمزيق الاقليم إلى ولايات عدة وما يستتبع ذلك عادة من ضآلة عدد السكان بالتالى ، أن غدت قوات كل أمير لا تعدو أن تكون مجموعات من العصابات الإقطاعية التى تعتمد فى انتصاراتها على عنصرى المفاجأة وسرعة الحركة ، فتوقع بعدوها قبل أن يمتنع فى حصونه .

وغالباً ما كانت الهدنة تُعقد بين الخصمين بنفس السرعة التى اشتعلت بها نيران الحرب .

وفنون الحرب بهذه البلاد كان معظمها بدائيا يقوم على

المبـارزة بالسيوف والتراشق بالسهام ، وتسلق الأسوار بسلالم الحبال .

ولم يكن البارود والـغـامـه غريباً عليهم . فقد كانوا يستخدمونه أيام السلم فى مناجم الياقوت ومواطن العقيق ببدخشان .

وبرغم استخدام بعض الأمراء لعدد قليل من بنادق العصر ذات الزناد وبعض المدافع ، التى عرفوها عن طريق الفرس نقلا عن العثمانيين فى الغالب ، فقــد بقيت السيوف والسهام وهجمات الفرسان هى الفيصل فى المعارك .

هذا ؛ ولم يغفل أحـد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز جيش كبير ، عن إحياء تشكيلات تيمور الحربية وتقاليده العسكرية فى تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فِرَقٍ للمناوشة بأقصى الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعـا فكان الفقه الإسلامى ، دون إغفال أمر العرف القبلى المتوارث وتقاليد الياصا المغولية .

وبرغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم والتحاماتهم المتواصلة فى الحروب ، فمما يسترعى الانتباه أنهم لم

يتخلوا أبداً عن العناية بالآداب والعلوم والفنون والاشتغال بها ، فحرصوا دواما على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية . وكان من أبرزهم فى هذا الميدان وأعلاهم كعبا ، بعد أُلغ بك ، السلطان حسين بيقرا الذى جمع ببلاطه فى خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة فى عصره، وبهذا الأمير خُتمت صفحة كبار التيموريين ببلاد ما وراء النهر بعد ما كان من إرغام الأوزبك لبابر على الخروج من هذه الديار .

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

١ — إقبالنامه جهانگيرى : لمعتمد خان . كلكتا ١٨٦٥ م

٢ — أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه باتفصيلِ أحوالِ پدرش همايون ، لأبى الفضل بن المبارك — مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨ م تاريخ فارسى .

٣ — انتخاباتِ جهانگيرى — غير معروف مؤلفه . (مجموعة إليوت ٦)

٤ — آيينِ أكبرى لأبى الفضل بن المبارك . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠ تاريخ فارسى

٥ — بابر نامه (بالتركية الچغتائية) — نشر السيدة : ت بڤريدج . ليدن ١٩٠٥

الترجمة الفارسية لعبد الرحيم خان خانان — نشرها محمد شيرازى . بمباى ١٣٠٨ ه

٦ — پادشاهنامه ـ لعبد الحميد لاهورى . (مجموعة اليوت ٧)

٧ — تاريخ أحمدشاهى، غير معروف مؤلفه (مجموعة اليوت ٨)

٨ — تاريخ ألفى ، لأحمد داود . (مجموعة اليوت ٥)

٩ — تاريخ جهانگشاى ، لعلاء الدين عطا ملك الجوينى

٣٠ م ـ ليدن ١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧ .

١٠ — تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر .

تأليف غياث الدين بن همام الدين الحسينى

المعروف بخواندمير ٤ م. (طهران ١٣٧٣ ﻫ)

١١ — تاريخ رشيدى ، لميرزا محمد حيدر دوغلات .

الترجمة الإنجليزية لسير دنيسون روس مع

تعليقات له . لندن ١٨٩٨ م

١٢ — تاريخ سلاطين أفغانى لأحمد ياد گر. (مجموعة اليوت ٥)

١٣ — تاريخ شير شاه لعباس خان سروانى (« « ٤)

١٤ — تاريخ عالمگير ثان ، غير معروف مؤلفه .

(« « ٨)

١٥ — تاريخ عمومى إيران لعباس إقبال . طهران

١٦ — تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه ، جزءان فى مجلد.

لكنو ١٣٢٣ ﻫ

١٧ — تاريخ گجرات لشاه أبى تراب ولى. كلكتا ١٠٩٩ م

١٨ — تاريخِ مظفرى ، لمحمد على خان . (مجموعة اليوت ٨)

١٩ — تاريخِ هندى ، لرستم على . (« «)

٢٠ — تتمةِ واقعات،جهانگيرى لمحمدهادى.(« « ٦)

٢١ — تذكرةِ آنندرام مخلص . (« « ٨)

٢٢ — تذكرة الواقعات أوهمايو ننامة: لجوهر(« « ٥)

٢٣ — تكملةِ أكبر نامه ، لعناية الله . (« « ٦)

٢٤ — رياضُ السلاطين : أو تاريخ بنغالة .

تأليف غلام حسين سليم . كلكتا ١٨٩٠ ، ١٨٩٨ .

٢٥ — سيرُ المتأخرين لغلام حسين خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢٦ — شاهجها ننامه . لعناية الله . (« « ٧)

٢٧ - طبقات أكبرى ، لنظام الدين أحمد بخشى .

(« « ٥)

٢٨ ظفرنامه ، لنظام الدين شامى . بيروت ١٩٣٧

٢٩ — عالمگير نامه ، لمنشى محمد كاظم بن محمد أمين .

كلكتا ١٦٦٨ م

٣٠ — عبر تنامه . لمحمد قاسم . (مجموعة اليوت ٧)

٣١ - عملِ صالح : لمحمد صالح لاهوري . كلكتا ١٩١٢ م
٣٢ - فرحةُ الناظرين : لمحمد إسلام . (مجموعة اليوت ٨)
٣٣ - مآثرُ الأمراء لشاه نواز خان - ٤ م. كلكتا ١٨٨٠ - ١٨٩٦
٣٤ - مآثر عالمگيري لمحمد ساقي مستعد خان كلكتا ١٨٧١ م
٣٥ - مرآةِ سكندرى لاسكندر بن محمد .
(مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢ تاريخ فارسى)
٣٦ - منتخب التواريخ ، لعبد القادر بن ملوك شاه بداونى - ٣ م
كلكتا ١٨٦٨ م
٣٧ - منتخب اللباب لخافى خان (مجموعة اليوت ٧)
٣٨ - واقعاتِ جهانگيرى ، سيرة جهانگير (« « ٦)
٣٩ - وقايعى (حالات) لأسعد قزوينى (« « ٦)

مراجع عربية : (مساعدة)

١ - اختلال التوازن العالمى ، لغوستاف لوبون ،
ترجمة صلاح الدين وصفى . القاهرة ١٩٢٨ م
٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة
حمزة طاهر . القاهرة ١٩٣٣ م
٣ - تاريخ الكامل ، لابن الأثير - ١٢ ج . القاهرة ١٣٠٢ هـ

٤ — چنگيز خان . لهارولد لامب ، ترجمة بهاء الدين نورى . بغـــداد ١٩٤٦

٥ — حاضر العالم الإسلامى ، تأليف لوترب ، تعريب عجاج نويهض . (انظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان عليه) ٤ م القاهرة ١٣٥٢ هـ

٦ — حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٨

٧ — الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين القاهرة ١٩٤٧

٨ — ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ، لأبى الريحان البيرونى (نشر زاخاو) لندن ١٨٨٧ م

٩ — فتوح البلدان ، للبلاذرى ليدن ١٨٦٦ م

١٠ — المختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء القاهرة ١٣٥٢ هـ

١١ — معجم البلدان ، لياقوت الحموى ٨ م القاهرة ١٩٠٦ م

١٢ — الهند وجيرانها ، لول ديورانت ، ترجمة زكى نجيب محمود القاهرة ١٩٥٠

مراجع أوروبية :

1 — Ameer Ali. The Spirit of Islam. London 1923
2 — Barthold W. Histoire des Turs d'Asie Centrale. Adapt. Fr. par Mme Donskies. Paris 1945
3 — Barthold. Turkestan London 1928
4 — Binyon. Laurence. The Court Painters of the Grand Moghul. Oxford 1921
5 — Cambridge History of India. 5 Vols. Cambr. 1922 - 29
6 — Czaplika. M. A. The Turks of Central Asia. Oxford 1918
7 — Degwgnes, J. Histoire génèral des Huns, des Turcs, des Mongols etc ... 5 Vols. Paris 1756-58.
8 — D'Ohsson, Baron C. Histoire des Mongols. Amesterdam 1852.
9 — Duff, Grant. Hist of the Mahrattas. 2 Vols. 1921.
10 — Dunbar, G. A. History of India from the Earliest Times to the Present Day. London 1936

11 — Elliot H M. & Dowson, John. The History of India as told by its own Historians. The Mohamadan Period. 5 Vols London 1867-77

12 — Cunningham J. D. Hist. of the Sikhs. 1916

13 — The English History Review ;1898.

14 — Gait, Edward. Hist of Assam Calcutta 1920

15 — Garratt. G. T. The Legacy of India Oxford 1938

16 — Garret Ed. Mughal Rule in India 1930

17 — Grenard Fer. Baber Paris 1930

18 — Grousset, R. L'Empire Mongol. « 1941

19 — Grousset, R. Hist. de l'Extrême Orient. 2 Vols. Paris 1929

20 — Hammer, J. D. Histoire de l'Empire Ottoman. 18 Vols. Paris 1830

21 — Havell, E. B. The History of Aryan Rule in India. London

22 — Howorth, H. History of the Mongols. 3 Vols. London 1846

23 — The Indian Moslems by an Indian. Mohamedan. London 1928

24 — Ishwari Prasad. A short History of Muslim Rule in India. Allahabad 1933

25 — Islamic Culture Review (1928)

26 — Lane-Poole, St. Medieval India under Mohmmedan Rule. London 1917

27 — Moreland, W. H. & Chatterjee. A short History of India. London 1936

28 — Sarkar. Hist. of Aurengzib. 2 Vols Calcutta 1912-24

29 — Sarkar. , Shivaji and his times. Calcutta 1919.

30 — Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India and Ceylon. Oxford 1930

31 — Sirdar Ikbal Ali Shah. Afghanistan. London 1928

32 — Spear, P. Twilight of the Mughuls. Cambridge 9151

33 — Vambery, A. A History of Bokhara London. 1873

فهرس أبجدى عام

ب

---

١ — لا يوجد فى هـذا البحث (ب ١٢) الباء المثلثة أو الجيم المثلثة أو الـكاف الفارسية .

ث

ج

ف

ڤ

ق

ن